

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_232786

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب

التربية الاسر

أو

أميلك الفن التاسع عشر

(مؤلفه)

41190

لفونس سكروين

« وترجمه بالعربية عن الفرنسية »

لاعب ولدك سبعا وأدبه
سبعا وصاحبه سبعا ثم اجعل
الحبل على غاربه
(حكيم عربي)

عبد العزيز محمد

القاضي في المحاكم الاهلية بمصر

« طبع على نفقته ونفقة ناشره »

السيد محمد بشيرك رضا

منشئ مجلته

« وحقوق الطبع محفوظة لهما »

(الطبعة الثانية بمطبعة المنار بشارع مصر القديمة بمصر سنة ١٣٣١ هـ ١٢٩١ هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين *

فله الحمد والشكر والثناء الحسن ، وعلى نبيه ورسوله الصلاة والسلام . والرحمة والبركات لمن تزكوا بالتربية العالية ، وتعلموا الكتاب والحكمة السامية ، فكان لكل منهم نصيبه من السعادة في نفسه ، والسيادة في أبناء جنسه ، ومنهم من أعدته هذه التزكية للسعادة الآجلة ، كما أعطته السيادة العاجلة ، (١٧ : ٢٠ كلاً) عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ٢١ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

فبالتربية والتعليم سعادة الدنيا ، وبهما سعادة الحياة الأخرى ، والأمور بمقاصدها للانسان استعداد لا يعرف له حد ولا نهاية ، ولا تظهر ثمرات استعداده الا بالتعاون ، ولا يكون التعاون إلا بالعيشة الاجتماعية ، وشؤون الاجتماع لا ترتقي إلا بالنظام ، وإنما يقوم النظام بالحكام ، والحكام عرضة للبغي والاثرة لا يصددهم عنهما الا سيطرة الامم عليهم ، والالاهة لاتصلح للسيطرة على حكامها إلا اذا كان أفرادها أحراراً في أنفسهم ، مستقايين في أفعالهم وارادتهم ، فالحرية والاستقلال هما القدمان اللتان يسير بهما الانسان الى منازل الكمال ،

لا يصل الانسان الى الكمال في شيء من مقاصد الحياة الا بالسير التدريجي على سنن الفطرة . والسير بطيء وسريع ، فمنه الهدجان والدليف ، والدألان والوجيف ، (١) بل منه القهقري ، والرجوع إلى الورا ، فاذا هو أرشد الى الغاية

(١) الهدجان (بالتحريك) مشية المثقل والدليف مشية الشيخ رويداً ومقاربتة الخطو . والدألان مشية النشيط والوجيف السير السريع

في البداية ، وأمد بما يوافق الفطرة من ضروب الهداية ، يكون أبعد عن التخبط في سيره ، والضلال في طريقه ، وأقرب وصولاً إلى المقاصد ، بالسفر القاصد ، ولكن مضت سنة الأولين بما أبان لنا أن الانسان لا يرتقي في المقاصد الاجتماعية الا بتوزيع الاعمال ، ونوط كل عمل بطائفة من الناس ، يصرفون همهم اليه ، ويعولون في معاشهم عليه ، ومن هذه الاعمال حفظ الامن وحماية النظام ، ومنها الارشاد والتعليم ، والتربية والتأديب ، - وأن الصنفين القائمين بهذين العاملين - ولهما القيامة على سائر الاصناف - قد يسيئون التصرف ، ويتبعون الهوى ، فيعشون بالحرية والاستقلال ، فيحولون دون ما توجه اليه الناس من الكمال ، - وأن الاول منهم (وهو صنف الحكام) كثيراً ما يعم في الاستبداد ، ويغلو في الاستعباد ، حتى يفسد على الناس ما ارتقى به الاجتماع قبله ، ويخرب ما أقامه من معالم العمران من سلفه ، وقد يستعين بصنف المعلمين والمربين ، على إفساد النفوس والافكار من الناشئين ، بتنشئتهم على الخنوع للمستبدين ، وتقليد الميتين ، فيرجع قومه القهقري ، ويسيروا في اجتماعهم الى الورا ، حتى تكون البداوة خيراً من مدينتهم ، لانها على إققرارها من نتائج العقول في الفنون والصناعات ، تكون عامرة باستقلال الفكر والارادة وحرية التصرف ، وما يتبع ذلك من عزة النفس ، والتحلي بكثير من الفضائل ، التي هي من طبيعة الفطرة ، ولوازم تلك المعيشة

فالكمال الاجتماعي الذي يطلب بالمدينة عرضة لتقائص يجلبها للبشر استبداد الوازع من الامراء والسلاطين ، وفساد القوام على التربية والتعليم ، وسوء اختيار الافراد الذين يعيشون في كنف السلطة والحكم ، وينامون على مهاد الراحة والترف ، فتفسد فطرتهم ، وتهمي عزيمتهم ، ويرضون أن يكونوا عالة على غيرهم ، وعبيداً للقوام عليهم ، بما فقدوا من الحرية والاستقلال ، بل يقول الحكيم ابن خلدون ان التأديب والتعليم الصناعي يذهب بالبأس وعزة النفس لان الوازع فيهما أجنبي ، وأما الادب الشرعي فليس كذلك لان الوازع فيه نفسي ، وهو موافق لقول علماء العصر ان كمال الانسان أن يكون حراً مستقلاً تصدر أعماله بارادته واختياره عن اعتقاده ووجدانه ، ولا يحكم عليه الا الشرع والقانون الذي رضيه لنفسه ، وكان له رأي في اختيار القائمين بتنفيذه

هذا المقصد العالي لا ينال في الحضارة الا بتربية وتعليم تتبع فيهما سنة الفطرة ، وتبقى فيهما أهواء الوازعين الذين يرون من مصلحتهم أن يصبغوا نفوس النابتة

بصبغة خاصة، يستديمون بها السيادة عليهم ، وقودهم كالانعام الى ما يريدون منهم، أسرف الوازعون من رؤساء الدين والدنيا في الجور على الخاضعين لهم في أوربة زمنا طويلا حتى لم يعد للطاقة البشرية قبل باحتمال جورهم . فأحدث ذلك الضغط انفجاراً عظيماً اهتزت له الارض ، وزلزل ذلك القهر والجبروت ، بل زال واندك بهمة دعاة الحرية والاستقلال . ولكن حدث عنه بمقتضى السنة الالهية التي يعبر عنها «برد الفعل» اسراف في مقاومة تينك السلطتين الجائرتين -سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة - فحدثت المذاهب المادية والاشتراكية المتطرفة والفوضوية، وكانت فرنسا أشد الشعوب والاجيال غلواً في ذلك، وانكثرة أشد اعتدالا فيه لما جرت عليه من المحافظة على التقاليد القديمة. والتثبت في النزوع الى الآراء والاعمال الجديدة. انبثت آراء الغالين في مقاومة السلطة والدين، في كتب التربية والتعليم التي ألفها كبار الحكماء والكتاب من الاوربيين، ولا سيما الفرنسيين منهم، حتى صار حقها مشوباً بباطلها ، ونفعها معارضاً باثمها ، وكان من أشهر كتب التربية (كتاب اميل القرن الثامن عشر) للحكيم الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) ثم ارتقت المعارف وزخرت بحار العلم ، فصار الآخرون ، يستدركون على ماضى عليه الاولون ، كما فعل (ألفونس أسكيروس) في كتابه الذي سماه (اميل القرن التاسع عشر) إشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه فن التربية في ذلك القرن وما بعده . وهو الكتاب الذي نشرنا ترجمته في بضعة مجلدات من المنار ، في كل مجلد منها رسائل معدودة ، نشرت في أجزاء متصلة أو متفرقة ، وقد جمعنا شمل هاتيك الرسائل والاشذرات كلها اليوم لنشرها في هذا السفر على قراء العربية عامة، وأرباب البيوت منهم خاصة ، لما في قراءتها متصلة من تمام الفائدة بما يكون القارئ أوعى للمسائل وأضبط ، وأرغب في تتبعها وأنشط .

لم أر في المصنفات الحديثة ولا القديمة مصنفاً كهذا الكتاب (في موضوعه) جمع بين اللذة والفائدة في أنفع العلوم التي تتفاضل فيها عقول البشر ، وهو علم تربية الانسان جسماً وعقلاً ونفساً ، ليكون سعيداً في نفسه ، نافعاً لابناء جنسه . ولهذا رغب في نشره الاستاذ الامام، قدس الله روحه في دار السلام، وعهد الى مريده ذي الفطرة السليمة ، والاداب القويمة ، صديقنا عبد العزيز افندي محمد القاضى بالحكم الاهلية المصرية ، بأن يترجمه بالعربية ، لينشر في مجلة المنار الاسلامية ، وحسبى من بيان مزية الترجمة عرضها على القراء العارفين بقواعد العربية وأساليبها، فهم الذين يشهدون

لها بأنها في الذروة العليا بين المصنفات المترجمة في هذا العصر . فالكتاب بها عود
للنابذة على إحكام ملكة الانشاء والترجمة . كما انه بمعانيه يطبع في النفوس مدكات
استقلال الفكر والارادة ، وحب الحرية والرغبة في خدمة الامة ، وغير ذلك من
الفضائل ، ويهدي العقول الى أمثل طرق التربية والتعليم

ألا إن غرض المؤلف من كتابه هذا هو هداية قارئه الى الحياة الزوجية الفضلى
ومحبة الزوجين ، ووفائهما في القرب والبعد ، والسراء والضراء - ومكان الأم من
قلب الهيئة الاجتماعية - وتربية جسم الطفل على سنة الفطرة ليكون بدنه سليماً قوياً ،
- وتربية حواسه وخياله وفكره ، ووجداناته وعواطفه ، كالرحمة والاحسان والعدل
والمساواة والايثار ، وغير ذلك من القوى والصفات الروحية ، مهتدياً في ذلك كله
بالعمل والاحتكاك بالحوادث - الى تعليم الناشء العلوم الكونية بعرض المعلومات
على مشاعره ، وارشاده الى كيفية النظر فيها ، والحكم الصحيح عليها ، واعداده للعلوم
النظرية في الدين والفلسفة ليحكم فيها بنفسه ، بعد بلوغ رشده . وغاية ذلك كله أن
يخرج المربي حراً مستقلاً خيراً فاضلاً لا يحكم ولا يقول الا عن علم وبصيرة ، ولا
يعمل الا ما يرى ان فيه الخير والمنفعة

ولما كان قوام التربية العملية القدوة والتأسي اختار المؤلف أن يجعل تربية
«اميل» في بلاد الانكاز لانهم أرقى الشعوب أخلاقاً وأعرقهم في الحرية والاستقلال
ولما كانت العلوم لا تبلغ كما لها الا حيث يكثر الاختصاصيون فيها ، جعل المؤلف التعليم
العالي لاميل في مدارس ألمانية العالية لان الالمانيين أرقى شعوب العالم في تحرير العلوم
هذا الضرب من التربية والتعليم على سنة الفطرة موافق لهداية القرآن الذي هو
دين الفطرة . وما أنكره المؤلف من تلقين الدين للناشئ كما يلقي الفنون وإلزامه
التقليد فيه - ومن حماه على الآداب وعمل الخير خوفاً من العذاب في الآخرة وعدم
النجاة فيها - له وجه وجيه في الجملة ، فان النبي (ص) لم يعلم ولدان أعزابه ولا كبارهم
الدين كما تعلم الفنون وإنما أدبهم وزكاهم بتلاوة القرآن عليهم ، وبسيرته (سننه)
الحميدة فيهم . دعاهم بالدليل ، وعلمهم بالدليل ، وأدبهم بالدليل ، وايس في الاسلام
شيء تقليدي لا يستند الى دليل .

فلا غرو اذا كنا نسلم للمؤلف ما اختاره من جعل قوام التربية الادبية الاعتبار
بما في الفضيلة والخير من المنفعة ، وما في ضدها من المضرة ، بالاختبار والاعتبار لا مجرد
القول ، فان ذلك معقول في نفسه وموافق لهداية الاسلام . ونعذره في نهيه عن دعمها

بنصوص الدين ، لان ما يعرفه من هداية الاديان ينافي طريقته فالجمع بينهما جمع بين الضدين . على انه على اعتداله لم يسلم من الافراط في السخط على دين الكنيسة بمقتضى سنة رد الفعل التي أشرنا اليها من قبل

ولكن طريقته تنطبق على هداية القرآن لانها موافقة للفطرة ، ويزيدها الاسلام قوة وتمكيناً ببيان ان الآثار الطبيعية للاخير في الدنيا وهي منافعها التي يؤتى لاجلها ، لا تذكر بالنسبة الى المنافع والمثوبة التي تكون له (أي الخير) في الحياة الآخرة ، وهذه قضية ينالها بالدلائل والنصوص في مواضع كثيرة من تفسير القرآن الحكيم ومن المنار

فلم يبق بعد هذا الا أن أنصح لقراء العربية بأن يجعلوا هذا الكتاب ركناً للتربية والتعليم مع مراعاة المسلم منهم لهداية القرآن ، التي أجزم بأن المصنف لو عرفها لجعلها ركناً للتربية فوق هدايات الحواس والعقل والوجدان
أنصح للمتعلمات من البنات ومن ربات البيوت بأن يقرأنه المرة بعد المرة . وأنصح للرجال بأن يقرءوه انسأهم ويفسروه لمن تفسيراً . وأنصح للناطقة الجديدة من تلاميذ المدارس الدنيوية ، وطلاب المدارس الدينية ، بأن يقدّموا العناية بمطالعة على جميع ما يطالعون من الكتب العصرية للاستعانة على تأديب النفوس واحكام صناعة الانشاء وإتقان أسلوب الترجمة . وإني لعلى علم بأن الاقبال على هذا الكتاب وتوخي العمل به سيكون مبدأ لعصر جديد يربي في نفوس قراء العربية الحرية الذاتية والاستقلال الشخصي والنوعي ، ومتى كثرت الاحرار المستقلون في شعب فانهم يحبون شعبهم حياة استقلالية يستحيل أن يعبت بها مستبد ، أو يفسدها عليهم مفسد ، ولهذا سميت الكتاب بالتربية الاستقلالية ، وجعلت تسمية المؤلف له ثانوية ، فالاسم الاول يدل على موضوعه وغايته ، والثاني يشير الى مناجاه وطريقته ، وهي تمثيل فن التربية بالعمل في شخص المرابي ، وهو المنهج السوي والطريقة المثلى . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

محمد رشيد رضا الحسيني
منشئ المنار

كتبته في غاية جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦

﴿ مقدمة ناشر الكتاب للطبعة الثانية ﴾

بسم الله وله الحمد، فهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده، فيتم بسننه من تجديد الالام والشعوب ما يريد، فمنها ما يسلمه فساد التربية الى الردى، ومنها ما يحياه اصلاحها بعد الموت والبلى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاءنا بالبينات والهدى، القائل الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، وعلى آله وصحبه وكل عبد مصطفى نحمده عوداً على بدء أن نفخ روح الحياة الجديدة في أمتنا العربية، وهدى من شاء من المجددين فيها لحياء الحكمة الشرقية واقتباس الحكمة الغربية، فطفقت الامة تحسن الاختيار، وتميز بين النافع والضار، من قديم الأنا وحدث الاسفار، ومن آيات ذلك إقبالهم على هذا الكتاب (التربية الاستقلالية) حتى نقت نسخ الطبعة الاولى منه في أربع سنين، وحملتنا كثرة الطلب على إعادة طبعه في أوائل السنة الخامسة قدر الكتاب قدره سعد باشا زغلول وكان في إبان طبعته الاولى ناظراً للمعارف العمومية، فأمر باعتماد تقريره للمطالعة في مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة المعلمين الناصرية، وقد أقره خلفه في نظارة المعارف أحمد حشمت باشا، ويرجى ان يكون حظ النظارة منه على عهد أعلى، فانه هو الناظر الذي عني كل العناية بالتعليم العملي والتربية العملية، وتحويل التعليم وكتب العلوم والفنون الى اللغة العربية، ولا رجاء في حياة الامة وارتقائها إلا بهذا. ولعله لا يكاد يوجد كتاب في التربية العملية والتعليم العملي اعون له من هذا الكتاب على ترغيب ذكران النابتة وإنائها في هذا الاصلاح الذي تصدى له، فانهم بمطالعة يعرفون قيمته، ويكونون فيما يريد منهم على هدى وبصيرة وقد أعدنا النظر هذه المرة بتصحيح الكتاب فقلما يرى الناقدون فيه شيئاً من العثرات التي كانت في الطبعة الاولى، كاستعمال « كلا » و « مطلقاً » في غير مواضعهما، ونحو ذلك من مولدات الجرائد، اللهم إلا ما يعدوه الطرف ويتجاوزوه النظر، أو يذهل عنه الذهن لطول ألفته له، فمثل هذا لا يفتن له العارف إلا إذا توخى النقد وتأياها، ولم يكن له غرض من القراءة سواه، وما ثم الا أحرف قليلة وقع التساهل في إقرارها في مواضعها، ولا تخلو كتابة اشهر تقاد هذا العصر من مثلها، فما أبرىء الكتاب من حرف ينتقد وانما أتجراً على القول بأنه من أصبح ما أعرف من المترجمات والمنشآت العصرية عبارة إن لم يكن أحسها، فانا إذا لم أسرف فيما جدت به على ترجمته من الثناء، والقول بأنه عون لطلاب العربية على إحسان الترجمة والانشاء،

وأما خطأ الطبع في هذه النسخة فقد وضعنا له جدولا يري الناظر فيه ان أكثره من قبيل التصحيف أو زياده حرف أو نقصان حرف من حروف الهجاء فنصح نسخته على الجدول لا يشوه محاسن شيء من صفحاتها

ومن غريب الاتفاق أن ترجمة الكتاب وطبعته الاولى وطبعته الثانية « هذه » كل ذلك قد تم في سلخ جمادى الآخرة ، فكأنه فأل حسن وبشارة بأن الامة قد أنشأت تنسلخ من الجود على تربية التقليد القديمة ، وتستبدل بها التربية الاستقلالية الجديدة ، والله الموفق وبه الحول والقوة

ناشر الكتاب

محمد رشيد رضا

مقدمة المترجم للطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على ينابيع الحكمة ، ونبي الرحمة ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأنم له من مكارم الاخلاق وجلائل الشيم نصيبه ، فصارت سيرته المحموده اكمل مثال للمربين ، وأفضل هدي للمرشدين ، وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين

أما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه في الانسان أن يخلق عاجزاً جاهلاً محتاجاً الى الكافل الذي يحوطه برعايته . و يقيمه على الصراط السوي في معيشته . ثم يتدرج في القدرة والعلم حتى يبلغ ما أعد له من الكمال الحسى والمعنوي بحسب استعداده . وعلى مقدار عناية قيمه بتربيته

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتاً عظيماً في القدرة والعجز والعلم والجهل ، وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعاً لا يحده وصف ولا يشمل حصر ، وتبع ذلك اختلاف الامم بالتربي والتدلي والعزة والذلة

فمن أمة عنيت بتربية أبنائها وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم وإنشأهم أحراراً عاشاقاً للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون أنفسهم ، فأشرقت في ربوعها شمس العلم ، وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون ، فاستخدمتها في حاجاتها وحاجات نظرائها ، واستعانت بها على تحسين أحوالها وترقية معاشها

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه فاتخذت منه سجناً حصيناً لعدوين متعاندين هما الماء والنار ، فكان من كفاحهما فيه أن تصاعدت زفرات الماء وغلت

مراحل غيظه ، فالتمس الخلاص فلم يسعه الا أن طار بسجنه ، فكان ذلك سببا لاستعمال هذه القوة الفاتكة في طي المسافات السحيقة ، وتقريب الامم المتنايية ، وكسر نخوة البحار والتخفيض من غلوائها ، بامتطاء ظورها وشق أحشائها ، والاخذ بشكائهم . نعم وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكا خفيفا من أوصاب الصناعات ومتاعب العمال ، وغمر أسواق التجارة بضرور المصنوعات البديعة فأصبح الفقير شريكا للغني في الاستمتاع بها ، بعد ان كان محروما منها ، وانخذت لها من الحديد أيضا قذافات للموت ، جلابات للدمار والخراب ، لا تردها شجاعة الشجعان ، ولا تغني منها مصاولة الفرسان ، فلكتها نواصي الاعزاء ، وبسطت لها السلطان في جميع الارحاء .

لقدما قصيف الرعد وميض البرق وغيرها من آثار القوى الكونية التي طالما مر عليها من غبروا من أجيال البشر وهم عنها معرضون ، فحدثت أن فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى ، وانما لو ملكت تصرّف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار ، فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكائهم ، وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها ، حتى اهتدوا الى ينابيعها وجمعوا شتاتها بعد ان كانت شعاعا هملا ، وحصروها في سبل ضيقة لا قبل لها بتعديها ، ثم ألقوا مقاليدها الى الأمة فكان من تصرّفها في مرافق الانسان ومنافعه ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة امكان عقل المخلوق : رعدة تحيل الماء هواء ، وتقلب الليل نهارا ، ونبض أقرب من لمح البصر ، يصير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين في مطارح الغربة ، تستنجز بها الامور وتقضى بها المآرب ، وطورا يكون مخاطبة شفوية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما يكون بينهما من بعد الشقة ، وكرة تدفع جاريات تطير طيرانا على سطح الارض مقلدة ماشاءت أن تقل من الناس والمتاع .

ولو رحت اعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع في الامم الراقية لاحتجت في تفصيل ذلك الى مجلدات فأجتزئ عنه بما لحت اليه تلميحا .
وأمة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها ، فلازمت حالتها الفطرية ، ومعيشتها الوحشية ، فكان ذلك مدعاة الى وقوف نمو العقل في أبنائها وانحاء ما فيهم من ضرور الاستعداد ، وكان مصيرها خسران وجودها الذاتي وفنائها في غيرها من الامم الحية .

وأمة ثالثة خلقت مستعدة للرقى وسارت في سبيله شوطاً بعيداً بما نشأت عليه من الحرية، وتحققت به من أصول الترية الدينية الصحيحة، فالت في الزمن اليسير من العزة والمجد وبسطة السلطان ما لم ينله غيرها من الامم في الزمن الطويل رباها مرشدها الا كبر بسيرته السنية على حب العدل، والايقاء بالعهود، واتفاق الاموال في وجوه الخير، والتآخي في نصرة الحق، والترفع عن سفاسف الامور، وأوجب طلب العلم من المهد الى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علماً بعينه، فنبغ فيها رجال لم تسمح الايام بنظائرهم ولن تد الوالدات أمثالهم - منهم من ساسوا الرعيه أفضل سياسة لم يعهدوا التاريخ في غيرهم من السواس، حرموا أنفسهم فيها من ملاذ العيش، وصبروها على مصلحة الناس، وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة - ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا أكبر دول الارض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين، وبذل الامان للمستأمنين - ومنهم انعلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا باباً من أبواب العلم الا دخلوه على ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل، لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم، يشهد لهم بذلك ما خلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان - ومنهم مهرة الصناعات الذين أقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على مناسبتهم ويوجب لآخوانهم حق المفاخرة بهم .

واأسف على هذه الامة، أسف يخع النفس أسى، ويذيب القلب حسرة ! ما لبثت ان بطرت معيشتها وكفرت بأنعم ربها، فوجد عليها الزمان، وانتابتها نوائب الحداث، طال عليها أمد هداية الدين، وبعد عنها عهد المرشدين، فقسفت القلوب وفسدت الاخلاق، واستحكمت علة الترف من النفوس، فلكم الطمع، وتولاها الحسد، ومنيت بالحكام المستبدين، والامراء الغاشمين، فزقوا وحدتها، وملكوا عليها أمرها، وصرفوها فيما تهوى أنفسهم، فاستحالت حريتها رقا، واتقلب عزها ذلاً، وعدلها ظلماً، وأنسها بالعلم وحشة .

لم يغبسوء حالها عن مجاورونها من الامم القوية، بل كانوا يراقبونها مراقبة الصائد الذي يحين الفرص لصيده، وما عتموا أن ناصبوها العداوة وكادوا لها المكاييد، فوقع معظم بلادها في قبضتهم، وتغلغلوا في أحشائها، وأصبحوا لها حكماً يديرون شؤونها على حسب ما تقتضيه مصالح بلادهم، وفتحوا عليها أبواباً من الترف وفساد الاخلاق ألهتها عن الشعور بألم العبودية، وصرفتها عن النظر في مصالحها القومية

لم يصبها كل ذلك الا من عدم محافظتها على حريتها باغفالها التربية الصحيحة وهجرها العلم النافع .

واذا كان هذا شأن التربية في رفع الامم وخفضها، كان حقاً على العقلاء من كل أمة أن يعنوا بها ويفكروا في الوصول اليها من أقوم طرقها، ويبينوا أصولها، ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الاخذ بها فيها . وقد خرج من عهدة هذا الحق علماء الامم الحية في أوربة وأمريكا فوضعوا من قواعد ما ظهرت آثارها في أقوامهم ، وأكسبتهم حسن الذكر في بلادهم ، وغفل عن ذلك غيرهم من خواص الامم التي تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم ، فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة في موضوع التربية الا بعض رسائل لاغناء بها فيه .

كان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراه براً بقومه غيوراً على حياتهم، حرصاً على ايقاظهم من سبات الجهل ، وانهاضهم من حضيض الذل ، فكان دام التصفح لما كتبه الاوربيون والامريكيون في التربية والحكمة، وكان من كثرة اهتمامه بالتربية ان ترجم فيها كتاباً مفيداً للحكيم الانكليزي هربرت سبنسر، غير انه لم يتسع وقته لتبصيححه وتهذيب ترجمته ونشره فبقي كما هو، وقد وقع له كتاب آخر فيها عظيم النفع لمؤلف فرنسي اسمه (الفونس أسكيروس) فأعجب بما فيه من الافكار الصحيحة والمعاني الشائقة، فعهد إلى بترجمته ونشره تدرجاً في مجلة المنار الجلية، فوفقت للايفاء بعهده مساعده له على ما كان بسبيله من خدمة المصاحبة العامة ، وقياماً ببعض المفروض علي منها . فالكتاب اذن أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده ، ويد من أياديه الكثيرة عند قومه ، سيشكرها له منهم الشاكرون ، ويغتمطها على ديدنهم فيه الجاحدون ، أجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده ، وغمره برحمته واحسانه على مجاهدته في إعلاء شأن أمته .

هذا الكتاب الذي أتقدم بترجمته لقراء العربية يرمي مؤلفه الى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حراً مستقلاً تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . ومن أصوله في التربية أن لا تحشر اليه قواعد العلم حشراً ويرغم على حفظها بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية بأن يخلى بينه وبين ما حوله من الاشياء والحوادث ويلفت ذهنه اليها لينزع منها بنفسه ما يؤديه مراقبتها اليه من العلوم .

تمكن هذا الاصل من نفس المؤلف تمكناً حملاً على أن يبعد في تأليفه عن أساليب الكتب التعليمية المعهودة : وضعه على أسلوب يقرب من أسلوب القصص ليكون أشهى للنفوس ، وأننى للملل عن القلوب ، تخيل زوجين سمى أحدهما الدكتور

إراسم والثاني هيلانة ، منيا بالفراق ، لأول عهدهما بالاقتران ، لاتهمام الزوج بجرمة سياسية سجن من أجلها . ولم يلبثا بعد افتراقهما ان أحست الزوجة بالحمل فحرت بينهما رسائل في مواضيع شتى أدجت فيها أصول التربية الصحيحة ادماجاً ، وسنحت للزوج اثناء سجنه سوانح أفكار ، ومرت بذهنه شوارد خواطر ، كان يقيدتها في جريدته اليومية ، فاجتمع للمؤلف من الرسائل والصحف والشذرات المقتطفة من جريدة الزوج هذا السفر الذي وسمه « باميل القرن التاسع عشر » وقسمه أربعة أقسام سمي كلا منها كتاباً ، أولها في الام وثانيها في الطفل وثالثها في اليافع ورابعها في الشاب .

فأما كتاب الأم فمسائله هي : - ما يجب عليها مراعاته في طور الحمل من العناية بصحتها وتوفير عافيتها ، وملازمة السكينة والاستقرار والبعد عن كل ما يثير انفعالاتها ، وترويح نفسها بالمناظر البديعة والمشاهد الرائعة . وبيان ان التربية الأولى من شؤون الام خاصة - وما يجب عليها من العلم بتدبير صحة المولود بعد الوضع وارضاعه بنفسها وتعويده من نعومة أظفاره الاستقلال في حركاته وسكناته . ووصف ما للنساء الانكليزيات من الفضل على الفرنسيات في ذلك . وانتقاد طريقة التربية الأولى في فرنسا . وانتقاد أخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد أسلافهم .

وأما كتاب الولد فمسائله هي : - تعريف التربية وبيان الصعوبة في تحديد زمني بدايتها ونهايتها ، وبيان عمل الام في الشهور الأولى من حياة الطفل ، وانتقاد ما يفعله الامهات بأطفالهن في هذه السن ، وبيان ان أول علوم الطفل تأتية من طرق الحواس ، وطريقة تربية الحواس ، وتأثير المدنية في قوى الحواس ، وعمل الأم في تمرينها ، وجوب تعرف طباع الطفل ، وبيان اهمال المربين لهذا الواجب . وما يلزم اتباعه في سياسة الطفل ، وجوب لفته الى المحسوسات ، وتدريبه على وقاية نفسه بنفسه ، وبيان خطأ الوالدين في انشاء أولادهم على مثالهما في الطباع والاذواق ، وكون هذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالاً حقيقياً ، وبيان ماهية الطبع ، وهل الارادة خلقية أو كسبية .

وبيان ان ما يبيده الطفل في حال غضبه أو تألمه من الاصوات والحركات لازمة لشفاء مابه ، وان الواجب في حمله على الكف عنها أخذه بالتسلية والتلهية لا بالتسلط والقهر ، وجوب مقاومة التربية لاهواء الطفل الفاسدة وذلك بطريقتين احداها إلهائه عنها والثانية جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها ، وضرورة استعمال

السلطة في سياسة الاطفال ووجوب التعجيل بالكف عن استعمالها متى تسر ذلك، و بيان ضرر قهر الطفل على الامتثال، ووجوب اجتناب تخويفه بالعقوبات الالهية، والخوض معه في المسائل الدينية، ووجوب تركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات، و بيان عدم الفائدة في أصول علم الاخلاق للاطفال وقلة جدوى اتقود ومطالعة قصص الحيوانات لهم وضرورة استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه و بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة، و بيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواظ على الاطفال خطأ من كرامتها، وكيفية تفاهم الام مع ابنها بالاصوات، وربما كانت الاصوات أصل اللغات، ووجوب استعداد الام للتربية بالتعلم، وتفكر الاطفال، وأصل اللغات وتعليمها لهم، وسوء طريقة المربين في ذلك، وان التفكير مما يتعلمه الطفل، وخطأ المربين في عنايتهم بالالفاظ دون المعاني، وتريد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكير، و بيان ان الاعمال الصبانية ليست باطلة برمتها بل منها ما يكون مفيداً، وأنس الطفل بالحيوانات وأنسها به، وتعليل اقتطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سداجة الانسان الفطرية التي كانت تدعوها الى الثقة به، وتأثير الجال في الاطفال، واحتياجهم الى كثرة التعلم، وتعليمهم الصدق والمواساة والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزمنى بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي، ووجوب اعتراف المربي للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شيء امام الاطفال، وانتقاد التعليم الديني والسياسي، وان من شروط التربية أن ينسى المربي ما تعلمه ليستأنف تعلمه مع الطفل، ووجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت أنفهم الى ما حولهم، وانتقاد الكتب التعليمية، وفوائد التصوير والمعارض في التربية، والتربية والتعليم بالقانوس السحري والتمثيل والمعارض، وتعليم الاطفال الضرب في الارض ومعرفة جهاتها بالعمل، وتعليمهم الصناعة بما يشتري لهم من اللعب، وتربية خيال الصغير بالقصص والاساطير، وتعليم القراءة والخط والرسم والتدرج الفطري في تعليمها، وان الصحة في تغيير الهواء، وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء، وتعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل القانوس السحري، وسرعة تفاهم الاطفال بالسير من الكلم، وتعليم السباحة وتربية العضلات.

وأما كتاب اليافع فمائله هي: — حب الزوجة والولد والوطن، وتعليم المسميات

قبل الاسماء ، وتربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معاً ، والتعليم بضرب الامثال ، والكلام على الخط الديواني ، وتدريب المتعلمين على الاعمال المادية الشاقة ، وما يجب أن تكون عليه التربية ، وآثارها إذا كانت كما يجب ، وتجلي العلم في العمل ، وانتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما ، والكلام على التقليد والذاكرة ، والمؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ، وكون السفر من أركان التربية ، والتربية بركوب البحر ، وما يتعلم في السفينة ، وشجاعة النساء المحموده ، والتربية بالمعينة ، وفوائد الشدائد ، وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب ، ووجوب الموازنة بين القوى والاعمال ، والتربية بالتأثيرات الطبيعية .

وأما كتاب الشاب فمائله هي : — انتقاد حال الطلبة في ألمانيا ، وبيان حال العلم فيها ، ووجوب نقد الطالب ما يقرأه من أفكار غيره ، ووجوب القصد في الاشتغال بعلوم المعقولات ، وان تقع الامة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ، ووجوب اختيار الطالب للعمل الذي يشتغل به في حياته ، وان لاحرية لامة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة ، وان الرأي العام لا قيمة له إلا إذا كانت الحكومة شورى ، ووجوب أن تكون خدمة المرء لامتة لا للجزءاء ، والكلام في الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمعشوقات ، ووجوب عدم تدخل الوالدين مع أولادهما في شؤون الحب ، وترك الفصل في تمحيص صحبته من فاسده للتجربة ، والكلام على المدرسة الجامعة في ألمانيا ، والاستقلال في العلم ، وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدينة ، ووجوب الاعتماد على البراهين العقلية دون الخطابة ، وحب الوطن ، ووجوب أن يكون للشباب المتعلم رأي في سياسة بلاده ، وان تربية الرجال الاحرار تجتث بها جرائم الشرور المحزنة للامة .

هذه هي أقسام الكتاب ومقاصده وأهمات مسائله أجملتها للقارئ اجمالاً حتى إذا قرأها حركه الشوق الى استشفافها في مواضعها منه فحصل الفائدة المقصودة لمؤلفه ومترجمه ان شاء الله .

لم يعن المؤلف بتلقيب مباحث كتابه فاضطرت الى أن أضع لها ألقاباً استنبطتها من سياق كل مبحث وشاركني في وضعها الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية عند نشر الكتاب في مجلته كما انه حفظه الله كان يصحح ما كان يعثر عليه من الاغلاط وأنا شاكر له هذا الصنيع .

حرصت غاية الحرص على عدم التصرف في الترجمة وقوفاً بها عند جد المعاني التي قصد المؤلف أن يعرضها على قومه، وتحاشياً من أن يتسرب اليها بالتوسع ما ليس مقصوداً له، وهذا هو سبب ما يجده القارئ في بعض المواضع من عجمة الاسلوب، ولم أشد عن هذا إلا في تغيير لفظ الطبيعة بلفظ الجمالة أو الفطرة على حسب مراعاة الاحوال لعرف التخاطب بين المتكلمين بالعربية .

للمؤلف رأي في التعليم الديني مبني على أحوال خاصة بالمكان الذي عاش فيه، والقوم الذين نشأ بينهم لا محل لذكرها هنا، فلا أعيبه عليه ولا أوافق فيه، ولا سيما ان في مطاوي كلامه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى مغايرتين عن سوء عقيدته وذلك الرأي هو : أن لا يتكلم مع الصبي في شيء من الدين في صغره، وأن يتربص به حتى يكبر ويدرس المذاهب الدينية بنفسه، فيعتقد منها ما يشاء. ويكفيني هنا أن أقول ان كثيراً من أبناء من يشاءونه في رأيه لا يبلغون سن الشباب حتى تحتوشهم أهواؤهم عن النظر في الدين، وتصرفهم شهواتهم عن اتباع هدي النبيين، فينبذوا الدين وراء ظهورهم ويفشو فيهم الالحاد، وما ينجم عنه من الاباحة والفساد، كما هو مشاهد معروف وعندي أنه لا شيء أمثل في هذه المسألة من اتباع هدي الدين نفسه ومن الخطل في الرأي أن يؤخذ فيها بقول غير المتدين .

بدأت بترجمة الكتاب في اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ هـ الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٨٩٩ م وفرغت منها في أول جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ هـ الموافق للثالث والعشرين من يولييه سنة ١٩٠٦ م. ومعذرتي في ذلك الابطاء المفرط اني انما اختلست الساعات التي قضيتها في ترجمته اختلاسا من أوقات فراغي من عملي القضائي، وقد كانت هذه الاوقات كثيرة تسع أضعاف هذه الترجمة لولا اني كنت كثير الضن بها على صرفها فيما ينفع كغيري من الناس في مصر .

كنت أحسب ان نشر الكتاب في المنار يكفي في تحقيق الانتفاع به، ولكني رأيت كثيراً من الاخوان الذين كانوا يوالون مطالعة ما كان ينشر منه فيها شديدي الميل الى رؤيته مطبوعاً على حدة، واتفق لي أن زرت صاحب الدولة الوزير الجليل رياض باشا في شهر رمضان الماضي مع الاستاذ السيد محمد رشيد فألقيته معجباً بالترجمة أشد الإعجاب حاثاً على نشرها مجموعة، فكان كل هذا باعثاً لي على نشره الآن جملة واحدة تعمياً لفائدته، وموافاة لرغائب الكثيرين ممن طالعه منعجاً .

وجل ما أبتغيه ممن أقدمه اليهم من اخواني قراء العربية أن لا يكون حظي

عندهم من عنائي في ترجمته اطراحه وإغفاله، بل أرجو منهم أن يأخذوه بقوة ويقبلوا على مطالعته بتأمل، ليقارنوا بيننا وبين غيرنا في العناية بتربية الناشئين ويعلموا أين نحن من قوم هذه أفكارهم فيها، حتى إذا ألمهم النقص الفاضح، وأخجلهم التقصير الفاحش، هبوا الى مجارة غيرهم من الامم الراقية، وفكروا طويلاً في تربية أبنائهم، وتخيروا عن بصيرة وعلم لاعن تقليد محض اكمل الطرق لانشاهم أحراراً جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين، ولن يتم لهم ذلك الا بالاخلاص والصبر ودوام الاشتغال والله المستعان وبه الحول والقوة

المترجم

تحريراً في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢٦ - ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ عبد العزيز محمد

﴿ مقدمة المترجم للطبعة الثانية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله أن أطلق لساني بحمده على غامر إحسانه ، وهدي جناني لشكره على عوارف فضله ، وجعل حمده مدعاة لفيض رحمته، وشكره سبباً لزيادة نعمه، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، سيدنا محمد بن عبد الله، خير من حرر العقول من ربة الجهالات وطهر النفوس من لوث الاوهام ، وربى الاخلاق بقويم هديه الالهي ، وهذب الطباع باقامتها على الصراط السوي، وعلى آله وصحبه أئمة المرين، وقادة المرشدين أما بعد فلا شيء يعدل اللذة التي يجدها العامل إذا وجد عمله نافعاً مقبولاً عند قومه ، تحقق صدق هذه القضية عند نشر كتاب (التربية الاستقلالية) عقيب طبعه لأول مرة، فاني وجدت من إقبال العلماء والادباء عليه وتقريظهم له وتوفرهم على مطالعته وحث الناس على اقتنائه، مأملاً قلبي سروراً وغبطة، وأنساني ملاقفته من العناء في ابرازه الى العربية، وزادني سروراً أن قدرته قدره نظاره المعارف الجليلة في عهد صاحب السعادة العالم الجليل سعد باشا زغلول فقررت إقراءه في بعض مدارسها العليا، وتفضل صاحب السعادة المفضل أحمد حشمت باشا ناظرها الحالي الشغف بحب العلم فأقر هذا القرار . وكان من توارد طلب الناس لنسخ الكتاب ان تقدمت جميعها، وهذا مادعاني مع ناشره بالطبعة الاولى إلى إعادة طبعه الآن، وهانحن ذان نقدم لقراء العربية طبعته الثانية والله أسأل أن يديم النفع به وهو حسبنا ونعم الوكيل

عبد العزيز محمد

(تنبیه) من طبع هذا الكتاب غيرنا يحاكم ويجازي ، ومن وجدت بيده نسخة منه (من غير طبعته الاولى) غير مختومة بختم المترجم يسأل عنها قانوناً

الكتاب الاول

(في الأم)

الرسالة الاولى

(من الدكتور إراسم الى زوجته في ٣ يناير سنة ١٨٥٠ ^(١))

في وصف حاله في السجن

قد مضى عليّ يا عزيزتي هيلانة ثمانية أيام طوال عجزت فيها عن الكتابة اليك وأعوزتني العبارة التي أرضاها لوصف ما عانيه من مريض الأمل. ليس ما يقاسيه الأسير من عذاب الأسر هو الحرمان من الغدو والرواح، والعجز عن المشي مطلق السراح، بل عذابه الأكبر هو ضيق الصدر وابتئاس النفس. تلك القباب والأعمدة والدهاليز الدائمة التي لا تنفك عن مواجهة المسجون هي التي تبلبل منه الأفكار، وتوقعه في الدوار، حتى يقذفه هذا العناء، في مهواة الفناء، وهذه الأحجار أحجار البناء تمسخه فتحيله حجرا مثلها. وفي أول عهدي بالسجن كنت ضما لا أراجع للناس قولا، ولا أملك لهم ولا لنفسي ضرا ولا نفعا، وكدت أعدم الحركة والفكر بل كان يخيّل لي أنني قد فقدت وجودي

(١) عن يمين رقم ٥ في الأصل الفرنسي نقطة (لاصفر) لابهام السنة والاكتفاء

ببيان أن ذلك كان في النصف الثاني للقرن وقد جعلنا بدل النقط خطأ عرضياً

وفנית عن نفسي، وانتقلت حياتي الى السجن نفسه، لحصره إياي في دائرة من الوجود مشثومة صناعية لا جولان للفكر فيها . واني أوكد لك أن من هذه حاله يلزمه عمل كبير للرجوع الى وجوده . وهذا العمل قدمت انا به . والآن قد ثابت اليّ نفسي، واصبحت مالكا لحسي . لا ترجنّ مني أن أصف لك ... فان المسجون قلما يعرف مايسكنه من المحالّ واني قد نقلت من ... في غروب الشمس . ولما وصلنا الى السجن كان الليل قد أرخى سدوله ولم يبق لي من الضياء الا بقية لا اكاد أميز بها في ظلمات الجو غير الاشباح السوداء لبروج السجن الصغيرة ، واسهمه واستنه الحجرية، وكان يخيل لي ان البناء قصر متين شيد بالظلمات . نزلنا من الجارية (العجلة) وصعدنا مشاة الى طريق مدرج منحوت في الصخر يفضي الى سجن الحكومة وكنت أمشي في هذا الطريق كأني في حلم . على اني قد رايت منظر شيئين في هذا المكان أولهما جمال ذلك البناء الباهر ووقوعه من قمة الجبل المظلم موقع التاج من الرأس - ثانيهما اصطخاب البحر وتلاطم أمواجه .

ولست تلك القمة في الحقيقة الا قطعة من الصوان برزت من صحراء رملية . - ورمل هذه الصحراء يمتد الى البحر تملؤه الكآبة والحزن . وكنت اميز المحيط من بعد في ضوء الصفائح المائية المضطربة . وليس الحال كذلك في جميع الاوقات ، لان المحيط في إبان المديغم الساحل ويملو ويصطخب ويحرق بالجبل من كل جانب فتغمره زخرة امواجه المتزاخمة

يصل النور الى مخدعي من السجن - وهو مقابل للمحيط - من كوة صغيرة ككوي الاسلحة النارية في المعازل او كالذي يسميه المهندسون « برنخا » على انها مع ضيقها مسرح للنظر لانهاية له . وهي من الارتفاع

بحيث لا أشاهد منها سطح البحر الا قائما على اطراف اصابع الرجلين
 فاذا جلست لا يبقى لي ما امتع به نظري الا السماء. ولا بأس في ذلك عليّ
 فان لي في السماء ناحية من السكون اشاهد فيها ساعات كاملة طائفة من
 ظواهر هذا العالم لم تكن تسترعي نظري الى هذا العهد، وهي ألوان الضوء
 المتغيرة والصواعق والبرد والضباب، وبالجملة ما للأحداث الجوية من
 الجمال الخيالي اذا برزت من حجب الظلام. غيري من الناس يحب ان
 يشاهد السماء في البحر حيث يترأى السحاب في مرآته وأما انا فاخالفهم في
 ذلك لان البحر بالنسبة اليّ هو الذي ينعكس على السماء فأراه في مرآتها.
 قد رأيت مما ذكرت ان لي مرقبا للعالم وحظاً منه فما الذي يمنعني ان
 أنحيل في السحب سلاسل جبال وفي سهول الاثير اريافا ومزارع جميلة.
 تلك المناظر الخلوية المعلقة في الهواء ليست كما اعلم الاخيلات سباحة
 لا فكري وما أتذكره من معلوماتي. قد تبعث الانسان وحدثه على البحث
 في مخيلته عن صور ما عرفه من الاماكن ومن احبهم من الناس فأنا الآن
 بسبب استحضاري لمرايى ماضيّ الجميلة في حيز من النور - قد افتتح فوق
 رأسي - أرى مثالك فيه

ان كان قدر عليّ ان اصير خياليا كان ذلك آخر عقاب لعقل لم يشغل
 منذ عشرين سنة بغير العلوم الحقيقية

على اني لست اشكو من شيء فطوبى لمن يصح له عند سقوطه ان
 يعتمد على فكرة انه دافع عن حوزة القانون وذبح عن الحق واني اذا
 كنت اتألم فليس ذلك الا لاني كنت سبباً في تألمك. اه

الرسالة الثمانية

(من إراسم الى هيلانة في ٦ يناير سنة - ١٨٥)

اتحافه اياها على بعده من العالم بنجر سار

حدث بالامس بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً ضباب
كثيف غمر الشاطئ كله، والعادة في مثل هذه الحالة ان تدق الاجراس
ايذانا بالخطر ، فلذلك طفقت أجراس القرية القريبة من السجن تظنطن
وتيسر لي أن أفهم المقصود من هذه الإشارة . ذلك الساحل المهدق
بنا ممثلي بالخطر لان الرمال المتحركة ومستنقعات الماء الراكد والمد
والجزر كلها حبال تترقب اصطياذ السائح الضال كامنة له تحت استار
الضباب ، لذلك تناديه أصوات الاجراس وتحذره من الوقوع في الخطر
وترشده بمصدرها الى الطريق الذي يلزمه سلوكه ليصل الى سفح الجبل
أسرع ما يكون . وقد سألت في مساء هذا اليوم سجاناً لنا يسكن أهله
القرية عما حدث فأخبرني بان طفلين مسكينين قد فاجأتهما أمواج
البحر في إبان المد فأحاطت بهما وكادا يفرقان لولا ما بذله من الجهد
والهمة صيادو الشاطئ من ذوي النجدة والبسالة في انقاذهما من مخالب
الموت غير مباين بالخطر الذي كاد يذهب بقواربهم . من هنا ترين انني
على بعدي من العالم وحرمانني من معرفة ما يحصل فيه قد قدرت ان
اتحملك بهذا الخبر السار . اه

الرسالة الثالثة

(من إراسم الى هيلانة في ٨ يناير سنة ١٨٥٠)

تعرفه أما كن السجن تسلية لنفسه

انا في السجن نتعاقب عليّ الساعات وكلها متشابهة لا اختلاف بينها
فليست الحياة هنا الا يوما واحداً بسبب ما يخرج الصدر ويضيق على
النفس من توحيد الاشياء وتشابه الاطوار وعدم تغير شيء منها . آه لو
عادت إليّ نعمة العلم بما يقع في الخارج ، وليتني أعرف شيئاً من أخبارك .
قد أذن لي في الخروج من مخدعي للتنزه كل يوم ساعة أو ساعتين على
رصيف مرتفع للسجن فانا أصرف هذا الزمن في إجابة نظري والسياحة
به فيما حولي من الاشياء لأتعرّفها فاني للآن ما كنت أعرف شيئاً في
هذا المكان بل كنت اجنبياً منه بالمرة اذ كنت كمت ألقى في مكان
لا يدري اين هو . وقد ابتدأت منذ أسبوع أن أعرف أين مستقري
فتجديني الآن اهتم بتعرّف شكل الأماكن المحيطة بي تعرفاً صحيحاً ،
يعني على ذلك وجدان لا شك في انه عام في جميع المسجونين . ولا
ينفك ناظري عن اكتشاف ما لم أكن رأيت حال دخولي في السجن .
وإخالي قادراً على ان أرسم في الورق صورة ما حدثه البحر في الشواطئ
من التقطع فنشأت عنه الخلجان والرءوس التي تمتد كاللسنة امتداداً عرضياً ،
وصورة الصخور التي تتراوح بين البروز في ضوء الشمس والاختفاء الى
نصفها في ظلام الضباب البعيد . وقد عرفت أيضاً رسم البناء الذي يحويني

وأوضاعه الهندسية الجميلة ، وتنظيماته الحرية ، ومعاقله الطبيعية ، ومنحدراته ومناطق اسواره . ولم يكن اهتمامي بمعرفة ذلك مبنيًا على تدبير حيلة للهرب . كلا ! إنه قد حاول ذلك غيري من المسجونين وردوا بالخيبة لاننا ان أمكننا ان ننجو ممن يقومون على حراستنا من العساكر والسجانين الذين يتعسر علينا ان نخدع يقظتهم والتفاتهم ، فاننا لا ننجو من المحيط والرمال الخاتلة بوعوثها وغيرهما من العقبات الكثيرة . وانما انا ابحت في ذلك عن طريقة أسلي بها نفسي وأشغل بها فكري ، فلا شيء مني يريد الهرب والتخلص من السجن سوى عقلي . اهـ

الرسالة الرابعة

(من إراسم الى هيلانة في ١٠ يناير سنة ١٨٥٠)

(السجن قيد الاشباح دون الارواح)

اتعلمين ما للسجن عليّ من الفضل ؟ انه ليعلمني الحرية ويدلني على عجز الإنسان عن الاستيلاء على مثله . ذلك ما أحس به كلما تعاقبت عليّ الايام فيه وأنس من نفسي نوعا من الفرح تشوبه المرارة عندما اجدها اكبر وأقوى من ان يبهرظها ثقل وطأة الظلم ، فليست أسوار السجن الصوانية ، وأغلاقه الحديدية ، وحفظته الايقاظ ، الالهباء في طريق العقل لا حوائل تجده وتمنعه من الجولان ، بل أشعة نوره تخطي كل هذه العوائق ولا تقف عند شيء منها . وإن عزيمة المسجون لتقاوم عزيمة ساجنه ومصنفه ، وإنه مهما جُذِل وصرع فلا يستسلم ، فإذا هو كان على شيء من العدل

والحق كان أشرف من غالبه وأسمى منه مكانة ومن العيث ما يحاوله هذا الغالب ، فالفكر كالهواء لا يدخل في قبضة أحد . نعم إن من مقدوره أن يشد وثاق مسجونيه ولكن ليصل بعد الى أعماق قلبه ، وليأسر ما هنالك من عزة نفسه ومنعة وجدانه ، ان كان ذلك في قدرته ؟ هيهات هيهات . تلك المنعة التي أجدها في نفسي تدعوني الى الثقة العظيمة بالمستقبل . لا أقسم بغيابات السجن (حجراته المظلمة الضيقة المعدة للمحكوم عليهم به طول حياتهم) ولا بأشباح أولئك الذين ماتوا هنا في زوايا النسيان أو في اقفاص الحديد - إن الحق والحرية سيكون لهما النصر والظفر في هذه الدنيا . اهـ

الرسالة الخامسة

✽ من إراسم الى هيلانة في ١٢ يناير سنة ٥٨٥ ✽

مواساة الاصدقاء الخاملين في حال الشدة

قد اهتمت بعد العناء الى طريقة إيصال هذا المكتوب اليك فسيصلك على يد الذي تفضل علي بأن يكون رسولا بيننا على ما في ذلك من المخاطرة بنفسه . هذا يدل على ان الانسان الذي يحتف به في حال رخائه الجلوس المتماقون لا يمدم في حال شدته ان يرى حوله احيانا أصدقاء خاملين يخلصون له الود . وأختم قولي بأني لك طول حياتي . اهـ

الرسالة السادسة

✽ من هيلانة الى إراسم في ٢٠ يناير سنة ١٨٥٠ ✽

إخبارها إياه برأي الطبيب في حملها وبزمها على السفر لزيارته

قد تلقيت مكتوبك ايها الحبيب من يد البريد السري فكان له في نفسي احسن اثر وانفعه. فاني كنت في حاجة عظمى الى شيء يسليني ويسرّي عني بعض الألم فلشدّ ما قاسيته منه مدة شهر وقد ضعفت صحتي وانحطت قوتي والطبيب الذي يداويني في غيبتك يسألني اسئلة كثيرة وله فكرة في سبب هذا المرض اراها تشف عن جنونه فانه يزعم اني كلا انني لموقنة بخطائه في ذلك. ومهما يكن من الامر فننفي تائقة لرؤيتك فان هذا الفراق العاجل بعد الزواج الذي لم يمض عليه اكثر من سنة خطب هائل لا يطاق، ولا سبيل الى المعيشة معه، وإني مسافرة مساء الليلة من باريس ومعي إجازة موقم عليها من ناظر الحقانية أذن لي فيها بزيارتك فلا بد ان يسمح لي بدخول السجن ولا يمكن ان يحل استبداد المستبدين ماعقدته رابطة الحب .

لا تخش شيئا من هذه الزيارة فاني لم اقصد بها الرغبة اليك في ان تستميع الحكومة عفواً عنك لاني وان كنت كثيرة التألم لغيبتك أحترم وجدانك وهو اجس نفسك وان لم افهمها حق الفهم . اعلم ان فيّ ما في بقية النساء من مواضع الضعف ومظان العجز ، الا اني منزهة من دناءة الخدين وخيانتها لصاحبها فان شرفك داخل فيما احبه منك . وإنك على احتباسك

عني وبعذك عن ناظري بما فيك من عزة النفس والشهامة وإباء الضيم
لأجل في نفسي منك وانت بين يدي لو فسدت مبادئك ومعتقداتك
التي جريت على سنتها طول حياتك . اني لما تزوجتك تزوجت شيئاً
آخر معك الا وهو ضميرك ووجدانك فان بقيت على ولائه متبعاً
ما يرشدك اليه اقسمت لك اني اكون في الاخلاص لك كما تكون في
الاخلاص له طول حياتي . والآن اودعك لاراك قريباً ان شاء الله
واكشفك محبة قلبي اياك وامتلأه بالحزن عليك اه

الرسالة السابعة

(من هيلانه الى اراسم في ٢٠ يناير سنة - ١٨٥)

« انفعال نفسها بزيارة السجن وما لاقته من المشقة في الرجوع منه »

« واخبارها زوجها بالجنين وتخوفها من ثقل فروض التربية »

لم يتيسر لي ان احدثك بشيء مما أردت محادثتك به عند اللقاء مع
ان حديثي ذو شجون . من أجل ذلك أردت ان اعتاض عما فاتني منه
بالمكاتبة فسطرت لك هذه الكلمات :

كان مجيئي الى السجن بالامس واستفتاحي بابه في الساعة الثانية بعد
الظهر وبعد ان تحدثت مع مديره برهة اقبل نحوي أحد خزناته يهدج
في مشيته وانا اسمع خفق نعليه شديداً على البلاط واخذني الى الغرفة التي
كنت انتظر فيها . كان قلبي قد وعدني قبل دخولي السجن ورؤيتي
ما فيه ان يستجمع كل مألوه من الجراءة والثبات ليدفع بذلك عني بوادر
(٢ التربية الاستقلالية)

الجزع وخواطر الهلع، فلم يلبث بعد دخولي هذه الغرفة ان نقض ميثاقه، وحل وثاقه، فاعوزتني رباطة الجاش وثبات الجنان لما رأيتني وحيدة لا انيس لي، وجمد الدم في عروقي لما استولى عليّ من الدهشة والوحشة مع انقطاع الصوت في قباب السجن الا ما يكون من صرير الابواب وصلصلة اغلاقها من بعيد اثناء فتحها واقفالها. فلما بدا محياك لناظري فقدت بقية رشادي وغبت عن وجودي فان فرحي برؤيتك بعد احتجابك عني وحزني لوجودك في هذا المكان قد اثارا علي جميع ضروب الالفعال فقدحتني وصرعتني، ولم تبق لي من القوة سوى ما اسكب به العبرات، واردّد الزفرات، فألقيت نفسي عليك، وكنت كما تعلم بين يديك، رأيتك وقت التلاقي شاحب اللون ممتعه فهل كنت مريضاً؟ وليس من العجيب اني نسيت ان اسألك عن ذلك فاني اذ ذاك كنت فانية فيك فما كنت افكر ولا ارى ولا احس ولا اقول شيئاً.

اتعلم ماذا كان يقلقني من الافكار فوق ذلك؟ انه كان يخيل لي ان لتلك الجدران جدران السجن الخيفة أبصاراً وأسماعاً وإدراكاً وانها تحس بي لو صاحتك، وتراني لو اشرت اليك اشارة ما، وتسمعني لو أفضيت اليك بسر فتذيعه. لما عاد الينا خازن السجن ونبهنا الى أن وقت التلاقي الممنوح لنا قد انقضى من بضع دقائق قف شعري واقشعر جسمي وطار لي، ولو اقسمت له عن سلامة صدر انه لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وان في الساعة خلاأ أدى الى هذا الخطأ لما كنت في اعتقادي حائنة ووددت لو بعث حياتي وجميع ما املكه من حطام الدنيا وان قلّ بساعة أخرى أقضيها معك

لم تكن لي مندوحة عن فراقك على غصتي بمرارته ففارقتك
مملوءة الفؤاد من الحزن ، فارغة العينين من الدمع ، معتقلة اللسان من
الوجوم ، على شرف من فقد الإدراك والشعور ، واجتزت مكان الأسلحة
يتقدمني دليل يحمل مصباحا فان الليل كان قد جن على ما ظهر لي ولم يكن
ابتعادي عن حضرتك حائلا بيني وبينك ولا شاغلا قلبي عن الاستغراق
في شهودك . كلا انني كنت اخالني في كل خطوة اخطوها اسمعك
تناديني مسترجعا اياي ، ولقد التفت مرة لآتين هذا النداء الوهمي فلم
يقع نظري إلا على وجه من الحجر ، ذلك هو احد البايين العظيمين
الحافظين لمدخل القرية . سار بي ذلك الدليل الخريت الواسع الخبرة
بشاطئ المحيط ومواقعه على حافة الساحل متجها نحو قرية . . . حيث يجب
أن أقضي ليلتي في ناموس الصيادين^(١) . هذا الطريق وعث أمضي فيه
الحزن والنصب حتى لقد كدت أن أجلس فيه مرتين على الرمال طلبا
للراحة واستميجك العفو ان أقول اني كدت أود لو تم لي ذلك فاني
كنت أعلل النفس بقولي : انني بجلوسي هاهنا أنام بالقرب من سجنه على
الاقل وان اغتالتني الامواج فحسبي اني قضيت نحي واسمه على شفتي
كنت في سبيل توطين نفسي على الصبر وتشجيعها على احتمال
المكروه اردد النظر الى جهة وكان الليل ساكنا الا أنه كان
حالك الظلام مخيفه فلا كوكب فيه ولا قر ، وكان يزيد في كثافة حجب
الظلام ذلك السحاب المركوم وما يجود به من الرذاذ البارد . وأما البحر
فكنت اسمع له من بعيد زجرة وهديرا وأرى فوقه ابخرة سنجاية

اللون . وقد تنورت على ما وصفت لك من شدة الظلمة ضوءاً ضعيفاً كان يظهر بصيصه من نافذة في جهة الجبل وتعذر عليّ أن احكم ان كان هذا الضوء المتذبذب منبعثاً من السجن او من احد مساكن القرية وكنت مع هذا الشك الذي كان يخامرني في مصدره انظر اليه نظر المحب الى اثر حبيبه وكنت أتوهم انه ان انطفأ ينطفئ معه نبراس حياتي ثم وصلنا بفضل همة الدليل وخبرته بعد الجدل في السير الى نقطة تقابل فلم يبق بيننا وبينها سوى جدول يجتاز على المركب . جلست في المركب على مقعد من الخشب أرشدني اليه الجذافون لما اضنتني الافكار ونهكت قواي الخواطر فكانت هذه الراحة والسكون المستتب حولي سبباً في توجيه ذهني الى فكرة جديدة فيينا أنا أفكر فيما كنت أفضيت به اليك من حالة صحي وما استنتجته العلم منها اذ شعرت على الفور بحركة شيء حي تحت منطقتي . الله اكبر قد كان الطبيب مصيباً وعما قليل أكون امماً لا احسبك نسيت أن أعظم أمنية كانت لنا في أيام الهناء الماضية ان يرزقني الله ولدا منك وانني لترعد فرائصي عند التفكير في ذلك .

على انه لا ينبغي ان اخفي عنك نتيجة شعوري بالحمل وهي أنني بعد أن تكدرت برهة أحسست بأن شعاعاً من الفرح والعزة يضيء في جوانب ظلمات حزني وأنا في رجوعي من عندك لم أكن فريدة محرومة من الرفيق وخلت اني قد وجدتاك بعد فقدك نعم أدركت مع الزهو والاعجاب أن ذلك الذي يحنه حشاي وتنضم عليه جوانحي هو انت أيها الحبيب وهل هو الا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك ؟ ثم خيل لي بعد ذلك بلحظة ان الامواج المضطربة تحييني بلسانك تحية الزوجة

والأمّ وقت في نفسي قد صار في وسعي الآن ان اقتحم ظلمات الليل والرمال
الوعثة ولا أبالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه
وصحت بأن هؤلاء ليس في قدرتهم ان يأخذوه مني وانه هو في الجملة
أبوه أو على الاقل بضعة منه يمكنني ان أخفيها في مستقري فأجعلها حرة
بعيدة عن عدوان المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في عرينها .
أقول هذا ولستكنني أرى أمراً يروغني ويبلبل فكري وهو طريقة
تربية هذا الولد فاني طالما سمعتك تتكلم فيما يجب على الوالدين لأولادهم
بعبارات هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث ان قلبي كان يحقق لسماعها
املا في انه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الامل وأنا
من تحققه في إشفاق ورعب . من ذا الذي يقوم بتلك الفروض التي أنت
تعلمها أكمل العلم؟ فقد كنت تقول لي : لو رزقني الله ولداً لو فقت حياتي
على تعليمه وتربيته وكنت تجاهر كل المجاهرة بانكار الطرق السائدة في
تربية الناشئين واستهجانها شديد الاستهجان . كل ذلك لا يزال منقوشا
في ذاكرتي لكنني بقدر ما كنت أعجب بأفكارك ومقاصدك تعتريني الآن
رعدة خوف أمام هذا التكليف الذي سيقم ثقله عليّ وحدي فقد فرق
بيننا القانون البشري بهوّة حفرها لتكون حاجزاً يحول بيني وبين الوصول
اليك في وقت أكون فيه أشد حاجة الى الاسترشاد بنصائحك والاستضاءه
بنور معارفك والاعتماد على معونتك الادبية . ليت شعري ما سيكون
من امر هذا الولد اذا كبر وهو محروم من رعاية والده وعنايته وما عسى
ان أفعل له وأنا كالقصبه الضئيلة قد رزحت بضعتي وضععتني سقمي ؟
قد وجدت قويدون الزنجي البار الذي أحضرته معك من امريكا

في انتظاري هو وزوجته على الشاطئ الآخر للجدول فلما رأياني ارادا
تقيل يدي رغما عني قائلين ان هاتين اليدين صاغتاك يديك وان لك
الفضل عليهما في الحصول على حريتهما . وما بلغت الشاطئ الا وأنا في
قفقة من البرد قد وصل أثرها الى اعماق نفسي وكانت ثيابي مبللة
فوجدتهما والحمد لله قد أعدا لي فراشا في احد نواميس الصيادين التي على
ضفة الجدول واذكيا لي به نارا من قضبان أشجار يابسة فأخذ البرد يزول
عني تدريجا بتوقد اللهب في المستوقد وارتحت لما كان يديه لي كل من
هذين الشخصين من إخلاصه في الحب والولاء . ما أشد عدوى بر
الانسان وأعظم أثر احسانه ؟ فاني نمت هذه الليلة احسن من نومي في
سوابقها بعد ذلك النهار الذي قضيته متعبا الجسم والنفس وكدت فيه
ألن الحياة واسأماها وانا اكتب اليك الآن في ناموس الصيادين بعد
استيقاظي من النوم صباحا

تجد مكتوبي كما اتفقنا بالامس محبا فيما ارسله لك من الملابس التي
توليت طيها واصلاحها بنفسي . ورق هذا المكتوب - وان كان رقيقا -
متين وقد طويته طية جعلته فيها على شكل زر ، فليت شعري هل يتيسر
لك قراءة خطي الذي هو كارجل الذباب ،

سأعود بعد غد الى السجن فقد وعدت بأن يؤذن لي في الدخول
الساعة الأولى مساء وعسى أن اتجدد في هذه المرة فاستجمع شتات فكري .
والآن أقبلك قبلة الوداع بكل ما في نفسي من قوة الشوق والملمتي
قريب ان شاء الله

الرسالة الثامنة

(من إراسم الى هيلانة في ١٦ يناير سنة - ١٨٥)
(نقله من سجنه الى سجن آخر)

أكتب اليك هذا وقد استيقظت في الساعة السادسة صباحاً وعلمت ان عشرين مسجوناً انا منهم قد فصلوا لارسالهم الى سجن ٠٠٠ وبلغني ان أمر نقلنا وصل الى هنا ليلاً من باريس فلم يكن لي من وسيلة لانبائك بهذا الخبر قبل الآن ولم يبق لي أمل في لقائك فان السفر سيكون في الساعة السابعة صباحاً وسيصل اليك هذا المكتوب وانا في طريقي الى الجزيرة التي جعلت مقراً لي فأودعك وداع محب ثابت على عهد لا يثنيه عن حبك اعتراض الحوائل ولا يلويه عن ذكرك تطويح المطاوح .

(غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه)

الرسالة التاسعة

(من هيلانة الى إراسم في ١٧ يناير سنة - ١٨٥)
خيتها في زيارة السجن وعزمها على اتباع زوجها في منفاه

جئت اليوم الى السجن لزيارتك فمثل لنفسك ماعراني من هزة الطرب ونشوة الفرح لما علمت بأنك أخرجت منه . ما كان أبعدني عن العقل واقربني من الجنون في تلك الساعة اذ ظننت انك فزت برجوع

نعمة الحرية اليك ! . لكن لم يلبث كاتب السجن أن أبان لي خطائي اذ اخبرني بأنك قد وجهت (هكذا عبارته) الى جزيرة واني سأتابعك قاطعة أجواز البحار ، مقتحمة في سبيل القرب منك جميع الاخطار ، فأينما تكن وان في آخر الدنيا فلا بد لي من اللحاق بك لا يعوقني عنك هجير الشمس المحرقة ولا اخطار مجاهيل الصحاري والقفار ولا اعتراض سلاسل الجبال الشاخنة دونك لان غايتي التي اسعى اليها هي ان نعيش مجتمعين فاكتب إلي حتى اوافيك لأمتع النفس بلقائك

الرسالة العاشرة

(من ارسم الى هيلانة في ٢ فبراير سنة - ١٨٥)

نهبها عن السفر اليه رعاية للجنين وما يلزم له من السكون

انا واثق ايتها العزيزة بحبك اياي واقسم عليك بأطهر ما يوجد في هذا العالم واجده بالتقديس ان لا تقاريني وان تهرولي هربا مني . نعم انني قبل الآن بشهر أو شهرين كنت اقبل منك هذا الخلاص الشريف طيبة به نفسي منشرحاله صدري اذ لم أكن عالما بحملك وكنت أجد فيك وحدك حيناً بعد حين تفريجا لسكريتي في وحدتي وايناسا من وحشتي . وكنت لأعزازي بوجودك معي واغتباطي بقربك مني ولو ساعة من نهار انسى كل ما اقله في لحظة من الحافظك . اما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الشؤون تبديلاً عظيماً فاصبحنا انا وأنت لانملك من أمرنا شيئاً حتى حرية التعاب والتواد . اصبح ماهو في العادة سبب اتصال واقتراب

بين الرجل والمرأة سببا لا انفصالنا، وحائلا دون اجتماعنا، وذلك للحال السيء الذي نحن فيه . الا يجب ان نهى هذه المجاملات وتلك الآداب لذلك الذي لم يوجد بعد الوجود الكامل بحيث يطلق عليه ما يعبر به عن الوجود ؟ الا انه قد وجبت له علينا حقوق نحن مطالبون بادائها . اياك ان تنسي انك مسئولة امام الله عما وهب لك من حلية الشرف بأن أهلك لأن تكوني أمّا

اني أخطبك من حيث أنا طيب وزوج - وأخشى أن أتعجل فأقول أب - بأن الذي ينبغي لك الآن هو شيء من السكينة والاستقرار، وأنصح لك بأن تغادري بلادنا الآن وتهجري من هذه الارض التي تميدبز لازل الفتن فمي نصيحتي واتبعيها، واعلمي أن لي صديقا في انكسرة من رصفائي الاطباء يناجيني حسن اعتقادي فيه انه سينفعك ويرشدك الى كل ما يجب عليك علمه مما يتيسر لك به توطن تلك البلاد على حالة موافقة، وان لنا والحمد لله فيما جمعه بكدي من يسير المال سدادا من عوز بل كفافا من العيش، فاستجمعي به أولا لنفسك كل وسائل الراحة ومعدات المعيشة الطيبة ثم احفظي ما بقي لتربية ولدنا آه لو أدري عاجلا انك قد فارقت فرنسة وابتعدت عن مشاغب الشقاق الداخلي، فعجلي بالرحيل أيتها الحبيبة أقول - والله على ما أقول شهيد - إنك لم تكوني في زمن من الأزمان أعز على نفسي وأغلى قيمة عندي منك هذه الساعة التي أرغب فيها اليك في عدم اللحاق بي في سفري الحزن . لا تكثري همك بما قدر عليّ واعلمي ان جل ما يعانیه المسجون من الشقاء هو احساسه بان لا نفع

(٣ التربية الاستقلالية)

في وجوده وقد ذقت أنا هذا الألم النفسي وبلوت مرارته لكنني اليوم قد كلفت بواجب جديد يتحتم عليّ أدائه واني لارجو أن أقوم به مهما حالت دونة الحوائل

وفي الختام أودعك وداع حبيب يرى في قلبه من إجلالك ما يمنعه من الشك في حبك اياه ويعلم به أنك لاتشكين في حبه اياك .
(حاشية) اني مرسل طي هذا مكتوبا للدكتور وارنجتون في لندرة اه

الرسالة الحادية عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ١٥ فبراير سنة - ١٨٥)

تفضيل الامومة على الزوجية واماني الام في الولد

أطعت أمرك وسمعت نصحك وسأسافر غدا الى انكاترة ، واني قد استرجعت جزءاً من ثبات جناني ، وفتح مكتوبك لي أبواباً أرى منها مشاهد جديدة . لتفن صفة الزوجية في صفة الامومة فتلك سنة الله في خلقه لا محيص لي من اتباعها . على أن هذا الولد الذي وعدت به سيكون الرابطة بيننا ويقرب شقة البين التي تفصلنا بعض التقريب . واني أرغب في الحياة من أجله ومن أجلك ، فانه سيكون يوم يمن الله علينا بانتظام الشمل موضوع سلوة لا حزاننا وقرة لأعيننا وعزة لآتفسنا

حقق الله ما نرجوه من الامل ووقانا بفضل عوادي السوء اه

الرسالة الثانية عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ٢٥ مارس سنة ١٨٥٠)

وصفها لوندرة ومقابلتها الدكتور وارنجتون وسفرها بارشاده الى بنزاس
واقامتها مع زوجها ووصفها ملاقات

كتابي اليك وقد استقر بي النوى الآن في انكلترا أكشفك فيه
بما وجدته في هذه البلاد فأقول . استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي
عجلة اجتزت بها ما بين القنطرة المسماة بقنطرة لوندرة « لندن بريدج »
والميدان المعروف بميدان أوستون . وكاني بك سائلي عما شاهدته من
عاصمة الجزائر البريطانية : لم أر منها شيئاً أو إن ما رأيته لا يكاد يكون
شيئاً يذكر . كنت أحس أحياناً بأني أدور في الظلام مع العجلة اثناء
جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخالها
هاجعة ، وكنت أرى عقب ذلك من كويتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات
اليمين وذات الشمال تحدها المخازن التجارية من الجانبين ، ويمتد في جانبي كل
منهما على مدى البصر صفان من المصاييح الغازية ، فكنت تارة أجدني
في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى اراني بين طوائف غير منتظمة من
تلك المصاييح . وقد كان منظر ضوئها المنعكس على رصف الشوارع
المبللة وعلى وقائع^(١) الطريق ، وجملة أهل المدينة الذين كانوا يغدون

(١) الوقائع جمع وقبة وهي النقرة في الجبل او في السهل يستق فيها الماء

وبروحون وسمات الهم والاشتغال بادية على وجوههم ، وجلبة الفوغاء^(١) التي كان يتعاورها السكوت فجأة - كان كل هذا غريباً عندي غير معهود لدي ، وكانت السماء تمطر وكان لا مطر . ذلك انها كانت ترم^(٢) إرهاباً خفيفاً جداً يقول رائيه انه لا بد ان يستمر هكذا ألف سنة . وقد حصل في ذهني من سقري هذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما أجهله من الاماكن صورة مدينة لا أول لها ولا آخر ، فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ ، وكثير من أنواع الحقارة والمسكنة ، فهل هذه هي لندره ؟

تبوأ النزل الذي كانت وصفته لي السيدة فأنفيت كل ما فيه في غاية النظافة والهدوء والنظام . قدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ملاصقة للغرفة التي أعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع ، فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لادكار القليل من الانكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسة لمخاطبتها بلغتها ، فكانت أجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث ان فهمت من احتراسها في كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها ان الخادومات الانكليزيات لا يحفلن بمخاطب المخدم اياهن خلافا للفرنسيات : والذي أدهشني كثيرا في هذا النزل ان اهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة امري !! عجبا لهذه البلاد التي لا يظهر ان أهلها يعتقدون اني ما اتيت بلادهم الا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية)

(١) الفوغاء عامة الناس وجلبتهم لفظهم غير المفهوم (٢) ارهمت السماء اتت

بالرمة وهي بكسر الراء المطر الضعيف الدائم

اتباعاً لنصائحك قد اهتمت الى محل الدكتور وارنجتون وذهبت
اليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت اليه مكتوبك فما كاد يأتي على
آخره حتى تذكر اسمك واقبل علي تلوح عليه علام الوقار الفطري
انشأ هذا الدكتور يخاطبني بالفرنسية وهو يحسن الكلام بها بعض
الاحسان فقال « لقد أصاب زوجك في إرسالك الى بلاد اجنبية
فستراح نفسك الى المقام في انكلتره بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة
الا اني أنصح لك بان تقيمي في الارياف فانها أجود مناخا واصفى هواء
فان السكنى في الحواضر العظيمة لا تلائم النساء في الطور الذي انت فيه
الآن ولا تلائم الاطفال ايضا ، وقد انشأ الكبراء من تجارنا في لندرة
يفهمون مزايا الاقامة في القرى ويقدرونها حق قدرها فترينهم لا يعبأون
بالسفر مرتين كل يوم في السكة الحديدية ولا بما يضعه عليهم هذا السفر
من الفوائد الكثيرة التي منها الحضور في ناديهم مثلاً وذلك ليمتعوا
أسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك
نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الليلي ، ولكل امرئ
منهم في الحقيقة نصيب من فائدة هذه الاقامة غير أن الاطفال هم اصحاب
الحظ الاوفر منها فهم ينشأون في كمال الصحة من هذه المعيشة المطلقة
في هواء الفضاء ، ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الغنجات^(١) المتورّيات^(٢)
اللاهيات بالتافه والمحقرات ، ولكن ما الحيلة في إرضائهن وللامومة
واجبات لا بد من أدائها ؟ تأملي في الاطفال الذين يتربون في المدن
الكبيرة ، الاترين معظمهم شاحبي الالوان سقيمي الاجسام كالنباتات

الموشمة (النابتة في الظل المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها) . اتظنين انهم على هذا الضعف يزدادون في عقولهم بقدر ما يخسرون من صحتهم ؟ كلا اتني لا أرى هذا صوابا لان جو المدن الذي أفسده ما فيها من ضروب اللذائذ وصنوف الاعمال لا يلائم بحال من الاحوال نمو العقل الخلقى ، وان الاطفال ليلغون سن الرجولية قبل ابائه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التي في المدن الا انهم في الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الكمال الدرجة المطلوبة »

فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتسم ابتساما انتهى بظهور خطوط عرضية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر الصدغين القصير الذي قد وخطه الشيب ، ثم استأنف الخطاب فقال :

« دعيني اتولى أمر سكنك في الخلاء فان لي صديقا يملك في قرية مرازيون بيتا للنزهة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يمتح عن مستأجر يؤجره له بجميع أثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطالية للمقام بها لاسباب صحية فانا أرغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته واحثك على ذلك وأرى ان في هذا السفر تسلية لك وترويحاً ، ولو اني طيبك لكان من أول ما أصفه لك تبديل الهواء ، وكوني على ثقة بأن آلام النفس تزول بتغيير المؤثرات فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاضى على هذا التغيير كما ثبت لي بالتجارب فإن الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة يحيا حياة جديدة . وليس لي ان أمدح لك أميرية (كوتية)^(١) كورنواي فانها مسقط رأسي . على

(١) الكوتية هي ارض الكونت وهو الشريف من اشراف فرنسة الغابرين

ان الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات بريطانيا العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في أرضها الرياح والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروهن منظر الصخور فانك ستشاهدين هناك منها جميع الاشكال في أبهج الاوضاع وأجدرها بالتصوير ، ولست أعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطلبها صديقي في سكنى بيته لكني لا أشك في انه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه وستجدين في بنزاس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي وأسرتها حتى الآن وستتعبط باستقبالك وأما أنا فساذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من اشغالي في لندره فاننا معشر الانكاييز لا نقدر على اطالة الشواء في مكان واحد فالحركة والنفضاء من حاجتنا . وما كان أجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الامم تغيرا فاننا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لاننا في أوطاننا أينما كنا .

اقترت أنا والدكتور على احسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كنهه اجلاله لك واعظامه لقدرك ، ولمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحا خفيفا الى ما انا فيه من الفرقة الحاضرة ، فأبان لي به عن عطف عليّ وميل اليّ ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيرا ما أذلتني وهضمتني حق إدلاي بصفة الزوجية . تم الاتفاق بيننا على ان اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لأستقر في مكان ما ، وقد رضيت هذه البلدة لي مقرا لان جميع الامكنة التي لا أراك فيها سواء عندي .

لما وصلت الى بنزانس اثناء الليل تلتقني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظاري لان زوجها كان كتب اليها بذلك واذا أردت ان تتصور تلك السيدة فمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميعة ولكنها محبوبته سوداء العينين والشعر خنساء الانف عظيمة الفم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد أوتيت حظاً وافراً من الحنان والرافة

لقد كثر ما لاحظت انه يوجد في بعض الاحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين افراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه . أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون ؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا ، خلّتي أراه بذاته في زي امرأة

حمل أمتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . ولهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلاً في ضوء السماء فانه لكونه مبنيًا بالصوان كمعظم بيوت التنزه الخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان حجارته صفائح من اليرمع^(١) والمهو^(٢) تلمع كأنها شهب تساقط من القمر، وفي النهار أيضاً له نوع آخر من جمال المنظر، فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة، وينبسط على طول مقدمه إيوان مسقوف

(١) اليرمع حجارة يضي تلمع في الشمس (٢) المهو حجر ابيض يقال

تتسلقه شجيرات الفوشياء^(١) التي ترتفع ارتفاعاً غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم تر عيني مثلاً قط ، وليوت النبات الزجاجية المحل الاول في انتظام هذه الدار على ما أرى . لا جرم ان مثل هذه البساتين المسقوفة بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسناً والغرفة التي تفضل أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي واحلتنيتها السيدة وارانجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفائق الظرف ينخالها الانسان جنة - لو أن للارواح الوحيدة الجريحة أفئدتها من الحزن جنة في هذه الدنيا . . . - ومن محاسن هذه الغرفة اني عند ما أهب من نومي فيها اسمع تغريد القبرة فيروقي لحنها .

السيدة وارانجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين ، أحدهما لتربية اولادها ، والثاني للعناية بأمر ازهارها ، ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ يكفيها للمطالعة ، وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق والمفهوم لها من طرق الاستدلال على مسائل شتى أحكام صائبة وآراء سديدة . وأسرة هذه السيدة يعجب بها من يراها ، فبناتها الكبيرتان اللتان احدهما ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعاً - كما كان يقال في تقدير السن سابقاً - لكل منهما وجنتان يذوب الورد منهما غيرة وحسداً ، وبعد هاتين البنيتين صف من بنات أخريات وبنين يتألف فيه من اختلاف رءوسهم بالصغر والكبر وتباينهم بالطول

(١) الفوشياء شجيرة امريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع

ازهارها في اشكالها والوانها وسهولة غرسها وهي من اشجار الزينة

والقصر نظام يحوي اجمل الفروق وابهاها . كثيراً ما كنت اسمع ان النساء الانكليزيات نُثرُ (كثيرات الاولاد) ولكن : الله اكبر !
ما هذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان الزاهية الغضة التي ما كنت أسمع بها ! اهـ

الرسالة الثالثة عشرة

✽ من هيلانة الى إراسم في ٢٨ مارس سنة ١٨٥٠ ✽

زيارتها جبل القديس ميكائيل ووصفها المنزل الذي استأجرته للسكنى

خرجت بالامس للنزهة أنا والسيدة وارنجتون راكبتين عجلة مكشوفة
سلكت بنا المهيح الذي يبتدىء من بنزاس ويلتف حول الخليج المسمى
بخليج الجبل على شكل نصف دائرة عظيمة كخذاء الفرس، فما ابهج ما رأيته
وأجمله ! على انه ليس أول شيء أمال ذهني ونبه فكري هو البحر الزاخر أو
شواطئه المرصعة بالصخور أو حركة أمواجه المتلاطمة المتعاقبة في تلاشيها على
رمل الطريق، بل الذي استوقف نظري هو قطعة من الصوان يعلوها بناء
كالدير أو القلعة الحصينة يسميها الانكليز بالجبل، وهي بارزة على يسار بطن
الخليج ولذلك نسب اليها فقليل له خليج الجبل. إخالني رأيت هذه الصخرة بما
فوقها من الابراج الصغيرة في منام أو في وقعة من وقعات الكابوس عليّ.
سألت السيدة وارنجتون بصوت متقطع من الرعدة عن هذا الشبح
الحجري فأجابتنى مترددة لما رأته من حالتي بقولها: هذا هو جبل القديس
ميكائيل عندنا . فلما سمعت منها هذه الكلمة احسست بان كل ما في جسمي

من الدم قد جزر عائدا الى قلبي فلمحت ماصرت اليه من الاضطراب وعرضت عليّ الرجوع الى المنزل فصحت : لا ! بل لا بد لي من الذهاب اليه فاضطررنا من أجل ذلك الى الطواف حول الخليج والذهاب الى مرزيون .

لما انصرنا حذاء الجبل كان البحر في إبان جزره وكانت هذه الصخرة الصوانية على شكل شبه جزيرة لأنحسار الماء عن بعض جهاتها بعد أن كانت جزيرة كاملة بعض ساعات من النهار . سلكنا للوصول اليها شعبا رمليا موحلا يكتفه من الجانبين قطع من الصخور مغطاة بالطحلب والعلي^(١) المبللة وتيسر لنا به ان نجتاز البحر ييسا وبما كان يعرض لنا من القطع الصخرية كنا كأننا نمشي بين أطلال ، وكنت كلما جد بنا السير أزداد دهشة وارتياعا لتشابه ذينك الجبلين المتحدي الاسم فان هذه الصخرة بما فوقها من البناء وما حولها من البحر تكاد تكون عين التي في بلادنا الا ان تلك أسعد حظا من هذه فانها لم تدنس باتخاذها سجنا في زمن من الازمان .

افضى بنا المسير بعد حين الى سفح ذلك الجبل فاذا حوله لقيف من مساكن حقيرة يتألف من مجموعها قرية للصيادين والملاحين فوقفنا تشرف علينا الصخرة الصوانية من سموها المريع ، ثم اقتحمناها فاضطررنا في ذلك الى الصعود على شعب بل سلم نحتت درجاته في الصخرة وقد انتهى الامر بالسيدة وارنجتون الى ان ضاقت انقاسها وطفقت تلهث من شدة التعب فدعوته الى الاستراحة على كتلة من كتل صخرية كانت تعترضنا في طريقنا ويظهر انها خرجت من باطن الجبل بسبب انفجار ناري فما كان

(١) العلي نبت يكون واحدا وجمعا قضبانه دقاق عسر رضا تخذ منه المسكاس

اسرع ما اجابت، وجلسنا طائفة من الزمن لا تنبس بكلمة لما أدهشنا من مشهد العظم والخراب فكان البحر محققا بنا وذلك البناء القائم الذي هو من آثار القرون الوسطى فوقنا، وعن إيماننا وعن شمائلنا اطلال من الصخر يغطي جزءا من عريها بعض الاعشاب البرية . وقد رأيت على ما في هذا المكان من المحول زهرة زرقاء نابته في صدوع الصخر على طبقة رقيقة من بقايا الاعشاب المتعفنة فقطقتها على ذكر الك لعلها تكون بشرى السعادة . كنت الى هذه الساعة التي رأيت فيها جبل القديس ميكايل مترددة في اختيار البتة التي اتخذها متبوءا وسكنا ، واما الآن فقد اسنقر لمجرد مشاهدته رأبي وزال ترددي . فكأنما يوجد شيء من السحر في أسماء الامكنة واشكالها تغلب على فكري فحمني على ترجيح الإقامة بهذا المحل على انه لا بدع ولا سحر، فهاتان الصخرتان - اللتان تتراءيان وتتناغيان مع فصل المحيط بينهما - وهما جبلا القديس ميكايل اختان في انكثرة وفرسة متشابهتان في جميع الصفات والاوزاع فأول هذين الحصنين وهو حصن الانكليز كان حظه من كر السنين عليه الترك والاغفال، واما ثانيهما وهو حصننا فان له صراخا يصل الى كبد السماء دالا على استبشاع حالته وامله في الخلاص منها .

ذهبنا في نفس ذلك اليوم لزيارة المنزل الذي أوصاني الدكتور وارنجتون باستجاره وقد علمت ان مؤسسي قرية مرازيون التي هو فيها من اليهود الذين كانوا يتجرون فيها بالقصدير قبل ميلاد المسيح بزمان مديد ، واني لفي شك من وجود كثير من ذريتهم الآن في هذه القرية فانه لم يبق من دلائل وجودهم في هذه الجهات الا اسم واحد وهو

(اميرسيون) قد ارتاحت نفسي له لانه يذكرني بفرنسة. تتألف تلك القرية من جملة مساكن جديدة على بعضها مساحة من طلاوة المدينة الانكليزية، وهي قائمة من الخليج على شاطئه المقابل لجبل القديس ميكائيل الذي يترأى معها على بعد فلها في ذلك منظر ذوباء وجلال من محاسنه . ان هذا الخليج - وهو تلك القطعة الجميلة من الماء التي تكتنفها الرمال وتخللها الصخور وخصوصاً ما هو منها جهة الشاطئ المقابل للمنازل - تكثر فيه حركات الامواج المعتدلة التي تسكن آلام النفس وتخفف من برحائها .

بقي علي الآن أن أحدثك عن المنزل فأقول : انه لا ينقصه شيء من المتانة والرصانة لانه كله مبني بالصوان الذي يكثر في هذه الجهة دون غيره ، ولما كانت مادته شديدة الصلابة تتعاضى على النحت اعتاد البناءون على الاكتفاء في إعدادة للبناء بترقيق قطعه ، ومن أجل ذلك كانت ظهور جدران المساكن في الجملة خشنة وغير مستوية ، وطريقة البناء في الداخل تخالف كذلك طريقتنا فيه مخالفة عظيمة لانهم لا يقتصرون هنا على فصل البيوت بعضها عن بعض بحيث لا تتلاصق ، بل هم يفصلون بين الغرف ايضاً بحيث تكون المعيشة عزلة تامة .

ذلك البيت قائم على ربوة رملية قحلة فلذلك أخشى ان يكون معرضاً لهبوب الرياح الشديدة الآتية من البحر ، لكن الناس يؤكدون لي ان هذه الرياح التي تهب من هذه الجهة تكون فاترة صحية في جميع فصول السنة . واما الأثاث فهو في غاية البساطة والملاءمة لحالي ، واكثر ما دهشت له في هذا البيت هو اني وجدت في الطبقة العليا منه غرفتين منفصلة احدهما عن الاخرى تمام الانفصال ليس لهما في ذاتهما شيء تمتازان به امتياز اظاهرا

نكتهما على هذه البساطة قد أحسن البناء وضعهما فكان لهما أجمل منظر واحسن موقع تشرق عليه الشمس، فالضوء يسبح فيهما بلا حجاب يعترضه لان نوافذهما من اجل ان تتلقاه بالتكريم تكاد تكون مجردة من الستائر وهذا منها نوع من الادب والترحيب بلسان الحال فكأنها تقول له : تفضل فهذا محلك لا يمنعك منه مانع. نعم ان عليها من الخارج بعض قضبان من الحديد انقبض قلبي لرؤيتها أول مرة الا أن هذا الالفعل السيء قد زال عند ما علمت ان هذا المحل هو مسكن الاولاد وان هذه القضبان لم توضع الا لمنع ما عساه يقع من الحوادث التي تكثر عادة من الاطفال بما يلزم سنهم من التهور والجهل بالخطر فهي اذن وسيلة من وسائل التحفظ لا علامة على الاسر. في احدى هاتين الغرفتين ينام الاطفال وفي الاخرى يلعبون بالنهار اذا كان الجو بارداً أو السماء ممطرة ، وقد أكد لي الناس هنا ان هاتين الحجرتين يوجد لهما نظيرتان في كل بيت من بيوت الانكليز التامة المنافع والمرافق .

ولا أنكر عليك ان هذا الامر قد أثر في نفسي فان معظم الدور عندنا في باريس تامة البيوت والغرف والمرافق اللازمة ، وهي حجرة الاكل وقاعة الاستقبال وغرفة النوم والمكتب ومخدع الخلوة وغيرها مما يطابق عادات الرجل الديوي واهواء المرأة المترية فلم ينس فيها الا ما يلزم لشخص واحد ، الا وهو الطفل

الطفل عندنا بسبب اضطراره الى ملازمة الكبار في معيشتهم وتقضيته الايام والليالي في غرفة واحدة مع والدته العصبية الرقيقة المزاج ووالده المثقل بالاعمال لا بد ان يكون ضيقاً مقلقاً لغيره واسيراً كاسف البال في

نفسه فانه لامندوحة عن ان تمتد يده الى الاثاث فتفسده وتتناول الكتب
فتمزقها والآنية الصينية فتكسرها ويجرّ عليه هذا النزق وما ينشأ عنه
من الإلتلاف الخفيف تويخاً مستمراً ، فيقرعه والداه ويعاقبانه على نشاطه
وسروره ولغظه ، اعني على كونه طفلاً .

وليس هذا كل ما يلاقيه عندنا فانه احيانا قد يطرد من مسكن أبويه
لضيق المحل فلا يجد له مأوى سوى فناء المنزل وانت تدري ماهي افنية
البيوت في معظم المدن الكبيرة فليست هي الاجحور ضباب .
قد فهم الانكايير مقتضيات المعيشة المنزلية من حيث سكنى الاولاد
أحسن مما فهمناها بكثير فهم يعتبرون المولود عندهم شخصاً مستقلا
يفرذونه بحجرة قائمة بذاتها .

لم أصف لك حتى الآن شيئاً من بستان البيت على انه هو الذي
أخذت بهجته ونضارته بلي : ليس لهذا البستان سور من البناء وانما هو
محاط بسياج من النبات تمطره في شهر يونيه - على ما يقال - شجيرات الرثم^(١)
الشوكية ذهباً من أشجارها المسجدية ، واذا أردت ان تتصور جمال هذا
البستان فمثل لنفسك نحو اكرين^(٢) أرضاً تعطيها جميعاً شجيرات الورد
وعنب الثعلب وغيرها من الاشجار الصغيرة . وانما كان ما في هذا البستان
شجيرات لان أرضه رملية ومجاورة للبحر فهي لاتصلح للاشجار الكبيرة
ولكن قد أنشأت تنفتح بين أعشابه العطرية عيون بعض ازهاره البنفسجية

(١) الرثم شجرة ذات ازهار صفراء أصلها من اسبانية (٢) الاكر كافي الاصل
مقياس سطحي قدره ٤٨٤٠ ياردة مربعة . واحسبه محرفاً عن الاكارة القرية في
المعنى منه لانها في عرف الفقهاء الاسلاميين ما يعطى من الارض للاكرة لزراعتها

فكيف يكون جماله بعد خمسة أو ستة اسابيع اذا كساه الربيع بلا حساب ما لديه من حلل البهاء والنضارة ؟

قد استأجرت المنزل وسأسكنه في الاسبوع المقبل واما الآن فأنا ساكنة عند السيدة وارانجتون التي تحوطني بانسها الدائم وكرمها الغامر وكل ما أنا فيه من وسائل النعيم يؤلمني وأوبخ نفسي عليه عند ما اذكر سجنك وما انت فيه من الضيق والالم .

أنا متطلعة لاخبارك أيها الحبيب فأرجو ان توافيني بشيء منها ، فهل خفت عليك معيشة السجن بسبب تغير الحمل أو زادت ثقلا ؟ اسألك بالله أن تصدقني الحديث ولا تخفي عني منه شيأ

وفي الختام اقبلك من وراء تلك البحار التي وان حالت بيننا لم تفرق

بين قلبي . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٨ ابريل سنة - ١٥٨)

وجوب محافظة الحامل على سلامتها من الامراض

تلقيت مكتوبك ايتها العزيزة هيلانة فذهب به روعي وثابت اليّ سكينتي واطمأن به قلبي عليك كثيرا لشقيقه لي عما فيك من الاقدام والسلطان على نفسك فانت حقاً اشرف صاحبة عرفها في حياتي . قدر علي السجن وعليك النفي فاحتملت نصيبك من المقدور شريفة النفس عالية الهمة .

ان نصيحة صديقنا الدكتور وارانجتون لك بسكني القرى صادرة

عن حكمة وسداد فان الإقامة بالاريف أولى بك الآن من السكنى في المدن لكثرة ما في هذه من الصخب والشغب لان الاعتكاف والرجوع الى المعيشة الفطرية هما اللذان يتيسر لك بهما ولا شك استجماع قواك بعد مالاقيته من تلك الصدمات النفسية التي اخشى ان تكون زعزعت صحتك فأوهنتها .

اعلمي ان من المفروض عليك ان تكوني صحيحة الجسم سليمة من الادواء ، لانك مسئولة من الآن عن الوديعة التي استودعك الله اياها ، ولا تستغربي مني مخاطبتي إياك باصطلاح العلماء بمنافع الاعضاء فاني ما تعلمت الطب عبثا بل تعلمته للارتفاع به . كل كأن دخل في بداية الحياة عرضة للمرض والهلاك ، ولذلك كان للجنين امراض حقيقية . ومن هذه الامراض والعلل الخفية مالا شك في عجز العلم عن إدراك كنهه ، ولكن يحق لنا كل الحق ان نعتقد ان للمرأة دخلا في بعض مايولد به الطفل من التشوه في كثير من الاحوال ، ولا اخالك نسيت تلك السيدة د.. التي فتنت القلوب ببديع حسناتها لما أصابها هوس المرقص وبعثها على ان تقضي فصل الشتاء كله رقصا في قاعات باريس - بل اداها الى الاستمرار على ذلك حتى في ساعة الوضم - قد وضعت بنتا فيها شيء من الجمال غير انها حذباء .

اذا عرفنا ان لأعمال المرأة تأثيرا في الجنين كما وصفنا تأتي لنا أيضا ان نقف على العلاقة التي بين انفعالاتها النفسية وبين اخلاق ذلك الجنين الذي يحيا بحياتها ، ويشمله شخصها وتضمه احشاؤها ، فقد كان الحكيم (٥ التربية الاستقلالية)

هوب^(١) يعلل ما فيه من خلق الجبن بما لاقته أمه من الاهوال أثناء حملها به حينما كانت العمارة الاسبانية المسماة ارمادا الشهيرة تهدد انكلترة وتطوف حول سواحلها ، وكان ما يتخيله أهلها من صورة إغارة الاعداء عليهم يلقي الرعب في قلوبهم .

قد طالعت وقائع نيجل^(٢) فما أشد ما تجدينه فيها من مسكنة الملك يعقوب الثاني^(٣) فلشد ما كانت ترتعد فرائصه ويصفر لونه عند رؤيته السيف مجرداً من قرابه . فجن ذلك الملك على كونه مما يضحك الشكلى - ربما كان جديراً بأن يحرك في الانسان عاطفة أخرى اذا صح ان ضعفه هذا ناتج من مشاهد المصائب والرزايا التي كانت تحيط بأمه مريم استوارت^(٤) في أثناء حملها به .

يصعب الحكم اليقيني على درجة تأثير الجنين بزراع الشجرة العصبية التي تظله في بطن أمه في حالة العلم الحاضرة ، ويكفي وجود الشك في تأثيره موجبا على أمه اتقاء أسباب الانفعالات الشديدة والنظر الى الاماكن

(١) هوب هو توماس هوب الحكيم الانكليزي الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفى سنة ١٨٥٨ ميلادية وهو من أنصار مذهب الاستبداد في السياسة (٢) نيجل كاتب قصصي شهير (٣) يعقوب الثاني هو أحد ملوك انكلترة السابقين وهو ابن كارلوس الاول تولى الملك بعد اخيه كارلوس الثاني سنة ١٦٨٥م وحاول رد المذهب الكاثوليكي الى انكلترة وارجاع حكم الاستبداد فخلفه صهره غليوم اورنجا فالتجأ الى لويس الرابع عشر ومات في فرنسا سنة ١٨٩١ (٤) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية وأم مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ وماتت سنة ١٥٨٧م تزوجت ولي عهد الحكومة الفرنسية الذي صار بعد الزواج فرنسيس الثاني ولما توفي زوجها عادت الى ايقوسية وتزوجت بهنري دارتلي ثم تزوجت بيونويل ثم ثار عليها رعيها فالتجأت الى اليعصابات ملكة انكلترة وبقيت في الاسر تسعة عشر عاماً حتى ماتت

المشتومة والابتعاد عن المتاعب وعما يجره الاخلاص في الولاء من الشدائد والمحن

المرأة هي قالب للنوع الانساني يفرغ فيه فيتشكل بشكله الى حد محدود، فيجب عليها لهذه الصفة رعاية صحتها والمحافظة عليها . فيلزمها في الحمل ان تكون مستريحة الجسم والفكر مستجمعة القوى ، ولكن يندر ان يوجد بين ربات الجمال من النساء من تصبر فيما جرى العرف بتسميته الدنيا الكبرى على ترك اللذائذ ومجامع الافراح وملاعب التمثيل لتنال شرف الاتيان بأولاد حسان ، بل من خسارة الصفة لديهن ان يجدن انفسهن عاجزات عن استئجار غيرهن لتأدية وظائف الحمل كما يستأجرنهن للرضاعة ، فانهن لو وجدن لذلك سبيلا لاستأجرت المثيريات منهن من عهد بعيد بطون نساء الطبقة السفلى لحمل اجتنهن .

وأما هؤلاء فانهن لكدهن في وسائل المعيشة لا يجدن لهن من الزمن ما يهتمن فيه كثيرا بأمر ذريتهن ، فقد رأيت بعضهن وقد أثقلن حتى كدن يشارفن الوضع تاجئتهن ضرورات المعيشة الى غسل الملابس في نهر السين زمن الشتاء فكن يغمسن اذرعتهن في مائه المثلوج أو تضطرهن الى دفع عجالات محملة لتمشيتها أو الى حمل أثقال باهظة يرتاع لها الاشداء من حمالي الاسواق ، وبهذا تعلمين ماجر علينا مافي اخلاقنا من الاثرة وحب الاختصاص من رداءة النسل ، كل ما يضعف المرأة التي هي قرينة الرجل وصاحبه يضعف الذرية ويحط من شرف الجنس ، فاذا أراد المجتمع الانساني ان يضمن لنفسه الحصول على أولاد حسان الخلق يكونون في المستقبل رجالا أشداء فلا يتسنى له ذلك الا بتحري

العدل في تقسيم ثمرات العمل وبأن يعرف للمرأة ما تستحقه من الاحترام والاحلال . اهـ

الرسالة الخامسة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١٠ ابريل سنة - ١٨٥)

(التربية الاولى من خصائص الام)

• غرضه من تربية ولده أن يكون حراً لا أن يكون من كبار الرجال •

ليست مكتوباتي اليك كغيرها مما يكتب الناس بعضهم الى بعض وانما هي احاديث مسجون يناجي بها في عزلته أعظم شقيقة لنفسه وأحسن قسيمة لروحه

ولا بد ان يكون قد سبق الى ذهنك ما اقصده منها فقطنت اليه اني أريد ان أعمل مااستطيع وانا في مطارح النوى لتحصيل السعادة لذلك الذي بشرنا الله به ، فانه ليعرض لفكري ان هذا الطفل ربما لا يعرفني ولا يراني أبداً ، وقد يتهمني يوماً ما بأني اهملت ما فرضه الله عليّ من الواجبات التي تحفظ حقوقه بالقيام بها ، فيخرج لذلك صدري ، وتنقبض نفسي ، ولكني لا اخالي مستحقاً لهذا اللوم اذا كنت على ماأنا فيه من العجز عن حياطته بضروب الرعاية وصنوف الملاطفة ادفع له دين الابوة من نقد آخر .

اني بما أكتبه من الرسائل سأؤدي على بعدي من ولدي ما فرض له عليّ من حقوق التربية ، لا عوازي غيرها من الطرق المثل لاداء هذا الفرض . فقد

درست شيئاً من احوال الانسان في تطوافي حول الارض مشغلاً بصناعة الطب في السفن، ورأيت في اقاليمها المختلفة، وفي اعمار مجتمعاته المتباينة، ولذلك أرى ان في قدرتي ان استنتج من افكاري ومما تحفظه ذاكرتي من الحوادث طريقة للتربية مؤسّسة على نواميس الكون وتاريخ وقائعه، فعلينا الآن ان نتبادل الافكار في ذلك، فسأكتب اليك بما يبدو لي وتكتبين اليّ بما يمن لك، حتى تتحد روعي ورحك في السهر على مهد هذا الولد العزيز رعاية له وعناية بشأنه .

سأراه في منامي يشب وينمو، وأنت ستحدثيني عنه في مكتوباتك وستخبرينه بوجودي، ولا موجب لاهتمامه بمستقبله، فان تربية الطفل الأولى هي من خصائص والدته وانت أهل للقيام بها وحدك بما فيك من يقظة القلب وتوقد الذكاء، وسننظر بعد فيما يلزم من امور تربيته المستقبلية .

على اننا يجب علينا ان نعين الغاية التي يلزمنا ان نرمي اليها في مساعدتنا . اني لا أعلم مطلقاً بوجود قالب يفرغ فيه الناس فيخرجون من النابئين، ولئن كان فليس هو للتربية قطعاً بل يكون بين يدي الخالق (سبحانه) ليهيئ به من يشاء لما يشاء، فاذا كان ولدنا ذكراً كان غرضي من تربيته ان يكون رجلاً حراً، ولا اقصد محال من الاحوال ان يكون من كبار الرجال وعظمائهم اه

الرسالة السادسة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ١١ ابريل سنة - ١٨٥)

تشابه السجون في جميع البلدان وتسرية همه بالمطالعة

أراك متطلعة الى اخباري راغبة اليّ في ان أوافيك بشيء منها، فها أنا ذا اخبرك بأن السجن واحد في جميع البلاد، فليس بين المكان الذي تركته وبين هذا الذي أسكنه الآن على رغمي كبير فرق، وإني من عهد وصولي اليه قد لجأت الى المطالعة فإني وجدت الكتاب في غيبتك عني احسن قرين لي يؤنسني ويسرّي عني الهم . ماذا أقول بعد ذلك ؟ غاية ما أقول لك اني عائش راج الفرج ثابت على حبك والسلام . اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ١٥ ابريل سنة - ١٨٥)

قرارها في المسكن الجديد - محيى قويدون وزوجته جرجية من فرنسة - مقارنتها بين الفرنسيات والانكليزيات في تربية الاولاد

قد تم لي القرار في المنزل الذي استأجرته، وفي صباح هذا اليوم قدم على إحدى السفن التجارية خادمانا الزنجيان قويدون وزوجته جرجية آتين من فرنسة حيث كانا تخلفا عني لحزم امتعتنا . فاسكنتهما رواقا ملاصقا للمنزل من ناحية البستان وانا الآن اساعدهما في تقض كتبك وترتيب مجموعاتك

لم يكد يستقر هذا الزنجي البارّ حتى وجه عزمته الى اعمال شتى
فصرح لي ان في نيته قلب ارض البستان وبذر الحبوب وتطعيم الاشجار
وغرس انواع من النبات فيها - الى غير ذلك من الاعمال، وقال لي انه ان
لم ينتج بستانا عما قليل أطيب فواكه البلد واجود بقوله فلا يكون هو
الملوم في ذلك ، وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقه ، وهو
فرح نخور بانه ينبعث الآن الى العمل بسائق الشكر والاقرار بالنعمة بعد
ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من أليم الضرب بالسوط، ويقول: ما أشد اتقان
ما سيصير اليه شغلي ، فقد اصبحت مالكا لنفسي منفكا من ربة الاستعباد .
لا اخفي عنك أن المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة للضحك
ومشارا للاستغراب ، وان سكان مرازيون يضحكون منه لانهم يستصعبون
التوفيق بين معنى العشق وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأنفه
الافطس وجلده الاسود (*) واني لأخشى ان يكون هذا الاسم لم
يطلق عليه من مواليه السالفين الاتهم كما وسخرية ، ولكنني على رأي هذا
لم اجسر ان اكلمه في تغييره فاني لو فعلت لكان هذا اعترافا مني له بأنه
ديميم ، أو تصرّحا بأن البيض لا ينصفون مثله من سكان افريقية

أنا في هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا اتردد الا الى دار
السيدة وارنجتون حيث أصادف احيانا بعض سيدات من بنزانس أو
من ضواحي مدينة لندرة ، والذي يهمني كثيرا في اختلاطي بهؤلاء

(*) « قويدون » هو في خرافات اليونان ابن الزهرة إلهة الجمال وهو عندهم

السيدات هو الطريقة التي يجري عليها الانكليزيات في تربيته أولادهن وانا مجتهدة بملاحظة حظي إياهن في تعلم مهنة الامومة
سكان كورنواي - وان صح انهم ليسوا من نسل الانكليز السكسونيين
لما يقال من انتسابهم الى فصيلة من العقالبة ولما أراه بينهم وبين البريتونيين^(١)
من المشابهة التامة في لون الشعر وملامح الوجه - يعيش بينهم عدة من
الأسر «العائلات» الانكليزية ومن كانوا من الباقين غير انكليزي الاصل
فقد تخلقوا باخلاق تلك الأمة التي الحقم بها الفتح وسرت فيهم عاداتها
على تفاوت في ذلك قلة وكثرة .

انظر كيف يستقبح النساء في انكثرة طريقة تقييط الاطفال
ويستهجنها ، وتقول الوالدات منهن استهزاء بنا : اننا ندخل اطفالنا في
اكياس رثاء الناس ، حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في
الجدران ، واكتفينا بذلك مؤنة ما تستلزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا
كانوا غير مقمطين . وانما ساغ لهن ان يقلن ذلك لان اطفالهن يتمتعون
بتمام الحرية في حركاتهم ، لانهم يلبسهم ثوباً طويلاً من الصوف اللين
(فانيلا) فيكونون فيه مالمكي أنفسهم على قدر ما لهم من القوى الصغيرة
في تلك السن ، واني والحق أقول معجبة بهذه العادة لاني كثيراً ما ساءني
رؤية الاطفال يربطون وتحصر اجسامهم في لفائف تضم اطرافها بالدبابيس
فيكونون كجثث محنطة لفت بشرائط من الكولان^(٢)

أطباء الانكليز كافة يمتنون ما يجعل في اثواب الاطفال من

(١) البريتونيون هم سكان بريطانيا وهي أحد أقاليم فرنسا (٢) الكولان

(التربية الاستقلالية) تعويد الاطفال الاستقلال في الحركات كالمشي وغيره (٤)

الحبال التي يعتمدون عليها في ديبهم وما يتخذ لهم من الدرجات الخيزورية^(١) والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ، ويؤكدون ان استعمالها مما يؤدي الى تشوّه صدر الطفل واعوجاج ساقه بما يستلزمه ذلك الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين .

بل الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجوب تعويد الطفل من نعومة اظفاره ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا يجب ترك اقامته وتمشيته بالآلات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه لان فيه اضلالا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يعتمد عليها وهو وهم يصحبه طول حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه .

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بأنفسهم فانهم يتركون وشأنهم في التحرك فيتدحرجون ويحبون على بساط يفرش لهم ، وينالون من القوة تدريجا ما يمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بأنفسهم فيخطون خطوات مستعنيين فيها بالاعتماد على ما يكون قريبا منهم من أثاث المكان فاذا اضطربوا لضعفهم تلقىهم أذرة أمهاتهم فمنعتهم من الوقوع .

هذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه - وايسر سوى التخلية بين الطفل وعمله - هي أكثر انتشارا في أمريكا منها هنا ، فقد سمعت بمناسبة الكلام فيها ان سائحا انكليزيا صادف يوما وهو في الولايات المتحدة بأمريكا صبيا في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه

(١) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران

على حرف قنطرة مدعثة يتدفق من تحتها سيل صخب ، فارتاع لقحوم هذا الحدث المتهور في الخطر فاسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا فثبل لها مارآه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك ، فما كان جوابها الا ان قالت غير مدهوشة ولا منزعجة « ان الصبي معتاد العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لابعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبا لرشاده مضيعا لسداده » فلما سمع السائح الاجنبي منها هذا القول اقتصر على مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد ممكنه ما بذله من قواه من تنكب طريق الهلاك .

أنا ان سيقنت لي الدنيا بخدافيرها على ان أرى صبيا لي في هذه الحالة مريضيت ، ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على مارايت كما قد يسبق الى الذهن بل هي قد فهمت فروض الامومة الحقيقية أحسن مما فهمناها ، فان هذه الطريقة في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي سبب ما رآه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال .

الوالدان الانكليزيات كافة يتمنعن من تغطية رؤس اطفالهن ولا يقبلان ان يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هي تيجان الضعف . نعم انه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم ولسكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم ، يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم ، وثانيا بأن الطفل كلما شعر بقله أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه ،

فيلزم ان يربي فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لا ان يعمل في حفظه على بعض طرق احتياطية لاتغني عنه شيئاً وهي دائماً مبنية على الوهم والخطأ قل ذلك أو أكثر . اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلته هرقل^(١) صغيراً وان كان لا يخلق الافاعي لا تقطاع دابرها من جزيرته ، ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والاقدام . من أجل هذا كان لا يوجد دم اغزر مادة من دم الانكليز ولا نسل أقوى من نسلهم ، واجسامهم مبرأة من العاهات فهي عندهم في غاية الندرة ، ولا أخالك تصدقني اذا قلت اني الى الآن لم يقع بصري على احدهم منهم ، وفي رأيي ان جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم

المهدي المذبذب الذي هو من لوازم الاطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء (بوغاز) المانش (أي في بلاد الانكليز) وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الأراجيح التي تهتز باليد كالتي عندنا ، فالانكليز عامة يستردلون عادة هز الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة ان يلمسوا راحة أبدانهم عند غيرهم على حين انه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من أنفسهم ومن الفطرة التي فطرهم الله عليها . نحن لانهم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب أطفالنا من

(١) هرقل هو ابن المشتري على يافى أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان

طار صيته بأعماله التي منها خنق الافاعي

الآثار السيئة في طباعهم ، ولا نطيل النظر في ذلك . الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال مايمكنه من الانتفاع بضعفه وتسامح من يكتشفونه ، فكم من اناس انقضى دور طفوليتهم وهم لايزلون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم . فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة ، بل تراهم في غفلة عن انفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في أحلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون ، وكان الاولى ان تصبح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة أخشى ان يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني ، على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بان قولها حجة في فن التربية فان التربية في انكلترة هي أول علم يتلقاه النساء .

إخال الولدان في انكلترة أقل بكاء منهم عندنا ، ولست واهمة في ذلك فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلعبه ، وان ما منحه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وما سن له من قانون الغذاء يساعد على حفظ صحته ونموها ، ولا بدع في ذلك فانه اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل المعجאות حتى لا تجد أجمل من خيلهم ولا احسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الأدمي الجسمانية .

الوالدات الانكليزيات في الجملة يرضعن أولادهن بأنفسهن ، متأسيات في ذلك بملكتهن ، ومن هنا كان لفظ المرضع عندهن لا يؤدي المعنى الذي وضع له عندنا ، فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته

فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين متميزين كل التمايز (اولهما)
الحاضنات ويسمين عندهم بالمراضع الجافات (ثانيهما) المراضع الحقيقيات
ويوصفن بذوات البلال^(١) الا ان هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ، ولا يرجع
اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع
ولدها ، بل كثير من الانكليزيات يفضلن إقام ولدانهن زجاجات اللبن
على إقامهن إثناء الأظآر (المراضع المستأجرات) وانهن ليوسعنا لو ما
على تقريطنا في هذا الامر ، ولا اخالهن الى محقات في ذلك فكم من الفرنسيات
المترفات من يكن ارضاع ولدانهن الذين كان يجب ان يكونوا أعز شيء
عليهن في هذا العالم الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قدرات
الابدان لا يرضينهن مساعدات لهن في التزين والتحلي .

النظافة عند الانكليز هي في حق الاطفال اساس تدبير الصحة
وهي عامة في كل الطبقات حتى الفقراء فانهم يغسلون اولادهم في كل صباح .
يشدد الاطباء هنا النكير كما يفعل رصفائهم في البلاد الاخرى على
لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصني لهم أحد
فالصينيات يتلفن اقدامهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل
المحزوقة جاريات فيه على ما حكمت به العادة فراراً من السمن وبروز
البطن عند الحمل . على انه يجب الاعتراف بأن الانكليزيات أقل منا عناية
باخفاء حبلهن ، بل هن يفتخرن به ، فقد شبهت احدها من المرأة الحبلى
بالشجرة المثمرة فقالت « مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة
تحمل ثمرتها » .

ألا تذكر أننا في أيام الهناء الخالية لما كنا نتمشى في متنزه التويليريا^(١) أو في حديقة لو كسمبورج^(٢) كثيراً ما تألمنا لرؤية أولئك الأحداث شهداء البدعة الذين يخرجهم اصولهم متبرجين بالزينة ، فلبسهم حاضاتهم ثيابهم وزينتهم من القدمين الى الرأس قبل خروجهم ، ويكون من وراء ذلك ان الطفل الحسن البزة لا يعتبر طفلاً ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وترويح نفسه ، بل تحصيل اللذة لغيره ، فاذا أولع بالبحث في الارض بيديه أو جرى في مهب الريح فعبثت بتناسق ذوائب شعره الجعد الجميل وبخ وعنف على انه وسخ نفسه ، ولم يمثل ما امر به من السكون ، فكان ذويه لا يرومون تنزيهه وانما يريدون عرضه على الانظار ، فليس الذي يقصد أولاً وبالذات من تلك النزاه هو إمتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان اعضاءه بما يكون معهما من الرياضة والحركة ، بل المقصود منها هو اتخاذ العوبة انيقة يطأمن بهاؤها ورونقها من نحوه الامهات الاخريات ويكسر من زهو هن ، فاذا رأت الام بُنيته ترفل في ثوب من الخز ، مزين بالطراز المثقب ، (التانتلا) قالت في نفسها مغتظة لو رأتها السيدة فلانة او السيدة فلانة لا نشقت مرارتها غيرة وكدا . الى هنا امسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فاني صرت عيابة على ما يظهر لي

(١) سراي التويليريا قصر كان مقراً للملك فرنسة في باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاتيرينة مديسيس والذي ابتداءً ببناءه هو المهندس فيليير دولورم وأمه من بعد المهندس جان لولان ولوفو وأحرق في مايو سنة ١٨٧١ في عهد حكومة الشعب ثم جدد (٢) لو كسمبورج قصر في باريس بني لريم رومديسيس في مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ الى سنة ١٦٢٠ والذي بناه المهندس يعقوب دوبروس

النساء الانكليزيات يحملن أولادهن أيضاً بفاخر الثياب ويخرجن بهم الى المتنزهات بل هن يبالغن في ذلك احيانا فيصلن الى حد الافراط غير ان هذا لا يكون الا في ايام الآحاد واما الاطفال الذين ينشئون في القرى فيندران يأنسوا من انفسهم الحاجة الى الخروج طول الاسبوع لان القائمين عليهم يخلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرح في حر الشمس ، وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يديحون لا تقسم التعرض لهم في ألعبيهم ، واما نحن فيحملنا هوسنا بتدبير كل شيء وادارته الى التدخل في تنزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها .

لم يغب عن ذاكرتك اننا كنا يوما في قاعدة السيدة جالسين معها فدخل علينا ولدها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات السهابة والتفت الى والدته فسألها قائلاً : أماه ماذا ينبغي ان افعل لا تسلي واروح نفسي ؟ لا ازال اتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه . على ان هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تنقد اجرة كبيرة جداً ، ولذلك احيل عليها لتسليه ، وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من عملها .

في بعض الاسر الانكليزية أيضاً حاضنات الا ان الذي عرفته بالمشاهدة من امرهن انهن يسنن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة انكلترة رعاياها ، اعني بذلك انه لا يكاد يكون لمن سلطان عليها خصوصاً فيما يتعلق بانواع اللعب وضروب التسلية . يستدل جيراننا على وجوب إطلاق الحرية للاطفال في ألعبيهم بادلة سديدة على ما اعتقد ، فيقولون :

٤٨ حرية الاطفال واستقلالهم مبدأ لحريتهم في رجوليتهم (التربية الاستقلالية)

ان الكبار في اشتراكهم مع جماعة الاحداث الفرحين المرحين في تلك الالاعيب يرجعون دائماً الى أذواق انفسهم اكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث ، فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لامرية في ان موضوعها القيام لهم بحقوقهم ، وليست هذه الحقوق من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه اذا هو هضم منها شيئاً . ولهم حجة أقوى من هذه وهي ان حرمان اطفال من الاختيار يمت فيهم روح الافتطار (الابتداء والانشاء) والانبعث النفسى الى العمل ، فاننا به نمحو آثار نوع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه ، فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان نشيطاً صحيح الجسم سهل عليه ان يستقل بنفسه في اتزده والتروح ، فاذا جرى على ذلك اعتاد ان لا يكون تابعاً لغيره في لعبه ومرحه . الم تكن عادة عدم الاستقلال عند الاطفال فيما ذكر هي سبب ما كان يعثور أولئك الملوك الغابرين من السكر والضجر فيضطرهم الى ان يجعلوا في حاشيتهم من المجانين^(١) من يضحكهم يبدو لمن يدخل بيتا انكليزيا لاول وهلة خصوصاً اذا كان مثلي لا يزال متأثراً بالفكر الفرنسية ان ما بين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام ، فيرى الوالدين فيه أقل تملقا لاولادهم وارغب عن ملاحظتهم منها عندنا ، وكذلك يرى الاولاد أقل انسا بالاجانب ومباشرة لهم ، وكلامي هذا انما هو على جملتهم فلا ينافي ان يكون فيهم من هو على غير هذه الصفة . وان أردت ان تعرف ان كان هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأه طبع الامة الغريزي أو انه مقصود جريا

(١) المجنون بتعديدهم الجيم جمع مجان وهو كثير المجون

(التربية الاستقلالية) استجاب المتجرب الى الاطفال وكراهة التلق لهم ٤٩

على مقتضى مذهب أو قاعدة في التربية . فاليك رجع صدى محاوراتي في هذا الموضوع مع القابلة الجميلة صاحبة الفضل عليّ خصوصاً في الارشاد والتعليم قالت : ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . وأما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعود ان يجب أكثر مما يجب . هذا النوع من المعاملة ينتج الغنجات من النساء والعارمين^(١) والعوارم من الاطفال . المحبة تدعو الى المحبة واما انواع التلق والمخادعة فانها تنمي جرائم الاثرة والزهو ، فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الى العظماء لنيل الخطوة لديهم — وهذا هو شأنهما معه في الغالب — لا يلبث ان ينتهي به الامر الى اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه ليس مديناً لاحد منهم بشيء .

هذا ما بدا لي من الملاحظات نصصته لك على علاته موقنة بأنه سينال حظاً من اطلائك وبحبك ، وماذا أزيدك عليه ؟ لم يبق عندي ما أتخفك به سوى ان مثالك العزيز لا يفارق خيالي وحبك الراسخ لا يزائل قلبي . ربت يتي جعلته لسكنى اثنين كما لو كنت ستحل به غداً ، ونظمت مكتبك أيضاً فجعلت ما فيه من الكتب والاوراق كلا في موضعه ، وهو الآن مشوق اليك فعسى ان لا يطول عهد خلوه منك . هذا أمل أرجوان لا أحرم منه فانه لولاه لقضى علي الفراق ، وقد علقت رسمك في مطعمنا الصغير ففي ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له

(١) العارمون جمع عارم وهو الفاسد الشرس والعوارم جمع عارمة

فأرى لصورتك فيه نوعاً من الحياة ، ويخيل لي حينئذ اني اتغذى ممك
وجها لوجه كما كنا أيام القرب والصفاء . مأولغني بالنظر الى هذه الصورة !
فلا بد ان ولدنا سيأتي مشابها لك ، والسلام في الختام
حاشية — أسألك على ذكر هذا الولد ماذا تريد ان تسميه ؟ اهـ

الرسالة الثامنة عشرة

✽ من إراسم الى هيلانة في ٢١ ابريل سنة ١٨٥٠ ✽

موافقته لها في انتقادها التربية عند الفرنسيين

قد أصبت أيتها العزيزة هيلانة في انتقادك طريقتنا في سياسة
الاطفال فانها جديرة بالاستهزاء والسخرية، ولكن يالها من طريقة تلائم
اخلاقنا ووضاعنا السياسية ملائمة عجيبية ، فلا افراط في التضيق على الطفل
وحصره في لفائفه اذا كان حظه في مستقبله ان يقمط ويشد بجميع انواع
القوانين والاوامر ، واما حبال الملابس التي نمسك بها عند المشي فلا
تعوزنا وعندنا منها ما يناسب جميع الاعمار لانه قد يجوز ان لا نحسن
المشية فتلزمنا تلك الحبال ان نمشي على صراط مستقيم ، وان نمضي الى
حيث يريد من يقودنا . ان القائمين علينا في تربيتنا ليسلبونا من أول
نشأتنا كل ما أودع فينا من حسن الظن بانفسنا وثقتنا بها ، فما اعقلهم وابعدهم
نظرا في العواقب ! هذا يعلمنا ان نكون في جميع امورنا تابعين لغيرنا ،
معتمدين عليه في حفظنا ووقايتنا ، فاننا بتعويد الناشئين ان يقادوا في
درجاتهم ، ويهزوا في مهودهم ، ويساسوا ويراقبوا في جميع حركاتهم وسكناتهم ،

نؤهلهم لان يعيشوا في مستقبل حياتهم بأعين الشرطة وتحت سيطرتها
فما أجملها طريقة تتسلسل اجزاؤها !! التسلسل هو احسن لفظ وجدته
للتعبير عن اتصال غاياتها بمبادئها .

وان ماذكرته لي من الطريقة التي يجري عليها الانكليز في تربية
أولادهم قد أسفر لي عن وجه الحكمة في حسن أحوال انكلترة وابعان
لي انه لاسبب لوجود مالها من الاوضاع والقوانين الحرة الا ما تتخذه
من الطرق في تربية ابنائها على مبادئ الحرية والاختيار . نحن في فرنسا
تقرط في تعليق آمالنا بالحوادث ، وتقرط في الاعتماد على ما اوتيناه من
القوى ، فماذا أقول في وصفنا غير اننا لسنا فرنسيسا بل نحن يهود لاننا
دائما على رجاء من نزول المسيح في صورة حاكم يرفع قواعد العدل ويخلص
الناس من عوادي الجور .

ولست اقصد بهذا الكلام ان أنكر قيمة ما تناوب حكومتنا من
التغير في صورها وما نتج من ذلك من المزايا فان هذا بعيد عن فكري
لاني لو كنت ممن لا يعبأون بالشؤون السياسية لما وجدت حيث أنا
الآن . على اني قد وصلت بعد طول النظر ومخض الرأي في ذلك التغير الى
اعتقاد ان ملك الحرية لا قرار له الا في نفوسنا ، وأنا اذا أردنا تمكين
دعائمه في الامة وجب علينا أولا ان نؤسس أصوله في قلوبنا . اه

الرسالـة التاسعة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في اول مايو سنة - ١٨٥)

تسمية المولود وانتقاد طريقة الترية في فرنسة
وتوصية زوجه بعدم اتباعها في حق ولده

تسأليني في خاتمة مكتوبك عما نسمي به ولدنا. نسيه « اميل » اذا جاء ذكر آ إحياء لذكر هذا الكتاب ^(١) الذي كنت أقرأه لك في مطالعتنا الليلية فكان في نفسك مبعث الطرب والاعجاب حتى اني كنت أ كف عن القراءة حيناً بعد حين لأشاهد وجهك في ضوء المصباح فأبتين فيه ذلك . وياله من عهد تحفظه ذا كر تي لتلك الايام السعيدة .

من البدع التي جرت بها السنة الا كياس ^(٢) من الناس منذ حين سبهم جان جاك روسو واحتقارهم اياه ، فويل لهم مما يرمون به قبر ذلك الكاتب العظيم من نبال اللعن والقذح ، وانهم لجديرون بالثناء لمقولهم . لم يكن ذنب ذلك الرجل الكبير سوى انه خالف سنة أهل النظر في عصره وهو اعمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه ، بأن وجه خطابه الى الوالدات والاطفال ، وهو أمر هداه اليه ما فطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة . على اننا لو جردنا كتاب « اميل » مما فيه من العبارات الفصيحة التي امتلأت بها صحفه ، والشتائم الشديدة المنبعثة عن وجدان كبر عليه احتمال الضيم والهوان ، ومن الحماسة في نصرة الفضيلة ،

(١) يعني بالكتاب كتاب جان جاك روسو في الترية المعنون « بأميل القرن الثامن

عشر » (٢) الأ كياس جمع كيس بتشديد الياء وهو الظريف حسن العقل

ومن الانفعالات الشريفة التي كانت تدعو مؤلفه (المؤمن بالله دون وحيه الى انبيائه) عند نظره في بدائع الصنع ومحاسن الكون - لوجدنا الكتاب من كل ذلك لوجدنا بقية ما قاله المؤلف في الطريقة التي أراد وضعها للتربية ترجع الى هذه القاعدة وهي السير على مقتضى الفطرة ومعاملة الاطفال معاملة العقلاء . ولو انا سلمنا له ما يقول لرأينا أن اتباع الفطرة في كل ما تدعو اليه يفضي بالطفل الى حالة التوحش والهمجية . نعم ان ذلك كان منتهى الكمال في التربية على رأي هذا الحكيم ، وانه على عدم ايمانه بالوحي كان يعتقد بوجود الكمال في أصل الفطرة من غير طريق الوحي . وأما كلامه في معاملة الأطفال معاملة العقلاء ومخاطبة عقولهم فلا شك انه جدير بان تصاغ له من أجله أجمل عبارات المدح تنويعها بفضلها ، ولا بدع في ان عرف له القرن الثامن عشر قدره بعد انكاره ، فاقام له من الآثار ما خلد ذكره وأحياسمه . غير ان العقل من دون جميع قوى الانسان هو الذي يكون في طور الطفولية أقلها نموًا فكيف إذن يعتمد على هذه القوة الكامنة في ايصال معنى الخير الى نفس الطفل . لروسو فوق ذلك أغاليط أخرى كان يعتقد صحتها ، وكان من شأنها ان تعوقنا عن الارتقاء في أخلاقنا واوضا عنا . منها اعتقاده بوجوب الامتثال لما للجمهور الاغلب من السلطة المطلقة ، فانا نجده في كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي قد انتصر للحكومة فيما تدعيه لنفسها من حق تربية الأمة بما أقامه عليه من البراهين .

وان أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم والدفاع عن حقوقهم ، قلت ان ذلك انما كان بما ألقته تلك السكت في نفوس الفرنسيين من بذور الثورة وهيأتها به لها .

لم يقدر الناس مانشأ عن هذه الحادثة الكبرى في نظام البيت من ضروب التغير حق قدره ، فانها قد خففت من ثقل الولاية الابوية تخفيفا عجيبا على غير علم من الناس جميعا ، لان المؤرخين قلما يلتفتون الى ما يحصل في البيوت من تهذيب الاخلاق وصلاح العادات ، فلم يكدر رجال الثورتين اللتين حدثتا في سنتي ١٧٨٩ و ١٧٩٢ يدركون ما كان يعثور تلك الاخلاق والعادات البيتية من الاستحالة على قربها منهم وسهولة ملاحظتها عليهم . ذلك لانه ليس في وسع أحد ان يلاحظ أعمال جميع الناس فاذا أريد الوقوف على أثار انواع هذه الاستحالة وصنوف ذلك التغير وجب الرجوع الى ما كتب من السير في أواخر القرن السابع عشر أو في أوائل القرن الثامن عشر . هنالك يرى ما كان بين الزوج وزوجه والوالدة وأولادها من التكلف في العشرة ، والمقاسحة^(١) والمجافاة في المعاملة ، نعم ان قولي هذا خاص باهل البيوتات لانا لانعلم شيئا من أحوال الطبقات الاخرى ، لكن هؤلاء لا بد انهم كانوا يحتذون مثال سراة الامة وزعماء الدولة .

كان البيت في ذلك العهد مؤسسا على إحدى الوصايا العشر التي وصى الله (سبحانه) بها موسى (عليه السلام) وهي « اكرم أباك وامك » فلم يوص موسى قط بحبهما .

وكانت الزوجة في الغالب تدعو زوجها سيذا وهو يدعوها سيذة فكان تخاطبهما باسميهما مع كونه هو لذة العشرة والاختلاط لا يكاد يقع منهما في حضرة الاجانب ، فالثورة هي التي ادخلت في البيوت عادة التخاطب بضمير المفرد وسوت بين الولد البكر ومن يتلونه من اخوته في الحقوق

فاجتثت بذلك أصول التباين والاختلاف ، وأعلت من شأن المرأة ورفعت من قدرها ، كما وثقت ما يربطها بالرجل من عقدة النكاح ، واصبح البيت بحكم الشؤون ومجرى الحوادث مرجعاً لأصدقاء المحاورات والمناقشات في المصالح العامة ، وصار صوت الرجل وزوجته في محادثتهما اخلص واشد مما كان قبل . وكان للكنيسة في الطفل من الحقوق الى وقت قيام الثورة في سنة ١٧٨٩ أكثر مما كان لاهله فيه ، فان البيت كان قد استعار من الدير ما فيه من صلابة المعاملة الباردة بسبب ان الوالدة في الغالب كانت تربي فيه . لا أعني بذلك ان الأم ما كانت تحب أولادها قبل الثورة وأعوذ بالله ان يخطر هذا بفكري ولسكني مع اعتقادي حبها اياهم اعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الثورة ساعدت على تخليص محبات القلوب من قيود التكلف ، فكما أن منشأ جميع الحركات العظمى للارض هو ما في باطنها من النار كذلك منشأ حوادث الانسان الكبرى هو ما في قلبه من الحب . ذلك شأن الانسان في جميع الازمان ، فمن حياته في الهند حيث كان الطفل لا يعتبر الابرعوما^(١) من نبات قبيلته ، وفي رومية التي كان الوالد فيها يملك على ولده حق حياته وموته - الى ان صار الى هذه المجتمعات الحديثة التي كاد يكون للطفل فيها وجود مستقل . قد رقي البيت في اطوار وجوده الاصلية جميع معارج الحرية ، فلا بد في تغيير شكل الحكومة واصلاحها من تغيير معنى الابوة أيضاً ورده الى حده .

أطول جميع الثورات بقاء وأخلدها أثراً هي التي كان لها من الزمن ما استحوذت فيه على عقول الناشئين - فالاصلاح الديني مثلاً وهو مذهب

البروتستانت لا يزال حيا في ألمانيا وسويسرة وهو لاند و انكلتره لان رجاله في هذه البلدان وفي غيرها أسعدهم الحظ بتأسيس مدارس فيها لتربية الاحداث على أصولهم وعقائدهم . وأما الثورة الفرنسية فان رجالها على العكس من ذلك لم يجدوا فترة من الزمن لتنفيذ مقاصدهم ، لانهم كانوا قد خطوا على عجل - وان شئت فقل وهم في مهب رياح الفتنة - خطة مثلى للتعليم العام ، غير ان اعاصير الحوادث دافعتهم عنها فخل بينهم وبين ما كانوا يقصدون .

ولما وضعت الطريقة التي تجري عليها الآن في التربية كانت نيران الفتنة قد خمدت ، ومراجل العصيان قد سكنت ، فمهد الى رجال الحكومة النيابية - الذين حكموا على الثائرين من رصفائهم بالقتل حكم شيشيرون^(١) على كاتيلينا^(٢) واشياعه - بتجديد ما اندثر من التعاليم القديمة ، فما لبثت هذه التعاليم ان فاضت منها على الناس اصول الحكومة الفردية اي حكومة الاستبداد واصبحت القوة الحاكمة هي مدير المدرسة والاستاذ الاكبر لتعليم الدين ورئيس الجند الاكبر ، والشارع الاكبر ، بل الكل الاكبر الذي انحصرت فيه جميع الولايات . ورجا الناس من هذا الاله الذي هو من صنعهم ان يضيء عقول الامة ، وان يصنع لهم علماء وانصاف علماء ، فصار التعليم الابتدائي والثانوي - بل صارت جميع درجات التعليم محوطة بسياج حصين من

(١) شيشيرون هو مرفوس طولوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفي سنة ٤٣ قبل المسيح وعين حاكما في سنة ٦٣ وأخذ ثورة كاتيلينا والحرب التي قامت بين يومية وفيصر (٢) كاتيلينا شريف من أشرف رومية كان جمع حزبا وثاربه على مجلس الشيوخ وعلى رومية فقهره شيشيرون

القوانين . معاذ الله ان أكون آسفا على ما أراه من انتشار العلوم وعموم المعارف ، ولكنني ضعيف اليقين بتأثير عمل الحكومة اذا كان الفرض من التعليم هو تربية رجال احرار ، فانها ما وضعت لذلك . فان لا أعضاء المجتمع الانساني كما لأعضاء الاجسام أعمالا لا يمكن تغييرها بمجرد توجيه العزيمة الى ذلك . سمعت غير مرة ان الجهل كان العقبة الكبرى في طريق كمال الحرية ، وأنا موقن بصحة هذه القضية . وسمعت أيضا ممن قالوها ان الحكومة قد قررت ان يكون التعليم مجانا والزاميا وستكون الاحوال حينئذ على ما يرام ، وأنا لا أصدق هذا وأضرب الصين مثلا لأولئك الذين يرون دوايب التعليم التي تديرها يد الحكومة وسيلة لتحرير العقول - يكاد كل رجل من تلك المملكة يعرف القراءة والكتابة ، ففيها من المدارس الابتدائية والثانوية وطرق الامتحان ما يفوق الحصر ، والصينيون هم الذين اخترعوا فن الطباعة وهو اكثر الفنون اليدوية اثرا في قلب شؤون العالم ، وذلك قبل ان يعرف في اوربة بخمسائة عام ، وانت تعلمين نتيجة ذلك مثلي . لم يكن من التعليم الذي كانت الاستاذة تفيضه على الناس الا انه اتقن تحجير الاوضاع الاجتماعية وجعلها اصلب مما كانت . كذلك يكون الشأن عند جميع الامم التي يكون الغرض من التربية فيها ايجاد رعايا للحكومة في القالب الذي تريده . ولو شئت لذكرت أمة اوروية ليس بينها وبين الصين من هذه الجهة كبير فرق ، فان التعليم الابتدائي يثبت كل يوم في نفوس الاطفال خلق الانقياد الاعمى بسبب تدخل السلطتين الدينية والسياسية فيه . فالتعلم في هذه الحالة هو بطانة الحاكم

الغاشم ، فعلى هذا لا غرابة مطلقا في ان دينيس^(١) لما خلغ من الملك تولى ادارة مدرسة .

من الخطاء ان يعتقد معتقد ان الحكومات المطلقة تكره تقدم سير التعليم العام وتعاديه عن قصد ، فما الذي تخشاه منه وليس هو الاجلّة انواع من العرفان هي تحرّرها وتصورها كيفما شاءت ؟ أليس بيدها مقاليده هذه الاجلّة ؟ اليس طرق التعليم التي تقرّ عليها وهي المتبعة دون غيرها هي أحسن ما وجدته لتمكين أصل الانقياد للقوة الحاكمة في نفوس المتعلمين ؟ ان اخوف ما أخافه على الامة من المخازي المهينة التي تشين شرفها هي العبودية في الاختيار . فان الاصفاذ التي تقيد الرقيق قد تسقط بمقاومة قليلة (والتاريخ يروي لنا في ذلك أكثر من مثل) وأما ما يتزيا به حواشي الامراء وخدمهم من الملابس الرسمية فما أطول بقاءه على ابدانهم !! اذا تعلمت الامة بالتربية الفاسدة الطاعة والانقياد وكان الباعث لها عليهما المنفعة أو الاثرة أو الوجدان كان ذلك كل ما يطلبه منها مربوها .

ان مذهب القائلين بوجوب توسط الحكومة في التعليم مؤسس كله على امور الاعتقاد التقليدي وعلى ان السلف كانوا يأترون بأوامر مدير المدرسة أو رئيس القرية كما نقل اليها ذلك في آثارهم ، فلا يطالب أصحاب هذا المذهب من يعلمونهم من الاطفال بالاستقلال في الفكر والعمل ، وانما يحملونهم على العمل بما يقال لهم فتكون قلوب الاطفال بأيدي معلمهم مادة لينة يتخذون منها للحكومة رعية نافعة مطيعة . واذا كانت هذه

(١) دينيس هو حاكم جاز غاشم كان في سيرا كوز فطرده منها ديون ثم

هي غايتهم التي يرمون اليها فهم لا يبالون بما عداها بل أحب إليهم ان تصير المدرسة بهذه الطريقة مربي يخرج فيه أوساط الناس فان الأمة تصير بذلك اساس للوازع قيادا واخفض جناحا .

لا يشك أحد في ان معاهد التعليم عندنا يرأسها كثير من الرجال العارفين بالاحرار ، وللجامعة فوق ذلك منزلة نادرة الوجود في رأي أهل النظر ، وهي أنه لما كانت الثورة الفرنسية هي الاصل في وجود القسم الأكبر منها كان من المتعسر ان يتحول عن مبادئها وأصولها مهما تغيرت عليها الاحوال وتبدلت الشؤون فهي المعقل الرفيع الذي يحمي الافكار والآراء الحديثة من اغارات مذاهب الكهنوت عليها ؟ وكل يوم تخرج في مدارسنا الاختيارية وكلياتنا عقول سامية بل عقول حرة أيضاً . نعم ان للحكومات ان تسن ما شاءت من قوانين التعليم ولكن ليس في وسعها ان تبطل تأثير علم الحكمة والافكار التي ولدتها ثورة سنة ١٧٨٩ وغيرها من المؤثرات التي تعمل في نفوس الاحداث على الرغم من كل قانون ونظام ، ومن أجل هذا انا لا أعيب المدارس لذاتها وانما أعيب فيها مجموع طرق التعليم من حيث هو مؤسس على أوهامنا وأخلاقنا وعواثنا

التربية الخاصة عندنا هي أيضاً أقل قيمة من التربية العامة فان الوليد عند ما يسلك سبيل الحياة لا يتوجه قصدنا الا الى الزامه الجري على مألوف العادة . وما يلقي في ذهنه من المعارف كله تجريبي ، ولم يفكر أحد منا حتى الآن في جملة مساوفا لفطرة الانسان ومناسبا لها . انا منذ نصف قرن تقريباً قد حددنا طرق تناول العلوم الرياضية والطبيعية وفنون الاقتصاد السياسي

والتاريخ والحكمة والادب والانتقاد وكل شيء الا ما يختص بتربية الاطفال ، على انها هي التي كان يجب البداءة بها في التغيير .

أول شيء أريد ان يحترم هو وجود الانسان حتى في ذات الطفل .
اني اذا اتفق لي سماع خطب علماء الاخلاق ورجال الحكومة في مذهب الاشتراكيين لم يمد يدهم لي في شك في ان هذا المذهب فاسد ممقوت مغاير للدين لما يقيمونه على ذلك من الحجج القوية والبراهين الصحيحة فأناحاز اليهم لانهم حزب الاستقامة والصلاح . هذا ما يقال ولكني اذا دخلت مدارسنا الابتدائية او الثانوية لا يسعني الا ان أعترف على الفور بأن ما شيد لها من الابنية ووضع لتلاميذها من ضروب النظام ، وما فيها من توحيد طرق التعليم واختلاط الدروس ، لم يوضع الا لحبس الجسم والعقل والتضييق عليهما فكما ان المصريين - على ما يروى عنهم - قد اخترعوا أفراناً لطبخ الدجاج قد اكتشفنا نحن أفراناً لطبخ التلاميذ . على ان القوتين اللتين يعني بانضاجهما فيهم أشد العناية على هذه الحرارة الصناعية - وهما قوتا التقليد والذاكرة - لا ريب في انهما أقل جميع القوى الانسانية كشفا عن حقيقة العقل واظهارا للمساكنات الصحيحة ، فكان المجهود اليهم بالتربية والتعليم قصداً أولاً وبالذات ان يجعل كل رجل من أول نشأته شبيهاً بجميع الناس . ولست أعدم قائلاً يقول : ان ذلك هو من النتائج الضرورية لتطلعنا الى نظام الحكومة الجمهورية وتحققنا بأصوله . فأجيبه : ان هذا القول من الخطب والخلط الغريب ، فكيف يشبه توحيد المعارف والمساكنات بالمساواة في الحقوق ؟ الا يرى ان سكان الولايات المتحدة على كونهم أشد منا انغلافاً في الاخذ بسنة النظام الجمهوري على العكس منا يزداد فيهم شعور الاستقلال بالوجود الذاتي ،

- الذي هو أصل الحرية - حياة وقوة فتظهر آثاره في أعمالهم ظهوراً جلياً.
ان في وسع كل شاب - لو صحت عزيمته - ان يتعلم بنفسه من جديد ما لم
يكن اجاد تعلمه في المدرسة وهذا ما وقع لكل منا بعد خروجه منها.
ولكن ! من ذا الذي يفكه من اغلال العوائد التي تخلق بها في صغره ؟
وكيف يتسنى لهذا المنفلت من المدرسة ان يهتدي في مستقبله بمجرد
ما اكتسبه من المعارف مع انه الى وقت مبارحته لها كان لا يستقل بعمل
من أعماله بل كان يعملها جميعها باعين معلميه ؟ وما الحيلة في احياء قوة
نفسه بعد ان انكمها التأديب المؤدي الى درجة البهيمية ، وما معنى الكلام
على الزاجر النفسي اذا كان وجدان اليافع يسلب منه ويوضع بأيدي من
يديرون شؤونهم ؟ ذلك هو أخص ما أخشاه من أنواع الخطر . ومن العبث
ان يتمثل هنا ببعض مشاهير الرجال الذين كانوا في زمن طفوليتهم في
أشد المراقبة والخصر ولم يؤثر هذا في مستقبلهم شيئاً ، فيقال : ان فولتير^(١)
مثلاً تربى في حجر اليسوعيين ، وتخرج جبابرة الثورة التي حصلت سنة ١٧٨٩
على رجال الكهنوت ، لاني لا أتكلم هنا عن أفراد الرجال وشذاذهم وانما
أقصد بكلامي جملة الامة وعامتها ، واسائل نفسي عما يحدثه مثل هذا النظام
من الاثر في طباع أوساطها . كوني على يقين انه ليس من الميسور لكل
واحد ان يجد ما يكفي من القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه
بعد ان ألقى لغيره زمام عزيمته .

قد لاقيت في الناس من جرى الاصطلاح بتسميتهم الشباب

(١) فولتير هو اروييت دوفولتير الشاعر الحكيم الفرنسي المولود سنة ١٦٩٤

المتوفى سنة ١٧٧٨ بعد الميلاد

العارفين فهل رأيت منهم كثيراً يمتازون بجرأة الجنان الحقيقية ؟ ألم تريهم يقاومون غالباً من وسائل الترقى وطرق الإصلاح ماعساه ان يذهب ببعض آمالهم ، ويسخروا به ميلاً مع الاثرة وحباً للاختصاص ؟ الاتجدينهم أشد عداوة من جهلة العامة لبعض العلوم ؟ انهم ليؤمنون على السواء بكل ماقدسه مرور الزمن عليه وآراء الناس فيه ، غير مهتمين بالتمييز بين صحيحه وفاسده وحقه وباطله . وما لهم ولهذا التمييز اذا كانت مهارتهم توصلهم الى مقاصدهم ؟ وهل هم في هذا العالم حتى يشتغلوا بمصالح غيرهم ؟ كلا ! بل هم قانعون بنقصهم الذي يظهرونه للناس في مظهر الكمال ويهزأون بما كان من جد الخائبين ، وإخلاص المخلصين ، وصدق نفوس الصادقين ، وهم لما فيهم من خفة الاحلام وكثرة المجون والغرور والترف يلتمسون في كل أمر وسيلة للاتفافع بحاضرهم ، ومع قلة ما لهم من المعارف الصحيحة يظهرون في مظهر العارفين بكل شيء ، ولكون المجتمع الانساني حلبة سباق كبرى ترينهم يعملون فيها لمزاحمة غيرهم في الحصول على سبقها أو على الالتحاق التي تعطي عادة لمن يقاربون في هذا السبق ، وفي هذه الحلبة الجديدة أيضاً لا يعتقد كثيراً بجدارة الجديرين ، ولا بأهلية المستحقين ، لان الجوازي تمنح بالمحاباة والاثرة ، والذين ينالونها هم أهل الدسائس والخداع ، فلا بدع إذن ان كدح المتعلمون من الشبان بعد تفصيلهم من ربة النظام المدرسي لا جل الدخول تحت ولاية الحكومة .

اذا صدقت قولي كان علينا ان لا نربي ولدنا على الطرق المتبعة ، وقد يكون عبنا في ذلك أحسن من عمل غيرنا أو مثله في القبح ، الا أننا على كل حال نكون قد أثقنا حقاً بمقدسيها ، فان تربية الطفل منوطة بالبيت والاهل والعشيرة

قبل ان تناط بالمجتمع الانساني . ما هذه الكلمات التي قد جمع بها قلبي ؟
قلت ان التربية منوطة بالبيت ، ولكن والأسف على بيتنا فقد هدم . نعم
ان عشنا الذي كنا لا بد ان تتناجى فيه بأحسن أمانينا ونسكنه أعز آمالنا
قد ثارت عليه عواصف المحن فدمرته تدميرا ، ولكن لا بأس علينا من
ذلك فسنعيد بناءه بروابط الحب فوق جو الفتن فأكون معك في هذا
العمل بقلبي ، وأنت تسهرين وتنوين عني في السهر على حراسة ذخرننا
فاني قد استودعتك اياه والسلام . اه

الرسالة العشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٨ مايو سنة - ١٨٥ ﴾

وصية الدكتور وارانجتون لها بالرياضة البدنية والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات
وباجتلاء المناظر الرائعة

أتدري أيها العزيز إراسم أنني فكرت كثيرا فيما ختمت به مکتوبك
الاخير وورد على ذهني منه خاطر يجب عليّ قبل الافضاء اليك به ان
أبين لك كيف ورد .

جاء الدكتور وارانجتون وأسرتة الى هنا وأمضوا يومين فسنّ لي
شبه قانون أجري عليه في معيشتي - بل هو الذي يتبعه معظم الانكليزيات
الحوامل اللاتي يوصفن عادة بأنهن في حالة شاغلة . نصح لي بادامة الرياضة
البدنية والتنزه ثم قال ما نصه « أياك والاقتراب مما تضر مطالعته من

القصص التي تتولد من قراءتها الانفعالات الشديدة الباطلة. كان اليونان اعقل منا لانهم كانوا يحيطون نساءهم في مدة الحمل بالتمثيل والصور الجميلة المنسوبة لمشاهير الاساتذة في فن التصوير، واني وان كنت لا اجزم بان هذا كان هو السبب في اتيان أولادهم حسان الخلقة أقول على كل حال اذا كان مثل هذه التماثيل والصور وغيرها من الاشياء البديعة الصنع يحدث في نفوس ذوي الفطر السليمة من الناس شعور الارتياح والانبساط، ويكون فيها مدعاة اعتدال الامزجة وتوافق الطبائع ، فلم لا يكون من موجبات حفظ الصحة . كثير من السيدات عندنا يغلب عليهن في طور الحمل الخمود وفقر القوى بسبب البطالة التي هي منشأ الامراض العصبية فانهن لا شغل لهن فيه سوى مساورة الاوهام ومطاردة الخيالات . واما انت فلما اعهدك فيك من الشغف بالمناظر الخلوية أوصيك بالسعي وراء اجتلاء ما في الخليقة من رائع الجمال ورائق الحسن وبأن تتخذي لنفسك اعمالا مرتبة تشتغل بها يدك وعقلك » .

رأيت ان هذه النصائح كلها حكمة وعلم فاخذت نفسي بها وخرجت للتنزه اليوم التالي لتلقيها بعد تدبير بعض الشؤون البيتية ، فلما رأيتي نساء القرية مبكرة على الطريق بعشن كرم اخلاقهن على ان يتدبرني بالتحية قائلات « صباح بهي وبكرة سنية » ولم يكن الصباح كما قلن ولكنها عادة الناس هنا اذا تبادلوا التحية بالوقت فهم دائما يميلون الى امتداحه قليلا ، فشكرت لهن حسن قصدهن .

لم أسر في تنزهي على الخليج بل اعتسفت الطريق في ريف يتسم فيه الفضاء للماشي كلما جد به السير . ومما لاحظته ان نساء كورنواي يضمن

على رؤوسهن كيات^(١) من القش وقد اخترت ان أحذو مثالهن في ذلك فوضعت واحدة منها انقاء لحر الشمس وحباً لما فيها من البساطة السكية وإخالي أروق في نظرك لو رأيتني بها . كنت أنقدم في هذا الريف على جهل من قراء ولكنني كنت آمنة من الضلال لاني ما كنت قاصدة جهة معينة وكان ذلك اليوم من الايام التي كثيراً ما ترى في غرب انكلترة فكانت سماءه محتجة بالجهام^(٢) وكانت تأتي من البحر ريح بليل^(٣) مسفسفة^(٤) فتجري بين أشجار العليق فتولد فيها رعدة طويلة وكانت الطيور تغرد حول عشاشها

قد أتني عليّ حين من الدهر كنت فيه أوجد على الخليفة اذا بدت عليها سمات الاغتباط والسرور وأنا حزينة القواد متبيلة الافكار فما زلت بي حتى أثبت لي ان هذا الوجد والاتفال باطلان بعيدان من الانصاف وناشئان من الاثرة وحب الاختصاص ، فأصبحت الآن بفضل نصحتك لي أسر بما أجده في سائر المخلوقات من آثار الفرح والابتهاج ، وقد تبين لي في ذلك اليوم بما انبعث في قلبي من وجدان الحنان والرحمة ، وبما عاينته في المخلوقات من شواهد الفضل والنعمة ، ان الله (سبحانه) لم يلعن الارض ولم يغضب عليها .^(٥)

كانت بكرتي هذه من البكر التي تعرفها يدور في هوائها على سكونه

(١) السكمة بالضم القلنسوة المدورة (٢) الجهام سحب لا ماء فيه (٣) الريح

البليل هي الباردة النادية (٤) المسفسفة هي التي تجري فوق الارض (٥) تشير الى

ما في ١٧ : ٣ من سفر التكوين ونصه « ملعونة الارض بسبكك »

مادة غزيرة مختلفة العناصر للتوليد والخصب ، فكان ينبعث من أشجار العوسج وحقول القمح والمخارف ^(١) الموطأة نسيمات فاترة مقوية كانت تسري بسببها الحرارة في جسمي فتصل الى وجهي ، فكان الأرض كانت مصابة بحمى الربيع ، ولقد تذكرتك في تسياري بين هذه المزارع وفكرت فيما سأناله عما قليل من شرف الامومة ان لم يحدث من الطوارئ ما يقطع موصول آمالنا ، وفي هذا الوقت أحس قلبي بما انطوى عليه مکتوبك فتسأبت الى ذهني منه هذه الكلمات وهي « فاني قد استودعتك إياه »

عند ذلك صحت قائلة : لماذا لا أكون أنا في الحقيقة معلمة ولدي ؟ أليس من المعروف عن نساء الولايات المتحدة ان معظم تعليم الاطفال ذكورا كانوا أو اناثا موكول اليهن ؟ بل مما يؤكد العارفون أنهن يفضلن الرجال في القيام بهذا العمل الصعب ، وإنني سأجرب نفسي في الاقتداء بهن . على ان هذا هو ما يراه زوجي ، فمن حيث إنه قد عول على ترك المزايا التي لمدارسنا وغيرها من معاهد التعليم لاعتبارات أقدرها حق قدرها فلا بد أن أحل محله ولو حيناً من الزمن في القيام على تلميذنا الآتي وتربيته وسيكون هذا أكد فرض عليّ وأخص ما افتخر به وأزهى . أشهد الله على ما أقول وأشهد عليه أيضاً أمومة الفطرة الكبرى التي تدعوني بما فيها من القدرة الى العمل وانماء جميع قواي .

ربما أضحككتك مني هذه المزاعم واني لعل علم بكل مايموزني لاداء هذا الواجب الصعب المعضل فانه ينقصني كثير من المعارف وان كان

والداي لم يغفلا تربيته الأولى ، ولكن لاشيء يمنعني من الاستمرار على التعليم بنفسى اذ كنت لأزال فى السن الملائمة له ، فسأعلم ولدنا فى الزمن الذى يشب فيه وينمو وأتلم أنا أيضا بتعليمه ، ولن أعتقد أنى أمه حقاً الا اذا نشت فى روعه أفكارك وزرعت فى نفسه أصولك .

سنتعاون بقليلنا على هذا الامر الخطير فعليك الارشاد وعلى العمل ، وقد وعدتك بأن أكون قوية وهذا هو قصدى وسأبلغه ملتزمة من الرياضة البدنية والمطالعة مايلزمنى من الصحة والعافية فى جسمى وعقلى لاداء هذا الفرض العظيم ، ومعاذ الله ان يكون من قصدى ان أصير الى أحسن مما أنا عليه الآن . نعم انى لست من الوليات ولا من الناسكات فقد أتى على زمن كانت تجذبني فيه جواذب اللذات الدنيوية وليس هذا الزمن عني ببعيد فاني لم أتجاوز الثالثة والعشرين من عمري ، ولم يكن تركى معاهد التمثيل وملاهى الغناء وأندية الظرفاء التى كنت أفخر فيها بمصاحبتك مبنياً على رغبتي عنها وميلى الى غيرها ، وانما كان ذلك لما أصابنا من صروف الدهر ونوائبه التى سيظل ماجرته لى من الكآبة والحزن مخيماء على طول حياتى . على انى لست آسى على شيء مما فات فأرجو أن لاتظن بى ذلك ، واعتقد أنى لو كنت مطلقة من قيود هذه المصائب لما انفككت عن اختيارك لى خلا وقرينا ، واعلم ان الفراق لم يزدنى فىك الاحبا وانما أنا أشكو من ألم فى نفسى ، ولكن كما توجد طرق مادية لحفظ صحة البدن ، توجد أيضا طريقة معنوية لحفظ النفس وسلامتها من الامراض ، وهى رفعها الى معالى الامور ، وسأجرىها ، فان ذلك على مايقال يسكن من آلامها ، واذاصح هذا فأى غاية تسمو اليها أفكارى وتعلوها نفسى أشرف من رعاية ولد أربيه

علي أصولك واخلاقك ؟ ان هذا لهو أكل قصد وقفت نفسي على ادراكه .
 أنا مع انتظاري لهذا العمل الجليل أشتغل الآن بشؤون بيتية محضة ،
 وأما قوبيدون فانه صمم على ان يعمل عمل المزارعين فخلب الى مسرح
 الدواجن في بيتنا دجاجاً وبطا وماعزا وغيرها وكان في البيت برج عتيق
 مهجور فعمره بالحمام ، وأنا مهتمة غاية الاهتمام بكل هذا العالم الصغير ، وكنت
 قبلاً أعتقد في نفسي اني على شيء من علم الحيوانات لما قرأته من الكتب
 المختلفة في التاريخ الطبيعي ، وأما الآن فقد تبين لي مقدار خطائي في هذا
 الاعتقاد ، فاني كل يوم أشاهد من عجائب الحيوانات ما لم يقل عنه العلماء شيئاً .
 وانا وجورجية نوزع الحبوب على جميع هذه الدواجن التي يظهر من حالها
 انها تدرك محبتنا اياها لانها تأنس بنا وتفرح لرؤيتناها

الرسالة الحادية والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٣١ يونية سنة - ١٨٥)

وصف تعويد الانكليز اطفالهم الاستقلال والحرية من صغرهم

أكتب اليك أيها العزيز إراسم قياماً بما أخذته على نفسي من إنبائك
 بكل ما أفعل وما أرى وما أسمع فأقول :

اتفق لي منذ بضعة أسابيع ان كنت في بيت صديقك الدكتور
 فرأيت عنده رجلاً من ايقوسيا - هو شيخ طويل نحيف علمت انه من
 اصدقاء ذلك البيت وانه غادر بلاده لاسباب مجهولة عندي ولكونه لا يستطيع
 المعيشة بعيداً عن منظر البحور والصخور والرمال قد نزل بكورنواي الى

حين . يبدي هذا الرجل من التنطم والتشدد في آدابه وهيآت افعاله مالمو ابصرته الفرنسيات لضحك عليه كثير منهن على ما أرى، فانه اذا سعمل يسعمل بانتظام، واذا دخلت عليه سيدة في قاعة الاستقبال وثب قائماً كانه حرك بلولب، واقبل بوجه فيه من تكاف الوقار والرزانة ما يحاكي تكلفه في شد رباط عنقه واتقانه، ومهما كانت حاله فهو هنا محترم مبجل . ولاغرو فانه ساح في كثير من البلدان ويحسن التكلم بالفرنسية ولديه بحسب ما ارى ذخ عظيم من المعارف . يسمى الرجل السرجون سانت اندوز وأخص ما اشتغل به في سياحته البحث في التربية وزيارة مدارس انكلترة وايقوسية وقارة أوربة . وجملة قولي فيه ان حديثه يهمني ويفيدني، ولما كنت اعلم ان موضوع انظاره وابحائه داخل في نوع ما نبحث فيه ونشتغل به اصغيت اليه لاجلي واجلك . فما قاله لي : ان الناس في بريطانيا العظمى يهتمون قبل كل شي بانماء القوى الجسدية في الناشئين - فبالرياضات البدنية تنشأ اعضاءهم من صغرهم قوية تناسب الرجولية وتتهياً اجسامهم لخدمة عقولهم وعزائمهم، وهذا هو سبب عنايتهم بالرياضيات والالعب التي تخالف ما عندنا مخالفة جوهرية . نعم انه يوجد في المدارس الانكليزية ما نسميه في مدارسنا الفرنسية فن التمرين البدني (الجنباز) الا ان التلاميذ الانكليز لا يرغبون فيه كثيراً . ويفضلون ما يكون في العابهم من التعرن والارتياض على ما في هذا الفن من أنواع التدريب المنتظمة التي تحصل عن أمر المعلم وتحت رعايته ، فهم يختارون بكمال حريتهم ما تراح اليه نفوسهم من ألعاب المصارعة والمغالبة، فاهم في ألعاب الكرة التي منها ضربها بالصولجان ومنها دحرجتها على الارض ، وفي العدو والملاكمة وغيرها من طرق التسلي

وسائل متنوعة تنمي فيهم قوة الاعضاء وتجمعهم يزدادون بالتعب شدة وصلابة .

بهذا صار الانكليز اكمل الناس استعداداً للمصارعة والكفاح وأولهم اقتحاماً لقمم أعلى الجبال المعروفة ، وهم الذين يقاومون صعوبة الاقليم والعوارض الكونية والامم الوحشية في الهندواستراليا وزيلاندة الجديدة وفي جميع بقاع الارض التي فيها أخطار تقتحم ، فلا تأثير للعقبات الطبيعية في تلك العزائم الثابتة التي تقوم لها بمطالبها عضلات هي الحديد بأساوشدة .
لم يوضع القانون في معاهد التعليم والتربية الانكليزية الا لما تدعو اليه الضرورة المطلقة من حفظ النظام فيها ، يدلك على ذلك أن مدير مدرسة من المدارس الكبرى كان قد أمر مرة على خلاف عادته ان يراقب التلاميذ في ماعبهم ، لكنه لم يلبث ان تبين خطأه في هذا الامر وندم عليه واعترف من ذلك الحين بأن هذا التضييق كان يميل بأنفس الناشئين الى الانحطاط ميلا ظاهراً .

التلاميذ الانكليز في ساعات الاستراحة من الدرس أحرار فلهم ان يخرجوا ويتنزهوا في المدينة التي يكونون فيها أو في المزارع غير محتاجين في ذلك الى أحد يرشدهم أو يراقبهم ، فيمضي كل منهم الى حيث يشاء ولا يطالبهم معلمهم الا بامر واحد وهو ان يكونوا في سيرتهم كما يكون سراة الناس أدباً ولطف معاملته ، والكلمة المقابلة في اللغة الانكليزية للفظ سراة هي « جنتلمين » ومن الصعب ترجمتها بالفرنسية ويعني بها من بلغوا غاية الكمال في التربية والتهذيب ، فان وصف الشرف والسيادة يستفاد من التربية أكثر من استفادته من النسب ، فقد ينسلخ

(التربية الاستقلالية) ثقة الانكليزية بالاطفال ومعاملتهم كالرجال ٧١

عن ناله من جهة النسب ولو في نظر غيره اذا هو تلبس بسافل المعادات
وسفساف الاخلاق . من أجل هذا كان الخوف من انحطاط القدر
وسقوط المنزلة في اعين اهل الفضل والادب له من السلطان حتى على
نفوس الناشئين ما لا تبلغه جميع انواع المراقبة التي يتصورها العقل
يقول الانكليز « اذا اردت ان يصبح ابنك رجلا في طموлите فعامله
معاملة الرجال » وهذا هو الاصل الذي يجرون عليه في التربية .

إخالك تندهش اذا لاقيت عددا عظيما من الفلمان الانكليز في
السفن التجارية والمركبات العامة ومركبات السكك الحديدية يسبحون
وخدمهم باذن اهلهم زمن عطلة المدارس وهم في حداثة السن وليكنهم على
ما في هذا من الخطر يعرفون كيف يتوقون المعاطب وكيف يعودون الى
مواطنهم، ويقول الانكليز تعليلا لذلك فوق ما تقدم انه هو الوسيلة إلى
استقلال هؤلاء الفلمان يوما ما بسلوك طريق الحياة في هذه الدنيا .

يثق الانكليز بالاطفال ثقة تامة فاذا اخل بها هؤلاء احيانا فلا
بدع في ذلك لان من يرجو منهم ان يكونوا من الحكمة والدراية في
درجة اعلى مما تقتضيه سنهم فهو واهم في معرفة الطبيعة البشرية ، على انه قد
شوه ان ما يقع منهم من الخطأ سهل ان تسد ثلمته، واما تثقيف ما عوج
من الطباع بسبب سوء الظن والقهر فهو في غاية الصعوبة .

لا بد ان يكون لهذا النوع من التربية قوة معنوية تتأثر بها نفوس
الناشئين فاني أراهم هنا أهلا لان يديروا بعض اعمال تقتضي كثيرا من وفرة
العقل وتمامه، وقد ضرب لي الرجل في هذا الموضوع مثلا تاجرا من كبار التجار
في لوندرة كان مذ بلغ الرابعة عشرة من عمره يجوب شوارع المدينة متأبطا

محفظه مملوءة بأوراق المصارف (بنك نوت) ويعامل وهو في هذه السن عدة من المحال التجارية باسم أبيه . وليس ما يليق به الانكيز في أذهان أولادهم وهم صغار من الثقة بانفسهم والاعتماد عليها قاصرا على ما يكونه اليهم من الاعمال التجارية والصناعية ، بل هو يشمل ايضا الفنون العقلية كالشعر والانشاء وغيرهما من الصناعات الفكرية . نعم ان الانكيز ليسوا بلا ريب احسن ولا اعلم من غيرهم ولكنهم لتعودهم من نعومة اظفارهم الاستقلال في سيرهم بمعارفهم الذاتية وتحملهم تبعه اعمالهم يظهرون في كل شيء أكثر منا قياما بانفسهم ، واذا لم ابال بالتصريح بكل ما اریده قلت انهم اقل منا شبها بخراف بارنورج^(١)

الساعات المقررة للدروس في المدارس الانكليزية هي في الجملة اقصر منها في المدارس الفرنسية ، ويؤكد الناس هنا ان هذا الامر لا ينقص من نجاح التلاميذ ولا يضر بترقيتهم كما قد تنوهم لان الطفل لا يقتصر في تعلمه على ما في الكتب بل هو يتعلم كذلك مما يراه اثناء تنزهه في المشاهد الجميلة والمناظر الانيقة ويستفيد استفادة حقيقة مما يكون بينه وبين رفاقه من المحاورات والمحادثات وما يتلقاه من اهله من الدروس النافعة في المعيشة اليومية ، وليس من الضرورة المؤكدة ان يغفل عقل الطفل من الصباح الى المساء حتى يكون من مشاهير الرجال ، لا يعتقد جيراننا ذلك قطعا بل يرون ان في راحة التلاميذ اي ترويح

(١) بارنورج هو أحد الممثلين في قصة هزلية للكاتب الشهير ريلي وله خراف علمها تقليد خروف لمثل آخر في هذه القصة اسمه دندنبول اتقأ منه نصارت يضرب بها المثل في التقليد

نفسهم بالألعاب الرياضية المتنوعة شحذا لأذهانهم وتقوية لعقولهم
وهم في تأييد هذا الرأي يضربون مثلاً مدارس قللت أيضاً في
هذه الأيام الأخيرة ساعات الدروس في فرقها وشغلت التلاميذ فيما
وفرته منها بأعمال يدوية نافعة فضاعفت بذلك فيهم قوتي التنبه والحكم .
إذا كان هذا كذلك كان ماصرف من الزمن في تلك الأعمال غير ضائع
بل عائداً بالرجح على التلاميذ في استفادتهم من الدروس لأن نجاحهم
لا يقدر بطولها وإنما يقدر بسهولة إدراكهم ما فيها من العلوم وتحقيقهم بها
أخص غاية يرمي إليها الانكياز في التربية — هي سلامة العقل وهم
يقولون ساخرين : ما أجل ما يعود على الطفل من الفوائد والمزايا إذا كان
القائمون على تربيته يضعفون فيه الأعصاب المعدة للإدراك والفهم بالأفراط
في اجتهادها ، وينفضون ما في عيون قريحته من مادة الذكاء الغزيرة بحته
على العمل لإحراز مالا ثمرة فيه من قصب السبق في امتحاناته ، فكم من
سابق في هذه الامتحانات يأكل بهذه الطريقة ما يزرع قبل إبان
صلاحه ! (يعني أنهم ينفقون كل مالههم من المواهب العقلية قبل أن
يصلوا إلى ثمرتها)

ليست العبرة عند الانكياز بتعليم المعلمين بل العبرة بما يعمله التلميذ
ويتعلمه بنفسه . ومما يحكى تأييداً لصدق هذه القضية أنه كان يوجد في
إحدى دوائر الخوارنة^(١) بأيقوسية مدرسة فيها قسمان من التلاميذ داخلي
وخارجي وكان جلّ عناية صاحبها موجهاً للقسم الأول ضرورة أنه هو الذي

(١) الخوارنة جمع خوري أي كاهن

كان يعتمد عليه قبل كل شيء في إتمام كسبه ومن أجل هذا كان يقضي مع تلاميذه كل سهرته في إعدادهم لتلقي درس الغد، على أن الذي كان يحصل في المدرسة هو غير ما كان يرجوه، لأن تلاميذ القسم الثاني وهم من أبناء فقراء المزارعين الذين يسكنون الكفور والخصاص المجاورة للمدرسة على ما هم فيه من حرمانهم من معيد يكرر لهم الدروس واشتغالهم بأعمالهم المدرسية في زوايا تلك الخصاص على ضوء نارها في غفلة من أهليهم عنهم كانوا يظهرون عادة على تلاميذ القسم الأول ويفوقونهم كثيراً مع اجتهاد مدير المدرسة نفسه في تقويمهم وتمارينهم، فعظمت بذلك دهشة ذلك الرجل ولكونه كان ذالبا وفكرا أخذ يبحث عن سبب هذا الأمر الذي ملأه سامة وضجرا، فلم يلبث أن عرفه وهو أن التلاميذ الداخليين كانوا يفرطون في الاعتماد على تعليمه بإياع التعليم الآلي الذي لا عمل لفكرهم فيه ويشتغلون ولكن لا بأنفسهم بل كآلات يديرها محركها وأما التلاميذ الفقراء سكان الأكوخ فلما كانوا مضطرين إلى حل رموز ما يتعسر عليهم فهمه من المسائل بأنفسهم كانت أذهانهم في تيقظ ولذلك كانوا يشحذون قرائحهم ويقوون مداركهم بالمناقشة والمنافسة، وكان في انقطاع المعلم عن رعايتهم أثناء مدارستهم الليلية منية لهم، فلا جرم أنهم سبقوا إلى المقاعد الأولى في فرقتهم نهائياً. استفاد المعلم من هذه الحكمة التي أهدتها له التجربة فترك من ذلك الحين التلاميذ الداخليين وشأنهم مقتصر على أن يعطيهم كغيرهم مواد العمل وأدواته مثل كتاب في النحو ومعجم في اللغة وكان من وراء ذلك أنهم لم يلبثوا أن ساووا أقرانهم في درجاتهم.

تعلم من ذلك أن شأن جيراننا في التربية كشأنهم في جميع الأمور

الدينية وهو أنهم يرجون من عمل المرء بنفسه من الخير مالا يرجونه من وسائل المعونة والمساعدة كائنة ما كانت ، فشعارهم فيها هو « استعن بنفسك بعينك معلمك . »

ربما كان أهل ايقوسية أيضاً أكل من الانكليز عناية بأمر التربية فقد اشتغلوا به كثيراً في هذه الايام الاخيرة

يوجد في ايدنبورج (١) على ماسمعت مدارس ابتدائية لاكتفي فيها المعلمون بتعليم التلاميذ مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم في تأديب طباعهم وتهذيب أخلاقهم ، فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالاثرة والغش والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات ، وليست طريقةهم في ذلك مجرد إلقاء القواعد والتعاليم المبهمة المجملة بل هم يرجعونهم الى وجدانهم الفطري ويذكرونهم بشرف الانسان وسمو منزلته على سائر أنواع الحيوان ، فالاطفال في هذه المدارس هم الذين يحكم بعضهم على بعض في كثير من الاحوال ويقدرون بأنفسهم درجة أفعالهم في الحسن أو القبح ولو شئت لسردت لك كثيراً من الحكايات في هذا الموضوع ولكني اكتفي بأن أقص عليك واحدة منها ليكون في ذهنك صورة لتلك الطريقة فأقول :

تأخر تلميذان ذات يوم عن الوقت المقرر لدخول المدرسة بربع ساعة وهما اخوان في الرابعة أو الخامسة من عمرهما فقرر المدير ان يسئلا عن سبب التأخر ويقبلا في فرقتها بلا عقاب ان أبديا عذراً صحيحاً ، وجعل الحكم على صحة العذر وفساده للمدرسة بتمامها كما هي العادة عنده

(١) ايدنبورج عاصمة ايقوسية من بلاد الانكليز

في جعلها محكمة شرف نقضي على التلاميذ ولهم فيما يفعلون، فلما مثل المتهمان الصغيران أمام هذه المحكمة اعتذرا متعاقبين عن تأخرهما بأنهما صادفا في طريقهما دودة غليظة لم يكونا رأيا لها نظيرا في حياتهما فراعهما منظرها وملثا منها عجباً، لأن هذه الحشرة كانت تتمثل في أشكال وأوضاع غير معهودة لهما، فكانت تارة تقف على ذنبها وطورا تمتد على الأرض وآونة تكون ذات أثناء ملتوية، وأنهما بينما كانا يصرفان زمنهما في مشاهدتها، كانت تنساب حتى بلغت عوسجا فغاب عنهما أثرها فيه - فلم يمهلهما المدير زيمًا يتمان قولهما بل سألهما: لماذا لم تقتلا هذه الدودة ؟ فحدّق اليه الغلامان ولم يحيرا جوابا، فاستأنف السؤال قائلاً: أما كان لديكما من الوسائل ما يمينكما على قتلها حتى كنما بذلك تقطعان سبب إبطائكما في الطريق ؟ فقال له أكبرهما « بلى كنا قادرين على قتلها من غير شك ولكننا لو كنا أتيناه لكان ذلك منا شراً وقسوة » فقبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالاستحسان والتحييد ^(١) وحكم ببراءتهما من التقصير

من ذا الذي لا يرى في محاكمة الطفل الى لداته واقربانه جرثومة وضع الحلفين ^(٢) الذي يعتبره جميع العارفين به معقلا يذاد فيه عن حمى الحرية بجميع أنواعها في انكثرة وايقوسية ؟ فلا شك أن تلك المحاكمة أخذت بالناشئين في طريق الوصول اليه وإشراف بهم عليه من بعيد، ولا بدع فإن جيراننا يزعمون ان التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل لا إفراط

(١) التحييد المدح بقول حبذا (٢) الحلفون هيئة تتألف من عدد من الاهلين لا يقل عن اثني عشر ينتخبون ويحلفون طبقاً للقانون على أن يقرروا الحق فيما يعرض عليهم من الدعاوى

فيه يذم مها توسع في التعجيل به ، ففي رأيهم انهم متى أريد أن تكون الحكومة على صورة مايجب ان تهيأ لقبولها نفوس الناشئين ، وأن ما يحفظ القانون ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر الا بارتياض الناس به من بداية عمرهم ودوام اعتيادهم اياه . ومما قاله لي الشيخ الايقوسي الذي حدثتك عنه « أنا لأشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية ما لم يقارنه زرع مالدنا من ضروب الحرية في نفوس أهله . فنحن في بلادنا نحتاج الى رجال مطبوعين على حب الاستقلال موافقة لما تقتضيه قوانيننا وأوضاعنا ، اكفاء لإطالة مدة بقائها بما يكون منهم في سبيل ذلك من المجاهدة الشديدة ، وان طريقتنا في تربية الاطفال اذا اتبعت في غير بلادنا نشأت عنها رعية يتعذر حكمها وسياستها . » اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٢ يولييه سنة — ١٨٥ ﴾

انتقادها اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم والتماسها علة لذلك

أرى من البواعث الكافية ما قد يسوقني الى اعتقاد أن السكمان لا يخلو من نقص ، والحسن لا يعرى من قبح ، فما عاينته من أحوال الانكليز وأخلاقهم ينطبق انطباقاً تاماً في بعض المواضع على ماسمعه عنهم من السبرجون سنت اندروز ، ولكن تصفحي هذه الاخلاق وترديد فكري فيها قد اضطرني الى الاخذ بالحزم في امتداحها وترك المجازفة

في اطرائها . لاكثر الامهات اللاتي ألقين في بيت السيدة وارتجتون أولاد عديدون فما أعجب ما يرى في جميعهم من مقدار تحققهم بالمخاطبهم من الاوهام وسرعة انطباع معتقداتهم الباطلة في نفوسهم ! فتراهم على قلة علمهم بالامور يفرقون بين مطلق رجل والسري المذهب من الرجال ومطلق امرأة والسيدة الكريمة من النساء ، فرقا تاما ويميزون من ولدوا لخدمتهم ممن يجب لهم عليهم الاجلال والتعظيم لأول نظرة اليهم غير مترددين في ذلك ولا مرتابين ، ويحافظون على شرف الاقتداء بعظماء الناس في سيرهم ، لا لأن ذلك مطلوب لذاته بل لعدم الاخلال بما تواضع عليه أولئك العظماء من الآداب ، واني على يقين من انك لو اطلعت على هذا العالم الناشئ لوجدت فيه شيئا من التصلف ، فلشد ما يرى فيهم من العجرفة وما يبدو منه امام الاحاب من ظواهر الابهة الصببانية .

وحقيقة الامر ان هؤلاء الانكليز أنفسهم على ما لهم من الحرية الواسعة وما فيهم من كمال استحقاقها هم في غاية الخشية والخضوع لرأي الجمهور وشأنهم في هذا شأن باسكال^(١) الذي يسمي ذلك الرأي ملك الدنيا على اني لا أدري أي تأثير له فيها يستحق به هذه التسمية ، ولكني إخال ان له في انكلترة من السلطان والسيطرة ما ليس مثله لفكتوريا^(٢) فان جيراننا ينشأون من صغرهم عبيدا مختارين لبعض مواضع قومية فيوجبون على أنفسهم تعظيم ماعظمه جمهور المهذبن من قومهم بدون

{١} باسكال ويسمى بلين باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كليرمونت فرّاند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها افكار باسكال {٣} فيكتوريا ملكة الانكليز السابقة

بحث فيه ولا نظر ، فكل منهم في سيرته وآرائه تبع لغيره معتمد على ما لهذا الغير من الاعتبار وعلو الكلمة ، وتراهم في متندياتهم قليلي الكلام بل لا تخرج محادثاتهم عن حدود الامور التي قدسها استقرار العادة . فلهم جل من المعاني والافكار كانها تحجرت في أخلاقهم وعوائدهم فأجمعوا على عدم المناظرة والجدال فيها .

إني الى الآن لم أعرف الانكليز معرفة تكفي لادراك سر هذه المبادئ ، وانما الذي أراه في كبارهم انهم قد جمعوا بين غاية الاستقلال في أفعالهم وغاية التقليد في آرائهم ، واما صغارهم فانهم كذلك أحرار في حركاتهم وفي معظم ما توجه اليه عزائمهم من أعمالهم - لكنهم يحجرون على أنفسهم أن تتعلق هذه العزائم من الاعمال بما يخالف تقاليد أهلهم وآثار سلفهم وعوائد الصالحين من مخالطتهم ، وربما كانت الحكمة في كل ذلك ان القوم قد رأوا طباعهم تجري بهم في بحر لحي من الحرية جري السفن مدت شرعها فاضطروهم ذلك الى طلب مرساة يوقفون بها جريها فالتمسوها في ضبط الاخلاق البيتية وفي العوائد القومية والاصول المالية . اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٦ يولييه سنة ١٧٥٠)

اخباره باقتراب ساعة الوضع ويرؤيا رأتها

كاني أيها الحبيب بساعة الوضع قد اقتربت واني وان كنت لا أزال في كفاية من جودة الصحة فما أخوفني من هول تلك الساعة وما تأتي

به من الشدائد والحن التي كان شهودك فيها وحده كافلاً تخفيف آلامها عني . رباه ! كيف لا تكون بقربي أيها العزيز إراسم وأخص وقت تكون فيه المرأة كالعشقة (شجرة اللبلاب) لزاماً لمن تحبه وتعلقاً به إنما هو أمس ذلك اليوم المعروف بالعناء والخطر .

في الليلة الماضية رأيت رؤيا تحيرت في تأويلها : رأيتني أزور قبر والدتي لابسة الحداد فعظمت دهشتي لما رأيته هناك من شجر الورد والآس وغيرهما من الازهار لاني لم اكن أوصيت بغرسها ، ولما رأيت ان يداً مجهولة قد عنيت بآخر منزل لمن كنت أحبها فزينته بهذه الازهار هاجت أشجاني وانعطت عبراتي وأحسست بالبكاء في نومي وقلت في نفسي : ليت شعري من هذا الذي عرف كيف يتحبب الي ويسترضيني عنه ، ثم تبذنت من جملة وقائع متتابعة مبهمه أنك أنت الذي غرستها ففرقت في شبه لجة من الفناء في حبك ، وما عسى أن أصف لك مما خطر في ذهني حينئذ ! فقد تمثلت لي جميع الاحوال التي تلاقينا فيها لأول مرة وما انمقد بيننا من روابط الحب الاولى تمثلاً ليس كالذي يحصل عند ذكر المرء حوادث ماضيه ، بل كما يحصل في الحلم حيث تتشكل فيه الاشياء الحية وغير الحية بأشكالها الحقيقية . فما قولك في هذه الرؤيا ؟ وأما أنا فلو كنت من الموسوسات لاعتقدت ان فيها انذاراً ببعض المصائب

أبشرك أيها الحبيب بأن أول مكتوب يأتيك مني بعد هذا سأكتبه إليك وأناأم ، وكلما فكرت في ذلك تعروني هزة الفرح ونشوة الطرب ، فالآن أودعك وأقبلك بكل ما في نفسي من قوى الحب والشوق . اهـ

صحف مقتطفات من يوميات الدكتور ار اسمر

(صحيفة يوم ٦ يوليه سنة - ١٨٥)

اقل شيء من العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث في سبيل الحرية

دخلت فراشة مخدعي من السجن من حيث لا أعلم، ومكثت ربع ساعة تحاول الخروج من الشباك، يدعوها الى ذلك ما وراءه من الضياء والفضاء والحياة بما تسمعه من الاصوات في جو السماء ولكنه على ضيقه كان محكم الاقفال، فانقضت عليه بنت الهواء أولا على جهل منها بحقيقة زجاجة اللطيف حاسبة انه لا وجود له امامها. ثم أخذت تصادمه وتلتصق به وتقاومه وكلما ردتها صلابته خائبة أعادت عليه الكرة.

هكذا يكون شأن الانسان مع العقبات المعنوية التي تعترضه في طريق حياته لا يحسب لها حساباً لأنها لا تكاد تكون شيئاً يذكر فهي كسمك لوح من الزجاج مثلاً، لكن هذا الشيء الذي لا يذكر - كوهم أو عقيدة أو معنى غير صحيح أو مغالطة - كافٍ في تعويق عقله عن التحليق بجناحيه في سماء الحرية، فلا يجدي معه اشتداد العقل في اقتحام عقباته كما لم يجد تلك الحشرة اصطدامها بالزجاج واهاء جناحيها في مغالبتها.

فلما رأيتها قد عجزت عن الخروج فتحت لها الشباك وقلت لها: امضي أيتها المسكينة في سبيلك، وطيري بجناحيك كما كنت في خالص الهواء وحرارة الشمس، فهذا يكفيك من مسجون في حجرته. اهـ

(١١ الترية الاستقلالية)

﴿ صحيفة يوم ٨ يوليه سنة ١٨٥٠ ﴾

لا بد يوما ان يدال من المستبدين وان ترد الحقوق المفصوبة الى اهلها

كثيراً ما شاهدت ساحل البحر بين حركتي المد والجزر وأبصرت على سطح رماله المبللة الرطبة آثار كثير من الاقدام والعجلات ونعال الخيل ورسوما غريبة في بابها نقشتها على صفحاتها أيدي الاطفال، وأسماء كتبت بأطراف العصي وغير ذلك من الآثار الكثيرة المتنوعة، فلما مدّ البحر محايها جميعها فلم يبق منها شيء يدل على سبق وجودها. كذلك شأن العدل والدمر فان لهما كالبحر مدّاً وجزراً. فاعملوا ما شئتم من تأليف الكتب وتحرير الصحف واقامة الابنية ووضع القوانين، وارسموا مقاصدكم على الرمال، كل ذلك يغمره مدّ العدل في يوم بل في ساعة واحدة فالبحر يقول في مده : اني أعود الى ما تركت من مكاني، والشعب يقول في مده : اني أسترد ما اغتصب من حقوقي . اهـ

﴿ صحيفة يوم ٩ يوليه سنة ١٨٥٠ ﴾

من أعجب الظلم ان يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الأمم
في سبيل نحصيل لذة الملك لرجل هالك

كان فيما سلف من القرون رجل من الفاتحين دمر الممالك ودوّخ
الاقبال، ثم مات بعد ان تم له النصر في كثير من وقائعه وغزواته، فوضعه
رجال دولته على سرير رفيع مخفوف بأكل مظاهر الابهة والجلال مع

انه بالموت قد خلع من ملسكه وأنزل من عرش سلطانه، فاتفق ان تهافت
على أنفه ذبابة فلم تستطع يدها ذودها عنه على ما كانت فيهما من ادارة
شؤون الممالك وقمع نخوة الجبابرة . يا عجباً ! اللوصول الى الغاية التي وصل
اليها ذلك الرجل يوطأ العدل والحرية بالمناسم وتهضم حقوق الامم ؟ اهـ

﴿ صحيفة يوم ١٠ يولييه سنة — ١٨٥ ﴾

تمثيل الحكومة المستبدة في الامم الراقية بالدجاجة مع أفرأخها
التي استغنت عن ولايتها

أرادت دجاجة أن تعطي بجناحيها أفرأخا تفقص عنها البيض وكبرت
فكان لها : لسنا في حاجة الى عنايتك فانك تزهقين أنفسنا بثقلك ، فكان
جوابها على ذلك ان قالت لمن « مـهـ » فانكن لاتدرين في ذلك شيئاً ، أما
عدم احتياجن الىّ فهذا ممكن وأما أنا فلا أستغني عنكن ، أولاً لانه يلز
لي ان ألقى ثقلي على شيء فان هذا يرفع من شأنى ، وثانياً لاني آكل ما أعدّ
لكن من الحب . »

هذه الحكاية تمثل الحكومة مع الشعوب التي بلغت من درجات
الترقى ما يكفيها في الاستقلال بحكم نفسها . اهـ

﴿ صحيفة يوم ١٢ يوليوسنة — ١٨٥ ﴾

بيان تمثل زوجته له في البتلة

كانت ليأتي هذه هائلة فظيعة فاني كنت في بعض ساعاتها أرى من
خواطري ما كان يمثل امامي كما تمثل الاشباح فكأنني صائر الى الجنون !

لقد رأيته هي بنفسها لا في حلم بل في يقظة كأنها أخفى من النوم ألف مرة .

رأيت هيلانة قائمة على سريرها وكنت لاحظ نفسيها المحتق وأجس نبضها الذي دلني على أنها محومة . وأعجباً ! أخالني سمعت صوتاً . ويلاه ! أنها تنن وتئن وتئن وأنا بعيد عنها . انما يدرك ثقل وطأة السجن ويحس بضيقه في مثل هذه الساعات التي تغلب على الانسان فيها حيرته وتزهق نفسه ، ولقد كنت أريد ان أكون قدوة لزوجتي في الثبات والصبر ، فهذه أول مرة غلبني فيها السجن على عزمي فانشى رأسي وانجرح فؤادي مما ألاقه من نغم القانون البشري .

لو كان حقاً ما يقال من أن في قدرة الاموات ان يزوروا من كانوا يحبونهم في الحياة الدنيا لوددت أن أموت في هذه الساعة حتى أراها . اهـ

الرسالة الرابعة والعشرون

✽ من الدكتور وارنجتون الى الدكتور إراسم في ١٢ يولييه سنة ١٨٥٠ ✽

البشارة بوضع « إميل »

أبشرك أيها السيد العزيز بسلام جميل ولد لك في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم بعد ما قاسته والدته من طويل العناء وشديد الألم ، ولقد كنت عشية أمس مشفقاً من أن يحل بهامكروه لبعض علامات بدت عليها ولكن قد أعانتنا قوة طبيعتها وسلامة خلقها على النجاة من الخطر وأصبحت

صحتها من الجودة على ما كنا نرجوه لها ، وأما الغلام فجل مايتنيه ان يعيش ليخلد به ذكرك ويملو بنباهته قدرك ويعظم فخرك .

وهذه فرصة قد انتهزتها لمكاشفتك بما في قلبي لك من المنزلة الرفيعة وما في نفسي من جواذب الميل اليك ورجائك في أن لاتضن بي على أي خدمة يلزم لك أداؤها ، وان لاتكتم عني حاجة يعوزك قضاؤها . ان قبلت هذا الرجاء استوجبت خالص شكري لانك بذلك تكون قد برهنت لي على أنك لم تنس صديقك القديم . نحن معشر الانكليز متهمون عندكم بان فينا شيئاً من الانقباض عن الناس والاحتراس في معاملتهم ، ولكن ربما كنا خيراً مما اشتهر عنا ، وإنا على كل حال لنا قلوب تعطف على البائسين وتكرم المنكوبين اه
صديقك المخلص

الرسالة الخامسة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٢ اغسطس سنة ١٨٥٠)

وصف القابلات في انكلتره ووصية الدكتور وارنجتون لها في العناية بمولودها

لا بد لي ان أقص عليك تاريخي فيما يسميه الانكليز اعتكاف النساء ملتزمة في ذلك طريق الايجاز فأقول :

استأجرت ممرضة كما هي العادة هنا وهي امرأة واسعة الخبرة في أمور التمريض والولادة أراك نقضي منها العجب لو سمعتها تتكلم في الطب والجراحة والقيام على الاطفال وغير ذلك مما يدل على كثرة درايتها فيما يلزم لمهنتها . والظاهر انه يوجد من هؤلاء القوابل في انكلتره قبيلة

بها . وعملن في حق الوالدات هوان يرشدن من يكن منهن حديثات عهد بالولادة الى ما يعود عليهن وعلى أولادهن بالنفع ، وينفذن ما يصفه الطبيب من طرق التداوي ، وعندهن بحسب ما يسهم منهن عدة من المركبات الدوائية لمداواة بعض طوارئ العال لا يتخلف عنها الشفاء . وأما قصصهن في هذا الموضوع فانها لا تفاد لها ، ولو اني اعتقدت صدق كلامهن في جميع الاطفال الذين يدعين انهم نجوا على أيديهن من الموت لبطل عجبني من كون انكثرة قد وجدت من أبنائها العدد الكافي لعمارة استراليا وزيلاندة الجديدة وسائر مستعمراتها .

والتي تقوم عليّ منهن هي - فوق ما تقدم من الصفات - امرأة بارعة ذات فضل يظهر أن صفة الامومة العامة قد صارت غريزة من غرائزها ، وهي قصيرة هيفاء تلوح عليها سمات الاستقامة وكرم النفس ، شهدت في ماضيها - كما يقال - أياماً مثلي فإنها كانت زوجة لرجل كان ملاحظاً الاعمال في أحد مناجم كورنواي وقتل بسبب اندكاك هذا المنجم فترملت من بعده . وقد رزقت هي أيضاً عدة أولاد فارقوها من عهد بعيد وتشتوا في البر والبحر ابتغاء الرزق - اثنان منهم ملاحان صالحان يصلانها حيناً بعد حين بصندوق من الشاي وقطعة نقد من الذهب ، وقد عرض عليها ان تكون ممرضة في مستشفى كبير فلم تقبل على ما في إياها من المباينة لمصلحتها وقالت : اني أفضل أن ألتقي الوافدين الى الدنيا وأرجو لهم حياة طويلة فيها على توديع من يفارقونها فراقاً أبدياً .

كان الدكتور وارنجتون قد أوصى قبل سفره بأن يؤذن بدنو ساعة الولادة فلما حان الوقت أرسل اليه مكتوب فلم يلبث أن جاء من لوندرة

علي أثره قبل ان يضربني الطلق وتنزل بي شداثد المخاض وأهواله ، ومما
يحمد في خصال الانكليز أنهم اذا أسدوا الى غيرهم معروفاً لا يمنون عليه
بل لا يظهرون له ان قصدهم بذلك خدمته أو إسداء المعروف اليه ، وذلك
اما ان يكون منهم رقة طبع وكمال أدب أو كبراً وترفعاً عن خدمة سواهم .
يدلك علي ما أقول أني لما شكرت هذا الدكتور علي مجيئه وتركه مرضاه
في لوندرة ، كان جوابه لي أن قال : رويدك فاني ماجئت من أجلك وانما
جئت لزيارة زوجتي وأولادي ، فهذا الجواب يعتبر في رأينا معشر الفرنسيات
دليلاً علي قلة الظرف ويعده كثير من الباريسيات إهانة وتحقيراً ، وأما أنا
فلم أنظر الا الي قصد قائله وهو جليل فانه علي يقيني بأن الغرض من
مجيئه هو غير ما يقول قد أراد ان يقنعني بان وجوده عندي انما كان اتفاقاً
لا تعمالاً فلا يد ولا منة له عليّ أو أنه ان كان شيء من ذلك فلا ينبغي
ان يتمدح به أو ان يذكر .

ثم إنه لم يقف في تفضله عليّ عند حد مساعدتي بعلمه وحذقه في فن
التوليد علي النجاة من الهلاك الذي كنت مشفقة من الوقوع فيه ، بل قد
تكرم أيضاً بان محضني النصيح شأن الصديق مع صديقه فيما يجب للمولود
من ضروب العناية فقال « اني اخاطب الآن غرة لا خبرة عندها فلا
تدهش لما سألقيه عليها من أفكاري فان أقل مزية لها ان أساسها التجربة
والاختبار . قد نبه كثير من رصفائي أفكار الناس في جميع البلدان الي كثرة
عدد الوفيات المريمة في الاطفال الحديثي العهد بالولادة ، ويمكن ارجاع
هذه البلوى الي عدة أسباب كفاقة الوالدين وفساد أخلاقها وعدم كفاية
أقواتها ، ولكني أعتقد أن أخص سبب يجب ان ينسب اليه ذلك هو

جهل الامهات بما تجب عليهن رعايته في شأن أولادهن ، فان الاساءة في بعض طرق العناية بالمواليد كاتخاذها في غير وقتها أو الخطاء في تديرها لا تقل عن اهمال شأنهم شؤ ماوسوء مغبة، واني لست أقصد بهذا انه يجب على الامهات أن يجرين على ما تقتضيه الفطرة جري عناية وغفلة فانهن ان يفعلن ذلك يعصين الله (سبحانه) بتخليهن عن العقل الذي لم يهبه لهن الا لمراقبة سير الفطرة في مناهجها واقامتها عليها اذا حادت عنها ، وانما أعني بذلك أن الاوهام والعادات والمعارف الفاسدة هي أعدى أعداء المواليد فتجب محاربتها ومحو آثارها ، وينبغي ان تعتقدي اننا لسنا أسوأ من غيرنا حالا في تربية مواليدنا لان شعبنا يزداد زيادة ظاهرة حتى انه قد ضاقت عن سكنائه أرجاء بلادنا، وهانحن اولاء نرسله أفواجا إلى الاقطار السحيقة ليتوطنها ويستعمرها، ومن هذا تعلمين ان ازدياد الاجناس لا يكون على نسبة عدد الاطفال المولودين بل على نسبة عدد من يتخطاهم الموت منهم ، وعندي أن هذه النتيجة الحسنة الداعية الى الاغتراب في بلادنا ترجع الى ثلاثة أمور وهي : استعداد الدم الانكليزي السكسوني للحياة، وانطباع نساثنا على حب بيوتهم والعناية بها، وما لذوي العقول المستضيئة بنور العرفان من علمائنا من التأثير في نفوس العامة فان كثيراً من نُطُس الاطباء الطائري الصيت عندنا لم يأتقوا ان يقوموا ببحث الافكار الصحيحة والآراء السديدة في فن القيام على المواليد بين أفراد الشعب « ولم يكد الدكتور يفرغ من كلامه حتى باشر العمل بنفسه ورتب ماراه غير مرتب في غرفة نومي ، من ذلك انه وجد مهد (إميل) قد وضع خطأ تجاه (الشباك) فغير وضعه وقال لي « اني رأيت أطفالا أصبحوا عميا أو حولا بسبب تعريضهم بعد ولادتهم بأيام لضوء

شديد» هذا وسأتحفك بنصائح أخرى وعيتها عن هذا الرجل الفاضل لما رأيته فيها من كمال الحكمة والسداد ولم أخل بشيء منها، واني لأرتاب في أنه قد تكلف من المشقة والتعب ما لم يتكلفه لغيري من النساء اللاتي يدعى لتوليدهن، وعاماني كما يعامل الرجل زوجة صديقه. على ان الناس قد أكدوا لي ان الاطباء المولدين هنا لا يزون أن عملهم قد تم بمجرد انتهاء الولادة بل يرشدون الوالدة بعد ذلك الى جميع ما يلزمها في تربية وليدها . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٣ اغسطس سنة ١٨٥٠ ﴾

مشابهة « إميل » لايه وحكاية في التماثل بين صور الاحياء والاموات

كلما رددت النظر الى « إميل » رأيت مثالك محققاً فيه، ولا بد لي أيها العزيز إراسم ان أحكي لك بهذه المناسبة حكاية طبق ذكرها الآفاق في البلد الذي أسكنه. ذلك ان قسيساً بروتستنتياً قاطناً في جنوب انكلترة وجد اتفاقاً في كورنواي يوماً من الايام فطلب ان يزور قصر اعتيقا جداً في ضيعة هناك كانت لأسلافه في غابر الازمان ولذلك كان كثير الاهتمام برؤية أماكنها، فلما حل بها ملاءه العجب وأخذ منه الاندهاش كل مأخذه اذ رأى في الرواق المعلقة فيه صور أهل هذا البيت السابقين صورة كأنها تمثله بذاته مرسوماً على قماش قديم لا بساً عدة الحرب كما كانت سنة الناس في القرون الوسطى، لا بملابسه السوداء التي يلبسها اليوم، وبينما هو يتأمل

في هذه الصورة وفيما يليها من الصور اذ وقع بصره على صورة أخرى زادته ارتياحاً ودهشة ، فتقهقر خطوتين الى الوراء وهي صورة تمثل ابنه البكر وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره وكان معه في هذا الرواق . فاذا نظن في هذه الصور الوراثية ؟ وأما أنا فاني أكاد أفزع عند ما أتصور ان رجلا من الاحياء يعرف نفسه وابنه في شخصين مجهولين من أهله ماتا من عدة قرون .

فليت شعري هل نحن راجعون الى الدنيا بعد الفناء كما روى لنا التاريخ ذلك عن يؤمنون بالرجعة والتناسخ ؟ اه

الرسالة السابعة والعشرون

(من هيلانة الى إراسم في ٤ اغسطس سنة - ١٨٥)

ظننا ان « إميل » انشأ يعرفنا ويان فضله عليها في نحسين خلقها لأزال أشعر في نفسي بكثرة الضعف حتى إني في تحرير هذا المكتوب اليك لم أستطع ان أكتبه مرة واحدة بل كنت أراوح فيه بين الكتابة والاستراحة عدة مرات ، فقد كنت لزمت الفراش اثني عشر يوما موافقة للعادة المتبعة في معظم جهات انكلترة ، والآن أصبحت قادرة على القيام والمشي في البيت قليلا وصرت مثلك اجيل ناظري وفكري وأسيح بهما فيما حولي ، وإني أجد لذة في حبسي لاني أنوي به مشاركتك في حبسك .

أراني لأكون واهمة ان حسبت أن إميل مالبث ان عرفني . فاني

لا أجيز لنفسي مطلقاً ان تعتقد أنني لست في نظره « الا ثدياً مملوءاً لبناً » على قول أحد العلماء . على أنني اعترف اعترافاً تام الصراحة بأن هذا المولود الضعيف الذي يكاد ان يكون جماداً محتاج الى أن يأخذ كثيراً من غيره ولا يكاد يعطي شيئاً . نعم ان لنا فيه قرّة عين وانشرح صدر ولكنه ليس له في هذا اختيار فهو كالزهرة تروح لها النفس ويتهبج برؤيتها الناظر على غير ارادة منها ولا قصد ، ومهما كانت حاله فأنا أشد منه أثرة لاني أنا المغتبطة بحبي إياه ، ثم اني كيف يسعني أن ارتاب فيما له من الاحسان اليّ فانه قد أعاد لي سكينتي وكف عني ما كنت أجده من غربي^(١) ذلك ان خاقي - ولا أخفي عليك - قد خالطه من بضعة أشهر شيء من الحدة بسبب العزلة والاعتراب ، ومن هذا تعلم العلة في غضبي على جورجية قبل الآن بايام على انها أحسن النساء وأكثرهن التفاتاً لواجبها . وحقيقة الامر انها تستثقل المقابلة ولا تطيق النظر اليها ويوجد هاهنا ان تراها قد استحقت نصيباً من شكري لانه من المفروض علينا ان نشكر لمن يخدمنا . فهذه الغيرة المنبعثة من قلب مخلص لم يستضيء بنور العلم هاجت غضبي عليها فلم أستطع كظم غيظي ولا كف بواذر لساني في تلك الساعة . فما كان أشدني اندهاشاً وارتياحاً اذ ذاك ! فاني لم أكّد أفرغ من تقريريها حتى أبصرت وجه إميل قد صار أحمر كالارجوان وطفق يصرخ صراخاً شديداً ، فمن ذلك اليوم ملت الى الاعتقاد بان اتصالات الام تؤثر في نفس الطفل فيكون بكأوه وتغيره رجماً لصداها .

وسواء كان هذا الاعتقاد صحيحاً أو فاسداً فقد عاهدت نفسي على ان

أعتبر بهذه الواقعة ، وأصبحت الآن كلما عرض لي ما يكاد يذهب بحلمي أنظر الى إميل فيسكن غضبي على الفور إجلالاً لولدي، وإذا كنت قد صرت أحسن خلقاً وأوسع صدرًا وأملك لنفسي مما كنت قبل فليس ذلك إلا بسببه ويمن وجوده . اهـ

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٠ ﴾

سؤالها إياه عن حقيقة التربية وزمني بدايتها ونهايتها

تلقي الدكتور وارنجتون مكتوبك^(١) وأطلعني عليه فرأيتك قد تجنيت على نفسك اذ قلت : إنك ملوم على ماجلبه لي تعيس حظك من الحمول والذل، وإنك لست جديرًا بأن تكون والدا . رويداً ! هون عليك الخطب فاني من عهد ان جمعنا عمدة النكاح كنت راضية بكل ماوقع لنا . فهل كان ذلك مني كما تقول ناشئاً من شرف نفسي أو من رعاية واجبي ؟ لا ! بل كان سببه ما في قلبي لك من صادق الحب وخالص الود ، فمن الجبن والعار أن تأسى اليوم على ماقد كان ، واعلم اني لست أشكو أبداً ما ابتليناه من الشدائد والحن ، بل أزهى بها وأفتخر باحتمالها ، وأما ولدنا فقد ان لنا - على ماأرى - أن نشرع في تربيته ، فهاهي التربية ومتى تبتدى ومتى تنتهي ؟ أنا في انتظار جوابك عن ذلك

حاشية - إميل مستغرق في نومه وقد قبلته قبلتين في وجنتيه على حبك . اهـ

(١) هذا المكتوب لم يعثر عليه

الكتاب الثاني

(في الولد)

الرسالة الاولى

(من إراسم الى هيلانة في ١٠ اغسطس سنة ١٧٥٠)

بيان الصعوبة في تحديد زمني بداية التربية ونهايتها وتعريف التربية

تسأليني في خاتمة رسالتك الاخيرة عن التربية متى يكون
ابتدائها فأقول :

يصح أن يتبدأ فيها قبل الولادة بزمان طويل لانه من المحقق
الذي لا مساع للريب فيه ان في أجيال البشر أنواعاً من الاستعداد
الوراثي تنتقل من الآباء الى الابناء ، فابن المتوحش يولد متوحشاً وولد
البربري يخلق بربرياً ومن كان من أبوين متمدنين فإنه يولد مهياً للتمدن .
كل من عرف ذلك يرى فيه أن هناك قوى سابقة لخلق الحياة في
الانسان تحدد لكل فرد من أفرادها درجة ملكاته ومقدارها نوعاً ما من
التحديد ، وما نسميه بالتصورات الغريزية والقوى الحدسية والمواهب
الخلقية والفيض الخفي وغيرها ربما لا يكون شيئاً آخر سوى ما توارثه

من حالة العمران، أعني نتيجة عمل العقل في من سبقنا من القرون، فنحن الراجعون الى الدنيا بعد الفناء كما تقولين .

ان ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم في إحدى مثالي مخنا على غير علم منا وتنقل المادة الحية من قرن الى قرن مرتقية على الدوام في صورها بعمل العقل ، وخروج المولود من غيابة الرحم الى عالم الشهادة باعضاء كلها التقدم وسواها الترقى- جميع هذه الامور يغلب على ظني أنها من أسباب النمو التي يصح ملاحظتها في التربية ، ولكن لما كانت عزائنا ليس لها على مثل هذه الاسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها .

لكن هناك أحوال طبيعية يتأتى للعلم- فيما أعتقد- ان يتناولها ويغيرها خلافاً للأسباب المذكورة ، فلا شيء يمنع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء - مثلاً - ان يصلوا يوماً ما الى تحديد مآلن الرجل والمرأة وحالتهم الصحية وطريقتهم الغذائية من التأثير في التناسل . وقد وجه فريق من بابني هذا العلم الذائعي الصيت أنظارهم الى هذه الغاية وأعملوا أفكارهم في سبيل الوصول إليها، فاذا أدركوها وتقرر أنها أصبحت من ثمراته صار علم منافع الاعضاء فرعاً من فروع علم التربية النفسية .

اذا علمت مما تقدم أنه من الصعب جداً تحديد الزمن الذي تبتدى فيه التربية انضح لك ان تعيين الوقت الذي تنتهي فيه أصعب وأكثر مجازفة لانها تستغرق العمر كله .

وأما حقيقة التربية- وهي أول شيء تسألين عنه- فمن الميسور لي أن أجيبك عنها جواباً سديداً وهو : انها- على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية

اللغوي- عبارة عن تكميل عقل الناشئ وتهذيب نفسه باظهار جميع مااستكن فيه من ضروب الاستعداد وأنواع القوى وانماؤها ، لان ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أي زاد ونما ، لكنني خشية أن تخالي في هذا التعريف ابهاما اعجل بكشف معناه وتقريبه الى ذهنك فأقول :

أراد جمهور علماء الاخلاق بالتربية الوصول الى ما تصوروه في الانسان من معنى الكمال ، فغرضهم منها ايجاد الانسان الكامل وهو غرض يظهر لأول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة . فلقائل أن يقول : ان الانسان الكامل ليس له الا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخارجي قطعاً ، فنحن اذن نحلم به كل على حسب تصوره . فايانا والتشبث بهذه الصورة الوهمية التي يريد بها الخيال أن يتغلب على الواقع المحقق ، فانه لاشيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة ونعمتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية حتى تكون نموذجاً لجميع الفضائل ، ولـكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء و ابرازها لنا الى عالم الظهور ؟ .

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيهاً لو أن الانسان كان ذاتاً واجبة الوجود ، لكننا في الحقيقة نراه على خلاف ذلك متغيرا لا يستقر على حالة واحدة ، فانه وهو في الرحم تتناوبه أطوار جنينية مختلفة ولا أريد أن أبين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث ، وإنما أقول : ان حياته من أولها الى آخرها ليست الا سلسلة استحقاقات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأ . أنظري الى شعره (الذي لا يوجد عادة حين الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات ، والى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف انها تتجدد كلما كبر . تأملي في الغلام الصغير عند ما تبدي ثنياه اللبنة بالزوال تجديده قد صار شيخاً بالنسبة الى ابن الرامة

والخامسة الذي لا تزال لثته محلاة بجميع لآئها ، فقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية في دور نموها أعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها، وأعد لها أعضاء أخرى تنمو في هذه المدة لتخلف الأولى . كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضاً على نظام محدود ، فان المولود يدوق قبل أن يبصر ويبصر قبل أن يسمع ، والذاكرة فيه تسبق القوة الجاذبة ، ووجدانه يكون قبل فكره بزمن طويل . فالحياة من الولادة الى الشبيبة ومن الشبيبة الى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب ويغذي بعضها بعضاً ، والانسان من مهده الى لحده يسلك طريقاً تفرقت فيه رفاته ويددت في جوانبه بقاياه .

أني يكون لنا بعد ذلك موقف في هذه الحركة الدائمة؟ وكيف السبيل الى غاية ننتهي اليها؟ فالذي أراه هو أن لكل يوم ما فيه، وان أهم ما يجب به العناية في علم التربية هو اختيار ما يناسب كل سن من أنعم طارق النمو وأمثلها فأنا الآن أقصر على الكلام عن التربية في زمن الطفولية . اهـ

الرسالة الثانية

(من ابواسم الى هيلانة في ١١ أغسطس سنة ١٨٥٠)

عمل الام في الشهور الاولى من حياة الطفل واتقاد ما يفعله الامهات بأطفالهن في هذه السن

اعلمي ان تربية الطفل في الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح أن أقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايته مما عسى أن

يؤذيه من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها في عملها واعانتها عليه عند الحاجة .

المولود يدخل عند ولادته فيما اصطلح علماء منافع الاعضاء على تسميته بالحياة المستقلة، ولكن ما أضعف استقلاله وأقل حريته ! فانه بما أودع فيه من غريزة التغذي لا يكاد يرى الا ملتقماً ثدي أمه ، فتكون معه كالغصن المطعم بآخر ، فهو اذن تابع لغيره فقير اليه في غذائه وسد حاجات معيشته المادية، وما أخفى معنى الاستقلال وأشد إبهامه فيه وهو في هذا الطور من الحياة ! فانه لما كان مغموراً في شبه سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول أمره على ما يرى من حاله أدنى إدراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء . مسكين ذلك المولود الاعمى ! فانه لا يجد ثدي امه الا بتلمسه ، نعم ان له عينين لكن لا يبصر بهما واذنين لكن لا يسمع بهما ويدين لكن لا يعرف ان يبطش بهما . هذا المولود الذي هو وثن لامه تعبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه بالآلهة ^(١) الزمنى الذين سخرت منهم التوراة، لكنه على ما فيه من الضعف والعجز قد عهد اليه عمل ذو شأن يؤديه في العالم، الا وهو النمو . يكاد عمل الأم ينتهي الى عدم اعاقه هذا العمل الفطري الخفي والتحرز من تشويشه، واني طالما أعجبت بما تهديه اليها في ذلك أثنى الطير من الاسوة

(١) امل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما أراد أن يتحدى أمته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم أن يقربوا ثوراً لآلهتهم ويقرب هو آخر لاله ليظهر أي الآلهة يقبل قربان عباده فقربوا ثورهم ودعوا به لا إلهم من الصباح إلى الظهر لينزل ناراً تأكله فلم يجيبهم فسخر منهم نبي الله وقال : تابروا على الدعاء فلعله نائم .

الحسنة، فانها لشد ماتعتني بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار ، وتبالغ في اخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الاشجار ، والمرأة أقل منها دراية بما يجب للاولاد لاننا كثيرا ما نراها تتخذ مولودها العوبة لشفقها وحنانها . وماذا نقول في امهات ما ينفك كن يرين الاجانب اولادهن فيدرنهم من يد الى يد ، ويهجن انفعالاتهم بما يتصنعن لهم من الحركات والاشارات ، ويعذبنهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم . أقول قولا لا أود منك اذا عته وهو : أني أخشى أنهن في ذلك ينظرن الى تسليهن أو الى زهوهن أكثر من نظرهن الى مصلحة الطفل .

والحذر الحذر أيضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هذا العصر وكتابه قد بالغوا في اطراء الطفل ، فانهم قد حجب اليهم الخيال أن يروا فيه ملكاً نزل من الجنة تاركاً فيها جناحيه ، نعم اني في الحقيقة لا أعرف من أين أتى ، ولكن رأيي فيه هو انه اذا كان قد رأى عجائب في عالم آخر فقلما يذكر منها شيئاً ، وانه انما يحصل علومه جميعها بيننا وسأبين لك في الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم . اهـ

الرسالة الثالثة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٢ اغسطس سنة ١٨٥٠ ﴾

أول علوم الطفل تأتية من طريق الحواس - تربية الحواس - تأثير الحضارة في قواها
تفضيله تربية « اميل » في الريف وسببه - عمل الام في تمرين حواس الطفل

ان اول زمن في حياتنا نكون فيه اكثر تعلما واشد تحصيلا هو ذلك الزمن الذي لا يعلمنا القائمون علينا فيه شيئاً تعليمياً نظامياً ، فجميع

الامهات يعرفن ان الطفل يترقى في تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى أن يبلغ ستة أشهر ترقياً غير معهود في هذه السن ، وقد حسب له بعض علماء منافع الاعضاء ما يكتسبه من العلوم وهو في سن شهرين الى أن يبلغ سنتين أو ثلاثاً من عمره ، فوجد انه يكتسب منها ثلث ما يكتفي بتحصيله أوساط الناس . هذه التربية الأولى لا ينكر ان لأمه دخلاً فيها ، ولكن أخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملاسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره اياها ، فهذا ينبوع الاصلي من ينابيع العلم الانساني - وأعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس - هو الذي أريد توجيه فكرك اليه .

ولننظر ابتداء الى ما يجري في الواقع ، فالمولود في مدة الأسابيع الاولى من ولادته يكون مخه لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن اجابة داعي ما يحتف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل ، فانه يرى جميع هذه الاشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئاً ، ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ، ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها ، فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون^(١) يكون ساكناً فاذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه . هذا هو

(١) ممنون في أساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تبتون ملك الحبشة وهو أيضاً اسم لتمثال (معبود مصري) كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت ناشي من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس

شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله انتعاش ذلك الصـنم بالشمس ان صح ان يسمى هذا انتعاشاً

هل يتعلم المولود الابصار والسماع أم يأتيانه عفواً؟ تلك مسألة يصعب كثيراً على المشتغين بعلم منافع الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فهم فيها أقوال مختلفة ، ولكن الذي أجمعوا عليه أن المولود يتعلم بالتمرين إجادة هذين الفعلين فليكن ذلك من جواب هذه المسألة . والحكمة في هذا ان من السنن الإلهية ان كل عضو يحسن عمل ما واطب دليه، وفوق ذلك ان قوة الاتصالات عند الطفل تزداد يوماً ف يوماً بنفس ما يجده من اللذة في استخدام ما أوتيته من وسائل العلم الصغرى ، فقد قال بسويه (١) . ان لذة الاحساس قوية جداً

الاحساس في الغالب يحصل في المولودين عفواً من غير معاناة تعليم، فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللمس والذوق والابصار والسماع ، بل هم يجدون فيما رهبهم الله من الفرائز ما يلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي من مقتضيات الحياة ، ولكن من الميسور ان نعاون الفطرة على أدائها ، بل اقول : ان في قوة اقتداء الطفل بغيره ومباراته إياه وفي تحلية الاشياء المحيطة به تحمية تزداد بها رونقاً يجذب نظره اليها - ما يساعد على تنده مشاعره ودفعها الى القيام بما خلقت لاجله . نحن نرى في البهائم ان

(١) بوسويه هو يعقوب بنيني بسويه المولود في ديجـون ١٦٢٧ والمتوفى في سنة ١٧٠٤ ميلادية كان أسقفاً لكنندوم ثم « لمو » ثم صار مرياً لولي عهد لويز الرابع عشر وهو من اكبر كتاب فرنسة وأعظم واعظ نبغ فيها

أنها لا تكف عن ارشاد صغارها الى استخدام حاسي السمع والبصر وحماها على الاتفاف بهما، وهذا الارشاد هو السبب - على ما أرى - فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض الفصائل الحيوانية .

كذلك المتوحش - كما تعلمين - يكاد يكون نصيبه من التربية قاصرا على المشاعر ، واشد ما برز علينا بهذا السبب في بعض القوى . فالعادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تنمي في الاجيال البدوية عدة أنواع من الادراك خارقة للعادة في دقتها وسعتها ، واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه ، اكتفينا في الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغير عند انتقالها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس ، فمن ذا الذي كان يظن ان الازانب اذا تربت في خاية نسيت بعد ثلاثة بطون طريقة احتفار الاجحار للسكنى فيها ؟ وهذا الخروف الذي نعتبره مثالا للذل وسلاسة الانقياد والغباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان ، فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهى بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصة^(١) ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين ، فجعله الانسان خروفا أهليا بزربه (أي بناء زريبة له) وتكليف راع القيام عليه وكلاب حراسته . كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالمدينة وتحضر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشة ، فلا تبقى له حاجة في أن يكون دلثم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءته ، فمراقبة

(١) قورصة جزيرة بالبحر الايض المتوسط وهي احدى مقاطعات فرنسا على

بعد ١٢٠ كيلو مترا من شواطئها .

الحيوان المؤذي من بعيد والصاق الاذن بالارض تعرفاً لخطا العدو من بعد ألفي أو ثلاثة آلاف ميل لضرورة لهما الا في حق سكان أمريكا واسترالية الاصلين، وأما نحن ففي حالتنا العمرانية ما يغنينا عن ذلك، فان لنا الشرطي والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا ما نخشاه من أذى المعتدين وكيد الخائنين . فاذا زال الخطر الملازم للمعيشة البدوية بالتحضر وجب حتماً أن يزول معه ما كان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة التي هي عون وجدان المحافظة على النفس .

كأني بك تقولين: ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئاً مذكوراً في جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء الحضارة - ان صح أن ينسب له الخلق - وأنا بلا شك موافق لك في هذا، فانا والحق يقال قدر بحمان الحضارة أكثر مما خسرنا، ولكن هيهات أن يقنعني هذا الفكر لاني أرى أنه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر أن يستجمع في شخصه جميع المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله، وكوني علي يقين من أنا لو بلغنا هذه الغاية ماعد ذلك منا إفراطاً في الغنى ولا وصلنا في الحياة مطلقاً الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل ما من شأنه أن يحيا، وان قوى الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى الفكرية. أما كون الحضارة مما يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم الاجتماعية ويغالب الفطرة دائماً مغالبة يقلل بها جداً عدد البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته - فهذا كله في غاية الحسن، وأما كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهو أمر لا أجد مساعاً للطعن فيه وانما كل ما أستنكره من ذلك هو أن طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة

كسل وخمود لمشاعرنا ، وقد أدركت ذلك الامم المتعدنة أنفسها تمام الإدراك ، فانها قد أبقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها أدنى موجب - ان لم تكن قد اعتبرتها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية ، - وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلاً . ولو ان رجالاً تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحاكمه ، مع انهم لم يفعلوا الا ما يفعله الملاكمون من شباننا في ملاعبهم الرياضية (محال الجنباز) واني أرى - ما لم اكن واهماً - انه كلما ترقى مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجتنا ، صار من الضروري تكلف استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا ، والا أصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيهاً (بياشا) غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة ^(١) فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهماك الناشئين في كل أنواع اللعب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم ، ولولا هذه الألعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سبباً في انحطاط الدولاب ^(٢) الانساني من عرش سيادته .

العلم أيضاً يفرغ جهده وينفذ مهارته وحذقه في تكميل نقص أعضائنا بما يوجد له من طرق المساعدة في أداء أعمالها واني لكثير الاعجاب بجميع الناس باكتشاف المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد ، ولكن

(١) ليتأمل القارئ اعتقاد علماء الافرنج في أعظم رجال الشرق (الباشاوات)

وليحكم فيه بانصاف {٢} المراد بالدولاب للانساني جسم الانسان بما فيه من الاعضاء والقوى فانه شبيه بالدولاب

التوحش الأمريكي ذا الجلد الاحمر لا يحتاج في اكتشاف نقطة فوق الأفق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من اعتياده ارسال أشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي اليه بصور ما فيها من الاشياء . ان في اعانة المشاعر بالآلات على القيام بأعمالها رفع جزء من ثقة الانسان بفطرته التي قضت بأن يفوق الوحشي المدني ولو من بعض الوجوه ، ولست اريد بهذا - كما لا يخفى عليك - وجوب الاستغناء مطلقاً عن مكتشفات العلم والصناعة، وانما أريد به أن لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة إلى انشاء الطفل المدني مترفاً جبناً قصير النظر، فانه لو اعتاد الاعتماد في كل شؤونه على ترقى وسائلنا الصناعية ولم يجعل لنفسه وقوة أعضائه نصيباً من الاعتماد عليهما لصار الى ذلك .

قد يسأل سائل: هل من وسيلة لاسترجاع بعض الخواص الاصلية التي أضاعها منا الانغماس في ترف المدنية ؟ فأجيبه : ربما وجد لذلك سبيل فاني كثيراً ما فكرت فيما للاصناف الانسانية- التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية- من الشأن الاجتماعي، وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة لسد خلل فينا وهو الفضاء الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية .

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكا الجنوبية هو- الذي يعهد اليه خاصة بتربية مولودي الصنف الابيض، فقساؤه مراضع بارعات لهؤلاء المولودين، والرجال يمرنونهم على اجادة النظر والسمع، ولذلك كانت تربية الاحداث الأمريكيين أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا

فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الاطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا، على ان التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيئاً للطفل، وانما تنمي ماهو موجود فيه ، فكم من قوة جسدية لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة لمجرد اغفال استعمالها ؟ .

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ، ولكن أنديتنا وزخرفنا لا تلائم حالة الطفل الملاءمة المطلوبة ، فانه يولد محباً للاستطلاع مقلدا لما يراه، فقي ايجاده في مثل هذه الأندية جذب له الى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه، وقلما يكتسب من يتربى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد ، فانا أفضل كثيراً أن يتربى « اميل » في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعنا شيئاً من صورته .

جميع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الاهمية ، بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ، ولكني لا أخفي عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تثقي بها كثيراً فان كل ما يذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه ، فالواجب - على ما أرى - أن يعتمد في تنبيه مشاعر هذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية ، والأم هي التي من أعمالها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الأصوات والأشكال والألوان والروائح والطعوم ، وتنويع هذه الانفعالات وتدريبها، فعليها ان تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال، والعالم الخارجي

لا يقتضي سوى الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيه الطفل عند ميسر الحاجة الى ما يستحق التنبيه .

ان بين القوى الجسدية والقوى النفسية - وان كانت متميزة منفصلاً بعضها عن بعض - رابطة تربطها ، فان صحة أنواع التصورات ليست بمعزل عن صحة التصديقات ، وان الذهن بما يتمثل فيه على التعاقب من صور المدركات يهيئ مواد الفكر ، فيجب أن تكون تربية المشاعر ابتداء مقصوداً بها تربية العقل . » اهـ

الرسالة الرابعة

(من إراسم الى هيلانة في ١٣ اغسطس سنة ١٧٥)

شعور الطفل من أول نشأته بأنه أرقى من الحيوان الاعجم واستخفافه بالعالم لاتسابه الى الانسان - يان أن له نفساً - توصية زوجته بمراقبة « اميل » لتعرف طباعه وذكر اهمال المربين في ذلك

الطفل يتلقى علومه الأولى من العالم الخارجي ، ولكنه هيهات أن يرضى بمجرد الانفعال بالمؤثرات الاجنبية كغيره من الحيوانات التي تخضع لما يقرر لها من أحوال المعيشة ساكتة عليه ، غير مفرقة بين ضاره ونافعه ، فانه لا يكاد يخرج من ظلمة الرحم الا ويكون قد أثبت حريته بصراخه الذي يعارض به ملهمات الالم وفواعل الطبيعة ، فترينه يبكي ويتبرم ممن حوله من الناس والاشياء . ويوجد عليهم ان لم يجروا على مقتضى

رغائبه وهو على عزله وعجزه يابح في الشكوى من سلطان القدر ويتذمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادته ننتفتح عيناه وأذناه تدريجاً في مشهد الكون ، ولم يكن في حساب أن هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوة الفواعل الكونية . بلى ! هو لا يحسب لها حساباً فلا يلبث أن يتأمل في هذا الدولاب الارضي العظيم ويرجع فيه بصره الرائق وهو هادئ البال آمن ، مع أن أقل اداة فيه ربما كانت كافية لسحقه ومحقه . وهو وان ولد أسير الفطرة لا يلبث ان يكون حاكمها المستبد . فيطلب الى أمه بلغته المبهمة الخفية الدلالة أن تجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو ، بل ربما استسهل ان يسألها انزال القمر والكواكب من السماء تحصيلاً للذته . ولما لم تكن الأم في نظره على كل حال الا مثلاً حياً للنوع الانساني كان شعوره بالقوة انما يستمد من اتسابه لهذا النوع فتسبق الى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذي لملك الذات المختارة على العالم ، فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية - التي لا يدركها الا حدساً غير بين - أدنى تأثير في نفسه لعظم تسلط المادة . ليس الطفل كما يقال لوحاً مصقولاً مجرداً من الادراك ، بل له نفس تشعر بالوجود ولا تلبث ان تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة في المعيشة والاحساس وبما يصدر عنها من الانفعالات اختياراً وبما لها من الفرائز خالقة . وكما ان مشاعره قد جعلت بينه وبين ما حوله من الاشياء اتصالاً ، كذلك أمياله ورغائبه تتدرج في تعريفه من يعيش بينهم من الناس وتقريبه منهم . نعم ان معظم انفعالاته النفسية تأتيه في أول الامر من

الخارج فيكون حبه لغيره وضحه وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير اياه ورؤيته يضحك وسماعه يتكلم ، لكنه عما قليل يبدي ما يستقر في نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح . وجملة القول ان طبعه يستبين وسأتكلم عن هذا الموضوع في بحث آخر .

أنا لا أعتقد مطلقاً اني قد أجبت في رسالتي هذه عن أسئلتك التي سألتنيها في التربية ، فان توفية الاجابة حقها تستلزم زمناً ، وانا قد عدوت فيها عدواً أسرع ما يكون ، فوصيتي اليك ان تفرضي على نفسك انك أيضاً مراقبة « إميل » فان أبعد الاشياء عن نظر القائمين بأمر التربية الى الآن وأكثرها اغفالا هو اختبار الطفل ومعرفة .

كلما فكرت فيك وفي « إميل » كان مثلي كمثل الخنفساء الطيارة يسكبها التلميذ ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير في الشمس ناسية رباطها وتسبح في الهواء وتطنّ فلم يكن الا ان يجذب التلميذ الخيط حتى تسقط على الارض ، فها هو ذا السجان يدعوني لان هذا الوقت هو وقت التنزه على أسوار السجن ، فأودعك وأرجو ان يبقى الحب بيننا وثيق العرى . اهـ

الرسالة الخامسة

(من هيلانة الى إراسم في ٢ اكتوبر سنة ١٨٥٠)

حسن رأيها في ولدها . قول الدكتور وارنجتون في سياسة الاطفال .
وصف الاقليم والاشجار

« إميل » أجمل غلام في الدنيا . أقول هذا القول وأنا عالمة حق العلم

ان جميع الأمهات يدعين ذلك مثلي لأول مولود يرزقنه، وهذا يدل على اننا نرى أيضاً بقلوبنا اكثر مما نرى بأبصارنا .

المرأة تتعلم الحب وتتعلم كيف تكون أما . ففي كل يوم تبدو لي شواهد على ذلك بما يبعثه في نفسي هذا الغلام المحبوب من الرحمة والحنو المتزايدين، لكن لا يدعوك هذا الامر الى أن تخاف علي الاستعباد لوجداني والمجز عن القيام بما فرضته على نفسي من تربيته فاني اتباعاً لنصائحك ونصائح صديقك أقدم مصالحة الحقيقة على ما يقتضيه ميلي وذوقي ، وقد أقام لي الدكتور على وجوب ذلك دليلاً مستوفى الشروط ، فقال بما تعهده فيه من أدب المنطق وحسن اللهجة :

« خلق الله لسائر الحيوانات أعضاء تقوم لها مقام الاسلحة في الذود عن أنفسها ، وأما الطفل فلا سلاح له الا ضعفه وصراخه ، ولكن ما أشد مقاومته لنا بهما وما أكثر ما يستفيد منهما ! فهو وان كانت أنواع الاحساس فيه لا تزال مبهمه قد طبعت فيه غريزة حب العدل من نشأته فلا يلبث أن يميز بها ما يصدر عنا من الافعال في حقه صوابه من خطائه . فاعلمي وثقي بما أقوله لك . ان الواجب في سياسة الاطفال خاصة هو أن نكون نحن المحقين لا هم لانه لو انعكس الامر فجعل الحق والسلطة لهوهم واستبدادهم لخسرنا كل شيء . ذلك ان الطفل يبكي أحياناً للحصول على ما عوده أهله اشتهاه ابتداء موافقة لهوهم . فاذا هم لم يبادروا الى ارضاء شهوته إما إغفالاً منهم لها أو غضباً عليه ، فانه يستمر في بكائه ساعات كاملة بل قد يبكي حتى يشارف الموت ، فاذا انتهى الامر بالادعاء الى رغبته كان ذلك أيضاً شراً من مخالفته لانه يتبين منه ان والديه خلواً مما يدّرعانه

لمقاومة شديد اهوائه . فلا ينبغي أن يعارض الطفل في شيء مما يشتهي إلا إذا كان في المعارضة خير له وإذا ذلك يجب أن تكون عزيمة كالقانون ثباتاً وصرامة . »

هذا ما قاله لي وإني لأخاله عقوداً من الذهب يلفظها من فيه ، فقد اتفق لي - ولا أخفي عنك - اني كنت أنسى أحياناً الأخذ بنصائحه في سياستي « لا ميل » وفي هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان . قرأت الفصل الأول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه في التربية وأنا في انتظار قراءة باقيه لأكشفك برأيي فيه ، فاعند تمام الاعتقاد ان تربية « اميل » ستكون على وفق آرائك ورغائبك ، ولكن لا يعزب عن فكرك ان خط المعاني على الورق أسهل من نقشها في صحف الحياة ومجاري الواقع .

أنشأ ورق الشجر هنا تحت ويسقط لكن فصل الخريف في هذا البلد جميل وان كان غزير الامطار ، فهو كوداع العزيز ابتسام في بكاء ، وتأني فيه أيام قد يتوهم الانسان فيها انه لا يزال في فصل الصيف ، ومما يزيد هذا الوهم قوة إن زنجينا البار قد غرس في حديقتنا المربعة المقابلة لشباك حجرة نومي أشجار العود والصبار والمناوليا^(١) وأراد به هذه العناية اللطيفة أن يهديني شيئاً من جنى أرض بلاده التي يحفظ لها في فؤاده أشد ذكر . ويؤكد الناس ان بعض نباتات المنطقة الحارة يمكن اذا حيطت ببعض ضروب من العناية أن تغرس هنا وتنمو ولا ينالها من فصل الشتاء أدنى أذى ، فقد قال لي بستاني السيدة وارنجتون ما نصه : « ليس

(١) الصبار هو التين الشوكي وليس بمرابي والمناوليات أمريكية وهي الازهار

السبب في هلاك هذه النباتات في غير اقليمها هو فقدانها ما كانت فيه من الحرارة ، بل هو ما تلاقىه من الجليد في الأقاليم الأخرى ، فهي حينئذ تنجح في كورنووي لأن اقليمها معتدل اذ ليس فيه أفرط في الحرارة ولا في البرودة . »

كم من امرأة تعيش معيشة هذه النباتات مطوحاً بها عن مظلم شمس محبتها فلا تموت لتستريح من عناء هذه المعيشة ! . اهـ

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى اراسم في أول يناير سنة — ١٨٥ ﴾

تلفيح « اميل » بمادة الجذري ويان وهم الطبقة السفلى من أهل كورنووي في التلفيح بهذه المادة — ذكر ما بلغته من تعرف أحوال « اميل »

قد حيرني سكوتك وانقطاع رسائلك عني ، فقد مضى زمن طويل جداً لم أحظ فيه بشيء من أخبارك فلمل السر في ذلك ان دخول المكاتب في السجن أيسر من خروجها منه واني على يقين بأنك لا ذنب لك في هذا ، ولكني لبعدي عنك تراني أوجس خيفة من كل شيء .

فشا في كورنووي منذ بضعة أسابيع مرض معد أودى بكثير من الأنفس ، ويقال انه وفد علينا من جنوب انكلترة . ترى هل كان يدور في خلدك أن مسقط رأس الطيب جنار " يصح ان يكون أحد بلاد أوربة التي فيها طبقتا العمال والمزارعين هما أشد الناس مقاومة لنشر الفوائد التي

(١) جنار طيب انكليزي هو المخترع للتلفيح بالمادة الجذرية في أوربة

بحوالي سنة ١٧٧٦ .

نجحت من اكتشاف ذلك الطيب؟ فكثير من البيوت (العائلات) يرفضون تقديم أولادهم للتلقيح اما بلادة فهم أو حذرا أو وسوسة ، بل منهم من يعتقدون ان في ابعاد المرض باتخاذ الوسائل الواقية منه معارضة لمشيئة الله (تعالى). ثم ان مصالحة الطبيبات في هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطبن في القرى على شاكلتهن (طريقتهن) تنحصر في رويج مثل هذه الاوهام. فان هؤلاء النساء لما كان معظمهن يجهل طريقة التلقيح وكان شأنهن القيام على من يصابون بالمرض فلا يستغرب بعد هذا الزيادة عدد وفياته. لم يكتف الدكتور بتلقيح «اميل» بل أراد ان يحدد تلقيحي للتوقي من الخطر المحدق بنا . اني ولا أخفي عنك عند ما أفكر في الجدري آنس من نفسي رعباً واشمئزاً لا يحيط بهما الوصف وخصوصاً اذا تمثل في خاطري انه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع الا القليل من رجال القرن الماضي ونسائه. وإن الانسان ليقضي يومه تألماً وكدرًا اذا خطر في ذهنه ان كثيرا من اخدان الملوك كالأنسة لافالير^(١) والسيدة دوباري^(٢) وغيرهما من ربات الحسن

(١) الأنسة لافالير واسمها فرنسية دوقه دولا يوم لوبلان هي ابنة حاكم قلعة اميواز ولدت على مقربة من تور بفرنسة سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وأدخلت بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسة لتكون من قرينات العروس ليلة الدخول بها فمشقها الملك وعشقه ثم رزقت منه بولدين ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة في دير تسمت فيه لويز الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى اعترافات مدام لافالير (٢) مدام دوباري اسمها مريم حنا كونيصة جو ماردو فويرنيه ولدت في فوكولور سنة ١٧٢٦ وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتباً في مصلحة الموائد وكانت هي من العملة في باريس ثم أدخلت حاشية غليوم دوباري بواسطة أخيه حنا دوباري وخادم فراهه ثم تزوجها غليوم ثم صارت حظية لاويس الخامس عشر ثم نقاه لاويس السادس عشر ثم حكم باعدامها لاتهامها بتأليب الناس على الجمهورية ونفذ عليها الحكم في ديسمبر سنة ١٧٩٣

اللاتي طارصيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جميعاً مجدورات بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة، وأما أنا فاني أشكر لعلم الطب نعمته على الانسان وهي تحرير وجهه واعفاؤه مما كان يؤديه من الجزية لذلك الداء المريع في أغلب إغاراته، فلقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أملها في أن تحب قدانقطع بما كان ينمحي بسببه من محاسنها، واني ولست الآن فتاة أقول : لو جعلت لي الدنيا بما فيها على أن أخسر مالي من بقية الجمال القليلة مارضيتها منها بدلا، فاني إخال اني لو فقدت تلك البقية لانكرتني وانقطعت عنك معرفتي . انك بما كلفتي من مراقبة أحوال الطفولية واستعراف شؤونها في شخص « اميل » كأنك قد بعثتي لاكتشاف بلد مجهول ، فانه من المحقق الذي لا ريب فيه وجود عالم للأطفال على حدته ، لان جميع من رأيتهم منهم لا يكادون يختلفون في شيء من طرق احساسهم وابداء انفعالاتهم، ولكن من الصعب جدا الرجوع الى دخول هذا العالم بعد الخروج منه . فاذا رجعنا الى ما ذكره من ماضينا ابتغاء معرفة شيء من أموره تبينا انه اللجنة الارضية التي لم يخرجنا منها الا مجرد نمونا وكبرنا . وانه يكون من العبث البحث عن موقعها في خارطة ذاكرتنا، وربما ملت الى الاعتقاد بان الطفل ساكن تلك اللجنة التي هي مطلع فجر حياته ودار هدهد وسكونه يعرف من أمرها أكثر مما نعرف، ولكن اذا كان الله (سبحانه) قد استودعه سرها فهذا السر هو في غاية الحفظ لا يطلع عليه أحد ، اذ كيف يصح تخمين مايقم في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها؟ اللهم الا بلهجة مبهمه وأصوات غير معروفة الخارج . وقد تبينت

بما ألاحظه في الاطفال كل يوم ان لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ، ولكن ماأبهمها وأعمر فهمها حتى على الامهات أنفسهن وانني إخالني أفهم بعض رغبات « اميل » وأدرك أفراحه وأتراحه وهذا لا يكفي في معرفته منتهى مايمكنني ان أقول فيما وصلت اليه من استعراف أحواله : هو أنني لاحظت فيه حصول استحالات كبرى ، فانه في مدة الشهرين الاولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (ان صح تسمية هذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي ، وأما الآن فهو يميز بعض ما يحيط به من الاشياء تميزاً فيه نوع من الوضوح ، وفوق ذلك فهو يتبسم لي . يومنا هذا هو عيد أول السنة الجديدة ، ولكن ماأشد حزني فيه وأعظم كدري ! . وأنت تعلم ان من عادة الناس في مثل هذا اليوم ان يرجوا لمن يحبونهم من الخير ما يشاؤون ، وأنا أرجو لك شيئاً واحداً وهو ان تعود اليك نعمة الحرية .

حاشية — هديتي اليك في هذا العيد هي خصلة من شعر اميل أرسلها في طي هذه الرسالة . اهـ

الرسالة السابعة

(من هيلانة الى اراسم في ٣ ابريل سنة — ١٨٥)

بيان أن سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لاضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها - تدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه

قد جاءني السيد بشيء من أخبارك بعد طول تطالي اليها فاطمان قلبي قليلاً بما قاله لي عنك وزال بعض ما كنت أجده من الجزع عليك

لا يخطر ببالك اني نسيت ماتلقيته من نصائحك وتعاليمك في تربية «اميل» فاني باذلة قصارى جهدي في تعريفه بما حوله من الاشياء ، وفي هذا المقام أقول : اني احسبني قد تبينت ان فتور مشاعر الطفل ينشأ من عدم التفاته الى المحسوسات أكثر من حدوثه من ضعف تلك المشاعر، فان في قدرته أن يدرك أصوات كثير من الاشياء الخارجية والوانها تمام الادراك لو أراد ان يكلف نفسه الإصغاء والنظر اليها ، ولكن لما كانت هذه الاشياء لا تستميلة كان يغفلها إغفالا تاماً . وجملة القول في ذلك انه لا بصر له ولا سمع الا فيما يجب إبصاره وسماعه ، واذا كان هذا شأنه فكيف السبيل الى معرفة ما يروقه من الاشياء وما لا يروقه ؟ أعترف وانا صاغرة بأني كثيرا ما أخطأت في استعراف تلك الاشياء ، فليس كل ما أتخيره منها لتنشيط حاسة اللمس في «اميل» يجب أن يجيل فيه يديه الصغيرتين ، ثم ان أبهى الالوان وأجملها في نظري تمر امام عينيه مرور الظلال فلا تلفته أدنى لفت ، وأنا أظن اننا معشر الامهات مدفوعات في هذا الامر وفي غيره الى إحلال أذواقنا محل أذواق الاطفال .

وجورجية - على كونها أقل مني ارتياضاً بالعلم - كثيرا ما تكون أنجح مني في سياسة «اميل» فانها تجد بغريزتها ما يجبه ويسليه وينبه قوة الاستطلاع فيه، وربما كانت تستعرف رغائبه فتسعى في تحصيله له، وسبب ذلك أنها - كما تعلم - قد كانت والدة لثلاثة أولاد حرمها منهم الرق على التعاقب، ولا تدري أين هم الآن، فلا بدع إذن في شدة تعلقها «باميل» ومحبتها له ، وانا في وجد عليها من حبها اياه أكثر مني، وحاشا ان يكون ذلك حسدا فانه مستحيل، وانما الذي أحسدها عليه هو قدرتها على أن تكون طفلة مع

الطفل وكان هذا هو الذي تعنيه بكلامك في استعداد المرأة الزنجية للامومة.
لا اخالك تصدقني ان قلت لك: ان (اميل) قد صار أصدق التابعين
لزورواستر^(١) أعني انه يعبد الشمس . من أجل ان تعتقد ذلك ينبغي ان
تراه لتتظر كيف يبسط ذراعيه الى ضيائها فرحاً برؤيته .

كان الشتاء عندنا في غاية السهولة فلم ينزل فيه الثلج الا مرتين، على
انه كان فيها يذوب بمجرد ملامسته الارض ، ولا تزال الاشجار مجردة
من أوراقها، فالريف العاري من الحضرة كالبيت الخالي من الفراش والاثاث.
على ان نفحة من الحياة أنشأت تدب وتسري في مادة الكون جميعه ولن
تلبث ان تملأ ما خلفه الفصل المنقضي من الفراغ ، وقد أمست الآصال
عندنا في غاية الصفاء والطف، ولذلك ترى (اميل) اذا رأى الجو صحوا
أبدى من القلق ما يدل على رغبته في أن يحمل الى الحديقة ، ولما كانت
الشمس في كورنواي خصوصاً زمن الربيع لا ضرر فيها على أحد بل هي
تلائم الاطفال والشيوخ- اعتادت جورجيه أن تفرش سجادة على الحشيش
الجاف وتجلس عليها (اميل) ليلعب ويمرح كما يشاء ، ولما رأيتة يعتمد علينا
في حراسته مدة وجودنا معه قصدت أن أعلمه شيئاً من الثقة بنفسه
والارتكان عليها، فاعزت الى جورجيه بالتنحي عنه واختفيت أنا أيضاً عن
بصره من غير أن يغيب عن عيني، فلاحظت أنه في مبدأ الامر خاف

(١) زورواستر هو شارع ديني للامم البكتريانية وهم سكان قسم من آسية كان
يدعى قديماً بكتريانية وهو الآن تركستان، وهذا الرجل هو المؤسس للديانة البرسية
التي تدعو الآخذين بها للاعتقاد بالهين وهما الضياء والظلام أو منشأهما وهما روحا
الخير والشر ، ويسمى الاول اوروموزد والثاني اهريمان أو اهرمن وهذا هو أصل
مذهب المانوية

عند ما شعر بوجوده وحيداً وأبدى بعض القلق ، لكنه ما لبث ان تشجع وقوي قلبه ، فكنت حينئذ أراه يفتح عينيه ويلتفت الى كل ما يحصل حوله ، ويحرك يديه الصغيرتين كأنه يذود ذبابة تطن فوق رأسه ، فأخذت على نفسي من هذا الوقت أن أكف عنه مراقبتي حيناً بعد حين ، حتى اذا أحس بقلّة حمايتي له تعلم كيف يستغني عن مساعدة غيره .

كلما فكرت في فروض الامومة بدا لي منها معنى قلما يشابه ما يفهمه غيري من النساء ، فاني أرى أنه من الواجب علي بمجرد أن يكبر (اميل) ان أحرم نفسي من لذة مكاشفته في كل وقت بأني مهتمة به ، لان أكبر شيء يعوق نمو المشاعر في بعض الاطفال ويعطل استتقرار طباعهم انما هو - فيما أرى - طريقة القائمين عليهم في تربيتهم ، فانهم بكثرة حياطتهم ايام بضروب من العناية البالغة غايتها من الظهور والناشئة عن فرط الاهتمام بهم - يعودونهم أن يعيشوا غير مهتمين بأنفسهم ، فان الطفل اذا كان غنياً متعجرفاً لا يتكلف أعمال ملائمة الاحتفاظ بنفسه ، بل يكون شأنه كملوك الشرق الحمقى الذين يهون عليهم أن يسموا مشيري دولهم «أبصارهم وأسماعهم» طيبة بذلك نفوسهم ، لانه يعتاد أن يستعين في إبطاره وسماعه بالمرييات القائمت عليه المكلفات خدمته وتعرف حاجاته لقضاها ، ولا شك ان هذا الطفل المبالغ في حفظه اذا رأى نفسه يوماً ما بعد ان كان محوطاً بأمتن أسباب الوقاية ، قد خلى بينه وبين أقل خطر يلم به ، يكون أسوأ الناس حالاً وأكسفهم بالاً ، بل يكون هو الشخص الذي يحكي عنه انه كان يخاف من ظله

يدعوني (اميل) بأفعاله وأحواله الى التفكير في كل شيء ، فقد ذكرني

بالامس شخصاً من المذكورين في أساطير الاقدمين . ذلك ان الاطفال لا حساب للمسافات عندهم ، وهذا الامر فيهم منشأ لكثير من الاغاليط البصرية ، فقد كنت في الحديقة وكانت جورجية واقفة ازاء شباك من شبايك المنزل المشرفة على مكاني وهو على يديها ، فلم يكن إلا أن رأني حتى بدت عليه علاماً لا يتهاج ومد الي يديه كالجنأحين ، على ان الشباك الذي كان يطل منه هو في الطبقة الاولى من البيت ، فلما لم تصل الي يده ظهر عليه الاندهاش ، ثم أفضى به الامر الى أن غضب واحمر وجهه ، والذي كان يتغنيه مني - بحسب ما يحلو لي اعتقاده - هو ما أبديه له من صنوف الملاطفة والمداعبة ، بل كان يريد أيضاً التقام ئديه لانه لم يكن رضى من بضع ساعات ، فلم يكن لهذا المحبوب المسكين مشيل في عذابه هذا الاطانتال ؟ ^(١)

(اميل) يعرفك بل يعرف صورتك التي أربه إياها ذاكرة له اسمك ، ولا أخالي واهمة في ذلك فانه بمحلمته في مثالك وابتسامه له ومده يديه نحوه يظهر عليه انه قد عرف والده تخميناً .

{١} طانتال في أساطير الاقدمين هو ملك فريجية التي هي قطر من أقطار آسية الصغرى ، وكان قدم للآلهة اشلاء أولاده طعاماً فموجب بالجوع والعطش في جهنم ويضرب بعذابه المثل فيقال : فلان يعذب عذاب طانتال . اذا كان على الدوام يعتقد انه قد صار من رغائبه بمكان اللامس وهو في الحقيقة عاجز عن ادراكها

الرسالة الثامنة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٥ يونية سنة - ١٨٥ ﴾

تصويب رأيها في تعرف أذواق « اميل » وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل على
مثالهما في الطباع والاذواق، وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها ودوائها،
ووجوب مقاومة التربية لاهوائه الفاسدة، وبيان ان لهذه المقاومة طريقين
أحدهما إلهاءه عنها، والثاني جعله بمزلة عن البواعث المثيرة لها

لا سبب لا نقطاع رسائلي عنك إلا ترقي فرصة تمكيني من إيصالها
إليك، وقد تلقيت مكنوباتك الاخيرة فأخذ ما ذكرته فيها عن (اميل)
بمجامع لي وبعث في دواعي الحنان والرحمة، ولم اكن الى الآن أعرف
شيئا من ذلك في حياتي التي قضيتها في العلم ومناظرة الحكماء ومقارعة
خطوب الدهر، ولا غرو فاني ولدت مستعداً للابوة وأود لو أرى ولدي
ولو بذلت في ذلك جميع ما أملكه من الحطام. واني مخبرك بأمر - وان
كان لا ينبغي مكاشفتك به - وهو أنني كنت عزمت عدة مرات على دعوتك
الى الحضور اليّ به على ما بيننا من البحار الزاخرة والمسافات الشاسعة،
لعلمي بأن ما فيك من الاقدام ورباطة الجأش تتضاءل دونه العوائق، فلا
يثنيك منها شيء عن تلبية دعوتي، وكأني بك بعد هذا تسأليني عن السبب
الذي منعي من هذه الدعوة ولا يزال يمنعني منها، فأقول: انني قلت في
نفسي قد يكون من الاثر أن أخل بسجني ذاتين هما من أحب الناس اليّ
واخف من حالهما، ولا حق لي في أن أستلب من هذا الطفل غرارته وغفلته
وبواكير سروره وابتهاجه، بإلصاقه بي في محنتي التي خصني بها القدر، مما

الله أن يكون مني ذلك، فليشب وليترعرع حراً مغتبطاً في جناح والدته وكنفها. أراك محقة في اهتمامك بتعرف أذواق (إميل)، فإن الوالدین في الجملة ينشئان أولادهما على مثلهما في الطباع والأذواق، على أن هذا الأمر هو الذي كان ينبغي اجتنابه، لأن الطفل إذا كان ألوبة في أيدي كبار المنوطين بسياسته، وآلة تفعل بمشاربهم وأفكارهم، فإنه يعتاد موافقتهم في جميع الأمور، وهذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالاً صحيحاً في هذه الأيام. وانا إذا فتشنا عن العلة في شك زوال ما فينا من أنواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة، فربما وجدناها في تربيتنا الأولى فإنها مشار آفاتنا ونقائصنا النفسية.

ولنبحث ابتداء في ماهية الطبع فنقول: جرى اصطلاح العلماء باطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التي لاشك في أنها ترجع بأصلها الى الفطرة، ولكنها على الدوام في تغير وتجدد لاسباب باطنية وظاهرية، فمن الاسباب الباطنية الارادة فان لها شيئاً من التأثير في اهوائنا وشهواتنا ومحباتنا، وكأني بسائل يقول: وهل هذه الارادة نفسها خلقية أم مكتسبة؟ فأجيبه: انها تجمع الوصفين على ما أعتقد لانها تكاد تظهر في الطفل بمجرد ولادته، وكما شب وكبر قويت وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها، وأما الاسباب الظاهرية فيكفي أن نمثل لها بالبيت (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم. فلوان الفرنسي المسيحي ولد في الصين من أب نشأ على آداب كوفوشوس^(١) وتعاليمه لكان مغايراً لنا في آرائه وسيرته.

{١} كوفوشوس هو احد مشاهير فلاسفة الآداب وعلماء الاخلاق في الصين ولد في سنة ٥٥١ ومات في سنة ٤٩٩ قبل المسيح

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون في الايام التالية لولادته كأنها محجوبة بإدراك مشاعره وهو في هذا الوقت يشمر بوجود ذاته، بل هذا الشعور قد يكون أحياناً هو الغالب عليه، ولكنه قلما يبدو منه إلا بحركات إرادية، وأعني بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وأنواع الصراخ التي تصدر عنه، فإن كل ما من شأنه أن يولد ألماً أو يحدث غضباً يكون فيه مدعاة الى ظهور هذه العلامات الخارجية، وكثيراً ما تبدو منه حركات تخالفاً مختلفة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر في السبب الذي يحدثها، ولو دققنا النظر لظهر لنا انها لا تكون منه الا طلباً لتحصيل لذة أو تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون . فالعلام الذي في الثانية أو الثالثة من عمره اذا طلب من مربيته شيئاً فمنعته إياه فاستلقى على الارض وأنشأ يتمرغ وينتف شعر رأسه غيظاً تكون أفعاله هذه معقولة في حقه لانه يجد فيها بطريق الإلهام شفاء لا عصابه من تهيجها فيتلاشى بها جفقه وتنكسر حدته، وكذلك الشأن في البكاء وغيره من الوسائل التي يزول بها عن أعضاء الجسم ما تجده من الألم بسبب توتر أعصابها .

على أن بعض هذه الحركات الغريزية يبقى ملازماً لنا حتى في زمن الرجولية، فإن كثيراً من الناس من يضرب بيده على جبهته اذا بلغه خبر سيء، ومنهم من يزغزغ انفه، ومنهم من اذا جاءت الامور على غير مراده انبطح فوق فراشه . ومن هذا تعلمين ان أحقل الرجال تصدر عنه غالباً وهو في شدة انفعاله حركات لا تصدر الا عن مجنون، وأنا لا أمتاري في انه يفقد ماله من السلطان على نفسه في هذه الحالة، ولكني أقول:

ان في هذه الافعال التي تصدر عن غير رويةٍ حكمةٍ وان كنا لا نرى فيها الا جنونا وحمقا. ذلك أن للنفس حالات تقتضي من الجسم أوضاعا مخصوصة لعله محبوب عنا علمها، فمن الآلام النفسية ما يميل بنا الى الهجوع والسكون، ومنها ما يدفعنا الى المشي والحركة، ولا سبيل الى اكتناه علة هذه البواعث الوقتية التي تدفع بعض أعضائنا الى التحرك عند حدوث شيء من الاضطرابات العقلية الا الاعتراف بأن الوصول الى معرفة هذا السر مما ليس في مقدورنا وهو سر آخر جدير بالتفتيش عن سببه .

أول حرية تجب علينا للطفل هي أن يكون مختارا في حركاته ومقتضيات غرائزه، واني وان كنت كغيري من الناس لأحب ان أرى ولدا مسكينا يحمر وجهه من الغضب ويبلغ به الاتفعال الى درجة الجنون — أرى ان الإغضاء على بؤادر ذلك الغضب أخف ضررا من قمعها بالافراط في التسلط أو القهر، فانه لا شيء أردأ مغبة في الغيظ من اكراه صاحبه على كظمه، ولا أسوأ في الطباع ولا أخس في الخلائق مما يقيم دائما ويرغم صاحبه على إخفائه . على أن الطفل سيتعلم في مستقبل أيامه ان من موجبات كرامته ان يملك نفسه عند الغضب ويكف سورة اتفعالاته، وان البكاء وحركات الضجر وخفة الفرح الخارجية عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال قطعاً، بل سيكون كآلاتنا البخارية تحرق ما يتولد من دخانها، ولكننا يجب علينا ان نتنظر في بلوغه هذه الغاية ريثما ينمو عقله وتقوى ارادته .

ولست أعني بهذا ان يترك الطفل وما يعتوره من الاتفعالات لعدم وجود ما من شأنه أن يزيلها، كلا! فان الاطباء قد اخترعوا لعلاج الجنون طريقة سموها التلية النفسية يمكن اتخاذها في تربية الاطفال على ما أرى .

على انها معروفة للمراضع من زمن لا تاريخ لمبدئه، فقلما توجد واحدة منهم لا تعرف كيف يسكن غضب الطفل بصرف وجهه الى ما يليه ويشغل فكره. ويمكن تعميم العمل بهذه الطريقة، فان من الاطفال الحديثي السن جدا من يكون لهم شغف بالموسيقى من صغرم، ومنهم من يسهل لهاوهم بمجرد النظر اليهم، ومنهم من يجدي رؤية الحيوانات لذة مخصوصة، ومنهم من يجدهذه اللذة في رؤية بعض الاشخاص، فينبغي النظر في هذه الاذواق الخلقية لان جميعها من الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تربية الطبع فيهم .
أنا لا أعتقد ان في الانسان خلائق شرا محضاً، ولكن يوجد من خلائقه ما اذا غلبت عليه وأسيء تصريفها فانها ربما تؤدي الى عواقب وخيمة، فاذا سأل سائل : هل يجب اعدامها ؟ أجبته : ليس هذا من رأيي لاننا مع تسليم امكان الوصول الى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة، وانما الذي ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب وأذواق أخرى .

أجد في نفسي ميلاً الى اعتقاد انه لا يوجد طبع مهما كان فساده الا وقد انطوت فيه وسيلة للخلاص منه ، فلو ان القائمين على التربية حذقوا في التدرع بتلك الوسائل لمكافحة الطباع السيئة ومغالبة الاخلاق الرديئة في الوقت المناسب لذلك لحفظوا على المجتمع الانساني كثيرا من أفراده الذين خسروا خسراً مؤبداً في السجون ومعاهد العقاب بالاشغال الشاقة، ولست أضرب لك تأييداً لهذا القول الامثلاً واحداً اقتبس من مذكرياتي الخصوصية : حدثني لص انه انزق ذات ليلة في ملهى موسيقى جلس على أحد مقاعده لا يسمع المغنين بل يرتقب فرصة تمكنه من سرقة ما عسى ان

مجدده في جيوب مجاوريه، فان هذا الامر كان مهنة له ، ولكنه كان هو السروق في تلك الليلة لانه كان ذا كلف بالموسيقى فلم يكن الا ان سمع أول رنة للكمنجة حتى أحس بان عقله قد ساب ، ولما أنشأ المغني دوبريه^(١) يعني صار الى حالة أسوأ من ذلك لقنائه عن نفسه فيما وجدده من اللذة في ذلك اللحن المعروف بلحن الشيطان روبرت الذي في الفصل الخامس من تلك القصة الغنائية ، حتى انه ليخيل له انه لا يزال يسمع رجع صدهاء ، وجملة القول انه نسي الاشتغال بمهنته تلك الليلة ، فلما كان مساء اليوم الثاني عاد الى ذلك الملهى نفسه عاقدا نيته على أن لا يفتتن بينت البحر^(٢) ولكنه في هذه النية لم يحسب حساب نزيله الذي بين جنبيه ، أعني ميله الفطري الى سماع الألحان، فخرج في هذه الليلة أيضاً ممتلياً الاذنين صفر اليدين، ومن أجل هذه الخيبة أقسم أن لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلاً انه ان فعل خسر به ميله الى حرفته ، وهو قول دال على قبحته واجترائه على القبائح .

الالهواء الفاسدة في الانسان هي قوى مستبدة يعشها نموها الفطري أو المكتسب على أن تملك قياده فتغلب على منافيه من ضروب الوجدان أو الافكار ، فمن البديهي ان هذه الالهواء هي التي يجب أن تقاومها التربية من أول النشأة، وهذه المقاومة يصح أن تكون على طريقتين أولاها

(١) دوبريه هو جيلبيرت لويس مغن فرنسي شهير ومعلم لفن الغناء أيضاً وله فيه تأليف (٢) بنت البحر في أساطير الاقدمين هي ذات خيالية نصفها الاعلى نصف امرأة والاسفل نصف سمكة كانت تفتن الساحلين بلذيق غناها فتجذبهم الى شاطئ صخرة حيث يكون والمراد هنا المغني ففي الكلام استعارة

الرجوع الى أنواع التلية التي تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه الى غيرها كما سبق لي بيانه . وثانيتها جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التي تهيج من غرائزه ما يوجب على الظن ان في تحريكه وبالأعلى عليه ، فان في بعض الاشياء شيطاناً رجياً كما ستعلمين من حادثة جرت في ايقوسية ^(١) أقص عليك خبرها لتفهمي ما أريده بالبواعث الخارجية التي تهيج الغرائز :

وهي أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد حوانيت الطُرف ، فلما انتقت ما أرادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن - وكان في نحس طالعه كربع ساعة رابليه - ^(٢) أخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنك) قيمتها خمسة جنيهات انكليزية فلما نقدتها كاتب الخانوت لم يلبث ان عرف تزيفها، فبهتت المرأة المسكينة وأخرجت له أخرى لكنها لم تكن بأحسن من الاولى، فارتاب الرجل في أمرها وسلمها الى الشرطة، ولم يكد التحقيق يأخذ مجراه حتى ظهرا لها كانت خادمة في بيت استوجبت احترام أهله اياها بما لها من حسن السيرة والصدق في الخدمة ، وان الايقوسي الذي كانت في خدمته كان قبض من أحد معامليه قبل هذه الحادثة يبضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين وأخطأ في عدم تمزيقهما لتعاسة حظ هذه المحدودة ، وانها لا عتيادها دخول حجراته في كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراها مختلطتين بأوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيراً أول

(١) ايقوسية جزء من الجزائر البريطانية (٢) رابليه هو كاتب قصص فرنسي مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م اتفق له ان حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت الحاسبة على ثمن الاكل لم يكن معه ما يدفعه في حصته فخرج صدره وكان الساعة كانت دقت الربع اذ ذاك فضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع

الامر ، ولكن لما تكرر حضورهما أمام بصرها من يوم الى يوم ومن اسبوع الى اخر ومن شهر الى تاليه - أنشأت تمنع النظر فيهما وكأنها تين الورقتين اللتين كانت تحالهما - على بلاهما - صحيحتين كانتا ترنوان اليها من طرف خفي وتخدعانها وتناجيانها بنصائح غريبة ، فرفضت بادئ بدء فكرة أخذهما وابعدها عن نفسها فراسخ ، لكنها لم يبق في وسعها ان تكف النظر عنهما متى وجدت في الغرفة التي هما فيها ، ثم انها في ذات يوم لمستهما يديها وبسطتهما وأخذت تقلبهما ثم ردتهم فورا الى اضبارة الاوراق البالية التي كانتا فيها كأن فيهما نارا كانت تحرق اصابعها وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها وأوقعها فيما علمت .

فاذا كان هذا تأثير الاشياء في الكبار ، فما ظنك به في الصغار ؟ نعم انهم والله الحمد ليسوا كلهم لصوصا ، وفوق ذلك قلما تعرض لانظارهم أوراق المصارف صحيحة أو مزيفة ، ولكن توجد عدة من الخلائق الاخرى التي يهم المربين ان لا يقووها فيهم بنظر ما يوقظها من الاشياء ، فان رذائلنا وفضائلنا ليست مجرد معان ذهنية بل لها بالخارج ارتباط قوي ، فهي تطابق فيه أمورا وأحوالا شتى يكون بها تأثيرها وعنها انفعالاتها . فالشراهة مثلا تتحرك في الانسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها ، والغيرة تتيقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام ، ورؤية ما يعامل به من صنوف الملاطفة . فأول واجب على المربي هو البحث عن طبع الطفل ومعرفة ، والواجب الثاني هو ان يقطع عنه مواد الفتنة أعني البواعث المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لاغراء طبائعه السيئة وإثارتها ، فلكثير من الاطفال الحق في ان يقولوا للقائين عليهم : ناشدنا كم الله لا تدلونا بغيرور .

ثم لا ينبغي أن يعزب عن ذهن المربي هذا الناموس الفطري وهو: أن الطبائع والغرائز كما أنها تقوى وتنمو بالممارسة هي تضمحل وتزول بعدمها، فبه نملك قمع بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على أذواقه الفطرية الأخرى ونمنعها من بلوغها غايتها. فأكبر عمل للإنسان في إصلاح نفسه منفرداً هو مكافحة ما يتغلب عليه من سيء الأخلاق ورديء الطبائع، كما أن أجل سعي في إصلاح شأنه مجتمعاً هو ردع المعتدين وكسر نخوة الطغاة الظالمين.

كأنني بقاءل يقول: هل يكفي في تربية الطفل ما ذكرته من جعله بمعزل عما يشرفه غرائز الشر وإيجاد التوازن والتساوي بين طبائعه؟ فأجيبه: لا شك في عدم كفاية ذلك، فإن طريقة التربية هذه سلبية والواجب علينا هو أن ننبه في الطفل بمجرد أن يشب ضروب المحبة وعواطف الخير. وقبل الخوض في هذه الطائفة الجديدة من المسائل يجب عليّ أن أبحث أولاً فيما يتخذه الناس من الطرق عادة في تربية طبع الطفل كحمله على الامتثال المطلق وتخوينه بالمقوبات وترغيبه في المكافآت، وكقوة القدوة والاعتقاد الديني وقواعد علم الأخلاق، وأسائل نفسي عما تساويه هذه الحيل المختلفة. اهـ

الرسالة التاسعة

(من إراسم الى هيلانة في ٢ يونيه سنة ١٨٥٠)

ضرورة استعمال السلطة في سياسة الاطفال والتعجيل بالكف عنها متى تيسر ذلك
وبيان ضرر فهر الطفل على الامتثال

لامراء في وجوب الاستعانة بضروب السلطة المطلقة في تربية الاطفال

اذا كانوا حديثي السن جدا رعاية لمصلحتهم ، فيؤمر الطفل منهم بالاقبال فيقبل ، وبفعل كذا فيفعل ، وينهى عن الانطلاق الى جهة كذا مع قرن هذا النهي بفعل يحول بينه وبين الذهاب اليها فلا يذهب . مثل هذه الاوامر الصريحة التي تصدرها الأم لولدها مع تلطيف شدتها بنغمة الصوت فيها ومباشرة أثماره بها بنفسها مما لا بد أن يقبل عذرها فيه لأنها انما تخاطب بها ذاتا مجردة من العقل . على أن الافضل التعجيل بالكف عن الإلزام والقسر متى صار ذلك ميسورا .

قهر الطفل على الامثال وإلزامه إطاعة الاوامر يستلزم حتما إخماد وجدان التكليف في نفسه ، خصوصا إذا طال أمر ذلك القهر ، فانه اذا كان غيره يتكلف الحلول محله في الارادة والحكم المطلق على الخير والشر والانصاف والجور لم تبق له حاجة في الرجوع الى وجدانه واستفتاء قلبه . وعسى أن لا يكون هذا شأننا مع « اميل » لان الحلول محله في عمله أعني إلزامه اتباع أوامرنا يمت فيه قوى عزيمته الشخصية ، فمن اجل ان يكون له قيمة حقيقية يجب أن يصير خيرا صالحا باختياره لا رغم انفه ، وان تكون افعاله صادرة عن ارادته ، واود كثيرا ان يكون من صغره عارفا بخصائصه ونقائصه ليزيد في الاولى وينجرد من الثانية بنقدمه في سبيل الحياة . فعلى اذن ان لا ننعى من اول الامر عن حقيقة ولايتنا عليه وحدودها ، فان الطفل لا يصير صالحا بعمل الغير بل يكون كذلك بنفسه ، وكل ولايتنا في تربيته تنحصر في ارشاده الى استخدام وجدانه ، ويجب علينا ايضا في سبيل إرجاعه عما يقع منه من المفوات في سيرته ، ان نغتنم بمضرة الاشياء القبيحة بما في تلك الاشياء من البراهين الذاتية على ضررها لا بما لنا من الخجج

(التربية لاستقلالية) مضرة التربية بالالزام بالتقليد وفائدتها بالحرية والاقناع ١٢٩

المتسلسلة ، ولو اني أسعدني الحظ فتوليت تربيته بنفسي لما طالبته بطاعتي فيما أمره به، بل متى تمكنت من مخاطبة عقله نصحته بأن يسير على مقتضى القوانين التي تجري عليها شؤون الكون المعنوية وحوادثه المادية .

يجري معظم الآباء مع أبنائهم على هذه الطريقة في الاستدلال وهي :
« اعتقد صدق ما أقوله لك وافعل ما أمرك به ، وسأثبت لك بعد ذلك انه هو الحق والعدل » وأنا لا أسير عليها ألبتة ، بل اجتهد في اقناع « اميل » بأن الامر الذي أنصح له باتباعه أو باجتنابه هو حسن أو قبيح لا لأنني أراه كذلك بل لانه قد يكون مفيداً للناس أو له أومضراً بهم ، وكأني بك نقولين ان ذلك يقتضي أن يكون للطفل المربي مزايا عقلية خاصة به يقل وجودها في غيره من الاطفال . فأقول : لا ! بل لا يقتضي الاذوقا كبيرا وبساطة كلية فيمن يتولون تربيته وتعليمه ، فليس الذي يؤثر في ذوق الاطفال السليم هو كثرة الكلام الذي يرمى به جزافاً ، أو طول الشرح في القول ، وانما الذي يؤثر فيهم هو حسن النيات ونبيل المقاصد لانهم أقوى بصيرة مما نتوهمه الف مرة .

الطاعة الصادرة عن حرية واختيار ترفع طبع الطفل ، والاذعان الناشئ من القسر يحطه ، فللأم ومعلم المدرسة كلمة يقولانها عن الطفل العنيد العاصي لاوامرها وهي قولهما « سأذله » والحقيقة هي أن الناشئين على طريقتنا الفرنسية في التربية مذلون دائماً . نعم قد يقال ان في اتباعها مصلحة للاحداث وللمجتمع الانساني ، ولكن سائس الخيل له أيضاً أن يقول للحصان الذي يروضه « لا تجزع فاني انما أفعل هذا بك لمصلحتك » على ان اطلاق

١٣٠ كيف تتولد الرذائل في الطفل بتربية القهر والالزام (التربية الاستقلالية)

الترويض على الحصان أصلح من إطلاقه على الإنسان لأن هذا الحيوان لا يخسر بترويضه باللجام والمهماز إلا حدته الوحشية، وأما الإنسان فأنك إذا أخذته بالقهر وسسته بالإرغام والقسر تذهب بحب الكرامة من نفسه، وتبخس قيمته في نظره، على أن الخوف وازع ضعيف فانه لا لص ولا فأنك إلا وهو يرجو النجاة من العقوبة على جريمته حال ارتكابها، ولا طفل يعصي ما يأمر به قيمه ومعلمه أو يعمل الشر إلا وهو يتخيل في نفسه مهارة في الخلاص من تبعة ذلك، فاذا نجح في هذا ولو مرة واحدة يحمله هذا النجاح على الثقة التامة بنفسه في خداع القائمين بتربيته وتهذيبه ومواربتهم. والطفل الذي يعامل بالقسوة ويؤخذ بالعقوبة يستجم قواه ويستجن بكبره وعناده على حقارتهما ليقاوم سرا حملتنا عليه بولايتنا المعنوية .

لا شيء أسهل على الوالدين من إلقاء نير استبدادهما على عنق الطفل، كما أنه لا شيء أصعب عليهما بعد ذلك من استرداد ما يفقدانه من ثقته بهما، ومتى شعر بأنهما يسوسانه بالهوى والاستبداد، لا يخضع لهما إلا بالضغط والالزام، وفي هذه الحالة ترى عليه أمارات الانقياد والطاعة، ولكنه يطوي جوانحه على نوع من التذمر والعصيان يستره الرياء، وثرقب ارادته - إذا انقبضت في ظل السوط - الوقت الملائم لاستعمال الخداع والمكر، فان الخداع هو سلاح الضعيف يعده للاحتماء به من شر القوي، ولكون الطفل عاجزا عن مكافحة أهله تجده يبحث دائماً يخلصه من ولايتهم، وطلما عجبت من خبثه واجترأه على الاختلاق في مثل هذه الحالة، فان كثيرا من الاطفال لا يبلغون السابعة أو الثامنة من عمرهم حتى يحاكيوا في المكر

أسرى بلوت^(١) واسقاييني موليير^(٢) بل وفيجارو بومارشيه^(٣)
 ومن عواقب القهر الوحيدة انه يغيض ينبوع الفرح والسرور في
 نفوس الاطفال ، فما أشبه الطفل المحروم من حريته بفصل الربيع الذي
 لا تشرق فيه الشمس ! أتحسين ان هذه العواقب تنتهي بانتهاء سن
 الطفولية فلا يكون لها أثر في مستقبل حياة الطفل ؟ كلا ، انني لأعرف
 لأول وهلة من رؤية الرجل ما كان من نعمته أو يؤسه في طفوليته .
 ترين الذين يربون بالقهر جناء عابسي الوجوه كاسفي البال ، ويكون لذلك
 ظلمة في عقولهم وعصل في طباعهم (أي اعوجاج بصلافة)
 وأنا أسأل الله (سبحانه) ان يخلصنا من المتعلمين والمعلمين ، فاهم
 هم الذين يفسدون اخلاق الناشئين .

الرسالة العاشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة ١٨٥٠)

وجوب اجتناب تجويف الطفل بالمقوبات الالهية والحوض معه في المسائل الدينية
 وتركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات

أظن أن ما ينسب الى الاعتقاد الديني من التأثير في طباع الناشئين

(١) بلوت شاعر هزلي لاتيني برع في أشعاره زمن الحرب البونية الثانية
 وكتب عشرين رواية كان من الممثلين في بعضها جماعة من الاسرى جعلهم مظهر
 الحبث والخذاع (٢) اسقاييني مولييرهم أشخاص من الممثلين في بعض روايات موليير
 الكاتب الفرنسي الشهير جعلهم عنواناً للدسائس والحباث (٣) فيجارو بومارشيه أشخاص
 من الممثلين في روايات الكاتب الفرنسي الشهير بومارشيه ناطهم بتتمثيل الدسائس والفتن

وأخلاقهم مبالغ فيه كثيراً " وعلى كل حال نقول : ان التصديق بأن الانسان يوفى جزاء أعماله في دار أخرى بعد هذه الدار يعرض صاحبه لانواع من خيبة الآمال ، تكون آلامها صعبة الاحتمال ، فانه اذا هبت عليه أعاصير الشبه في مستقبل أيامه فزعزعت اركان عقيدته التي بنيت عليها الفروض

(١) حاشية المترجم : معظم ما كتبه المؤلف في هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكترائه بتكاليفه التي لا يعتبرها الا من الأمور التي جرت بها العادة ، وكأنه لم يبلغه خبر الامم التي وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسي وغاية التقدم الحسي ، فأى شيء أخرج الأمة العربية مثلاً من ظلمات الجهل الى نور العلم ، ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذي جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدري كيف ان الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من اثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال ؟ لاشك ان القائل بهذا منكر للبعث وهي ضلالة جره اليها التطرف في النظر كما جر اليها كثيراً من أمثاله . ولا أراه الا مبالغاً في انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهي ولا نسلم أن هذا التهديد يكون له من الاثر ما يتوقعه ، وكأنه يعتقد أن الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبوعقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام ، وليس الامر خاصاً به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو خطأ بين يدل عليه العقل والنقل ، وترجيحه تخويف الاطفال بالاغوال المشوهة على تخويفهم بالعقاب الذي أعده الله لخالفه أوامره للعلة التي ذكرها من خطأ الرأي فيما أراه لا طلاقه القول فيه دون تقييده بسن معينة ، لانه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه اذا خالف أوامره مادام انه يرغب ايضاً بنيل رضاه ورحمته اذا أطاعها على ان عبارة المؤلف في تعليل هذا الترجيح بيئة الفظاعة لا تليق بمقام الربوبية ، ثم أي ذنب للاديان التي لا يؤمن بها أربابها أو يكون إيمانهم ناقصاً فيدعوه الى تحاميلها والحذر منها ووصفها بأنها « أضرب الاديان بكرامة الانسان » ألا ترى ان أقوم دين واصحه في نظر العقل وأدعاه الى سعادة الآخذين به وفلاحهم قد تحول دون الجري على صراطه غلبات الهوى وعمايات الضلال فيقع أربابه في هواي الوبال ، فكيف تلقى تبعه ذلك عليه ؟ اللهم ان هذابين ان عظيم فانه لا دين الا ما أرسلت به رسلك وليس فيه الا ما يرفع شأن الانسان ويعلمه أن يضع نفسه في ذروة الكرامة والمجد =

والواجبات فلا تلبث دعائم تربيته الاولى ان تنهار انهياراً تاماً ، فكيف نرجو اذن في هذا العصر الذي تارت فيه الشكوك وأطلقت حرية النظر ان لا تؤثر عوارض الشبه في عقائد الطفل اذا كبر وهي انما تفرغ في محله حال صغره افراغاً وتلصق به لصقاً ؟ إن صبح ان يقال ذلك .

فالذي أتمناه « لا ميل » هو ان يكون له وجدان مستقل عن الايمان ، وليس يهدأ لي بال ولا يطمئن لي قلب على سلامة شرفه وتهذيب نفسه الا بمحصول هذه الامنية .

كثيراً ما سمعت بعض المسيحيين اذا عصى أولادهم أوامرهم يهددونهم تهديداً وحشياً وهم في شدة حنقهم بقولهم لهم : سيعاقبك الله ويهلككم . كنت كلما سمعت منهم ذلك تقلص جميع دمي من عروقي الى قلبي غيظاً وغماً . فليت شعري هل الاستغانة بالحكم الحاكمين على تنفيذ عقوباتنا السافلة في الاطفال والاستصراخ بالذات العلية لتسفي غلنا بالانتقام لنا منهم واقتضاء فعل الشر من الله ليسكن بذلك وجدنا عليهم - هل كل ذلك هو ما يعبر عنه بتأسيس علم الاخلاق على الاعتقاد الديني ؟

= حاشية أخرى للنار: أبان كلام المؤلف عن عدم غنائه بالدين كما تقدم بالهامش ولم يكن له وجه في شيء واحد وهو تلقين الطفل كثيراً من أمور الدين في وقت لا يعقل منها شيئاً فما تكون الاكيات يعتادها لسانه ولا يكون لها أثر في نفسه : مثال ذلك الايمان التي يحلفون بها امامه او يكلفونه الحلف بها ومنها - النخوف الذي ذكره - فاذا كبر وفهم معاني ما تلقنه بالمعاملة والمعاشرة تكون عند العمل كمائر العادات التي يفعلها من غير ملاحظة معناها وبدون تأثيرها بخلاف ما اذا كان لا يلتقي اليه شيء من أمور الدين الا اذا استعد لفهمه وتدبره ولذلك حكمت الشريعة الاسلامية بان لا يعلم الطفل الدين (أي العمل بشيء منه) الا في سن التمييز ولا يكلف هو شيئاً منه الا اذا بلغ رشده

أنا لا أجز في أي حال من الاحوال الاستماعة في تربية الطفل بالخوفات الالهية، بل أفضل تهديده بالاغوال ومشوهي الخلق من الناس على جعل الإله ذاتا مزعجة، فالتهديد بالاغوال والمشوهين يعتمد فيه على روايات خيالية يزول وهما في يوم من الايام بتقدم الطفل في السن وأما التخويف بالله فيخشى منه ان ينتقش مبدأ الحياة العامة في مخيلته من صغره على صورة طاغية أو غول

كأنني بك تقولين انك لم تحتر من أمثلة التربية الدينية لتوجيه انتقادك الا أردأها وأحقها بالطن فاقول: نعم ولكن هذه التربية على كل حال فيها عيب شنيع جداً وهو إلزام الناشئ في سيرته بأعمال لا يدرك عللها، فلو أنني قلت للطفل: يجب عليك أن تكون مؤدباً عاقلاً لتكون محبوباً عند الله لسكان ذلك مني بلا شك إلغازاً وعمية لانه لا يعرف ما الله ولا يعرف علامة يميز بها ما يرضيه وما يفضيه، واما إن قلت له، يجب عليك التزام الادب لتحبك أمك فانه يفهم هذه العلة أكثر من سابقتها بكثير.

من تكلم في الدين مع طفل حديث السن جداً فانما يريد منه أن يفسد معنى ما يؤديه اليه من الافكار الدينية ويقاب المراد منها، فلو ان الام أشارت بيدها الى السماء دلالة لولدها على انها هي محل الذات الذي يجب أن يتوجه اليه بدعائه لتوهم ان هذه السماء الدنيا المادية هي الله. أنا أعلم ان كثيراً من الآباء لا يهتمون بهذا الامر كثيراً ولا ينظرون فيه نظراً بليغاً ولكونهم ممن يشكون في كل شيء ترينهم يلزمون أولادهم أداء بعض الاعمال الدينية التي لا يؤدونها هم أنفسهم أو انما يؤدونها امامهم فقط، فكأنه لا شأن للصواب والخطأ في حق هؤلاء الاطفال ولا نتيجة

لها، وإن أهم شيء في حقهم هو أن تكون باكورة أعمالهم في أول حياتهم اتباع ما جرى عليه الناس من العوائد مع أرجاء النظر فيها إلى المستقبل فمثل هؤلاء الآباء يتسببون في افساد وجدان أبنائهم وقوتهم الحاكمة بحقتهم وطيشهم أو عدم اكتراثهم بشأنهم، فأنا أتحامى الأديان التي يكون شأن الآخذين بها فيها كشأن من لا يؤمنون بها بالمرّة أو من لا يؤمنون بها إلا إيماناً ناقصاً فإنها أضّر الأديان بكرامة الإنسان (١).

فاحتراماً «لاميل» ولطائفة من المعاني التي يجب أن ينظر فيها متى كبر بفكر خال من التأثير بغيرها - أود أن يجتنب في تربيته زمن طفوليته الخوض في المسائل الدينية فإننا مؤمنون على عقله وعلى حرية ضميره ومسئولون عن ذلك، فإذا نحن عجلنا بحرمانه من حق النظر فقد تلّمنا أمانتنا.

(١) يقول محمد رشيد ناشر الكتاب : أنه تحامى الأديان التقليدية التي لا يؤمن بها منتحلوها وإلماحي جنسية لهم أو يكونون كأنهم كذلك وما يؤمن بها منتحلوها إيماناً ناقصاً وبقي الدين الذي يمكن أن يؤمن به أصحابه إيماناً راسخاً ويكونوا منه على بصيرة كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم «١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» ولعل المؤلف كان يظن أن هذا النوع من الدين لا وجود له فلذلك لم يذكره. هذا الدين لا يحرم على أصحابه شيئاً إلا إذا كان ضاراً بأجسامهم أو أرواحهم أو عقولهم أو أموالهم أو أعراضهم، فهو يرشدك إلى أن تعلل كل ما تأمر به الطفل ونهاه عنه بمنفعة الأمور به ومضرة المتهمي عنه مع إعلانه عند ما يعقل ويرشد بأن له حياة بعد هذه الحياة أعلى منها وأشرف لا يسعد فيها إلا من ارتقت نفوسهم بالإيمان والفضيلة والأعمال الصالحة، ولا يشقى فيها إلا من سفلت نفوسهم بالوثنية والذائل والشور «٩١ : ٩٠ قد افلح من زكاه ١٠ وقد خاب من دساها» فإذا كان كتاب هذا الدين يعلل الأوامر الأدبية وغيرها والنواهي عامة بالمصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد فكيف لا يجيز ذلك للعربي؟ يقول «٤١ : ٤٣ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» فيهديك إلى أن تقول «أطع أمك لتحبك»

الرسالة الحادية عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة ١٨٥)

بيان عدم فائدة أصول علم الاخلاق في التربية

معظم من كتبوا في علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وأنا مشاهيرهم اعتقد ان المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعت العزائم في بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال، ولكني لا أعتقد ان ما يلقيه الناشئون منها من أفواه معلميه في دروسهم يغير طباعهم تغييراً حقيقياً، وهيهات ان اعول عليها في ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانساني أناساً من الظرفاء الاكياس جفاة غلف القلوب على انهم لم يحرخوا من النصائح العامة الداعية الى النجاة والتراحم الرغبة في لذة الاتصاف بهما، فما من فاسق أو شرير أو بخيل الا وقد سمع الف مرة من السنة الوعاظ قولهم « كن حكيماً مهذباً تكن عزيزاً مغنبطاً »^(١) لا تفعل بغيرك ما لا ترضى ان يفعله بك^(٢) « لا تجعل لحطام الدنيا حظاً من قلبك »^(٣) الى غير ذلك من النصائح والحكم.

(١) الحكمة واردة في أمثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو « الرجل الحكيم في عز » (٢) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا » راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٣) نص الكتاب في هذا المعنى هو « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ » راجع الاعداد ١٦ و١٩ و٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى

الانجيل كله مواظ راثقة وأمثال شائقة ، فليت شعري من ذا الذي يراعيها ؟ هل تجدن كثيراً من الاغنياء أنفقوا جميع أموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني في ملكوت السموات » ؟^(١)

هل تلاقين ولو في القسيسين أنفسهم عدداً كبيراً ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضى أوائل الناس أو الذين يعتبرون أنفسهم كذلك أن يعاملوا معاملة الاوآخر ؟ هل يسهل على الحكام أن ينقلبوا محكومين ؟ لا ! بل نرى علماء الدين يغالطون في فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم ، وما أكثر ما يؤثرونه منها تخلصاً من قضاها عليهم وفراراً من عواقب الاخذ بصريحها .

جاء المسيح يدعو الى السلام في كل قول من أقواله ، فهل رأيت الممالك أصبحت أقل قتالاً ؟ ندب الى التآخي بقوله الجميل « كلكم اخوان »^(٢) فهل هدم هذا القول دعائم الاستعباد ومحا من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصلح سيفه بغيراً وعدواناً بالهلاك فقال مامعناه « من سل سيف البني به قتل »^(٣) فهل ردع هذا الوعيد من كان يدهم الحول والقوة عن انتهاك حرمة القانون بالبني والفساد في الارض ؟ قال « من أخذ قميصك

(١) راجع (١٩ : ٢٣) من انجيل متى « وأقول لكم أيضاً ان من رد رجل من ثوب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » (٢) راجع ٨ : ٢٣ من انجيل متى « ولما أنتم فلا تدعوا سيدي لان معلمكم واحد هو المسيح وأنتم جميعاً إخوة » (٣) عبارة متى في هذا هي (٥٢ : ٢٦) « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون »

فأعطه رداءك^(١) فلو ان أحداً منا معشر الفرنسيين المتشددین في التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفياً لسجن في شارتون^(٢) خصوصاً اذا كان له من أقاربه وارثون .

لم يختص المسيحيون بهذه المواعظ الحسنة فان لليهود أيضاً والصينيين والفرس كتباً فيها حكم بالغة ، وكلم نابغة ، ولكنهم لم يصيروا بها أحسن منا حالاً ، فانه لو كان يكفي في تحسين أحوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد في علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت غاية الكمال من زمن طويل ، لانها والحمد لله لم تخل من علماء الأخلاق يوماً ، على اننا لا نسمع في جميع أرجائها الا أصوات آلام المشكويين والمكرويين ، وتحريق الارم^(٣) من المهوورين المتغيظين .

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالباً الا في الخيال والوهم ، فلو أن الخير كله والشر كله كان كل منهما بمنزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق أعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم ، ولا تقطع من بينهم سبب الخلاف بأسرع ما يكون ، ولكن هيهات أن يكون الامر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعلمه الا الشذاذ . أنظري الى أصول الاخلاق الانجيلية مثلاً تجدي ان من لا يؤمنون

(١) نص متى (٤٩:٦) «ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً» (٢) شارتون اسم لقريتين من قري فرنسا احدهما تدعى شارتون ليويه وهي أشهر قرية في إقليم السين بقضاء سو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارتون سورشير وهي أشهر قرية في إقليم شير بقضاء سانت ارمند مونت روند وفي الثانية مستشفى للجذائيب (٣) تحريق الارم كناية عن شدة الغيظ والارم الاكل وهو من فعل الاسنان ومعنى ذلك يسحق بعضها ببعض

بالوهية المسيح هم في الغالب اكثر اتباعا لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الالوهية مهنة لهم .

أنا لا أعني بجميع ماقلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية ،
وانما الذي أريده بهذا الكلام هو أن أحسن ما لهذا العلم من الاصول في الدنيا
بأسرها لا ينشئ رجالا كملة مهذبين ، وقد فهم ذلك حق الفهم واضعوا الشرائع
فعرزوا مادون من تلك الاصول في الكتاب بأوضاع تامة للثواب والعقاب .
ثم ان الطفل لا يستفيد مما يلقي عليه من دروس الاخلاق الا اذا
كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر أسباب أعماله وعواقبها ، فأنى له
اذن ان يفهم هذا الاصل الوجداني وقد حجب عنه ادراك مشاعره الظاهرة
واشتداد أهوائه وشره غرائزه ؟ وأنى له أيضا أن يكون جميع ما يراه من
الأسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام عزمته الى الخير ويصرفه عن
الشر ؟ وليت شعري هل تجري أمه دائما على مقتضى ما ترشده اليه من
صالح الاخلاق وجميل الصفات ؟ نرى الوالد يلقي على ولده خطبة طويلة
في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين ، ثم هو لا
يلبث ان يلومه اذا أعطى لفقير درهما من الفضة ، فهو بذلك يبذر باحدى
يديه في ذاكرته أصول الانجيل ، وينقش بيده الاخرى على قلبه صور
النفاق والرياء (*)

(*) المزار : محصل كلامه ان تعليم الاخلاق والادب قليل الجدوى اذا لم
يترب الانسان عليها عملا وهذا صحيح ولم توضع أصول التهذيب لاجل الدراسة وانما
وضعت ليجري عليها المربون عملا . اقرأ قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم
« ويطهروا الكتاب والحكمة ويزكيهم » فلم يكتف بالتعليم بل اضاف اليه التزكية
وهي التربية العملية على اصول الخير والفضائل

الرسالة الثانية عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٤ يونيه سنة — ١٨٥)

يان نفع القدوة وشرطه ، ومطالعة قصص الحيوانات في تربية الاطفال
ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه

يعول علماء الاخلاق كثيرا في تربية الاطفال على قوة القدوة
وتأثير الاسوة ، وأنا في هذا مرافق لهم ولكن : أي والد يصح له أن
يتجمع بانه على الدوام قدوة صالحة لولده ؟

نحن في الجملة نسعى في غش الاطفال وخداعهم بما نزين به لهم من
لباس الرياء الذي يجعلنا في أعينهم أحسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع ،
وبما يصدر عنا كثيرا امامهم من الاقوال والآداب المغايرة كل المغايرة
لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية ، وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ما
نشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في أنفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي ،
وان نكسوهم من الفضائل ما نتظاهر لهم باننا متحلون به ، ولكن هيهات
ان ينخدعوا بهذه الحيل ، ومن ظن بهم ذلك فقد أخطأ في فهم معنى
سذاجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بئناً . ان الاطفال يعرفون كمال المعرفة ما
يعتمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤونهم ، وهم يدركون
بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانهم عنهم ، واني لفي شك من ان
هذا الكتمان وان حدثت أسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلالا وتعظيما .

عاقب والد ابناً صغيراً له لم يتجاوز الخامسة من عمره على الكذوبة

قالها ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبراً له بأن زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج فقال له ذلك الرجل الوقور « أخبره بأني لست هنا » فيأله من درس يستفيد الطفل منه الصديق والا خلاص !.

أنا على يقين من أن « اميل » لن يجد فيك الا أحسن أسوة واكمل قدوة، وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئناناً عليه، ولكن أقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار ، وهو ان غرضي من تربيته أن يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من السكمال، وأذ كر لك هنا واقعة حضرني الآن تدلك على أنني محق في قصدي ، وهي اني رأيت ذات يوم طفلاً في السادسة من عمره راجعاً مع والدته من تشييع جنازة، وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جداً على حسب اعتقاد الناس ، وكان يبكي أو يتباكى فارتبت في أمره وظننت انه مخطئ في معرفة من جفع به لان المتوفى لم يكن الا ابن عم بعيد له (على أن الاطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لي أن قال « لا سبب سوى أنني رأيت الآن والدتي تمسح عينيها بمنديلها فبكيت » فأضحكني منه هذا التأثير التقليدي وان كان صادراً بلا شك عن طبع ساذج وقلب سليم . لا أريد أن يكون « اميل » مثل هذا الغلام في تأثيره، بل أود أنه متى بلغ السن التي يرق فيها لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئاً عن غم كارث ألم بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه . هل يجب أن يلحق ما يرى من أعمال الحيوانات وسيرها في حياتها بما للقدوة من التأثير في التربية ؟ وكيف لا ونحن نرى كتاب الأمثال عندنا على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تأليفهم وتزدهي دروسهم على

يودعونها من سير الحيوانات وأخلاقها، وإن الطفل من أولادنا لا يكاد يقدر على النطق المفهوم والحفظ حتى يحمل على حفظ أسطورة من أساطير لافونتين^(١) كأسطورة الصرصار والنملة مثلاً . أنا لا أنكر أن في حياة الحيوانات عبراً كثيرة وعلوماً شتى يجب علينا تعلمها ، ولكني أقول : ألا ينبغي لهذا العالم الصغير الذي يحفظ سير هذه المخلوقات الممثلة رواية الكون الكبرى في مشهده الأعظم أن يعرفها ليهتم بشأنها اهتماماً حقيقياً ؟ فكم نرى أطفال نشأوا في حواضرنا الكبرى وقرأوا أساطير ذلك الكاتب الشهير لم يروا في حياتهم تلك المخلوقات التي يحكي لهم قصصها ويمثل لهم أحوالها الا قليلاً ! فهم على جهل تام بأخلاقها وعوائدها . وفي رأي أن سايان (عليه السلام) أعقل من واضعي التعاليم الحديثة إذ قال للكسلان « عليك بالتعلم في مدرسة النملة »^(٢) فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع علم الاخلاق الفياضة لا على حياضه التي لبعدها عن تلك الينابيع لا توجد فيها الا اصابة لا يروي ظمأ ولا تبرد غلة

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من أشهر كتاب الاساطير في فرنسا ولد في شاتوبري سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥ م (٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي : اذهب الى النملة أبها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيماً « هي » التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعبد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها . راجع الباب ٦ من أمثال سليمان والاعداد ٧٦ و٨٧

الرسالة الثالثة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٦ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان الطريق الى تربية المذاعر الباطنة

اعلمي ان أخص ما يجب الرجوع اليه في انشاء طبع الطفل هو علم منافع الاعضاء، واذا كانت هناك وسائل أخرى يستعان بها في ذلك فلا ينبغي اغفالها

الوليد يرى في اول امره محباً لنفسه منقبضاً عن غيره لضعفه وعجزه عن الاختلاط، فعمل المربي معه هو أن يعمد الى ما وهبه الله (سبحانه) من الفرائض المحموده الكافله حفظه فيجعلها أصلاً يفرع منه بالتدريج صنوفاً من الوجدان أرقى وأشرف من محبة النفس والانقباض عن الناس - تربطه بأمثاله وتعطف به على أضرابه، ولا اعتداد عندي بما تسمى به هذه القوى السامية الطبيعية فلنسمها أو أصر أو عواطف مثلاً، وإنما الذي اعتد به وهمي ان أقوله لك هو أنها ليست خيالات ولا صوراً ذهنية بل هي حقائق ثابتة لها أصول راسخة في نفوسنا وفي الخارج، فكل عاطفة من تلك العواطف النفسية لها ارتباط في الخارج بطائفة من الوقائع، فالشفقة مثلاً توجد عند رؤية آلام الغير ومصائبه، والشكر يوجد عند الاحسان واسداء المعروف، وحب الوطن منشؤه اعتياد الشواء بالامكنة والانتفاع بما فيها من الاشياء، ومحبة الناس تنشأ وتقوى بحسن المعاملة ولطف المجاملة.

جميع العواطف الشريفة والسجايا الحسنة توجد في نفس الطفل ، لكنها تكون كالنبات في طور البذر ، فالعالم النباتي مملوء بانواع من البذور ، ربما لا تنهياً لها ذرائع النجوم والنبت طول حياتها ، لما يعوزها من أشعة الشمس والارض الصالحة للإنبات والماء بنسب مخصوصة . كذلك شأن أصول العواطف والوجدانات الانسانية فانها تحتاج في ظهورها ونموها الى مستقر ملائم ومؤثر خارجي .

كلنا يعلم ان طبع الطفل ينمو بالمؤثرات الخارجية أكثر من نموه بالبواعث النفسية ، فإن ما تفعله امامه من الافاعيل ، وما نرمي به من الاقاويل ، هو الذي يبعث فيه الفرح تارة والترح أخرى خصوصاً في أوائل أيامه ، على أن مالنا من التأثير في طبعه مباشرة لا يكاد يكون شيئاً يذكر الا ما تحوطه به امه من ضروب العناية ، وما تبديه له من أنواع الخنو والرعاية ، فانه يدعو به من غير شك الى حبها ، ولكن الطبع كما علمت يتألف من قوى متميزة كل التمايز يقتضي كل منها باعثاً خاصاً . إن وسعني ان أقول ذلك — فليس الانسان ذاتاً بسيطة بل هو على ما أعتقد أكثر تركباً في نفسه منه في جسده (١)

المشاعر الباطنة كالمشاعر الظاهرة في كيفية التأثير فالثانية كما تعلمين لا تتأثر الا في أحوال وبشروط خارجية مخصوصة لان مشعر اللمس مثلاً لا يتأثر الا متى لاقى أشكال الاجسام وجهاتها ، ومشعر الذوق لا يتفعل الا بما يقع عليه من الطعوم ، كذلك الاولى لا تنبث الا عند اجتماع أمور واقعية مخصوصة ، فان حلول الخطر مثلاً يولد احساس الخوف ولكنه

لا ينعث وجدان الانصاف مباشرة . وروية الطفل ما يضره به أهله من صنوف البر قد تأتي في نفسه وجدان محبتهم والميل اليهم، ولكنها قلما توقظ فيه احساس للاحتشام والتواضع . والاحوال التي تحرك في النفس عاطفة المروءة أو الشجاعة لا تؤثر في رقة الطبع كما ان الصوت لا يؤثر في العين والضوء لا يؤثر في الأذن ، فبكل مشعر باطني أو عاطفة نفسية تقتضي شيئاً يناسبها ويلائمها ، والطفل كالألة الموسيقية كله أو نارتتهز اذا نقرت، ولكنها لا تهتز اهتزازاً حقيقياً إلا بما يقع عليها من الاشياء ، ولا تتأثر بجميع الاشياء على السواء ، وإنما لكل انفعال قاي طائفة منها ثلاثه .

فاذا أردنا مثالان تأتي في نفس الطفل الذي في السابعة أو الثامنة من عمره وجدان الاحسان الى الفقراء والزمنى ^(١) فايانا والخطابة والوعظ لان أحسن مواعظ الانجيل لا تفيد في ذلك شيئاً ، بل علينا ان نذهب به الى خص حقير يكون فيه شيخ هرم أثبت الايام قواه ونهكت الحمى جسمه، وقد رقد على حصير ومد يده يسأل عواده قدح ماء بارد، وننظر ما يكون منه في ذلك الوقت ، فاذا هو لم يبادر بنفسه الى ملء جرة من أقرب مورد وتقديمها بين يدي الرجل المسكين فقد حق اليأس منه، وأما اذا تحرك الى هذا العمل الخيري فايانا أن نسأله عن قصده به وعما يرجوه من الثواب عليه، فان في شوب انبعائه الصالح الى البر بمقتال حبة من الفائدة الذاتية افساداً له .

قد بانت لك نما قدمته للغاية التي أرمي اليها في قولي وهي أنه اذا

(١) الزمنى أصحاب العاهات

كأن يوجد في الطفل قوى كامنة تنبئ بالموثرات الخارجية التي تدعوها إلى الشخص إلى العمل وكان لهذه الموثرات ارتباط ببعض الأمور والمواقف الخارجية — فالواجب علينا هو أن نبين في هذه الأمور تنبيهاً مما عواطف الحياة والسخاء واحترام النفس والناس والنزاهة وغيرها من السجايا الحميدة ، فطريقة تربية الشاعر الباطنة لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي يبينها علماء منافع الأعضاء في تربية المشاعر الظاهرة ، بل لا يوجد لتربية جميعها إلا طريقة واحدة لأنها كلها تجري على قانون واحد ليس هنالك غيره .

يوجد فرق واحد بين التريتين وهو أن الانفعالات في تربية المشاعر الباطنة وما يولدها من الأشياء تخالف ما يقابلها في تربية المشاعر الظاهرة ، فإن الشيء الذي تنفعل العيون برؤيته مثلاً لا تنفعل به النفس دائماً ، فلي الأم أن تختار نوع الآثار التي تريد إحداثها في نفس ولدها وتحملها صنفاً وأشكلاً ، وليس يميزها في الحقيقة شيء من الأحوال الملائمة لذلك ، فإن حياة الإنسان ليست إلا مشهداً لسلسلة من الحوادث المؤثرة ترى فيها كل حين آلام تحرك عاطفة الرحمة ، وعقبات تدعو إلى التسرع بالشجاعة ، ومحن أعدت ليعتلى بها الصبر ، ولكن ينبغي لها أن تكون سليمة الذوق كثيرة الخلق في اغتنام الفرص التي تهبطها الحوادث . ثم اعلمي أن النكت قليلة الجدوى جداً في هذا الموضوع ، فالذي عليك أن ترجعي إليه في سيرتك مع «إميل» هو قوتها الحكيمة وما عليه عليك الوجدان من ضروب الإلهام . ولما كان الطفل لا يلتفت إلا إلى الأشياء التي له فيها عمل كان من الحسن أحياناً أن تدبّر له فيها العرايق (الجيل) لإثارة عواطفه الذاتية ، ولكن ينبغي هنا

أيضاً الاختراس الكلي من ظهوره على ما يتخذ في ذلك من الحيل فإن شعوره بخداع المربي له هو الخسارة الكلية .

اخترع المربون أنواعاً من الرياضة البدنية موافقة لإغناء الأعضاء وخاصة بها . والذي أعرضه عليك أنا هو فن من فنون الرياضة النفسية تقوى بها العرائز والأخلاق ، لأن خطائنا ونقائصنا تقوى بالمراس والاعتناء ، فالفضيلة تكتسب بالنعم ولكن هيهات أن تتعلم الا بمارستها والارتياض بها . وقد جاء في الأمثال « بطرق الحديد يصير الإنسان حديداً » فكذلك هو لا يكون خيراً إلا بفعل الخير فالعمل العمل . اذام حياً . أرجئ البحث في قانون الأخلاق الحقيقي لاني لا بد لي من النظر فيه عند الوصول الى محله ، وأكتفي الآن منه بذكر قاعدة في غاية الانجاز والبساطة وهي : إن الطفل يصاح طبعه وتتهذب نفسه كلما زالت منه عرائز الأثرة وحلت محلها المواظف التي تأخذ بقيادته الى الصالح العام ، ولكن هيهات أن يكتفه هذا الناشئ أسباب سيرته مع غيره مخصوصاً معنى الواجب ، فانه من الغموض والخفاء بحيث لا يثمد اليه وهنته الضعيف ، وغاية ما يمكنه ادراكه هو رضاه عن أعماله ورضى الناس عنها . على انه لما يجده في الأعمال الصالحة من اللذة التي لا تقل عن لذة الأعمال السيئة لا يلبث أن يختار الاولى ويرجعها على الثانية متى ساعدناه قليلاً بتوسيط البواعث الخارجية ، فان الاشياء كما يوجد فيها شيطان رجيم على ما علمت يوجد فيها أيضاً في بعض الاحيان ملك كريم ، فاذا كان بعضها يحرك فينا دواعي الطمع فان بهضاً آخر منها يث فينا وجدان البر والخير .

يجب علينا أن نعين الطفل على تربية مشاعره الباطنية ، ولكن علينا

أيضاً أن نحترم ارادته ولا نغفلها . فلواني أوتيت القدرة على تدبير ما يحتمل « باميل ، من بواعث العواطف وعلى مراقبته في سيرته مراقبة تامة وأمكنني بالاجمال اختراع طريقة للتربية النفسية تسمو بمقاصده حتما الى الكمال لما عولت عليها في انشائه مهما كان فيها من الحسن ، فاني أرجو من صميم فؤادي أن يكون يوماً من الايام رجلاً خيراً لا حيواناً خيراً ، وأعيذه بالله من فضيلة لا يكون كسبها بسعيه وهمته ، ومن سعادة لا يكون هو الذي حصلها لنفسه ، فانه ان أوتي عفواً هذه السعادة التي هي الامتياز التمس لمن خلقوا لها يكون قد ابتاعها بثمن غال جدا وهو خسارة اختياره . كل فرد من أفراد المجتمع الذي أعد ولدنا للمعيشة فيه مسوق على الدوام الى الجلال والمغالبة في ميدان الحياة ، فيجب عليه أن يقاوم مقاومة البسلاء آراء الناس وتأثير الأسى وجميع مؤثرات العصر الخادعة ، والا خسر معرفته قدر نفسه واقدار الناس . لان شرف الانسان وفضله مشروطان بأن يكون ذا ارادة تصدر عنها أفعاله ، وما عليّ ان تكدر بعض الناس من هذا الشرط اللازم مادمت أنا مسروراً به ، فاذا لم يكن للموء وجود مستقل ووجدان فقيم يكون شرف حياته ؟ اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٥٠)

موافقتها له في طريقته في تربية النفس وبيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواظظ على الاطفال خطأ من كرامتها وبيان ان للاطفال حاسة غريبة يميزون بها بين الحب الصحيح والحب المموء

إخالي فهيت طريقتك في تربية النفس وأراني مرتاعة من عظم العمل

المعهود الي به والصعوبات التي تعترضني في سبيل إتمامه، لان أمر الطفل بفعل مايجب عليه فعله أهون بكثير من تصفح الاشياء لايجاد مايبعثه منها الى صالح الأعمال . على اني سأحاول العمل على هذه الطريقة فاني على يقين تلم من أن الكلام والنصائح والمواعظ لا تكفي لتهديب الطبع وتقويمه، بل قد وصلت من هذا اليقين الى حد ان أحدث نفسي بأن في التمكن بتلقين الطفل بعض المواعظ وايداعها ذاكرته خطأ من شأنها ونقصاً من قيمتها مهما كانت حسنة مفيدة، فانه يسهل عليه بذلك اعتياد تلمس الفضيله في الكلام واعتبار الوجدان أستاذ مدرسة

على اني الى الآن لم أبلغ مع « اميل » هذه الدرجة ، فاني لو كلمته في علم الاخلاق لألقيته بلا شك في غاية العجز عن فهم ما أقوله، ولكنه على صغره له دين كما يدل عليه اتخاذ اللعب التي يعطاها آلهة يخصصها بفرط محبته ومزید عنايته ، فلو أني أردت من الآن تغيير الاحوال المقارنة لسنه وفطرته في بضع سنين لأضعت وقتي عبثاً ولما نجحت الا في تبديل تماثيله بأوثان أخرى .

لاتزال عواطف « اميل » في غاية القصور كما رأيت فأصبت في وائيك، على أن للاطفال مهما كانوا صغاراً حاسة عجيبة يفرقون بها بين الصحيح من أنواع ميل الناس اليهم وعطفهم عليهم والمموه منها، فهم يحبون من يحبهم وقلماً يخذعون بضروب الرياء والاستمالة وأنواع التدليل والملاطفة، ومما يشهد لذلك اني في معظم أوقات زيارتي للسيدة واربخون ألاقى عندها امرأة ترملت في شبابهها وهي تزعم انها تعشق الاولاد عشقاً، وتقول: لم لم يهب لي الله (سبحانه) ولو ولداً واحداً! وتدعي انها كلما فكرت في ذلك

يكاد يعمى عليها ، ولكنني في ريب من أن قلبها كقلوب الامهات لان « اميل » لا يطبق النظر اليها .

لامناس لنا من الاتفعال بما يحيط بنا من المؤثرات الخارجية - كما تقول - والا فما السر في أنني أحب التنزه في طريق مخصوص كلما تلقيت مكتوباً من مكاتيبك ؟ وكيف ان بعض الاشجار يجذبني اليه ويدعوني الى تقيئه والجلوس تحته في حال ثوران أشجاني خاصة ؟ وبماذا أفسر ما البجده من الارتباط بين رؤيتي لصخرة ، وما أحس به اذ ذاك من نقص في عزمي ووهن في ثباتي ؟ فلا شيء يطابق جميع حالات النفس ويلائمها سوى البحر على ما أرى : اه

الرسالة الخامسة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ٣٠ اكتوبر سنة ١٨٥٠)

تفاهمها مع « اميل » بالاصوات وظنها انها اصل اللغات

لا يزال « اميل » عاجزاً عن التكلم غير ان كلاً منا يفهم مراد صاحبه ، لان الاطفال قبل أن يصير في مقدورهم إخراج الحروف من مخارجها بزمان طويل يعبرون عما يعرفونهم من الفرح والدهشة والخوف والام بضروب من الصياح والصراخ الفطري يندر أن تخطئ الام في فهم معانيها ، وهي ان لم تكن لساناً معروفاً فآقل ما فيها انها لهجة تفصح عما في نفوسهم من الوجدانات والافكار ، وأنا في شك من أن الكلام يكون في إعرابه لي عن اشتمالات ولدي أكثر من هذه الاصوات يائناً، على اني

لا إخال أن صورة أخرى من صور التعبير عما في النفس توافق حاك موافقة هذه لها ،

لم يقتصر « أميل » على هذه اللجة بل قد اخترع من بضع أساييم طريقة للمحادثة معي ، فإذا أراد أن يكلمني عن كلب البيت قلد نباحه بقدر ما في أعضائه الضعيفة من الاستطاعة ، وإذا حملته جورجية وخرجت به للتنزه على ساحل البحر فانه عند عرده يخبرني بهبوب الرياح ، وذلك بأن ينفخ فيحدث صوتاً مخصوصاً ، وإذا صادف في طريقه قطيعاً من البقر أو النعم قص علي ما رآه بأصوات أفهم ما يريد به ، واني على ما أجده في قصصه هذه من المدة قد أنشأت أقلل لحالته وأحدث نفسي بأنني أفرطت في اغفاله واسلامه الى الخطرة ، وأنه ربما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسية أكول أنا السبب في حدوثها . استفتيت في هذا الامر السيدة وارتجتون وكاشفتها بما أجده من الخوف لانها لما كانت زوجة طبيب كان لها هي أيضاً بعض الدواية في الطب ، فاجتهدت كثيراً في محو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روحي وقالت لي : إن هذا الامر عام في جميع الاطفال الذين يربون في الارياف .

وعلى كل حال فإدراكنا أن هذه الاصوات ليست هي أصل اللغات الإنسانية ؟ أقول هذا وأنا غارفة أنه ربما أضحكك ، ولكن ما السامع من أن الإنسان وهو في زمن طفوليته اذ كان يسكن الآجام والكهوف قد كان يتكلم مبادئ الكلام في الفاظ الغابات وأصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات . اهـ

الرسالة السادسة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٥٠)

استعدادها لتعليم « إميل » بالبحث في أحوال النبات

لست أدري أيها العزيز إراسم متى يتيسر لي إيصال بقايا هذا المكتوب اليك ، فقد توالى عليّ الأيام وتعاقت الشهور في ارتقاب فرصة تمكيني من ذلك ، ولا ريب في أن ما اكتبه اليك خلو من كل ما من شأنه أن ينفر الحكومة ويزعجها ، فإن أخص موضوع أحب مكاتبتك فيه هو الحديث عن « إميل » وشؤونه : وأنت تعلم ان « إميل » ليس من المؤتمرين بالحكومة المتفرجين بالخروج عليها ، على انه لا شيء في عواطفنا وآمالنا يدعو الى ملاحظة أو يستوجب مؤاخذه ، وأنا أراعي في مكاتبيتي الحياء والاحتشام حتى اني لا أفضل اخراقها على اطلاع غيرك عليها .

هاج غضب « إميل » صباح اليوم هياجاً شديداً بلا سبب معروف ، ولا بدع في ذلك فأننا مع تبجحنا بالعقل والرزانة لانعرف على الدوام علة جرعنا وغضبنا ، فقد يكفي في اساءة خلقنا ان نرى في السماء غيماً كرهه المنظر ، أو في ملبسنا انثناء مضيقاً ، أو نسمع ذبابة تطن في اذننا ، وأياً ما كانت علة غضب « إميل » فان جورجية لما رآته في هذا الهياج قدمت له امرأة جعلها نصب عينيه فأثر ذلك فيه تأثير السحر باسكان غضبه كأنه خجل من نفسه أو خاف من صورته .

أنا منجزة ما وعدتك به فتجدني الآن أطلع وأبحث وأعمل لا أتمكن

يوما ما من تعليم « اميل » وانك لو رأيتني في هذه الحالة لنكرتني لما صرت اليه من الوقار والرزانة .

انك تعلم اني ما برحت أتوق الى علم النبات ، فتراني الآن من بضم شهور مشغلة بدرس أزهار السكتان لاني وجدت من ظروف الاحوال ما ساعدني على ذلك ، فان النباتات الطالعة هنا على رمال الساحل في غاية الكثرة والتنوع على أن لها بالبحر ارتباطا كثيرا ، ويوجد أيضا على مقربة من قرية للصيادين اسمها (نيواين) مغارة شهيرة بدقة ورق السرخس النبات على جدرانها وجمالها ، فان الظل والرطوبة اللذين فيها يشكلانه بشكل متشعبة مشوشة تدعو الى اعجاب الخبيرين باحوال النباتات ، ولكن لسان حاله ينطق بتألمه ومرضه ، فهل من الآلام والامراض ما يكسو الصور رونقا وبهاء ؟

بينما كنت راجعة هذا المساء من نزهة قضيتها ارتيادا للنباتين المعروف أحدهما عند النباتين بالقوريجول الشاطئي والثاني بالارنجيون البحري أو لحية التيس^(١) - بصرت بمنت صياد ملتصقة باحدى نوافذ بيتها تنفخ في زجاج هذه النافذة ثم تكتب بظفر أظفارها الصغيرة اسم معشوقها على ما يظهر في صفحة الزجاج من الكلف ، فاستماني ذلك اليها وخاطبتها فعلمت منها أن لها خاطبا في استرالية وانها تترقب مجيئه ولا تعلم متى يجيء لتحظى بلاقائه ، فمسي أن يكون ذلك قريبا لاني أعلم ما يقاسيه الانسان من مضض الغرام . اهـ

(١) لحية التيس نبت كورق السكرات لكن يرتفع

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ٢٥ نوفمبر سنة — ١٨٥)

تبشيره بنبت سنين « لامل »

بعد هذا الانتظار كله قد تعهد أحد من تعرفهم بايصال مكتوبي
هذا اليك فأسمته اليه واستودعته الرياح العاصفة والبحر المضطرب
وحوادث الايام الكثيرة لانه لا محيص من ذلك ولكني لن أستودعها
أبدًا حبك فانه في حيازة ما لا يعتريه التحول ولا التقلب .
بشرى فقد نبت « لامل » سنان . اهـ

الرسالة الثامنة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان رأيه في تفكر الطفل وفي أصل اللغات وفي تعليم اللسان للاطفال
وسوء طريقة المربين في ذلك

قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التي كانت تحول بينه وبين
الوصول اليّ وهو الآن بين يديّ أرى فيه شعاعا من شمس الحرية قد
اتصل بي . وما أنا ذا إلا حظك بفكري في تريضك على شاطئ البحر وأبصر

« اميل » من خلال ماتبيدنه من ضروب التأثر والتأثر والافتعال وإخالي أعرفه .
رباه ! كيف أكون والدًا من سنتين كاملتين ولا أتمكن من تقبيل
ولدي الى الان

أترك هذا الاسف الذي لاجدوى له وأعاود الحديث معك فيما
ينبغي أن يكون أهم مايعنينا في هذه الدنيا فأقول : ان من أغلاط المشتغلين
بالتربية صرفهم جل عنايتهم في تقويم القوى والمسلكات العقلية وقلة التفاهم
الى غيرها مع انه لايسعهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية
والنفسية من الارتباط ، ولكنني في هذا المكتوب أحب أن أوجه فكرك
الى تربية الادراك العقلي بنوع خاص

كاني بك ، تقولين : هل يتفكر الطفل ؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لانه
حي ولان العلم اذا كان كلما تفهذ في أسرار حياة النباتات والحيوانات
كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح أن يقال بداية ادراك ، فكيف
يكون الطفل اذا أقل حظا من هذه الكائنات التي هي أضعف خلق
الله (تعالى) ؟ نعم ان مخه في الاسابيع الاولى من ولادته يكون في نظرنا
كالبيداء المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتيني بأنها مملكة عفاريت الجن ،
ولكنه يتدرج في تمييز الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع
بعض الاحكام عليها ، وانك لا تكادين تجدين طفلا في الشهر الخامس عشر
أو السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفكر بأنها
لشخص معروف .

من الاسباب التي تعين على إغناء عقل الطفل بعد تربيته بما يحثف
به من الاشياء تعليمه اللسان

وأنا أرجح ما تقولينه من أن الانسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى في أصوات الكون المحيط به ، وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هي أصل اللغات الانسانية ما تجده في جميعها خصوصاً ما كان منها قديماً جداً من آثار التوافق الناشئ عن التقليد ، وما أجل مع هذا كلام الانسان وأعظمه ! ومن العبث أن أقنع بقولي : ان أسلافنا الغابرين قد جمعوا في بداية نشأتهم الاصوات المبهمة المنتشرة في جميع أرجاء الكون وصيروها لغة ، فان هذا القول لا يكشف لي جميع ما في كلام الانسان من المعاني ، لانك تجد لكل شيء في هذا العالم كلاماً ، فالمدن يتكلم لانه اذا نقر صوت تصويماً يخبر بماهيته نحاساً كان أو ذهباً ، والحيوان يتكلم لانه يدل في كل حين بما يبيده في صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته ووجداناته وشهواته ، والهواء والبحر والرعد تنكلم لان العاصف تنبئ عما يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ، ولكن شتان بين كلام هذه المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلاً ، فان الطفل متى قدر على النطق ببعض الكلمات ولو مع التلعثم فيها واستطاع مثلاً أن يقول « أنا » مثبتاً بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به - رأيت ان جميع ما في الكون امامه قد دخل في شبه عبودية وخضوع .

أصوات المادة معلومة للحوادث التي توجد بها وأصوات الحيوانات ناشئة عن الفرائز المستقرة في أنواعها ، وأما لفظ الانسان فهو حتى في حال تمتة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لا ينبغي أن نعلم عن الفائدة الحقيقية من أساليب الكلام من حيث كونه ركناً من أركان تربية الادراك . ذلك لان الطفل لا يتلقى

عنا وقت الكلام معه الا أصواتاً فمن أجل ان يكون تعليمنا مفيداً له يجب ان تكون هذه الاصوات التي يسمعها مقرونة في نفسه بمدلولاتها. أنت تذكرين تلك الفتاة التي جاءت بها الي والدتها في يوم من الايام تستفتيني في أمرها ، فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفرة تردد جميع الاصوات غير فاهمة شيئاً منها ، وكنت أعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت شهدت قدماء اليونان لاتخذوها إلهة لصدى الاصوات لانها لفرط ما أوتيته من قوة السمع الميؤس من تعديلاتها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض - كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الاسئلة بدون ان تجيب عن شيء منها ، وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئاً.

فأنا أخشى كثيراً ان لا يوجد بين هذه البلهاء المسكينه التي لا تفهم شيئاً مما تردده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم اياه أو على فهمه مقلوباً الا فرق خفيف .

على أنني أرى أن الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من أمراض العقل عند الانسان ، فكم من نساء يجتهدن في اماتة ما يجدره من الضجر والسامة بأغاني ليس فيها شيء من المعاني المعينة . . وكنت أعرف مسجوناً كان على قصور ادراكه جداً كلما وضع في السجن المظلم عقاباً له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام بأحاديث خالية من المعاني .

يوجد في الشعائر الدينية القديمة لكثير من الامم صيغ من العزائم والتعاويد هي عبارة عن كلمات أو جمل مرتبة تلتذ بسماعها الاذن ولكن لو

أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولاً عبثاً . وما لنا وللرجوع الى تلك الازمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على ما نقول وأمامنا كائناتنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها الا النزر القليل منهم .

على اني أرى أن عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة وأعانتة على الجري في مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل ، فاذا لم يحترس منها أصبحت الالفاظ خلوا من معانيها وصارت عوذا للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية البيغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فإنه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ، ولكن حل عقدة لسانه أيسر من فتح مغلق عقله ، فالالفاظ لا تؤدي دائماً الى فهم الاشياء التي وضعت لها . وفي لغة الخرس مزية لا توجد في لغتنا معاشرة الناطقين ، ذلك ان الاشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع ، وليس الامر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن أصوات متنوعة وأجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلمي ان محادثة الاطفال مما لاشك في فائدته فانها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ، ولكن على شرط أن تكون الكلمات وسيلة الى انتقال أذهانهم الى مدلولاتها ، فيجب عند تلقيهم للدوال اللفظية ان ينبهوا الى ما تدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط ، فبهذه الطريقة تعود اذهانهم الاستقرار وعدم التشتت .

لست أدري لماذا نهتم كثيراً بمقاومة ما يجده الاطفال من اللذة في تقليد أصوات بعض الحيوانات ، فما أسعد حظ امرئ يكون فيه من المواهب الالهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة ! ولا أقصد بقولي هذا أن من يحاول

محاكاة أصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها، ولكنني أريد به أن مثل هذا السعي في التقليد يدل على أن صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة، فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب أو الديك مثلاً قد لاحظ أن في هذا العالم مخلوقات أخرى غيره وأن لها في التعبير عما في أنفسها من الوجدانات طريقة خاصة بها.

اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية .
انظري الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة في جميع أقطار الارض وهي - وان اختلفت يسيرا من أمة الى أخرى- تتألف في الاصل من أصوات آحادية المقاطع، فأصول الكلام الملفوظ عند جميع الامم لا تخرج عن حرف ساكن وحرف لين يتكرر ان بحركة الشفتين مثل « بابا، ماما، تاتا، دادا » وغيرها ما عدا بعض تنويعات خفيفة . والطفل يقضي من دور طفوليته زمناً طويلاً لا يعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير، وأما الفعل فلا يدرك منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضي والمضارع والامر وغيرها من المشتقات، ولا يعرف من النعوت الا قليلاً وأقل منها معرفته بحروف العطف فلفظه شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

روى لنا أحد السياح أنه يوجد في أفريقية قبيلة يتألف لسانها من اثنتي عشرة كلمة لا غير، وقال : ان أفراد هذه القبيلة على قلة ألفاظ لغتهم الى هذا الحد يتفاهمون جيداً فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات، وكم يوجد من أطفال يفهمون أمهاتهم ما يريدونه بما هو أقل من كلمات تلك اللغة! مثل تحريك العين او الانشارة او مالا يكاد يكون شيئاً يذكر مع افصاحه عن افكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهناك أمم أخرى تكاد تكون أمية ولكنها تبرز علينا في علم ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها، فالعرب القاطنون في ما بين النهرين (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئاً من الكتب لانه لا مدرسة لهم سوى الصحراء، ولكن من المحقق ان البدوي منهم اذا رأى آثار الخطأ على الرمل حكم فوراً بأنها آثار انسان أو حيوان، وان كان انساناً عرف قبيلته وكونه عدواً أو صديقاً، وقدر تاريخ مروره سواء كان قديماً أو حديثاً، واستنتج ما عسى أن يكون قصده من سفره، وحكم أيضاً ببعض علامات يراها منتشرة في الطريق على البعير هل كان حاملاً شيئاً أو خالياً، شبعان أو جائعاً، مستجم القوى أو مهزولاً، وعلى صاحبه هل هو من سكان الحضر أو البدو. فاذا تأملنا قليلاً في سبب وجود هذه المعرفة عند هؤلاء القوم ظهر لنا أن طريقة البدوي في ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها هي بعينها الطريقة المعروفة في العلوم الصحيحة .

من الجلي ان أحداً لا يسمعه انكار مكانة اللغات وما لها من الفوائد في تربية عقل الانسان، ولكن مما ينبغي الاعتراف به ان الالفاظ اذا كانت تعني من النظر في الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالباً فهي مضرّة بالادراك لا مفيدة له. فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات مختلفة لا يعرف في نهاية الامر الا حيواناً واحداً، فلو اتفق انه لم يره في حياته كان لم يعرف شيئاً .

أراك تذكرين ما اشتهر عن هاملت^(١) من تعجبه من تشبث الناس

(١) هاملت أمير شبه جزيرة الدينمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بنار أبيه الذي قتله أخوه.

بالألفاظ حين قال: ألفاظ ألفاظ ألفاظ : فهذا الأميرُ كان درس في المدارس، وكأنه بهذا الاستغراب ينتقد طريقتنا في التربية ، فان المشتغلين بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من أجل كمال تربيته أن يحفظ أفكار غيره ويرددها ، مع ان الواجب عليهم أن يسألوه دائماً عن أفكاره ويبادروه بالحث على النظر في الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها. قد رأيت فيما سبق أن العمل هو اللازم في تربية العواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة، فكان الواجب على المربين أن يكون مرجعهم هنا أيضاً الى العمل لاهياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لتنتج الثمرات المطلوبة . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ يونه سنة — ١٨٥)

بيان ان التفكير مما يتعلمه الطفل وخطأ المربين في عنايتهم بالألفاظ دون المعاني ووجوب تويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكير

قد يسأل سائل، هل التفكير مما يتعلمه الطفل؟ فأجيبه : هذا ما اعتقده، غير انه ينبغي التمييز التام بين ما يتلقاه من غيره من الافكار، وبين ما يستنتجه هو منها بنظره الى الاشياء، ونحن في مخاطبتنا معه لا نفعل شيئاً سوى تأدية أفكارنا اليه على وجه التمام أو النقص، مع أن الذي كان يجب علينا أن نصرف هممتنا اليه هو ايقاظ ذهنه واستنباط أفكاره وآرائه. فاذهان من يعاشرون

(٢١) التربية الاستقلالية)

الكبار من الاطفال محشوة بجمل من الكلام لا يفهمون منها في معظم الاحيان الا معاني في غاية التشابه والالتباس ، وليس شحن أذهانهم بهذه الجمل مما ينمي فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الاحوال ، ولكنه ابهاظ لها ، بما ليس من حقه أن يكون فيها . وكم لا قيت في سالف أيامي أطفالا يشتهرهم الناس بكونهم آيات في الذكاء والفتنة ! فرأيت ان كل ما يدعى لهم من العقل ينحصر في انطلاق أسنتهم بما لا معنى له من القول ، وكنت عند نظري اليهم - وهم في تنويعهم واعدادهم أنفسهم لنيل الشهادات المدرسية - يعروني من انقباض النفس وضيق الصدر ما لا أجد سبيلاً الى دفعه ، كالذي يعرف لك لرؤية المتصنعين المدعين ما ليس فيهم ، وكنت أقول في نفسي : إن المشتغلين بتربيتهم يسابونهم اليسير الذي آتاهم الله (سبحانه) من المواهب الخاقية بتعليمهم اياهم أفانين القول وأساليب الكلام ليسموهم بسمات العقل الذي لما يبلغوا رتبته . أما والله لو كان لي الخيار لاخترت « لاميل » أن يصدر عنه فكر ساذج ولو واحداً فقط يكون منبعثاً عن محض اختياره وكسبه ! ولفضات هذا على كل ذلك الزخرف القولي والثرثرة التي لا نسبة بينها وبين العقل .

إذا نظرت الى الكون رأيته مملوءاً بأناس يتكلمون بما يوجد في الكتب ، فان كل من يسمعهم يذكر انه طالع فيها جميع ما يقولونه ، والخطأ في هذا الامر راجع الى تربيتهم لانهم قد تعلموا من نشأتهم أن يرددوا آراء غيرهم . الام بالنسبة الى ولدها هي المجتمع الانساني بل المثال الحي لا آثار السلف ، ولا يشك أحد في انها مكلفة أن تعلمه كثيراً ، ولكن يجب عليها في تعليمها هذا التلميذ الصغير أن تكون على غاية الحذر من أن تلقي في

نفسه الخضوع للالفاظ والاستعباد لها، ذلك أن هذا الامر ليس من شأنه ان يفتح مغلق عقله بل فيه اغاضة لينبوع المعارف الحقيقية، ولا بدع في ذلك فأنت ترين الناس قد سموا أعمالاً كثيرة قدستها العداة فروضاً مع رفض العقل إياها وعدم تسليمها، وترين الحق يدمغ جميع الاباطيل على التعاقب، والقوة في كل زمن تسلب الحق ماله من موجبات الشرف والاعتبار. فن لم يبلغ به علمه الى الاحتراس من غرور القول وباطله والسير في ظلمات اللغة الانسانية على هدى فذلك الذي يعيش دهره مفتوناً بزخرفها اسيراً في ربقتها. فالذي يجب علينا للطفل هو تعريفه بحالة الكون المحيط به تعريفاً يكون بلا شك في غاية القصور على الظواهر والاقتصار على ما لا بدله من معرفته، فان الكون كله معان، واريده بذلك ان كل شيء مؤثر من شأنه ان يفعل في عقل الانسان ويولد منه فكراً. ومن ظن أن الاطفال بعد انقضاء سنتين او ثلاث من عمرهم لا يكونون مفكرين فقد ظلمهم وحط من قدرهم. نعم إن افكارهم ليست كافكارنا في جميع الاحوال، وذلك مما يدعونا ايضاً الى اعتبارها وعدم اغفلها، وقلما يوجد طفل لا يهتدي بنفسه الى ما لا يعلمه القائمون عليه إياه اذا تكلفوا اقامته على طريقة. فعليهم ان يستعينوا بالتجربة والتمرين على ازالة بعض ماتقع فيه مشاعره من الاغلاط، وان يحثوه بالاشارة والكلام على النظر والملاحظة، فاذا فعلوا ذلك سهل عليه بما يجريه من الاقيسة ربط الحوادث بعضها ببعض وارجاع بعضها الى بعض، كارجاع استطالة ظل الرمح مثلاً الى انحدار الشمس عن اوجها، واصبح القياس بهذه الطريقة ملكة راسخة في نفسه على ما يفيد إياه من العلوم الاولية، فان في اسناد الحوادث بعضها الى بعض تعلماً للحكم عليها.

الرسالة العشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

(محاولته الهرب من السجن مع المسجونين وعدم انلاحهم وخوفه اقطاع المراسلة)
 قد هم المسجونون بالهرب من سجن وشرعوا في ذلك
 فعلاً فانكشف امرهم، وستقرئين في الصحف تفصيل هذه الواقعة وكانت
 الاحوال كلها مساعدة لنا على هذا الهرب، وناهيك بلبيل غاب بدره، وريح
 اشتدت عواصفها، ومطر اهتمرت سيوله على جدران السجن، ولكننا
 اخفقنا بعد ان قطعنا اصعب العقبات واشدها، واوشكنا ان نفوز بالنجاة،
 وسيكون من نتائج هذه الحادثة بحسب الظاهر زيادة التشديد في
 مراقبة المسجونين، وان تصير المراسلات مع ما كانت محتفة به من العوائق
 على خطر الانقطاع مدة طويلة، ولست ادري هل يصل اليك هذا
 المكتوب ام تحول دونه الحوائل، وارجو ايها العزيزة هيلانة ان
 لا يوجدك عليّ هذا الامر فاني لم استطع ان اصم اذني عن نداء الفطرة
 التي تدعوني اليك والى ولدنا. اهـ

الرسالة الحادية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ديسمبر سنة — ١٨٥ ﴾

بيان شغل « اميل » وان الاعمال الصبائية ليست باطلة برمتها بل منها ما قد يكون مفيداً
 كتبت للحكومة ثلاث مرات استطاعها شيئاً من اخبارك، فصدر في

كل واحدة منها أمر رسمي باجابتى انك بخير ، وذلك تهكم وسخرية .
 أنا لا أطيق هذا السكوت الذي طال أمده بيننا ثمانية عشر شهراً ،
 فانه قد أمضى وأخرج صدري ، ولكنى أراني قد اهتديت الى حيلة
 لا يصلح مكتوباتي اليك سترى حتما ما يكون من نجاحها ، وسواء عليّ أفلحت
 فيها أم لم أفلح فاني لن آلو جهداً في ملازمة جدران سجنك ومحاصرتها
 على النحو الذي أعرفه .

انقضت كل هذه المدة ولا سلوان لي عن هي الا في « اميل » أوّه !
 اني لا بذل أنفس ما عندي لمن يأتيني بك الساعة لتراه يغدو ويروح في
 البستان مكشوف الساقين الى نصفهما عاري الذراعين مرسل الشعر ، فان
 شهر ديسمبر هنا كما أخبرتك فيما سبق غاية في اعتدال الاقليم ، ويقول
 صديقك الدكتور ان شد أعضاء الاطفال وتقويتها بتعريضها لهواء الجو
 يمود بالفائدة عليهم في أبدانهم . ثم اعلم ان « اميل » غلام متعب فانه
 كلف بلمس كل شيء يقيم بصره عليه ، فهل ينبغي منعه من ذلك ؟ وليتك
 ترى ما يحدثه كل يوم في البستان من ضروب الاتلاف التي كان قو يدون
 في بداية الامر يتوجع منها ويشكو . فلما أعتيه الحيل انتهى بالضحك
 عجزاً ويأساً . ذلك لان ولدك له في الاشتغال طرق شتى هو مخصوص
 بها ، فهو يقلب الارض بقلب صغير من الخشب ، ويفرس الاشجار ، أستغفر
 الله بل أظنه يني أيضاً ، ولعلك تقول انه يني له قصورا في اسبانية ^(١) -
 لا ! وانما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفاً . ثم ان الذي يضحكني ويسليني
 منه انه يسمي تلك الالاعيب شغلا وهي تسمية تشير الى ان الاطفال

(١) مثل يضربه الفرنسيون ان يتشبث بالاماني الوهمية ويفتر بالحيلالات الكاذبة

محبولون على تعظيم أعمالهم في أنفسهم وتقديرها بأكثر من قيمتها. على أن ما يصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من أنواع هذا التقدير ليس بجملته باطلاً بطلاً تاماً، فإن ثمرة البلوط مثلاً اذا سقطت على الارض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لا ينافي ذلك ان تصير يوماً ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها في الارض) اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ١٢ يناير سنة — ١٨٥)

أنس «اميل» بالدواجن وانسها به وتعايل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعو تلك الحيوانات الى الثقة به

اتخذ «اميل» له خلية ولهذه المناسبة ينبغي أن أقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعاً بسببها ارتياحاً عظيماً : ذلك ان قويدون لما كان قليل الثقة بشرطة الحكومات المدنية في حفظ الانفس والاموال لما هو لاصق بذهنه من أفكار متوحشي افريقية قد عثر من حيث لا ادري على كلبة ضخمة طويلة، الا انها من أشد انواع الكلاب توحشاً فسميناها (الدبة) وهو اسم ينطبق عليها كمال الانطباق في شعرها الاسود وقوتها العظيمة وغرائزها العدائية، وقد وضعت منذ شهرين خمسة جراء تماثلها لانها من حين ولادتها بدت عليها سمات الدمامة والبشاعة فاسكنناها في بيت الدجاج وكان من وراء وضعها ان زاد توحشها الفطري بسبب حنوها الأبي كما يحصل ذلك غالباً من الحيوانات الضارية، فقد تخيلت ان تخفي جراءها في سقيفة

كانت تحرس مداخلها وتمنعها بنفسها لظنها بلا ريب اننا نأخذها منها ، وقد كنت امرت بأن لا يدخل « اميل » بيت الدجاج بعد سكونها فيه لاني كنت اخشى عليه مقابلة هذا الحارس الجهنمي ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وهو مع كونه لم يتجاوز التهادي في مشيته يتسأل ويتدخل في كل مكان . ففي عصر ذات يوم افتقدناه في البيت والبستان فلم نجده ، فأرسلت قوبيدون في طلبه ، ثم رأينا بيت الدجاج مفتوحاً فلم يبق في نفوسنا ريب في انه دخله ، ولكن ضاع بحثنا فيه سدى ، فأول خاطر مرّ بفكر الزنجي هو ان الكلبة اقترسته وهو خاطر فيه ربح التوحش حقاً .

لم تكن دهشة قوبيدون بأقل من ذعره اذ دخل السقيفة مخاطراً بنفسه فراى « اميل » وقد رقد على الدبة واخذ بأذنيها الطويلتين المتدليتين يجذبهما اليه . واكثر من هذا خروجا عن مألوف العادة وابد منه عن معهودها ان ذلك الحيوان كان يتسامح له فيما كان يفعل به ويتحمل منه لاجته في محكة بشامة وعلو نفس لا يتصف بهما الا الآخذون بطريقة زينون .^(١) فلم يلبث قوبيدون ان فهم وهو مندهش ان الكلبة قد اتخذت (اميل) خليلاً واكرمت وفادته فقبلته بين اولادها ، لكنها لم تمنح الزنجي شيئاً من هذه المراجعة لأنها لما راته انشأت تهرّ وتكشر عن انيابها زجراً له ، فرأى من الحزم الفرار من امامها فخرج داعياً (اميل) الى اللحاق به فتبعه جزلاً مبتهجاً غافلاً عما كان قد اقتحمه من الخطر . ومن هذا الحين

(١) هو المسمى بزینون السیتیومی نسبة الى سیتیوم مدينة في جزيرة قبرص ولد في سنة ٣٣٨ ومات في سنة ٥٦٠ قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص في الفلسفة أساسه الصبر على المكاره

انقد التعارف بين « اميل » وبين اندبة ، وكانها توهمته جروا صغيرا لم تحسن امه لحسه فكانت من أجل ذلك تعتبر ممن تجب لهم حمايتها ، وتلحس ما انكشف من أعضائه بلسانها العريض ، وعلى كل حال قد ظهر لي أنها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها علي ولدي .

لم يقتصر (اميل) على مصادقة الدبة بل له أصدقاء غيرها جميع سكان بيت الدجاج معارفه ، ومن العجيب ان تراه في غاية الائتلاف والوثام ولست أخفي عنك اني مهتمة بهذا العالم البيتي الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال .

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ملء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحاب من سطوح المنازل ، فخطر ببالنا ان نضع فيها بطاً ، وتعهد بذلك قويدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا ، وأصبحنا نتسلى برؤية ريشها الاخضر الجميل الممثل لفلذ المعادن ، ونبتهج بما تبديه لنا من ضروب المرح واللعب في الماء وبما تسمعنا من البطبطة وترينا من الائتلاف الصحيح الذي جمعتها وشائجها ، ولكن الزنجي لم يلبث ان لاحظ عدم التناسب والتلاؤم في تألف هذه الجماعة فانه وجد فيها ذكرين لاثني واحدة مع ان البط على ما يظهر ميل الى تعدد الزوجات على نحو ما عليه الترك يتزوج السلطان الواحد منهم كثير من النساء . فمن أجل مداواة هذه العلة التي جزم قويدون بمخالفتها لمقتضى الفطرة ^(١) قد اشترى زوجا آخر من هذا

(١) يدل هذا القول على جهل الاوروبيين بحال المسلمين وقول قويدون ان التعدد مخالف للفطرة إنما مرى اليه من سيدته وأماها ففعل عن الفطرة في قومه وأما هي فطرة أراد الانسان المدني تهذيبها

النوع بعد ان تأكد هذه الدفعة من انوثته وتحراها كما ينبغي وبذلك أصلح الخطأ الاول بمض الاصلاح، وبقي أمر ما كان يخطر لنا على بال قبل شراء هذا الزوج فانعكس فيه تقديرنا وخاب حسابنا، وهو استقبال البطات القديمة لهذا الزوج فانها بمجرد ان رآته ولته ظهورها مصرة على مجانبته وكلما حاول القرب منها نهزته وأوسعته نقراء، فاردنا التوسط في الصالح بين الفريقين فلم نجد ذلك نفعا، لاننا ما كنا نفارقهما حتى عقدت الثلاث القديمةا مجلسا للشورى بينها بمزل عن الحديثين وانسان يبطن طويلا، ولم أعرف مدار بينهما من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي لسانهن، ولكن معناه كان ظاهرا فكأنهن كن يقلن : اننا قد سكنا هذا المكان قباها، ولنا الحق من أجل ذلك ان نعتبرهما دخيلتين، فاجدر بنا ان نشوى على السفود شيئا وان نجهز باللفت طعاما للآكلين من ان نقباهما في جماعتنا، فنحن بط، واما هما فليستا الا من السقط .

لما لاحظ قوييدون أن أحد أفراد هذه الجماعة - وهو ذكر أبيض ذو قزعة طويلة - كان أشدها لجاجة في النفور صمم على ذبحه على نصب الوفاق فداء للاتحاد والتآلف فلما فعل أنتج هذا القربان - مع أسفي عليه - أثره المطلوب، فأخذ كل فريق يتدرج في التقرب من الآخر حتى انتهيا بأن صارا جماعة واحدة، وان كانت البطة القديمة هي السلطانة الحظية، فما رأيك في ذلك الشم والترفع في هذا الجنس الحيوان ؟ أترى ان الميل للسودد والشرف هو الاصل الثابت في الفطرة، وان المساواة بالمعنى الذي تفهمه منها أمر عارض عليها اكتسبه الانسان بالعدل ؟

لوشئت لقصصت عليك أيضاً وقائع كثيرة في عوائد الحمام وأخلاقه هي بالنسبة اليّ جديدة ، فقد تبين لي من النظر في معيشته في برجنان أمور لا تجري تماماً على ما تصفه الكتب من جعله في الجملة مثالا للصداقة والوفاء بمقدار الزوجية ، لاني رأيت ذكراً عتيقاً متزوجاً بحمامة فتية كان حظه معها حظ اولئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم ، فتركته في يوم من الايام واستبدلت به ذكراً فتياً متصلاً استمالها منه بلا ريب رقيق كلامه ، وجميل تحيته وسلامه ، وكأني بك تقول : أي الزوجين كان مخطئاً ؟ الزوجة لانها طائشة وسريعة التحول والانقلاب ؟ أم الزوج لانه أغفلها ولم يراعها كما ينبغي ؟ فاجيبك انه ينبغي الحذر من المجازفة في الاحكام على غير علم ، ومن أجل ذلك أمسك قبل كل شيء عن الحكم وأقول : ان الزوج المخوف على كل حال قد تلقى سقوط حرمة بعلو نفس يدل على الشجاعة الحقيقية ، فكان اذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة في طريق يمر بجوارها بدون أن يظهر عليه أنه رآها وان ييدي أقل أماراة على حنقه عليها ، الا أنه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها منه لانهما عند ما كانا يتقابلان كانا يتبادلان النقر الاليم الواقع كما كان منيلاس وباريس يتبادلان الطعن والضرب في حومة الوغى ^(١) ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت حضانة البيض لم تحسنها

(١) منيلاس هو ابن اترية وأخو آغا ممنون صار ملكاً لاسبارطة بتزوجه بهيلانة بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيقه وكان السبب في انتشار حرب راوبده الشهيرة بخطفه هيلانة زوجة منيلاس ملك اسبارطة وقتل في هذه الحرب اشيل وقتل هو أيضاً بسيف يروس

لأنها ورفيقها كانا من فرط اشتغالهما بدواعي الحب بحيث لم يكن لتييسر لهما ان يكثر من التفكير في فروض البيت، ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور، فاننا رأينا ذات يوم يخرجهما من احدى المحاضن حيث كانا مشغولين بتربية أفرأخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتیان بها على وجهها، وكأنه كان يقول لهما وقت اخراجهما «أف لكما أنما لا تعرفان من التريية شيئاً نخليا مكانكما» فلم يكن الا ان خلياها بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن ادعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه، فنبهت فكري هذه السيرة الشريفة الى أمر من المحتمل ان يكون هو سبب شقائه بزوجه وهو ان صفة الابوة فيه غالبية على صفة الزوجية .

«اميل» كما لا يعزب عن فكريك مجهل كل هذه الاعتبارات المختلفة التي لاحظتها في معيشة الطيور، وبودّي أن لا يفهم كل ما فيها، وانما الذي أعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الالفة والارتباط. هذا واننا كثيرا ماتساءلنا عن السبب في أن تأنيس الحيوانات كاد ينقطع من عهد ان وجدت المجتمعات المدنية، ولا شك أن علة ذلك ليست هي أعواز الحيوانات المتوحشة، فان في الصحراء كثيرا من أنواعها النافعة التي يكون من فائدتها الظفر بها لو زال المانع من ذلك، فاذا كان الامر كما أقول فقد يكون السبب في وشك انقطاع التأنيس هو كون الانسان في عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وان صفات الطفولية هي اللازمة لذلك . اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ١٤ يناير سنة — ١٨٥)

تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم

لاحظت ان اميل كلما صحبتني الى دار السيدة وارجنون ووجدتهناك نسوة من المدينة اصطفى لمعرفة منهن عادة أحسنهن خلقاً، وربما دل ذلك على أن للجمال تأثيراً في نفوس الاطفال .

وبدأ لي منه أيضاً أنه يحب الشيوخ ولعل السبب فيه احتياج الاطفال الى كثرة التعلم وميل الشيوخ الى الاكثار من التكلم .

لكن لا يدعونك هذا الى أن تتصور فيه أنه مثال لا تراه، على أنني لا أريد أن افتات عليك بالحكم في هذا الامر فأدعه لك تحكم فيه بنفسك . أنا ألوم نفسي وأبكتها على استمتاعها دونك بما تجده في متاي من السكينة والدعة ، وقد عزمت من أجل هذا على أن أبذل نفسي لك كما بذلت من نفسك فاستأجرت مخدعا في سفينة ستقلع من بنزانس الى . . . فمليك اذن أن ترتقب لقاءنا . اه

الرسالة الرابعة والعشرون

✽ من اراسم الى هيلانة في ٢٠ منه سنة — ١٨٥ ✽

أخبارها بصدور أمر بنقله الى سجن آخر واقفاها بالعدول عن السفر اليه

ترددت حيناً في الكتابة اليك لاني لم أجد في نفسي من الاقدام ما

يبعثني على أخبارك بآخر بلاء أصابني وأنا على ما أعلمه الآن من أنك قد تطالعين خبر هذا البلاء في الصحف أفضل أن ابثك به على كل حال، ذلك انه قد صدر من حيث لا أدري أثر بنقلي الى
 ليس شأني كما تعلمين شأن المقضي عليه بعقاب فهو يذوق عذابه لان هذا في قبضة القانون، وأما أنا ففي قبضة القوة تصرفني كيفما شاءت، فلست أدري من ذا الذي قضى عليّ وأمر آتاهي سر يعلمه الله، وإذا سألت: ماذا يراد بي ومتى وأين ينتهي عقابي وهل هذا النقل الحديث آخر مرحلة من مراحل سفري الاليم الممض؟ فلا أجد جوابا لواحد من هذه الاسئلة. على انه لا ينبغي ان ترتاعي لهذه المحنة الجديدة فالبجار تعرفني وأنا أعرفها ولا عتيادي المعيشة في أقاليم مختلفة أصبح في استطاعتي احتمال حرارة الشمس ورطوبة السواحل

وعليك الآن ان تكفي عن التمسك بأمل اللقاء فان بيننا بحرا كالصحراء وأرضين وبيئة، وان تبذلي نفسك في سبيل تربية ولدنا، وعلينا جميعا أن ندأب في عمانا وان نتلقى كل ما يعترضنا من العقبات بعزيمة صادقة وقصد ثابت، أرجو موافاتي باخبار «اميل» متى تيسر لك ذلك.

فيما انطوت عليه احشائي أمران لو اجتمعت قوى البشر على ان تسلبني اياهما لردت بالخيبة والخسار الا وهما فكري وحبك، فيكفيني مالدي من البراهين اليقينية على أنني محق في تقويتي على احتمال ما ابتليت به من الاضطهاد والظلم . اهـ

رسالة الخامسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٦ مايو سنة - ١٨٥ ﴾

تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام
الزمن بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي

كانت عاقبة جدي في السعي ان فزت بوصول حبل المراسلة من وراء
ما بيننا من المسافات الشاسعة بعد طول انقطاعه ، ولست أعد من الترسل
ماتنا وبناه منذ ثلاث سنين من المـسـكـتـوـبـات ^(١) غير المهمة التي كان دأب كل
منا فيها الاقلال من القول جهده ، فانا محتاجة في تخاطبي معك الى مناجاة
قلبك بفكر تام الاختيار وضمير كامل الحرية .

لا أرجع الى ماضى من الحوادث فالـكـلام فيه عديم الجدوى وانما أقول :
اني قد عراني لخبر نقلك من سجنك الى غيرد من الالم ما لج بي في
التصميم على اللحاق بك لحاجة لم أحس بمثلها من قبل ، ولم يمنعني من المضي
معهما سوى ما غلبني من الاحساس بوجوب طاعة أمرك وسماع نصائح
صديقك الدكتور ورعاية مصاحبة ولدنا فانصعت لذلك الاحساس آسفة
مرتقة تحقيق أمني في اللقاء

علمت مما سبق من رسائلي ما عليه (اميل) من صحة البدن ، وأريد

(١) هامش الاصل - لم نورد تلك المـسـكـتـوـبـات التي ذكرتها لاننا لم نر فيها مصلحة
للقارئ فان اكثر فائدة فيها لانما هي تكميل عدد الرسائل

الآن أن أحدثك عن تقدمه في اكتساب العلم فأقول : ليس ولدنا بدءا من الاطفال - وهو أمر أعترف به وأنا في غاية الاستكانة والفضاضة - بل يجد الناس هنا فيه شيئا من توحش سكان أطراف العالم ، ولكنني أحبه كما هو لأنني أرى جميع ما فيه منبعثا عن الفطرة، ولم أُنْغَنَ حتى الآن بتعليمه مواضع المعاشرة وآداب الاختلاط لان جل عنايتي كان مصروفا الى النظر في أخلاقه وأحوال نفسه والاجتهاد في تقويم طبعه وتربية ادراكه ، وسأسر د لك من تجاربي معه ما يحكم به على مبلغ نجاحي في ذلك

لاحظت أن فيه نهامة وهي عامة في جميع الاطفال فلم يسلم منها أحد منهم، ولكن قد أتت عليّ معه ساعة ارتعدت فيها فرائصي خوفا عليه من تلوث نفسه برذيلة أفطع من النهامة وأشنع منها كثيرا ألا وهي الكذب، ذلك أن جورجية كانت تخبز ذات يوم قرصا فطيرا فلما استوى أخرجته من الفرن ووضعتة ساخنا على الخوان ثم دعتنا شؤون مختلفة للخروج الى البستان فتركناه وخرجنا الى « اميل » فقد لاحظت منه أمرا دهشت له وهو اجتنابه الذهاب وراءنا . فلما عدنا الى المطبخ لم نجد للقرص أثرا فاستولت علي ريبة شديدة في أمره، ولكنني تجاهلت السارق والتفت الى جميع الحاضرين مظهرة اني أخطب الكل فقلت : ليت شعري من ذا الذي أخذ القرص من فوق الخوان ؟ فاما قويدون وجورجية فانهما لم ينبسا بكلمة لعلهما البراءة من أنفسهما ، وأما « اميل » فلما لم يكن شأنه كذلك لم يسهه الا أن خجل وصاح قائلا : الدُّبَّة هي التي أخذته

فلما سمعت منه هذا الجواب انجرح فؤادي غما، وأنت تعلم من أحد مكتوباتي السالفة أن الدبة هي كلبة البيت، ولما أعلمه بينه وبينها من اللفة والارتباط

رأيت أن هذه فرصة سنحت لا يقاظ وجدان العدل في نفسه فصعدت على اغتنامها وقلت: ان كانت الدبة هي الآثمة فلا بد من جلدتها، وأشرت الى قويدون بتنفيذ هذا الحكم وكنت كل هذه المدة أتأمل في وجه «اميل» وأحس بان فؤادي يطير شعاعاً، ولاغرو فأني شيء كنت أرجوه منه اذا كان أصر على الكتمان وانكار الحق؟ أدرك الزنجي بلاريب موجب جزعي وفهم ما قصدته فنقدم الى الدبة المحجني عليها الملوح عليه سمات جلاد ممن تمثلهم القصص المحزنة، وكانت قد بدت عليها منذ حين علامة الانس بمن في البيت والسكون اليهم لفرغها من اداء واجب العناية والحماية لجرائها، وكأنها أدركت جيم ما حصل لانها كانت تنظر الى «اميل» نظراً المستعطف الآمل ولسان حالها يخاطبه بقوله «أهكذا تدعني أعاقب ظالماً» فاضطرب الغلام من هذا النظر ثم أجهدش بالبكاء واستلقى بين يدي قائلاً: كلا! ليست الدبة هي التي أخذته بل أنا الآخذ!! عند ذلك سرّني عني ما كان أبهظ نفسي من متراكم الكدر، ولكنني رأيت ان من الواجب علي في هذا المقام الثبات وعدم التعجل في اظهار الخنوء فصحت قائلة له: من حيث انك تجنيت على الدبة ما لم تجنّه فهي التي ينبغي الرجوع اليها في طلب العفو، ففهم أنه في الحقيقة قد فرط منه في حقها هفوة يجب الاستقالة منها، فعمد الى جيب صدرته فأخرج منه نصف القرص لانه لم يكن تيسر له أكله كله ومد يده به اليها قائلاً: خذي، فتدلت عليه في بداية الامر ولكنها لما رأت أن استماحتة العفو منها صادرة عن قلب سليم ازدرت تلك اللقمة اللذيذة وسمات الرحمة والشره بادية على وجهها، فبعثنا ذلك على أن قهقنا جميعاً.

أنا وان كنت لأقوّم طاعة الاطفال لو اديهم باكثر مما تراه فيها

أجدني في بعض الأحيان مضطرة اضطراراً شديداً الى قمع أهواء « اميل » والحيلولة بينها وبين الوصول الى ما قد يضره، ورأيت من الواجب عليّ ان استعين في هذا الامر باستعداد فطري يوجد قطعاً في جميع الاطفال على السواء . ذلك أن « اميل » لما يحصل في ذهنه من حوادث العالم الخارجي الا صورة مبهمه ، فتراه يعتبر ما يتعاضى عليه من الاشياء ولا يوافي رغبته ذا قوة متمرده وارادة متصرفه . خذ لذلك مثلاً وهو ان له كلفاً بأن يقلب مربعاً من البستان بمقلب صغير ، فاذا باشر هذا العمل سلاني وأضحكني منه ان أراه يسحق ما يخرج من المدر برجليه الضعيفتين مبدياً دلائل الابتهاج بالظفر كأنما في كل مدرة منها عدو له قد أرغمه وأذله، واذا اخترق الاسوجة النباتية فأصابه فرع منها في وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخاً له بقوله « علام تؤذيني أيها الغصن الحقيقير » وإني لخاله يجلد البحر اذا أغرق مركبه الصغير على نحو ما فعل به كزرسيس .^(١)

هذه الشكاسة التي في الاشياء — وانما أسميها بذلك موافقة لافكار الاطفال — تدعو « اميل » الى اظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه أكثر مما يعلم . فان خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذي ألزم الانسان المحافظة على رعاية أحكام التجربة واقتفاء آثار الساف، ولذلك قد اتفقت مع قوبيدون على طريقة بها يعاقب « اميل »

(١) كزرسيس هو ابن داريوس الاول أحد ملوك الفرس خاف أباه في سنة ٤٨٥ ق . م . ومات سنة ٤٧٢ ق . م . اراد اتمام فتح البلاد اليونانية الذي كان شرع فيه والده فارسل اسطوله اليها فاضطرب البحر وأغرق قنطرة كان اتخذها من السفن فامر بجلده ثلثمائة جلدة كما يعاقب الاسير العاصي

كلما عصى أو أمارى وأغفل الأخذ بنصائحي بحيث انى لأتولى تقابه بنفسى بل أكله للجملات المحيطة به ، فانه بذلك يمتاد أن يلتبس فى الطاعة جنة تقىه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعنوة .

جريت معه على هذه الطريقة بعينها فى ضرب آخر من ضروب سيرته ، وانى وان لم أصل بها فى جميع الاحوال الى النجاح المقصود إخالنى على الطريق الموصلة اليه . ذلك أنى رأيت شغفاً بالاندلاق من البيت ، وكثيراً ما أندرته بان فى خروجه منه وحيداً ضرراً عليه فلم يجد ذلك نفعاً ، فلما رأيت منه قلة الاصغاء لى نصائحي فى هذا الامر أو عزت الى قويدون بأن يغري به بعض أطفال القرية ، فكانوا كلما رأوه فى الخارج تظاهروا له بأنهم يحسبونه وليداً ضل بيته وقبضوا عليه ووردوه الى قهراً ، فأدرك من ذلك الحين الموعظة التى أردت أن أعطاها اياه وهى ان الانقياد والطاعة أمثل من القسر .

على اننى رأيتنى قد عرفت فيه أنه لم يخلق لان يعيش وحيداً ولا لأن يقضى جميع زمانه مع الكبار لانه مادام ذا عقل وكان مقصورياً على مخالطتنا يشيخ قبل بلوغه سن الشيخوخة ، وأما اذا اختلط ببلداته وعاشر أترابه أشرق فى وجهه نور الفرح بابتهاجهم ، وسرى الى نفسه روح السرور منهم ، ولهذا رأيت من مصلحته أن يتخذ له رفقاء من أطفال القرية جعلت أمر اصطفاؤهم موكولاً الى حتى لا يكون له فيهم أسى سيئة ، ولم ألاق فى هذا الامر صعوبة لان الناس هنا لا اشتغالهم طول النهار بتحصيل رزقهم يرون فى تسليم أطفالهم لمن يقوم بشأنهم تخفيفاً من حملهم ، فاصبح بيتنا من هذه الجهة شبيهاً بملجأ من ملاجئ الاطفال . اذكر لك من أخصاء « اميل » اثنين فقط وهما غلام اسمه « وليم » يكاد يساويه فى سنه ، أعني انه فى الخامسة

أو السادسة من عمره ، وفتاة في السابعة من عمرها عليها مخايل الحسن تسمى « ازابلا » ولكن الناس يختزلون هذا الاسم اختزالا لا شبهة في وجهه مناسبة فيدعونها بلا (كلمة تليانية معناها جميلة)

أخص ما أعني به في شأن أولئك الاطفال الثلاثة هو إيجاد رابطة اختلاط وعشرة بينهم . فتراني اذا صرحت لهم بالانطلاق الى التنزه أوزع عليهم ثلاثة أصناف من الطعام ، ولكني أراعي في هذا التوزيع ان يكون الخبز كله لواحد منهم واللحم البارد مثلاً للثاني والفاكهة للثالثة فاذا حانت لهؤلاء المتبطلين ساعة اشتهاء الاكل -- وقلما تتأخر لانهم يأكلون أكل صغار الذئب -- دعا من نال الخبز منهم رفيقه الى مقاسمتها ايادى على شرط ان يقاسما أيضاً مامعهما من اللحم والتفاح مثلاً فنقبل منه هذه الدعوة عن طيب نفس لان لكل منهم مصالحة فيها، وبهذه الطريقة يتعلمون بالفرصة الجري على سنة المعاوضة التي هي على ما أرى حقيقة معنى المساواة.

من أصول الرذائل الخبيثة التي أصرف في استئصالها من نفس « اميل » جل اهتمامي الاثرة فان الاطفال مجبولون على الاستئثار بكل شيء، وهذا الاستعداد الفطري مبني في الغالب على الشره والحرص. ذلك ما أراني لاحظته فيهم وأود ان اكافه وأغالبه . ومما رأيته أنه لا ينجم فيه زخرف القول وبلاغة المنطق، وان الواجب عليّ - كما رأيت - فأحييت ان أشخص لولدي ما أسوقه له من العبر في الاعمال . ولعلك سائلي عما فعلته للوصول الى هذه الغاية فأقول : انني ابتقيت من بين الاشجار المثمرة في بستاننا ثلاثاً جمعات لكل من غلماي واحدة منها مدة السنة ولكوني أنا التي توليت توزيعها عليهم أعطيت « لاميل » كرزة « ولوليم » خوخة « ولبللا »

اجاصة طعمها قو يبدون ولما تثمر واحدة منها لتأخر فصل الصيف ، وأنا والحق أقول في شك من وفرة احمالها هذه السنة . وعلى كل حال أرى ان هؤلاء البستانيّة الصغار الثلاثة مهتمون بملاحظة ما وضعوا عليه أيديهم ، ولما يفترون عن ذود الدود وغيره من الحشرات المهاكّة عنه . وليس يبعد على « اميل » في إبان الكرز أن يأكل جني شجرته جميعه دون أن يعطي منه شيئاً لرفيقه . ان فعل ذلك فصبراً لانه لا بد ان يأتي يوم مقايضة الجزاء بمثله . ذلك أنه متى أنشأ الخوخ والاجاص ينضجان ذكر « وليم » و « بلا » معاملة « اميل » لهما وقابلاه بنظيرها ما لم يكونا أكرم منه نفساً وأسخى كفاً فيرضيا مقاسمته ما لهما على ما فيه من الميل مع الاثرة ، وفي كلتا الحالتين عقوبة له .

من السهل كثيراً على الاطفال أن يدركوا معنى الملك في حق أنفسهم ، ولكن من الصعب جداً إقناعهم بان للغير ملكا يجب احترامه . يشهد لذلك ما سأقصه عليك وهو أن مما يزرع في انكاكتره الراوند وهو نبات بهي المنظر شديد النمو ، يعرف في مزارعه بعرض أوراقه وعلو سوقه ، يدخله أهل هذه البلاد لنُدرة الفواكه عندهم في عمل أقراص ومربيات يغالون بها كثيراً ، سواء أخطأوا في هذه المغالاة أو أصابوا ، فتري أطفال القرى بسبب بقاء أذواقهم على حالها الفطرية كلفين باكل هذا النبات حتى انهم لا يحتاجون في تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله في الاقراص بل هم يأكلون سوقه الغضة فجّة ويجدون لها طعماً زائداً . من أجل هذا حصل ان تلاميذي (لاني اعبرهم كذلك) بينما كانوا يتزهون وخدمهم في ضواحي

بنزائس لمحو حقلًا من حقوله فخركتهم اليه كما حركت حمار الاسطورة^(١) دعوة الفرصة لهم الى اغتنامها وغضوضه النبات وطراءته وبعض نزغات الشيطان ، فلم يكن الا أن تخطوا ما يحيط بالحقل من الحواجز الواهية ثم انقضوا بقوتهم على بعض أشجار منه وأوها أطري من غيرها فأكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعد هذا ان أخذ يناجيهم فيما ارتكبوا ، فقال « اميل » وقد بدا خجله : أنحسبان أننا قدأ حسنا فيما فعلنا ؟ فاضطر رفيقه

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب من اساطير لافوتتين وها كما منظومة من كتاب العيون اليواقظ :

عطارنا واسمه فلان	قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش	واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى	والكلب هذا اسمه امان
فصلوا غابة فخطوا	لراحة زانها المـكان
ونام مولى الجميع لما	رأى مروجها الامان
اما الحمار اعتراه جوع	وحوله الند واللان
فصار يرعى وما توانى	وآن من حظه الاوان
قال له الكلب يا حبيبي	الخبز في الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حتى	آكل فالجوع لي هوان
فاطرح القول ثم ولى	ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان آتاه ذئب	له للطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه	فاني معك لا أهان
قال له الكلب كيف هذا	لا فاتك الضرب والطعان
احرمتني الاكل في نهاري	والجوع لاشك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عني	فالموت أولى به الحيان
واغتاله الذئب وهو بجري	ولم يدافع ولا أمان
وهكذا في الاصول قالوا	كما يدين الفنى بدان

الى الاعتراف بأنهم جميعاً قد أساءوا .

ثم استأنفوا الكلام فقال «وليم» قول القدري الرزين: لقد كان ما كان فلم يبق في قدرتنا اصلاحه . فأجابته « بللا » - وهي لكونها أكبر منه سنناً أعرف بطرق المعاملات منها - «بلى ان لنا سبيلاً للخروج من تبعه هذا الخطأ لانه يصح لنا في كل حال ان ندفع ثمن ما ألتفنا » فكان لما قالته لرفيقها لمعة ابتهاج أشرق بها ضميرها لانهما عوّلا على اصلاح التلف وبذلك يؤبون الى بيتهم هادئي البال .

على انهم لم يلبثوا ان وقعوا في حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم و « بللا » من النقود فلس واحد . واما « اميل » فانه كان غنياً بوجود بني^(١) (عشر سنتيمات) في جيب صدرته ولم يتردد في اخراجه ليدفعه ثمناً لما أكلوه، ولما لم يروا في الحقل أحدا يقوم مقام مالكة في قبض الثمن أدتهم سذاجتهم الى ان وضعوا قطعة القمد على ورقة عريضة من أوراق الرواند وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها الى نهايتها من الجناة أنفسهم لاني لما كنت لا أعاجلهم بالعقاب على ما يقترفونه كانوا يحسبونني كاحد معلمي الاعتراف فيقرون لي بما يقترفونه من الذنوب طيبة به أنفسهم، ولما خفت ان يكون ما تركه الاطفال من الثمن غير كاف في تعويض ما ألتفوه تراضيت مع المالك على قيمته ودفعته له على أنهم لم تكن كثيرة، وبذلك حسمت هذه المسألة بنفقات قليلة وكنت أبذل كل ما يطلب مني في مقابلة

(١) البني عملة انكليزية هي جزء من اثني عشر جزءاً من الشلن الذي هو جزء من عشرين جزءاً من الجنيه الانكليزي وقيمتها بالعملة المصرية اربعة مليمات

ما أشرق في بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل في الوقت المناسب له ، ولو كان « اميل » هو الذي صدرت منه فكرة رد قيمة ما سلب لكان سروري بذلك أعظم ، - كما لا أخفي عنك - وفرحي به اكبر ، على ان له فضلا يبذل ما كان معه على قلته .

كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ما ينبت على وجه الارض ليس مباحاً للجميع الناس ؟ .

أرى ان من أحسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم في سن « اميل » المدرسة الخلوية فانه يتعلم فيها من نظره الى ما ينبت فيه أهل القرى من الاشغال الشاقة أكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة ، لانه يرى في كل يوم أن القمح لا ينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه ، وأن أجود أرض لا تصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات أيضاً تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . اذ كرم من ذلك مثلاً فأقول : يوجد في ضواحي بنزاس على شاطئ جدول يجري بعض أميال ثم ينصب في البحر لقيف من الاشجار يحوم على واحدة منها منها في غالب الاوقات طائر يقل وجوده في هذه الناحية وهو المسمى عند الانكليز بملك جوارح الطير ، وعند الفرنسيين باخطاف الصياد (لعله الذي يسمى بالعربية الزبح)

لقد هذا الطائر الجميل أنظار أولادنا في أول الامر بهاء لونه ، ولكني نبهتهم الى أن شهرته بالمهارة في كسب قوته ، ليست بأقل من شهرته بجمال سرباله ، ذلك لان هذا المسكين يكبد في كسبه وينصب فانه يجثم ساعات كاملة في مكانه أي وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين ولا يمترض

بصره حيث يراقب كما تعلم بعينه اليقظاوين اللتين لا يفوتهما فائت مرور السمك في الماء ، فاذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقاره القوي الى محله ، وبعد أن يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعله أن المظوظ نادرة ، وأن شهوة الطعام حاكمة عليه . في ذات يوم شهد الاطفال قتالا عجيبا وقع بينه وبين جارح آخر أراد أن يختبس ثمرة صيده فلم يلبث « اميل » ان فهم ان هذا الطائر الثاني هو السارق لانه أراد أن يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه .

من العواطف التي أريد أيضا أن أغرسها في نفس ولدنا احترام ما يصيب الناس من العاهات . وقد رأيت ان القاء المواقظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثا ، ولا حظت أيضا ان كثيرا من الآباء والامهات يخطئون بتثيهم عيوب الخلقة وضروب التشوه الفطري لأولادهم في صورة عقوبات الهية ، ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذي أنا فيه شبت على هذه الاوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقادا راسخا في عجز من جيراننا شوهاء قوساء ان الشيطان يسكن حذبتها . فالذي أريد اقناع « اميل » به هو عكس ذلك بالمرّة . أريد أن أفهمه من غير افراط في ثنبيه عاطفة الشفقة فيه ان من سلبهم الله من عباد محاسن الخلقة عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم . علمت بأنه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام امك يعيش من ثمرة كد والديه اللذين هما من صلحاء الفلاحين ، فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذي تصورته ، وطلبت من تلاميذي الثلاثة أن يقبلوه رفيقا لهم فرضوا بذلك لانه متى كان المقصود للاطفال التسلية والانشراح لا يعتبر

عدهم كثيرا بالغاً ما بلغ . وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو أن الانسان لا يكره مطلقاً ان يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعله فيه ككونه محروماً من بصر يضيء له سبيله وان كان ذلك الرفيق في الحقيقة أشد منه قوة وأكبر سنّاً ، فاننا كثيراً ما نشوب حنوناً بشيء من الكبر والصفاء ، والاطفال مثلنا في ذلك وان لم يكونوا عالمين به على انه لا حاجة بي الى استقصاء أسباب أعمالهم .

يتسلى عرمة الاطفال هنا في فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الخاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم^(١) ولكون هذا الطائر تقورا في حالته الفطرية تراه لا يسكن غالباً الا الاماكن المهجورة ولعلمه بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوهم ادراكه الى ان يتخذ وكنه^(٢) في وسط ما لا يكاد ينال من الصخور، ولكن الصغار الباحثين المتقين لا يفلت شيء من أيديهم، فبعضهم مدفوع في بحثه بما فيه من حب الاستطلاع، وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه في الربح لأن هذا الغراب غالي القيمة. ثم ان أكثر وجوده في ضواحي بنزاس بالشعاف الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يقتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها في غابر الأزمان من الرجفات والزلازل . ويوجد بالقرب من هذا المكان المنزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناها جحر الفأر وانما سميت بذلك لتعلقها على الساحل كلها جحر فأر في جدار .

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار الذي في جناحه ريشة بيضاء

(٢) الوكن بالفتح عش الطائر في جبل أو جدار أو مقره في غير عش

أنا لا أستحسن بحال صيد هذا الطائر لأسباب مختلفة ، ولكني ربما توهمت أن في التعجيل بانظهار مذهبي في ذلك لتلاميذي خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أسمى في أطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ، ومن أجل ذلك لم أمنعهم من الذهاب للصيد . فانطلقوا في بكرة ذات يوم يصحبهم الاكمه ويتبعهم قويدون من بعد على غير مرأى منهم خوفاً عليهم أن يحل بهم خطر في تسلقهم الصخور . ولئيم وبللا يتناوبان العناية بشأن الاكمه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية الا سبباً لازدياد شعورهم بعلمو درجتهم على الاكمه لأنه كثيراً ما كانت تزل قدمه في أقل العقبات . وقد أنستهم كثرة اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث إنهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدهمهم الليل وهم لا يزالون على مسافة بعيدة من البيت ، وكان أصعب ما عليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه ، فلما رأهم قويدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته في أن يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك الا اخلاصه في اتباع ما أرشدته اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم .

أتدري انه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فأمسى الاكمه بصيراً لانه بما حفظ ذاكرته ودقة لمسه (التي هي من خواص العمى) من مواقع الطريق ميز الشعاب التي مر بها في الصباح كل التمييز فبات قائداً بعد أن كان مقوداً . فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد في الطريق بأطراف أصابعه كأن له فيها أعينا كادوا يعتبرونه في

ذلك الوقت أرقى منهم . فهم في ذلك كالتوحشين يسهل انتقامهم من شعور متجاوز حده الى شعور آخر ليس أقل منه خروجاً عن الحد . وقد يدلنا هذا على ان عبادة بعض الشعوب القديمة لذوي العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على أن ميل (اميل) ورفيقه الى الاتيان بمثل ما أتى به ذلك الاكمه قد بعث فيهم روح الاستطلاع . فالموهبة التي أوتيتها الأعمى قد يصح لغيره من البصراء أن يكتسبها بالتمرن لا نك ترى الاطفال يدلم حدسهم الفطري على بعض طرق من شأنها أنها تنمي فيهم قوة السمع ودقة اللمس أكثر من غيرها ، فمن ذا الذي اخترع اللعبة المسماة بالمسة ^(١) لا إخال ان مخترعها هو حاوي ^(٢) أو غيره من أعضاء المجتمع العلمي (اكديميه) فان هذه اللعبة التي يسميها الانكليز هنا جلدة الأعمى ليست الا تعامياً تتعرف به الطرق التي للأعمى في معرفة ماحوله . أنشأ (اميل) ورفيقاه يمارسون فيما بينهم كثيراً من الألعاب وطرق التدريب التي تقتضي الالتفات وأعينهم مغطاة ومع كون الفضل كله للابصار بالعينين كانت أثرهم التي هيجهما فيهم ما رأوه من فعل الاكمه توحى اليهم أن النظر الدقيق هو النظر باللمس ، وأنا في شك من انهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للأعمى من

(١) المسة لعبة للاعراب يقال لها الضبطة فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على يده أو رأسه أو كتفه فهي المسة واذا وقعت على رجله فهي الاسن - كذا في معاجم اللغة ويظهر أن هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الأمم ولها كيفيات وأسما كثيرة
(٢) حاوي واسمه والتين هو عالم فرنسي ولد في سنة ١٧٤٥ م ومات في سنة ١٨٢٢ م استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم أحمداث العميان القراءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة في باريس

النظر الطبيعي ولو قضاوا في مزاولة ذلك طول حياتهم، غير انه من فائدتهم ان يتعلموا في اللعب ما بين المشاعر من التعاون وقيام احداها محل الاخرى، ولست أنسى ما كنت تقوله لي كثيرا من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تماوره الخرس والعمى .

يجب عليّ الآن ان أعود الى ما كنت بصده من حكاية اصطيد الغراب الاعصم فأقول : لم يعثر الاطفال علي وكن ما في الصخور وذلك لان (اميل) ووليم لا يزالان من الضعف بحيث إنهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التي يلجأ اليها ذلك الطائر، واما بللا فلكونها بنت رجل يدين بمذهب المرتجفين^(١) ترى ان استلاب أفراخ الطير من امها من فعل الشر . هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث أصحابه ميلا عظيما للاحسان الى الحيوانات. ويكون قوبيدون أقل تحرجا منها في هذا الامر وأحرص دائما على فعل ما يرضى (اميل) كان أمهر منهم وأوسع حظا في بحثه لانه بتلك الخلفة في التساق التي تمثل انسان الآجام في شخصه كان قد اصطاد من بين القن الصوانية والادغل زوجا من هذا الطائر صغيرا بنت ريشه لكن أجنته لما تطل لتستطيع الطيران، فلما رأى الاطفال الزنجي دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال أنه بهذا القرب منهم يتدخل في كل مكان وهو كالليل في السكون فابتهجوا برؤيته وزادتهم

(١) المرتجفون لقب لجماعة الاخوان في انكلترا وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود في سنة ١٦٢٤ م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت في دربي (من أعمال انكلترا) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخطب من حضروا معه بقوله : ارتجفوا اذا سمعتم كلام الله . هكذا جاء في جريدة جورج فوكس نفسه .

فرحارؤية الفرخين اللذين كانا شببيين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران أحمران حتى إن « بللا » نفسها أبدت من البشر والارتياح في هذه الساعة ما دل على أنها نسيت مذهبها القديم .

ولعلمي ما يعامل به الاطفال الطيور عادة اذا وقعت في أيديهم بقيت وحدي غير مشاركة لهم في هذا الابتهاج العام الذي ولده اصطياذ هذين الفرخين ، ولكن ماذا كان في وسعي أن أفعله أو أقوله ؟ فلو أنني قلت لهم خلوا سبيل أسيريكم لاطلقوهما ولكن مع الكراهة والاسف . من أجل هذا رأيت أن الامثل بي الرجوع الى طريقة أخرى وهي أنني وضعت الفرخين في حجرة سفلى من حجرات البيت كننا نضم فيها أدوات البستان فاتخذتها بيتاً للطيور ثم أخذت أئين « لاميل » أنه يجب عليه أن يتولى بنفسه تغذيتها لانهما أصبحا محرومين من أمهما التي كانت تعولهما وبالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبيعي ، فكان من ذلك ان حبس نفسه طرفاً من النهار في بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة أن عرف أنه قد أصبح أسيراً لا سيره وصارت كراهته لهذا العمل أمراً محتماً . والذي استفاده فيه من العبرة هو أنه لا يتأتى للانسان حرمان غيره من حريته الا بفقد جزء من حرية نفسه ، ولذلك لم تمض بضعة أيام حتى جاءني راجياً اطلاق الفرخين ليمضيا في سبيلهما .

لما رأيتني نجحت في سوق العبرة « لاميل » في الامه صممت على الاستمرار في تجاربي فعلمت ان في ضواحي قرينتنا راعياً صغيراً مشهوراً بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال في القرية ويهزأون بسذاجته وكنت

أرتعد خشية أن يفعل « اميل » فعلمهم لان القدوة شديدة العدوى ، والضحك مما ينبغي الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التي في الاطفال ، ولكن أعاني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما أعلمته من الفكر وما سنح لي من الفرصة . ذلك اني قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم في الحقول فبينت فيه انه يميز كل شاة من شياهه على حين ان قطيعه كله لم يكن في نظري وفي نظر « اميل » الا شاة واحدة مكررة مئة مرة ، فتلك إذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهدا أكيدا على الانتفاع بها في سياستي « لاميل » فعرضت عليه في اليوم التالي لتلك المقابلة ان يصحبني الى الكشبان إذ علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال « وَيَكَاَنِّي بِهِ المجنون ! » وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبله ، فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ما قال ووجهت نظره الى خصيسته في تمييز شياهه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضئف عقله مع تشابهها علينا كثيرا ، فكان ذلك باعثا لدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الابله تبين لنا منها انه على علم تام باسنان شياهه وطباعها بل بأقل الشيات الظاهرة فيها ، فتسنى بذلك (لاميل) أن يقتنع في نفسه بأن هذا الجاهل المسكين أعلم منا في بعض الامور الخاصة به . ولكي أستفيد من هذا الاقتناع طلبت من الابله قبول ولدي في مدرسته بضعة أيام يعلمه فيها ما أوتيته من العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظرا من ورائه مكافأته ، بل ربما كان أيضا معطلا نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الامور وكان هذا بحسب ما ظهر لي من حاله أول اكرام ناله في حياته .

وأما (اميل) فانه كان علي ما يظهر لي أقل ارتياحا منه بكثير لهذا

(الترية الاستقلالية) تعليم الاولاد الفرق بين التشابهات والاستفادة من الضمائم ١٩٢

الامر لانه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من أن يكون تلميذا لشخص يعتبره هو ورفقاؤه أحق ويرى أن في ذلك غضا من كرامته، ولكني لم أجد وسيلة أخرى للوصول الى مقصدي . على انه لاشيء عليه في ذلك فلشد ما سيفتخر على أقرانه بابداء ما تعلمه لهم وان قل، ويظهر لهم من الشعم به مثل ما كان للاحق عليه . استفدت له من هذا التعليم فائدتين : أولاهما ان ملكة تميز أدق الفروق التي بين أفراد القبيل الواحد لا تقصر على استعمالها في الغنم بل متى حصلت صحح أن تتعدى الى جميع ماتكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات . والفائدة الثانية وأراها أنفس من الاولى هي أن يعلم بأننا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من أضعف الناس عقلا .

يتوهم (اميل) انه لا يكون رجلا الا اذا لعب كما يلعب الجندي ولذلك تراني أبيع له شيئا من هذا اللعب موافاة ليله ومراعاة لسنه، ولكني منذ بضعة أيام رأيت منه في أثناء هذا اللعب مارا عني وأطار لي اذ رأيت فتيان القرية منقسمين الى فئتين متحاربتين وهو في وسطهم يحمل لهم اللواء نعم كانوا يقتتلون بسيوف من الخشب ولكن لو أنها كانت من الصلب وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات أعصاب قوية لتمثل أمامي قطعا مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التي تصبغ أديم الارض بالدماء ويسميها الناس حروباً، فقامت أنا وبالأبما كان يعملهم قدماء السايينيين^(١) أعني اننا نوسطنا بين الفزيقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر

(١) السايينون أمه قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايطالية أقام قدم منها في رومية مع تايوس وبقي القسم الآخر في الجيال حتى أخضعه نوردوس داتايوس

رأى (اميل) مني حتما أنني تأملت لهذه الحادثة لانه لما رأني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدي طالباً مساعته .

واني في الحقيقة ولا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت أعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هناك حروبا مبنية على الحق والعدل، وان من أجمل ما يتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت في سبيل الدفاع عن رأيه ، ولكنه في السن التي هو فيها الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى في الكفاح على أي حال الا ما يراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء والنظراء ، وسواء اتخذ الأطفال لواءهم من الورق أو الخرق البالية تراهم كالجنود منقادين الى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا ايمان ، فتبعهم غرائزهم الوحشية على أن يرفعوا أيديا لا ينقصها من أول نشأتها الا قوة القتل ليضربوا بها اخوانهم . اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لان غريزتها قد سكنت قلب الانسان من أمد بعيد ، وكيف لا تسكنه ونحن نرى القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى في اعلاء شأن عطش الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري ؟ فأبي اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذي تعبد به الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ ^(١) ؟ وانا أستعيز بالله من ان يكون قلب ولدي مغرساً لهذه الشهوة التي كلها كذب وقسوة . لما انتهى أمر هذه الواقعة أخذت (اميل) بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت في طريقي تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كل منهما الآخر

على عظمة قد قرض نصفها، فقلت له: تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال، ولست على يقين من أنه أدرك هذه المرة معنى ذلك الكلام، ولكن أقل مافي هذا الامر انه فهم سبب تأثيري لانه وربك كان بالغامني مبلغاعظيما. أنا مع يقيني بما في تقبيح هذه الاوهام السيئة في نظر « اميل » وتشهيرها من الفائدة له لاأرضى أن يكون جبانا ولو أعطيت في ذلك مافي الارض جميعاً. ترى الوالدين في الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم في اساءة التصرف بما فيهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون في ارهابهم بكل مافي وسعهم من طرق الارهاب ، فيخوفونهم من السماء بحجة ان سحبها تقل صواعق الانتقام، ومن الارض بقولهم « ان الله سبحانه قد اعنها وغضب عليها بسبب خطيئة آدم » ومن الحياة لان أعمالهم فيها ستعرض على حاكم يحصيها جميعها، ومن الموت بجمعه محفوفاً بمخاوف لا تنقضي الى الابد. هذه التربية التي أساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء تمام الملائمة، ولكنني في شك مريب من أنها تنشئ رجالاً أحراراً، فاذا كان لابد « لاميل » أن يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه وسريره، ولكنني خلافاً لولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التي كثيراً ما تلازم أذهان الاطفال، وأود لو أراد شجاعاً جريئاً على الاشياء وديعاً مخفوض الجناح للناس. فالواجب أن تكسي الشجاعة حلة الشرف الحقيقي لأن تتحلى منه بالبهرج الكاذب. رأيت « اميل » كغيره من الغلمان الذين في سنه يخاف من الليل ومن كل ماليس معروفاً له، فيوجد في أقصى البستان روضة من شجر البندق

١٩٤ خوف الاولاد من المجهول . أسطورة الاصبيغ (التربية الاستقلالية)

المتوسط في الكبر لا يجراً على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى أن يؤكل جثاة ، وعلى أي حال ليس في الامر ما يدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشغلوا بأحدوثة الاصبيغ^(١) كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم أثر من الانسان الوحشي الذي كان يعيش محوطاً بجميع مافي الكون من الاغوال ، وربما كان الذي يمنع « اميل » من الدخول في تلك الروضة مساءً هو اشفاقه من أن

(١) اسطورة الاصبيغ احدى اساطير شارل بروات الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفى سنة ١٧٠٣ م التي وضعها للصغار وسماها اساطير الجن وملخصها : أن حطاباً ضاقت به الحال لان زوجه كانت ثورا اقل حملاً التوأم فاجتمع له سبعة ولد لا كبرهم عشر سنين ولا صغرهم سبع وولد هذا ضيلاً كالاصبيغ فسمي « الاصبيغ » وكان غصة لوالديه مهضوما عندهما على كونه أذكى أخوته وادهاهم . اصابهم سنة شهباء اضطرت الوالدين الى التواطؤ ليلاً على اضلال الاولاد في غابة لكيلا يشاهدوا موتهم جوعاً فسمعهم الاصبيغ فبات مسهداً وبكر الى الشاطئ فملاً جيوبه حصى ايض وكان يلقي كل بضغ خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الاولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصبيغ الطريق وسلموا ، ثم تواطأ الوالدان أخرى ولكن لم يتمكن الاصبيغ من الخروج لآخذ الحصى فادخر الكسرة التي أصابته من الخبز ففتتها وألقاها في طريقهم الى الغابة ولكنه لم يمتد اليها بعد الاضلال لان الطير أكلها فاصعد الى شجرة فانس بصيص نار في الظلام فأمه بأخوته فاذا هو بيت الفول فقبلت زوجه ضياقتهم في غرفة بناتها فجاء الفول وشتم ربحهم وحاول اغتيالهم فاستعملته الى الصباح وسمع الاصبيغ فاستبدل نجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتباه الامر على الفول فذبح بناته ليلاً وتسأل الاخوة لواذا ثم تبعهم الفول بنعله ذات الفراسخ السبعة فأووا الى كهف أدركه الفول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرقت الاصبيغ النعل وعاد بها الى زوجه قائلاً إن اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنمل ليحضر له جميع ما قاله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى اخوته فحمّله الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة هي أن الناس يكرمون الجليل من ولدهم ويمتنعون الدميم مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله .

يقابله فيها ذئب القبيصة الحمراء^(١) وبالجملة فهو نفسه لا يعرف أن يعبر عما يرهبه والحقيقة انه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه انه يجول في الظلام. لما رأيت أن آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والافتعالات، وأن النظار بمقاومتها لا يزيدها الاثباتاً اقتصرت على أن حسنت «لاميل» دخول الروضة المذكورة مستصحبا الدبة لانها لا ترهب شيئا ولا استعدادها في كل وقت لاقتفاء أثره، فلما رأى بهذه الوساطة أن له رفيقا لم يمتنع من الدخول ولم يلبث أن عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة انما هو وحشة المكان وخلوه من الانيس . ولم تقتني الاستفادة من هذه العبرة أنا أيضاً لاني قد فهمت بها جميع ما قد زاد في نفس الانسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المسناسة في اعصره الاولى.

(١) يشير الى اسطورة أخرى من أساطير ذلك الكتاب ملخصها أن جارية بارعة الجمال البستها أمها قبيصة حمراء زادت بها جمالا فمرفت بها وأرسلتها يوما لجدها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب في الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدها فاكلها ونام في فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلدا صوت جدها ففعلت وراعتها أعضاء جدها التقايدية فقالت : أي جدتي ما أطول يديك : قال ذلك لاحسن معانقتك . فقالت : وما أطول ساقيك ! قال : ذلك لاحسن العدو . فقالت : ما أعظم عينيك ! قال : لا جيد النظر . فقالت : ما أطول أنيابك . قال : انما خلقت كذلك لا أكلك . وافترسها .

قصد الكتاب أن الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطئون في الاصغاء الى كل من يكلمهم ولا غرو ان يأكل الذئب كثيرا منهم ، وما كل ذئب القبيصة الحمراء فان من الناس ذئابا يصبصون ويتملقون لفتيات ويغازلونهن متبعين خطواتهن في الازقة والشوارع والكنهم على ما يظهرون لهن من اللطف والحب أضمر عليهن من جميع الذئب لانهم يفترون شرفهن الذي هو اكرم من أجسادهن .

أنا الى اليوم ملتزمة مع « اميل » عدم الخوض في المسائل الدينية موافاة لرغبتك ، ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي أن أقصها عليك : ذلك أننا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع هيدبا^(١) من السحاب رصاصي اللون كان أول ما رأيناه قزعا^(٢) ثم تراكم حتى صار مكفهرًا ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة أناخت على الماء بكل مكانها، وكنا نرى شعاعاً أ كدر من أشعة الشمس لا يزال يخرق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليل حتى غاب في شبه دجنة مخيفة منسدة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه أقل نفحة ، وقبلما كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بامواجه وهي تعلو وتنخفض متشاقلة كأنها صدور المسكر وبين اللاهثين، ونظرنا الى الشاطئ فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك ، فكان الكون في سكونه هذا كالشدوه الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن الا أقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعا متمعجا وقصف الرعد لأول مرة قصفا اهتز له جميع البيت فارتعدت فرائص « اميل » واسرع الي محتميا بي مستندا الى صدري كأن في قدرتي أن أمنعه من هياج الفواعل الكونية، ثم تعاقبت البروق والصواعق وأنشأ ماء الخليج يغلي وهو ا كدر مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم أخذت الريح بعد ارتفاعها جفاة تبدد سيول المطر مزجرة ، وكنا نسمع هزيم الرعد في السحاب من بعيد و نرى وميضاً فجائياً متتابعاً، ثم تبع ذلك كله الهدوء والسكون

(١) الهيدب السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض مثل هذب القطيفة (٢) القزع قطع السحاب الصغيرة المتفرقة

ولما كان «اميل» اكتر من في الارض مسألة سألني وهو متأثراً قائلاً:
« اماه! ما هذا الذي أثار غضبه فوقنا؟ » فخرت هذه المرة حيرة شديدة في
اجابته ، لاني لو قلت له: ان ذلك هو الله لكنت قد أقيت في ذهنه معنى
سخيلاً لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرر عن الاتفعالات ،
فاقتصرت على ان فسرت له بأحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب هذه
الظواهر التي أزعجته . على ان الغلام قد أدرك بحدسه من هذه الاصوات
الشديدة التي سمعها من العاصفة ومن هذا الجوامع المتلىء بالنفزعات الإلهية،
بل ربما أدرك أيضاً من عيني اللتين كانتا على رغبتي أكتر من لساني كلاماً
- نعم أدرك من كل ذلك - ان من وراء هذه الآثار شيئاً آخر وذلك ان الله
(سبحانه) ليس ظاهراً للعيان، فيشار اليه بالبنان، ولكنه موجود يحس به
الوجدان، ويعرفه الفكر والجنان، من أجل ذلك قمت أنا «واميل» وأدينا
فرض العبادة لذلك المريد الذي لاحد لارادته القادر الذي بيده مقاليد
السموات والارض وان كان عقلمنا لا يصل الى ادراك كنهه ذاته .

كل يوم تبدو لي صعوبة العمل الذي شرعت فيه ، فان طريقة التربية
بالعمل التي أسير عليها تقتضي أن يكون في المربي معارف أنا خلو من
كثير منها ولكن هذا لم يمنعني من اعتقاد أنها هي الطريقة الوحيدة في
تقويم خلق « اميل » ثم اعلم ان حياتي بدونك انما هي فراغ أجهش في
ملئه بالقيام بذلك الفرض العظيم، ولم يبق لي من غرق سفينة آمالي الا ولدنا
الذي أنشبت به تشبث الفريق بلوح النجاة وأحبه لذاته ولك . على أن
بعض هواجس مشؤومة تمر بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما في
قلبي من نفيس عواطف الحب، ذلك اني أقول في نفسي: ماذا يكون الحال

إذا كان هذا الطفل بعد ما بذلناه له من صنوف العناية ينحون في مستقبل أيامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكثر بما عراه من الآلام طول حياته ؟ إذا لا قتلنه ... كلا ! بل أقتل نفسي ولكن تحقق هذه المواجه من المستحيل ، وأرجو أن يصاني كلمة منك تزيل عني هذه المخاوف المكدرية التي بلغ تشويشها لي إلى أعماق نفسي . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

✽ من ارسم الى هيلانة في ٣٠ يولييه سنة ١٨٥ — ✽

وجوب اعتراف المرء للطفل بمجهل ما يجربه وانتقاد المربين دعواهم العلم بكل شيء وانتقاد التعليم الديني والسياسي واستحسان طريقة زوجته في التربية وبيان بعض شروط التربية التي منها ان ينسى المرء ما تعلمه ليعود الى تعلمه مع الطفل

أنا أيتها العزيزة هيلانة أعرف فرط حبك لي وجميل انعطافك نحوي وأقدرهما حق قدرهما ، ولكنني لست معك فيما يخامر قلبك من المخاوف في شأن مستقبل « اميل » فاني وان كنت والده لأري لي حقاً بحال من الأحوال في ايجاب أن يكون تلميذاً لي ، فمن ذا الذي يصح له ان يتبجح بأنه قد وصل الى الحق المطلق وان حسنت منه النية في البحث عنه واعتقد أنه يذوق المكروه من أجله . نعم انه ليؤمني المأس شديداً أن أراه في مستقبل حياته مخالفاً لي في آرائي غير آخذ بمعتقداتي ، ولكنني أكون أنا المخطئ المألوم في ذلك دونه لانه قد يكون سببه عدم حذقي في ايصال أفكار

(التربية الاستقلالية) فائدة اعتراف المربي المربي بجهله ببعض المسائل ١٩٩

الى نفسه أو حكمه على هذه الافكار بما عسى أن يكون هو الحق فيها، أعني أنها أغلاط عقل صادق في بحثه عن الصواب مخلص في تلمسه طريق الرشده. على أنه لا فائدة في الاشتغال بالمستقبل فان الذي يعنيننا هو الوقت الحاضر .

نقولين : إن « اميل » محب للاستطلاع كثير المسألة فأبشرك بأن هذه أمانة حسنة على نجاته ، ولكنني أنصح لك اذا سألك عن شيء تجهلين حقيقته أن تعترفي له بجهلك اعترافاً خالصاً من المواربة وإن كان ذلك مخالفاً لما عليه معظم الوالدين ومعلمي المدارس الذين لديهم كما ورد في الأمثال « لكل فتى رتق ولكل مسألة جواب » فكانهم يتوهمون أنه يكون لهم بهذا نوع من السلطان على عقول تلاميذهم وأنت بحمد الله في غنى عن التذرع بهذه الذريعة الخطرة لاثبات ولايتك على « اميل » أقول: إنها خطيرة، ولا أحول عن وصفها بذلك، فان في تعويد الطفل اعتقاد أن لكل شيء معنى محققاً يمكن ان يتناوله من غيره بسهولة مبادرة إلى اخماد قوة الذهن ودعوة لها الى التبلد، لأنه متى سبق اليه الوم بأنه يوجد في الناس علم كافل بازالة جميع الشكوك التي تعترض الذهن في فهم معاني الاشياء لا يجد موجباً لتكاف البحث والملاحظة ، واما اذا اعترفت له بأنك لم تفهمي النظر فيما يسألك عنه إمعاناً يكفي لابتداء رأيك فيه فانك تكونين قد عجلت بتعليمه أن اصابة الحق هي ثمرة عمل الجاد ونتيجة بحثه ، وأي جواب يساوي هذه الموعظة ؟

ثم ليحذر الوالدون والمعلمون أن يكون في ادعائهم لا أنفسهم نوعاً من العصمة في العلم استدباراً للغاية التي يسعون اليها . ذلك أن الناشئ اذا

كشف له المستقبل بفتة مايقم فيه اولئك المصرفون لعقله من الاغلاط
تزعزع اعتقاده فيهم مرة واحدة وزالت من نفسه الثقة التي أرادوا أن
يجعلوها محلا لها، وليس ماأخشى مغبنه على « اميل » من أنواع الريب هو
الحذر النافع الذي يكون فيمن تعلموا من صغرهم البحث في الامور وعدم
التسليم بها قبل اتضاح وجه الحق فيها، وانما الذي أخافه عليه هو مرض
زوال الاعتقاد .

مما ينبغي التصريح به أن الصبغة الاعتقادية التي نراها في طريقة
التعليم عندنا ناشئة من جميع مقومات أوضاعنا الاجتماعية، فانه متى اعتبر
أن القائمين على الدين وعلى السياسة قد فكروا في مصلحة الامة لزم
بطريق البدهاة أن تنزل من سماء علام طائفة من العلوم مقررة فيفرض
على عقول الاحداث قبولها بلا نظر ولا مناقشة، فأتت تجدين في التعليم
الديني أسراراً يتعاضى على عقل الانسان اكتناهاها، وأعمالا وعادات ليس
في مقدور أحد من الناس تغيير شيء منها، وأحكاماً لا تقبل العرض على
محك النظر بل تقيد قوة الادراك الى الابد، فلا تجد سبيلا الى الجولان
فيها^(١) . واما التعليم السياسي فبهيات أن يكون ما ياقية فيه الاستاذ على

(١) انما دعا اراسم لتوجيه هذا الانتقاد الى التعليم الديني كونه من غلاة أهل
النظر وله ولا مثاله بعض المذر في هذا الانتقاد لما دخل على الاديان من الفساد الذي
دعا الى اختلاط الحق بالباطل، والدين الحق لا يخالف النظر العقلي لان الاسلام يعلمنا
أن أساس الدين العقل وما أخبر به الكتاب الالهي من أمور الغيب ليس فيه شيء
ممنوع في نظر العقل. ومن لم يصدق الا بما يراه لا يمكنه أن يثق بقول مؤرخ
ولا طبيب ولا كيمائي ولا طبيعي اذا قالوا أو اكتشفوا شيئاً حتى يراه بعينه ويكتشفه
بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل انسان أجهل الجاهلين .

تلاميذه أقل مما ذكر إلزاماً لأن الاستاذ لما كان أجيراً للحكومة كان بالضرورة صدى يردد أصوات أحكامها، فبغى بخ هذا النظام الذي لو لم يكن مؤدياً إلى استعباد النفس لما رأيت لي وجهاً في انتقاده، وإنما كان مؤدياً إلى ذلك لأنه بما له من الأثر في اامة عزيمة الناشئ يحصر فائدة التعليم في مجرد تمرين الذاكرة، فوارحمته لذلك المسكين الذي هو كالبعوضة حُمِلت من توارىخ القرون الماضية وعلومها وأقوال الثقات فيها ما أبهظها فعاها عن الطيران .

على انه يندر - والحق يقال - أن يصل أرباب هذا الحصر والنضيق النفسي إلى تمام الفوز الذي كانوا يؤملونه من ورائه، فإن تأثير الزمان الذي يعيش فيه الطفل أو ما يوجد في طبعه أحياناً من المقاومة والمعارضة، أو ما يتلقاه من آراء أهله الذين يتربى بينهم يخلف في كثير من الاحوال ظنون القائمين على التعليم الرسمي ويأتي بعكس ما كان في حسابهم، ولكن لا بد من الاعتراف بأنه لا ينبو من وحدة هذا القالب الذي تصاغ فيه الاجيال الناشئة على الشكل المطلوب الا العدد القليل، وأما السواد الاعظم فإن مدار تعلمه يكون على التسليم والاعتقاد والوقوف عند حد ما تلقاه عن معلمه الذي يعيد عليه ما أخذه عن أساتذته، فالتربية في مثل هذه الاحوال سلاح ذو حدين يتسنى به استعباد العقل كما يتسنى به تحريره، ومرجع الحكم في ذلك إلى المصادفة والاتفاق، واني لن أَرْضَى أن اكل مستقبل « اميل » إلى مداحض مصادفات يتردد بينها الحق والباطل، وتعتورها الحرية والاسترقاق، ولو أوتيت في ذلك أنفسي شيء في العالم كله .

على اني أعوذ بالله أن أجهد مالا تار السلف من المزايا والفوائد إلا أن في الاخذ بهذه الآثار كما في الاخذ بفيرها من الامور حداً وسطا يصعب تمييزه ، فالطفل الذي لا يتلقى شيئاً من المجتمع الذي يعيش فيه يصير إما متوحشاً وإما أحمق ، وأما الرجل الذي يتلقى منه كل شيء بالتسليم مرتكناً على ثقته به مجتنباً مشقة النظر فيما تلقاه منه بدعوى أن من سبقوه قد كفوه مؤنة ذلك وكانوا أصح منه نظراً فإنه لا يكون أبداً الا ضعيف العقل معجلاً بوقف نفسه على جميع ضروب الاستعباد .

ثم اعلمي أن معظم أغلاطنا ومعتقداتنا الباطلة مبني على آراء يتداولها الناس ويرون تسليمها واعتبارها حقائق معصومة من تطرق الباطل اليها أسهل عليهم بكثير من استقصائها واستجلاء الصواب فيها بنور العقل ، فمثل هذه الآراء تسري الى نفوسنا من أول نشأتها وينتهي أمرها الى أن تكون من الامتزاج بها بحيث يلزم لاستئصالها في المستقبل بذل جهد عظيم في أعمال القوة الحاكمة والاستعانة بشيء من الاقدام والبسالة . نعم إنه من الصعب جداً أن لا يعلق بنفس « اميل » شيء من تلك الافكار الفاسدة ولكن الذي يهمننا هو أن يكون ما يتصل به منها أقل ما يمكن وأن يجد في مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها والخلاص منها .

وجملة القول أن طريقتك في تربية « اميل » قد نالت من رضائي واستحسناني اكمل حظ ووقعت من قلبي أجل موقع فان التربية عمل ملاكه بذل النفس وقوامه الحب ، وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الاحتراس والانتباض في معاشرة الاخضاء ومخالطة الاصفياء ، فامثال هؤلاء لا ينبغي أن تعهد اليهم تربية الاحداث لانه يشترط فيمن يتولونها

أن يكون فيهم من انبساط النفس ما يأخذ بقلوب الناشئين اليهم ، وأن يكونوا من المحدثين ^(١) فيها المبعوثين عليها ببعض البواعث الفطرية ، فربي الطفل ومعلمه الحقيقي المستكمل لهذه الشروط انما هو امه .

ثم اني مسنحسب كذلك مارأيت من ادامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك القيام بهذا الفرض الذي قدر لك ، ولكني أعظك بأن تجعل هذه الحقيقة دائماً نصب عينيك ألا وهي : ليس أول شرط في التربية أن يكون المربي عالماً وانما هو أن ينسى جميع ما تعلمه ليعود الى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . اهـ

الرسالة السابعة والعشرون

✽ من اراسم الى هيلانة في ٢٣ اغسطس سنة ١٨٥ — ✽

بيان وجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بافت أذهانهم الى ماحولهم وانتقاد الكتب التعليمية

أذكر أن رجلاً فاضلاً من أصدقائي كان قد وجد في نفسه انبعاثاً الى التربية فوجب عليها الاشتغال بها ، ثم إنه ندب لادارة مدرسة كان غيره أنشأها فآلني نظام التأديب فيها بالغاً من الشدة غايتها ، اذ رأى فيها أفراداً من التلاميذ يخصوصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة في فنائها كل يوم جُثياً أوقياماً في مواقف الجزاء ، ولم يكن يعوزها شيء مما تشرف به من طرق العقاب كالتكليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لانها كانت سائرة على الاصول القديمة القويمة ، فسالبت

صديقي هذا أن أبطل كل ذلك النظام التعذيبي دفعة واحدة لعلمه بأنه لا يرهب الا الجبناء ولا ينشأ عنه أثر للتهذيب في نفوس المتعلمين ، وقال للتلاميذ: أنا اعلم من سيعاقبكم بعد الآن ان أنتم أسأتم . ذلك هو وجدانكم الذي لا ينجو من سوط عذابه من أعني من ضرب العصا .

كان شعار هذا المربي في تعليمه « لا قلنسوة لعالم ولا لجمار »^(١)

وكان التلاميذ قبل وجوده في المدرسة لا يتسنى لهم ان يخطوا خطوة في دهايزها الطويلة وفي عرصاتها وقاعاتها الفسيحة الا وهم مصطفىون مثني مثني تحت رعاية كبير لهم يسمونه ضابط الرجالة تهكمابه ويكرهونه من صميم أفئدتهم ولا يفترون عن مباحكته وابتلائه بضروب الحيل والخبث ، فجمعهم المعلم الجديد ليلقي عليهم نبأً عظيماً فقال لهم : اعلموا أنكم من الغد أحرار لا سيطرة لاحد عليكم وانه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذي تشعرون به . ولا أراني بعد هذا في حاجة الى القول بان كلا منهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الامور به وألزمها له .

وبينما كان في يوم من الايام مجتازا حديقة المدرسة بصر بتلميذ تسلق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس ، وأنشأ يأكل من قطوفه أكلاً لماً ، فنظاها له بالغفلة عن فعله ورجاه ان يلتمس له أمين المدرسة ، فاتاه من فوره يتبعه الغلام النهاب والريبة تدب الى نفسه ، فتعال المدير للامين ، كيف يصح أيها السيد أن لا يعطى هذا الغلام من الطعام

(١) القلنسوة في نظام التعليم الاوروبي شارة العلماء بناها من أتم المدارس وأدى الامتحان فيها

كفائته فانه لم يكد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء الى الكرم وطفق ينجي قطوفه خلسة ، فارجو أن تأخذه الآن بنفسك وترده الى المطعم ليأكل مايكفيه .

كان هذا المربي أقل الناس شبها بمديري المدارس ، وكان من أجل ذلك محبوباً لتلاميذه ، فاني كثيرا مارثيت لحال معلم الاطفال الذي هو شهيد الشهداء لمقتهم اياه مع إحسانه اليهم ، وعلى كل حال لست أدري هل كنت مخطئاً في ذلك أو مصيباً فلا إخال الطفل كفورا بنعمة معلميه ولكنهم هم الذين أرادوا أن يطعموه من باكورة العلم صابا وعلقما ، كيف لا وفي التعلم سعادة المتعلمين ! وفي التمرين والتدريب حياة لكل قوة من قوى الانسان ! ولا شيء الا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو ! وهكذا شأن التلميذ ، وانما القهر هو الذي يحيل فرحه الى ترح ومرحه الى خمود ، فانه يجيء الى المدرسة وللحياة فيه دوي كدوي النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكا بالكتب واثنا بها ثقة الظالم الغاشم ، فياله من تنشيط للاحداث وترغيب لهم في التعليم !

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلو منها .

انك اذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجد فيها سوى مكاتب ملطخة بالمداد ، ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم ، وجدران اربعة عارية من الزينة ، وسقفا مرفوعا على خشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة ، فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقة السراح مفردة في الجو

كأنها تسخر من التلاميذ ، فإن الكون الخارجي كله أصوات وأضواء وأشكال وألوان تدعو الطفل الى التعلم بواسطة مشاعره ، وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره ، فقلما يوجد فيها صورة وشيء من خوارت تقويم البلدان ، وما عساه يوجد من الصور قدميم قبيح ، ومن الخوارت فهو يشبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان ، فأقسم بالله على المتولين أمر التربية أن يدخلوا في هذه المقابر التي أعدوها للاحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعاً من أشعة الحياة .

كل أمة تعني بالتربية حق العناية ينبغي أن لا تخلو مدرسة من مدارسها من منظار معظم (ميكروسكوب) لمضاعفة أجرام الاشياء التي لا ترى بمجرد النظر ، ومن مرقب (تليسكوب) تسهل به رؤية أشكال أقرب الكواكب الى الارض ، ومن كرة جوفاء تمثل في باطنها أقسام الدنيا (جيوراما) ومن مربى للحيوانات والنباتات المائية ، ومرآة للصور المائلة (استيريوسكوب) وبالجملة يجب أن يوجد فيها جميع الادوات اللازمة لتحصيل معنى الكون وآياته الكبرى في أذهان الناشئين .

اعلمي أن اللفظ والخط طريقتان قاصرتان جدا عن ايصال العلوم الى نفس الحدث ، وان اللازم له انما هو رؤية الاشياء ، فلغريه توجيه فكره ولوقبل تعليمه القراءة الى أمور كثيرة لا تخرج بحال عن متناول ادراكه ، ورأيت فيما عليه المربون الآن : هو انهم يفرطون في التعجيل بتعليمه بعضاً من فروع العلم كان حقها التأجيل وفي تأجيل بعض آخر كان أولى بالتعجيل ، وكان يجب عليهم في اختيار العلوم وترتيبها أن يرجعوا الى درس القوانين

التي يجري عليها الانسان في نمو جسمه ونفسه وعقله .

قولهم «لما يحى وقتي» كلمة تصدق على معظم قوى الانسان في ساعة ما من عمره، فالطفل الذي وصل الى أن يدرك من الاشياء أبعادها وعلاماتها الظاهرة يكون عقله في غاية القصور عن الاحاطة بما بينها من الروابط، ويكون أيضا أشد قصورا عن النفوذ فيما تجري عليه من القوانين، ويقصر عقله خصوصا عن تتبع سلسلة الاسباب التي نشأت عنها، فاليافع يتأثر بالقضايا الشعرية وترتاح نفسه اليها، ولا يميل الى القضايا المنطقية والاصول الحكيمة، ومن حاول استمالته اليها فقد عبث، والسبب في هذا ان ضروب الاستعداد المناسبة لهذه العلوم العقلية لما توجد فيه أو أنه لم يوجد منها الاجرائية، فالادراك لفظ عام يدخل في مفهومه عدة قوى متميزة كل التمايز لا تنمو الا بالتدريج، ولكل منها طور كمن ثم تظهر تابعة في ذلك لجملة من الحوادث تنغير بتغير الاشخاص وما يحيط بهم ولكنها على التحقيق محدودة بنواميس الكون والزمان، فأفكارنا ووجداناتنا ولها أعمار كأعمارنا .

الشيء الواحد يقتضي أن يتعلمه الانسان عدة مرات ومن وجوه مختلفة . خذي لك مثلا. الطفل لا يرى في الوردة بادئ بدء الا وردة ثم اذا نمت فيه قوة الادراك قليلا انتزع من شكلها ولونها ورائحتها مثلا عقليا ممتازا يعرف به الوردة كلما وقعت في يده وهو في هذا الطور من الحياة لا يهتم بمرتبتها التي عينها لها علماء النبات في ترتيبهم ولا بتركيبها ومعيشتها، فتلك طائفة من الشؤون والافكار يجب على مربيه الاحتراس التام من الخوض معه فيها اذا كان يعنيه ان لا يضل مدركته، وكذلك الشأن في جميع الموجودات .

إذا أردت أن اعلم « اميل » علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) مثلاً وهو العلم الذي يعتبره العارفون أبا العلوم فاني أنبهه أولاً الى ما يوجد في الاحجار بل في حصا الطرق من أشكال المخلوقات العضوية المنطبعة عليها، فلن حبه للاستطلاع وميله للاستئثار بالمعرفة مع مساعدة الفرص يعودانه في أقرب وقت تميز أهم الالامات التي توجد في دفاثن الأرض من بقايا تلك المخلوقات فجميع ذلك مناسب لسنه أو قريب منها . ثم بعد ذلك ببضع سنين ادعوه الى ان يقيس ما يكون قد جمعه من هذه النموذجات بعضه ببعض وان يرتبها على حسب ما بينها من التشابه ، وفي هذا الوقت دون غيره ألتطف في تسريب معنى أطوار الأرض وعصورها الى ذهنه ، وأقص عليه تاريخها مستعيناً بتلك الحصى والحجارة ، فقد قال شكسبير « ان في الحجارة لموعظة وذكرى » وأنا أقول ان فيها ما هو أسمى من ذلك فهي وحي يعلمنا كيف خلقت الأرض . ثم اذا بلغ « اميل » الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره - أي صار في سن تؤهله لفهم كل ما أقوله له . حق الفهم استغنت بعلم طبقات الأرض على تعليمه حكمة التاريخ فهو أمثل مقدمة لها .

فيما كاشفتك به من أفكارى هذه غناء عن تعريفك اننا لا ينبغي لنا في تعليم « اميل » ان نعول على شيء من المؤلفات الموجودة ، فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التي بين أيدي الاطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التي نقصدها ، فانها مختصرات علمية توهم واضعوها انها تكون ملائمة لادراك الاحداث بسهولة عباراتها ، وليس العيب ههنا في شكل الكتب وانما هو في أصل وضعها ، فإن أول شيء يتسنى للطفل ادراكه

من نظام الكون هو ما كان يدركه منه الانسان في أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها ، فالمعلمون لا يفتأون ينسون ان التعاريف والتقسيم والقوانين لم توجد الا بعد التجارب ، كما ان علوم اللغة متأخرة عنها في الوجود وكذلك علوم الدين ، ويفيب عن أذهانهم أن علوم الانسان لم تتكون البتة بالصورة التي يتعلمها عليها الاحداث الآن ، فان الانسان لم يصل الى ايجاد طائفة من العلم محدودة الا بالانتقال من حادثة جزئية الى أخرى ومن سلسلة من الحوادث مرتبط بعضها ببعض الى غيرها ، وبعد ان وجدت له طائفة منها أنشأ يستنبط لها القوانين التي تضبطها ثم تفرعت دوحة المعارف وتمايزت فروعها وانفصل كل علم من الآخر .

فالجري في تعليم الطفل على غير هذه الطريقة قلب لنظام عقل الانسان فالمعلمون انما يلقون عليه نتائج العلوم وخلاصاتها قبل أن تؤسس قوته الحاكمة بمبادئها وتدعم بمقدماتها فترينهم ينحدرون مرة واحدة من الذروة التي رقي اليها العلم في عصرنا بعمل الاجيال الماضية الى ما هو فيه من حضيض الجهل ، والذي يستحسن أوائك المعلمون تسميته مبادئ العلوم انما هو في حق الطفل من ثمرات العقل المباليغ في تحضيرها ومن نتائج ربط الاشياء بعضها ببعض .

أنا لا أجري على هذه الطريقة في تعليم « اميل » فاني أود قبل أن اعلمه تأريخ الموجودات أن أعرفه بما في الكون ، فاجعل له به انسا بأن أوجه نظره الى حوادث الحرارة والضوء والكهرباء قبل تعليمه قوانين علم الطبيعة ، واعلمه شيئاً من أوصاف أشكال الأجرام السماوية ومواقعها

من تبة الفطك قبل الخوض معه في علم الحياة ، بل قصدي الى ان اشرح له في المستقبل ما أعلمه من نواميس الكون اقل بكثير منه الى ايقاظ وجدان الملاحظة فيه ، فان تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وانما الامر الخطير هو أن يوثق وسيلة التعلم بنفسه وتحركه فيه دواعي الاقبال عليه ، فدروسي « لا ميل » كلها لا يكون فيها الا ماله شأن في تنبيه عقله وتقويته لانه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

رأيت مما قدسته لك أنه قد قضى عليك أن تكوني « لا ميل » كتابا يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صغار الكتب وموجزاتها ومختصراتها ، وعليك أن تلتمسي له أبسط المعاني وأليفها بحالة ادراكه مع التسدرج في ذلك بحسب ارتفاعه في الفهم وان تجعلي تعليمك مطابقا لاحوال سنه .

الرسالة الثامنة والعشرون

من اراسم الى هيلانة في ١٥ اغسطس سنة ١٨٥٠

(فوائد التصوير والمعارض في التربية)

لو أنني عهد اليّ ببناء مدرسة كبرى للناشئين في أمة من الامم العظيمة لبذلت وسعي في أن أثبت في جدرانها من العلم روحاً وعقلاً .
ذلك لان القائمين على التعليم لم يزالوا في سبات من النفلة عما كان لمعاهد التربية من التأثير في خيال المتعلمين خصوصاً في سنينهم الاولى .
ولقد كان القدماء اتقوا منا ادراكا في سر التعليم بالمشاهدة ، جروا في ذلك على نواميس القطرة الانسانية الحقيقية .

ليست المعابد والبيع عند جميع الامم الا مدارس اتخذاها الكهنة والقسيسون في الاديان القديمة والحديثة صحفاً لمجموع عقائدهم ومذاهبهم بما وجدوه لذلك من الوسائل الكبرى في فن العمارة ونحت التماثيل وصناعة التصوير، وبقاء العبادات الى الآن يدلنا على درجة انتقاش الرموز والصور الاعتقادية في اذهان العامة، فان مخترعات الخيال التي يبرزها الرسم للوجود الخارجي في صور نعمة تبقى شائعة بين الناس بعد فناء الفكرة التي أنتجتها بعدة قرون، يشهد لذلك بقاء مظاهر المعتقدات الجمادية مع أن الامم قد كفت من عهد بعيد عن توهم أنها لاتزال على عاداتها في عبادتها .

اذا كنا قد رفعنا هياكل للالهة الباطلة كالرب والروح والظفر بالاعداء وجميع بلايا الانسان ومصائبه فما لنا لانرفع للعلم هيكلًا وأي كلفة في هذا العمل على أمة عظيمة ؟ لا يقال ان أول عائق دونه هو قلة المال وغلاء المواد اللازمة لاقامته لاني أرى اننا في غنى عن الذهب والمرمر والخشب النفيس، وفي مقدورنا ان لا نتعرض في انشائه لشيء من صنوبر لبنان ولا من نفائس المعادن التي تم بها العظم والجلال لهيكل سليمان فان في الجبس بل في الورق المقوى غناء عن ذلك كله في سبيل التريية اذا وجد له أناس صنع اليدين يهيئونه ويستخدمونه في الدلالة على المعاني، وقد أصبح اليوم من الميسور تحصيل أهم مثل الاشياء الخلقية والصناعية بنفقات زهيدة، وذلك بفضل ما اخترع من طرق افراغ المواد في القوالب وان فيما يوجد بمعاهد التمثيل عندنا من تماثيل الزينة وصورها لبرهاننا ناطقًا بأن في قدرة المصور أن

ينقل الرأي الى رومية^(١) وأثينة^(٢) ومنفيس^(٣) ببعض جولات يتحرك بها قلمه وبشيء من المغالطات البصرية لانه متى أتقن تمثيل مايمثله من الاشياء في شكله ولونه كاد ان يحدث في الخيال ما يحدثه أصله من الاثر فلا عبرة بالمادة وبما يتخذ من الوسائل لبث الروح فيها مادامت الصورة تنبه المشاعر وتؤدي الى العقل معني صحيحاً لما يراد تعريفه اياه .

كل دين اذا استكهنناه رأيناه يرجع الى فهم ماذهب اليه أربابه من الآراء في خلق العالم ونظامه^(٤) لكن فهم هذه الآراء هو في الغالب غاية في الصعوبة، وانه لولا الاستعانة بالرموز في ادراكها لنبت عنها عقول العامة نبواً كلياً. وأما الهيكل الذي أقصد رفعه للعلم فهو معرض تجلي فيه الحوادث على الناشئين، بل هو تاريخ حي محسوس للعالم الذي يعيشون فيه مواده كلها موجودة لكنها متفرقة فيما عندنا من المتاحف والمكتبات والمجموعات ونحن عنها غافلون، فليس من الحق ان يكاف اليافع التماسها في أماكنها لان ما في هذه الاماكن من العظام النخرة، والحيوانات المصبرة، وجذاذ الاوثان المكسرة انما يفيد العلماء، وأما الاحداث فاللازم لفادتهم ايجاد مشهد تجتمع لهم فيه المثل الحية الكبرى للانسان وغيره من المخلوقات

(١) رومية هي عاصمة ايطالية الآن وكانت في غابر الازمان عاصمة مملكة الرومانيين ثم عاصمة لولايات السلطة الروحية ومقراً للبابا كما انها مقره الآن (٢) أثينة هي مدينة شهيرة من القدم في بلاد اليونان وهي الآن قاعدة حكومة تلك البلاد (٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر في الازمان الغابرة اطلالها قريبة من القاهرة

(٤) هامش للمنار : « ان ما قاله المؤلف في الاديان غير مسلم على اطلاقه ويظهر انه لم يطلع على الدين الاسلامي الذي هو دين الفطرة والمرشد الى سننها في التربية والتعليم وان كان يستنير باشعة شمس من حيث لا يشمر

على صورة جاذبة لنفوسهم .

هذه معارضنا العامة التي تقام في باريس ولوندره قد تعلم منها الجملة - وهم في كل أمة سوادها الاعظم - من مناشئ الصناعة وتوزع الاجيال على سطح الارض وأحوال الترقى في الامم المختلفة اكثر مما يتعلمونه من جميع الكتب التي وضعت في التدبير السياسي ونقويم البلدان ، فكيف اذا عززت مشاهدة الاشياء وملت بتعليم خاص . تلك المعارض لا تتسنى اقامتها مساهمة وهي فوق ذلك لا تحتوي الا على طائفة من الوقائع والامور المخصوصة واذا كنت قد نوهت بها فإني اقصدت بذلك أن أبين لك ما يعود على الاحداث من الفائدة اذا أقيم لهم معهد آخر للعلوم تمثل لهم فيه صورها .

أصبح علم الكرة الارضية خلوا مما يستميل نفوس المتعلمين مورثاً للسامية والضرر بين ما رسمناه له من الخوارت والفناه فيه من الكتب ، أفلا يكون الحال على خلاف ذلك لو ان هذه الخوارت استعيتبت بنسيج تصور عليه الارض وما فيها تصويراً اذا جال النور في ارجائه ضاعف مغالطة بصر الطفل نخيل له انه على الجانب الآخر للمحيط مثلاً ؟ وليس يلزم لذلك الا مصور صادق في عزمته باذل نفسه من أجل البلوغ الى غايته . قام بفكر أمريكي شجاع اسمه « جون بانفارد » يوماً من الايام أن يصور مجرى نهر المسيسيبي ^(١) فركبه وحده في قارب مكشوف مصراً على انقاذ فكره غير مبال بما كان يعترضه من الصعوبات الكثيرة ويعتريه

(١) المسيسيبي نهر عظيم في أمريكا الشمالية يصب في خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوفل أورليانز وطوله ٥٥٠٠ كيلو مترا

من الآلام الشديدة فيست يداه وخشنتا بسبب استعمال المجذاف واحترق
 جلده بحر الشمس فصار عما قليل كواحد من هنود أمريكا في لونه وقضى
 أسابيع كاملة بل شهوراً لم يصادف فيها انساناً يكلمه ، ولم يكن له رفيق
 سوى قريته فقد كانت هذه الرفقة تتكلم بأعلى صوت كلاماً حقاً لا
 خطأ فيه يفهم بمضه طيور النهر والاجرة . وكان يخرج في كل مساء من
 قاربه الى البر ويوقد ناراً فيشوي عليها ما يصطاده ثم يرقد ملثماً في غطاءه
 مكشفاً فوقه القارب ليكون له جنة دون الحيوانات الوحشية وسقماً يقيه
 ظل الليل ، وكان عند شروق الشمس يهب من نومه ويمضي عامة يومه
 في اختيار النهر من شاطئ الى آخر على التوالي طلباً لمنظر جديد ، فكان
 يستريح طرفه في مكان خليج عميق وفي آخر اسراب من الطير وتلقته
 في ثالث جزيرة صغيرة عليها خضرة نضرة وهو لا يفتر عن تسويد ما
 يلاحظه فلم يغادر شيئاً مما يستحق التصوير الا رسمه خطفاً واختلاسا ، ولما
 فرغ من تقييد اشاراته وملاحظاته اتخذ له في المدينة المسماة « لوسيفيل »
 بولاية « كنتوكي »^(١) بيتاً من الخشب حيث أنشأ يصور ما يقده على النسيج
 وما كان أطوله ؛ ففقه بلغ ذرعه ثلاثة أميال . لاشك ان ذلك المصور كان
 أهلاً لان يأتي بطرفة من الطرف وان كان رسم مناظر المسيحي ليس في
 الحقيقة الاحكاية صادقة لسفره خطها قلم الرسم خطأ بطيئاً ، ونحن على كل
 حال نرجو الله (سبحانه) أن يقيض لنا من يحتذي مثال « جون بانفارد » من
 المصورين وأن يهبهم من الاقدام والاخلاص للعمل ما وهبه فانه لو تحقق

(١) كنتوكي هي إحدى الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية سكانها ٤٥٠،٠٠٠، ١٨٥٠،
 قسما وعاصمتها فرانكفورت

ذلك لا أصبحنا بسطح الكرة التي نساكنها أعلم منا الآن بكثير
وليت شعري ! أي مانع يحول دون انفاذ عمل كهذا يكون تاريخنا
للارض ومن يقطنها من الامم ؟ ربما قيل : ان ذلك هو ما يقتضيه من اتفاق
المال الكثير فأقول : هذا مسلم ولكننا ننفق في تبديل سلاح بآخر أو طريقة
من طرق القتال بغيرها أو في بناء بارجة أو اقامة حكومة جديدة مدة
بقائها ثمانية عشر شهراً على الاكثر ننفق في هذا أضعاف ما تقتضيه منا
طريقة التربية على نواميس الفطرة الانسانية اه .

لا شأن لنا في ذلك وعلينا التسليم والامتنال فان هيكلا كالذي وصفته
تتجلى فيه الوقائع والمعاني انما هو صورة من صور الخيال لا وجود له
في الخارج ولن يوجد بلا شك فيجب علينا اذا بناؤه في المستقبل في ذهن
« اميل » بمواد أخرى اه

الرسالة التاسعة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٣ فبراير سنة ١٨٥٠ ﴾

التربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض

وهمت أيها العزيز في دعوى ان ذلك الهيكل الذي تمنيت اقامته للعلم
لا يوجد ولن يوجد فانه موجود بالفعل في سايدنهايم ^(١) على غاية القرب

(١) سايدنهايم قرية من قري انكثرة واقعة على بعد ثمان كيلو مترات من لوندرة

في فيها القصر البلوري للمعرض العام الذي أقيم في سنة ١٨٥١

من لوندرة واسمه القصر البلوري وفي نيتي أن أزوره أنا « واميل » متى أمكنتني الفرص وصار في سن تؤهله لادراك ما فيه من مواد التعليم ، نعم اني لست على يقين من مطابقة طريقة بنائه لأرائك تمام المطابقة ، ولكن أقل ما فيه على ما سمعته عنه أن القصد من انشاء موافق لقصدك ، وقد يدهشك أن تعلم ان ليس للحكومة يد في بناء هذا القصر العامي (وانما أضفه بذلك لان المقصود الاصيل من اقامته انما هو تربية طبقات العامة) فان كل ما فيه من البساتين الواسعة والبناء البلوري والآثار القديمة والتماثيل وجل الاشياء المفيدة ملك لجماعة من المتساهمين ، وقد عهد برفعه الى مشاهير العلماء والصناع والاثريين فكانوا يباشرون بأنفسهم ا فراغ المواد في القوالب وتحصيل مثل الاشياء . ذلك لان الانكليز اذا قصدوا تحقيق غرض مفيد أو انشاء معهد جديد لمنفعة عامة اعتمدوا على أنفسهم بسبب ما آتتهم ضروب الحرية ووسائل العمل الذاتية من قوة العزيمة وشدة البأس غير راجين من الحكومة مساعدة مالية ولا قولية لعلمهم أن العمر ينقضي دون الوصول الى ما يرجون ، فهم متى أرادوا أقاموا تماثيل لعظمائهم ورفعوا هياكل لفكرة يبيدها الواحد منهم .

أراك تشكو من عدم وجود معاهد للتمثيل عندنا خاصة للأطفال ، فاعلم ان لاطفال الانكليز واحدا منها ، ذلك أنك في صبيحة عيد الميلاد تجد معظم تلك المعاهد كأنها قد انفكت عن الاختصاص بالقصص الجدية والهزلية ولا يقبل فيها من الكبار الا من كان مولعاً بسماع الاساطير

كاسطورة اهاب الحمار ^(١) واسطورة الاصبيغ فكل واحد منها يصح ان يعنون بمعهد الرعوس الشقر لان الاطفال في شهرين أو ثلاثة من السنة يكونون هم المتصرفين في اختيار نوع الألهي العامة والمتمتعين بكل ما في المعاهد من المقاعد المخملة والموسيقى وضروب الغرور والفتنة، ويؤكد لي الناس هنا أن كثيراً من تلك المشاهد يحصل فيه التمثيل مرتين في اليوم

(١) اسطورة إهاب الحمار هي من اساطير شارل بروات الذي سبق التنويه بذكره في الرسالة الخامسة والعشرين وملخصها أن ملكاً كانت له زوجة يحبها جداً ورزقت منه بنت فأنفة في الجمال ثم مرضت وعند احتضارها استحلفت أن لا يتزوج الابن تكون أجمل منها فلم يجد في عقائل مملكته من تحقق فيها الشرط الا بنته فانضى اليها بئله الى تزوجها فأنكرت عليه الامر فصمم فاشتكت الى جنتها فارشدتها الى ان تطلب منه حلة كالزمن في لونه فاستصنعها لها فاوعزت اليها بطلب أخرى كالون القمر، فما كان أقرب من تقديمها لها، ثم بثالثة كالون الشمس فكان ماطلبت، وكان لأبها حمار يحبه كثيراً لأنه كان يجد تحته كل يوم مقداراً وافراً من النقود، فلما أعيت الحيلة تلك الأميرة وظنت أن لا خلاص لها امتلاً قلبها حزناً فأوحت اليها الجنية بأن تطلب إهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعاً، فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فالبسي إهاب الحمار وأخرجي فانه لا يشعر بك أحد وساتبعك بحليك وحملك أينما قصدت فخرجت في ذلك الاهاب وساحت في الارض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمتها زوجة مزارع في رعاية الديكة وكنس معارف الخنازير لرثاءة حالتها وقذارتها، فرآها ابن ملك تلك الجهة من خصاص كوخها وقد تعرت عن إهاب الحمار ولبست حلة من حللها ففتن بها وذهب الى أهله مدنفاً سقيماً وحرار الأطباء في أمره وقالوا إنه لا مرض به الا الفكر، وبعد الحاح من والديه طلب ان تصنع له الخادمة التي تلبس إهاب الحمار قرصاً ففعلت ودست فيه خاتمها لانها قد فهمت حقيقة الامر فلما تناول الخاتم في فمه قال لوالديه إني أريد أن أتزوج بصاحبة هذا الخاتم فتودي في المدينة بأن أبة فتاة بوافقها هذا الخاتم الذي في بيت الملك تكون زوجة لولي عهده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا في نعيم وورغد. واسطورة الاصبيغ تقدم تلخيصها في هامش الرسالة الخامسة والعشرين

احداهما بعد الظهر لمن يتعجل في النوم من الاطفال الذين لا يقوون على السهر والثانية في العشي لليافعين والآباء والامهات وللشيوخ الذين حفظوا للشباب في ناحية من أذهانهم شعاعا من ضيائه ولمعة من بهائه، وينبغي على ذلك ان أول شرط يلزم تحقيقه في النظارة ان يكونوا صبيانا أو مستصيين، والا فكيف يروقه سماع ما يروى هنالك من أقاصيص الجن وما يمثل من الاضاحيك؟ نعم ان مواضيع تلك الألهي البهجة هي في الجملة غاية في الابتذال، وانك لتأسف على ما يضيع في سبيل تربية الادراك بهذه الاماكن من تفقات الزينة والثياب وغيرها من عتاد التمثيل لان ما يحصل فيها من تغيير المناظر قلما يفيد الا إثارة وجدان الاعجاب والدهشة، ولكن ما أشد ما يبديه الاطفال عندها من دلائل الفرح المنبعث عن السذاجة! وما أبلغ ما يظهر من تشوفهم اليها! وأعظم ما يكون من بريق أبصارهم وحملقتها بسبب استقراها والافتتان بها! خصوصا اذا جاء دور ذلك المنظر المعروف المسمى منظر الانقلاب والنحول، فلشد ما تحنق القلوب هنالك خفة ومرحا

ومهما كان في تلك المرئي من الابتذال فلا ينبغي أن يستخف بما يتجلى للاطفال فيها من تلك القصور المسحورة وامطار العسجد والشرر والانوار المشتعلة على جميع ما يرى في الفجر القطبي من الالوان المتباينة والجزر السعيدة (الجزائر الخالدات) والنساء العائشة في السحب وفي الاشجار والازهار، وبالجملة لا تصح الاستهانة بتلك المخترعات الخيالية العامة التي تمثل في اضاحيك المناظر فايما طار بنا الخيال وان على أجنحة من الورق المقوي ولم يرفعنا الا قليلا فانه يفكنا ساعات مما يبهظنا من اغلال العوائد والحاجات. تلك المناظر الفرارة لن تنفك أن تكون محبوبة للعامة والاطفال لانها تفتح

لم جزءاً من أبواب الكمال المطلق البالغ أقصى غاياته .
لما رأيتني لأملك الآن الذهاب « باميل » الى القصر البلوري ولا
الى معهد التمثيل عولت على الاستعانة بالة يطاف بها هنا في المدن والقرى
وهي الفانوس السحري ، وكاني بك تضحك من ذلك ، ولكن أي مانع
يمنع من أن تكون تلك الآلة المستعملة لتحصيل اللذة والاعجاب من
وسائل التعليم أيضاً ؟ فليس ذنباً للفانوس السحري انه قلما استعمل الا لتمثيل
الصور المضحكة الغريبة في دارة مضيئة بل هو لا يكون الامفيدا اذا قصد
به الجدد ، ولو ان العلماء تفضلوا على المصورين بارشادهم الى ما يختارون من
مواضيع العمل والى طريقة التصوير على الزجاج لادى الفريقان للاطفال
- فيما أرى - فوائد حقيقية ، وقد سمعت ان المتولين أمر التريية في انكلترة
سبقوا الى اتخاذ هذه الطريقة في بعض المدارس لتأدية شيء من معاني
علم الفلك ونقويم البلدان والتاريخ الى عقول الناشئين .

أنت تعلم ان علماء الفلك قد رسموا صور الاجرام السماوية الكبرى
وخططوا آثار ذوات الذنب والشهب والخسوف والكسوف أو انتزعوا
صورها بالة التصوير الشمسي (الفوتوغراف) فلو أننا أردنا ان نجعل الفانوس
السحري الذي هو الآن مشهد الاوهام والمغالطات مشهداً للحقائق أيضاً
كفانا في ذلك ان ننسخ على زجاجه رسوم السماء وما فيها مصورة على
الحالة الفظرية تصويراً مضبوطاً .

اذا كان المراد تمثيل الارض في هذه الآلة فلست على يقين من
صلاحيتها لتحصيل صور جميع ما فيها من سلاسل الجبال الكبرى ومجاري
الانهار العظمى ومجاهل الصحاري المريئة وأشكال السواحل الوعرة المغمورة

بالمحيط، ولا حيلة لنا في ذلك فعلينا ان نكتفي بمبلغ طاقتنا من تصويرها فيها. على ان الطفل يروقه نظر الاشياء تفصيلاً أكثر من النظر فيها جملة فهو اذا نظر الى صور الاقاليم وهيئاتها فانما يلتبس أراها يريعه ويدهشه كصخرة غريبة الشكل أو نبات أجنبي أو حيوان عجيب أو انسان مغاير لنا بلون جسمه. وأما التاريخ فلا شك في صلاحية الفانوس السحري لتعليمه فانه يتأتى به إحضار خيالات من يتحدث عنهم من الماضين فلا مانع من ان ترسم على صفحته صور الشجعان الغابرين بزيهم وبرزهم وصنوف ما وجد من الصور الغريبة كابي الهول والثيران ذات الاجنحة وذات الرؤوس الانسانية واللهي السوداء والجنيات والآلهة وغيرها من الصور الخرافية لانها اذا كانت خرجت من الليل فلا عجب ان تعود اليه .

أنا لسوء حظي لست عالمة ولا مصورة ولكني أرسم رسماً مناسباً لحالتي، وكنت أرى منك أحياناً استحسان رسومي الكثيرة الألوان، نعم اني لا أحسن طريقة التصوير على الزجاج فانها حرفة تتعلم وكما سأتفخر بأن يكون «اميل» هو صاحب الفضل عليّ في كسبه، وأصعب ما عليّ في ذلك - فيما أرى - إنما هو الحصول على مثل متقنة لأنني اخال أن الواجب على المرابي هو أن يكون دقيقاً فيما يعلمه الطفل وأكره أن لأبرز الاشياء لولدي في صورها الصحيحة، وقد وعدني الدكتور «وارنجتون» وهو موافق لي في كثير من أفكارى أن ينتقي لي من لوندرة صوراً منتزعة بآلة التصوير الشمسي (الفتوغراف) أو رسوماً أخذت من علماء الطبيعة وعلماء الآثار والسياح، وأنا بفضل معونته على أمل من انشاء مشهدي الصغير عما قليل. اهـ

الرسالة الثلاثون

(من هيلانة الى اراسم في ١٢ فبراير سنة - ١٨٥)

تعلم الاطفال الضرب في الارض ومعرفة جهاتها بالعمل وتعلمهم الصناعة
بمعالجة ما يشتري لهم من اللعب

أحب أن أصف لك « اميل » فأما صورته فقد عرفتها في الرسم الذي
أرسلته اليك منزعاً بآلة داجير التصويرية (الفوتوغرافية) وأما سيرته
وأحواله فهي التي أريد أن أحدثك عنها فأقول :

أرى له جراءة على السير والتجوال لا توجد في أترابه ففيه ما أظنك
تسميه بغريزة خرت الارض ^(١) وقد بلغ تمكن هذه الغريزة من
نفسه مبلغاً ما أراني فيه قدرة الى اضلاله ولا هو يحتاج في الاهتداء
اذا أنا أضللتة الى إلقاء الحصى وفتات الخبز في الطرق لتكون كالصوى
والاعلام ^(٢) لانه يهتدي بنفسه ولا يلبث أن يميز بمهب الريح وحركة
السحاب الجهة التي ينبغي أن يؤمها وأرى أن الذي أظهر هذا الاستعداد
فيه هو ما استفاده بالعمل من صحبة (قويدون) فانت تعلم ان في عيني
هذا الزنجي ورأسه بيت ابرة مغناطيسية .

لأنكر أن مثل هذه العلوم من الاوليات، وذلك يؤكد وجوب أن
يتعلمها الاطفال وكلامي في ذلك عن خبرة وتجربة فاني تربيت في مدرسة

(١) خرت الارض (كنصر) عرفها ولم تخف عليه طرقها ولعل لفظ (الخارطة)
أو الخريطة مأخوذ منها (٢) تشير الى أسطورة الاصبغ التي سبق ذكرها

داخلية كان التلميذات فيها غافلات عما وراء المدرسة من شؤون الحياة ومتاعبها . وكنت بعد ذلك اذا خرجت الى المزارع والرياض لا أعرف الشمال من الجنوب ولا أميز بين الشرق والغرب، وأخجل ذلك الخجل الضار أن أسألك عنها خشية ظهورك على جهلي . ولو كان هذا الجهل خاصا بمثلي لكان الخطب سهلا ، وأراني صادقة اذا قلت: ان كثيرا من أهل النهاية في العلم ليسوا بأوسع علما مني ببعض . واضيع مساحة الكرة الارضية العملية . أنا لا أدري بالضرورة ان كان كتب على « اميل » أن يكون سائحاً وجوَّاب آفاق ، ولكني أرى أن الناس محتاجون في جميع أطوار الحياة الى معرفة الجهات والامكنة احتياجا تختلف درجاته ، فبعضهم أحوج الى التوسع فيها من بعض وان صدق النظر اذا تعزز بالتجارب كان للانسان ركناً من أركان الحرية .

يأكل « اميل » على المائدة كالانكليز أعني انه يأخذ السكين بيده اليمنى والشوكة بيده اليسرى يأكل بها ، وقد أنكرت هذه العادة أولاً ثم تبين لي انها أسهل فان استعمال كلتا اليدين معاً يمكن من القطع والتناول فضل تمكين ، فالانكليز عسر (جمع أعسر) في الاكل دون الاعمال الصناعية ولست أدري ما هو عذرنا في ترك تمرين عضو من أعضائنا على العمل ، فهل كانت أعضاؤنا زائدة عما نحتاج اليه في اسنمار الارض ومقاومة ما يعترضنا من العقبات المادية في سبيل الحياة فنستغني عن بعضها ونغفلها ؟

قرأت في ترجمة حياة (جيمس وات) المهندس الانكليزي الشهير انه كان يستعمل في طفولته أدوات والده النجار في اختراع لعب لنفسه أو تحويلها من شكل الى شكل . ويقال ان هذا التمرين ساعده كثيراً في

تدريب يده على الصناعة وقوى ما كان في نفسه من الاستعداد لعلم الآلات (الميكانيكا) حتى صار ملكة راسخة فيه . ولست أطمع أن يكون « اميل » مخترعاً لآلات جديدة ، ولكني أرغب أن يكون ماهراً في تحريك أصابعه ولهذا لا أمنعه من تكسير لعبه ليرى ما في جوفها — كما يقول — اذا تعهد لي بارجاعها الى أصلها .

على انني لاحظت أمراً أحب أن أعرضه عليك ، وهو أن لعب الأطفال تكون مناسبة لطبيعة البلاد التي ينشئون فيها . فأهل السواحل يلعب أطفالهم بما تحذته في نفوسهم صناعة الملاحة . وقد أجاب (قوييدون) الذي هو كالقرد في الخفة والمهارة رغبة « اميل » ورفيقه فصنع لهم بسكين مركبا شراعياً صغيراً أنزلوه في خليج الجبل باحتفال حافل فكان بذلك قدوة لهم في هذه الصناعة البحرية حتى انهم أنشأوا لهم أسطولاً مؤلفاً من طرادات وسفن من ذوات السارية ومن ذوات الساريتين وقوارب وزوارق ، وبعض هذه السفن مسلح بمدفع من الخشب ، فكان لسان حالهم يقول : هانحن أولاء مستعدون ، فليهاجمنا المهاجمون ، وكنت اذا سئلت عن قيمة هذه الاشياء السابحة على وجه الماء أظهر ترجيح ما يصنعه الأطفال من سفن اللعب على ما يتساع من التجار من نوعها وان كان أحسن منها صنغاً .

يجب « اميل » العمل ويميل الى سماع القصص كما هو المعهود من مثله . وأنا موافقة لك في انتقاد توسع الناس في مخاطبة الأطفال خصوصاً مخاطبتهم بما يعلو ادراكهم وأفهامهم وينبؤ عن مشاربهم ، وهذا من آفات التربية التي يجب تجنبها ، وما أعظم الفوائد والمزايا التي يستفيد بها الأطفال من

تعليم أمهاتهم الشفوي ان تجنبنها . وانما حدا بي الى هذا الفكر النظر في ما يؤثر
عن جميع الامم قبل اختراع الكتابة والتصنيف مما كان الاعتماد في حفظه
على الذاكرة فقد قرأت في كتاب لأذكر اسمه الآن ان بعض اليونانيين
كانوا يعارضون قدموس^(١) في وضع الحروف الهجائية لهم محتجين بأن
اعتياد الناس اثبات حوادث التاريخ على الألواح يضعف الذاكرة بالتدريج،
وكان لهم وجه في هذه المعارضة فهي تشبه المعارضات التي توجه الآن الى
كل ضرب من ضروب ارتقاء الانسان .

نرى الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة ينحلون كثيرًا من الافكار
والآراء فأهم شيء يبتدئ به المربي هو النظر في اختيار أمثل ما يودعه في
نفوسهم من المعارف، ثم في اختيار أمثل الطرق لا يصل ذلك الى أذهانهم
الخالية ونقشه في ألواح نفوسهم الصقيلة، وكثيرًا ما خرجت مع « اميل »
عن أساليب لغتي وقواعدها لاجل ذلك، وما كان أشد اغتباطي وسروري
عند ما كنت أراني قد ملكت سمعه بتكلمي بلغته! والنجاح في هذا يتوقف
على اخلاص القلب ونسيان النفس وهذان الامران انما يحصلان بالرياضة
والمزاولة على ما أرى .

من الثابت المقرر ان للاطفال شعرا خاصًا تعرفه الامهات حق المعرفة
ولكننا نحكم فيه شعرا وخيالنا، فكيف السبيل الى حفظ هذه القوة الشعرية
وبقاء غضاظتها بحيث لا يسقط عبثنا بها زهرها، ولا يذويها ويذهب
بنضرتها لاجلال شعرنا محالها !

(١) قدموس هو الرجل الفينيقي الذي أنشأ مدينة طيبة وتقلد الحروف

الهجائية من مصر الى بلاد اليونان

الدنيا مملوءة بالحكايات التي يدعى انها وضعت للاطفال وأمثلةها حكايات (بروات) وأرى ان مافيهما من الصنعة والخذقة يخرج بها عن مهاد العقولية الى مستوى الكهول ومرتبة الشيوخ. وأفضل الحكايات في استمالة (اميل) وتحريك رغبته وميله ليس مما يهد في الشعور العام والحس المشترك أعني مما يجول في أذهان البالغين دون الولدان الذين في السادسة أو السابعة. فالحكايات الخرافية القديمة جدا التي لم يخفف الدرس والصنعة مافيهما من معاني الشعر الفطرية هي التي تقع من نفسه موقع القبول في مثل هذه السن . فن الحكايات المتداولة في البلد الذي نسكنه مافيه ذكر المردة والاعوال والجنيات والتنايل (القصار جداً) وهو ما يذهب بنوم الاطفال في ليالي الشتاء ويجذبهم الى السمار^(١) لسماع تلك القصص محدقين بابصارهم الى السامر . ولي أن أعنقد أن هذه الحكايات مختزلة من أشعار وقصائد قديمة ضاع أصلها وتناقلت الناس ما بقي من معانيها مرضع عن مريض وأم عن ام حتى انتهت الينا في شكل يخالف شكلها الاول قليلا أو كثيراً .

زعم عالم من كرنواي ألاقيه أحياناً في منزل صديقنا الدكتور أن لديه وسيلة هو واثق بانها توصل الى معرفة أصل هذه الخرافات ومناشئ تلك الحكايات، والذي فهمته عنه من هذه الوسيلة هو أنه يستعين على تلك المعرفة من حيث هو عالم أثري باجن تلك الحكايات وخواها من حيث مشابهاها لما اخترعه من الحكايات وعدم مشابهاها لها، فهو يرى انه كلما كان معنى الحكاية بعيداً عن تصورنا واختراعنا كانت أوغل في القدم. فاذا بحثنا في شأن

{١} السمار بتشديد الميم جمع سامر وهو الذي يتحدث في الليل

الجنّيات في هذه الحكايات نرى أنها في العصر القديمة كانت توصف بأنها مجردات منزوية عن الناس ، شرسة صعبة المراس ، وقوى طبيعية رفعت الى مرتبة الآلهة وألبست شعار الدين . ثم مازالت تقرب من الناس وتشكل بشكل الانسان قرناً بعد قرن وتأنس به حتى صارت اناثاً يتزوج بها الرجال . ومما يروونه في هذا أن رجلاً تزوج بجنية وعاشا معاً عمراً طويلاً في كوخ . وقد كان من طول أنسه بها أن نسي كونها جنية إلا أنها فرت ذات ليلة متعلقة ببعض أشعة القمر . كذلك شأن المردة فان هذه الكائنات الوحشية المشوهة كانت تعرف في الزمن القديم بأنها مشار الوسائس المخيفة والهواجس المفزعة وبكرو الزمان ومرور الايام اقتربت من الانسان في أحوال معيشته وضعف سلطانهما في نفسه وتأثيرها في وهمه وخياله وتحول الرعب الذي كان مقروناً بذكرها وتصورها الى الضحك والسخرية وهكذا تنتهي دولة الخرافات وتزول .

لاريب انك واقف على قصة يعقوب موائب المردة وقتاتهم الذي كان يعيش في كورنواي على ما يروى في الاساطير (فأميل) يحب حديثي عن غزوات هذا الشاب الشجاع ابن أحد الزراع . وأشهر وقائعه التي سار بخبرها الركب ان ما يروي أنها وقعت في جبل ميخائيل قديس انكلترة وهو صخرة تكاد تكون بازاء منزلنا وكان المارد الذي يخطف الناس والبهائم قد تبوأها منزلاً واتخذها مشوى له . وقد كان أعظم خدمة قام بها حماة الحق في عصور الهمجية - إن لم أكن واهمة - هي مقاتلتهم السلبية والوحوش الضارية وقتلهم لهم فانهم بذلك قد طهروا الارض من العتاة والبغاة الذين كانوا يعيشون فيها فساداً . وبهذا الاعتبار نرى اليونانيين قد أنصفوا في

رفع مكانة هرقل ^(١) وتزيه ^(٢) وجماها من أنصاف الآلهة كذلك فعل يعقوب بالمارد فإنه هاجمه في مغارته وانتصر على تلك القوة الوحشية الفاتكة بالحيلة فكان جديراً بأن يكون خلفاً لأولئك الشجعان الاقدمين .

لهذه الخرافات فضل وقيمة ولوانها الغيت من التعليم القولي لاسفت كثيراً فان امام الطفل في هذا العصر الذي كله حقائق زمناً طويلاً يتسنى له فيه التحقق باخلاقنا وعرائدنا الحقيمة، فلنغتني فرصة فجر حياته القصير الامد الذي ترتاح فيه نفسه الاحاديث الخرافية وتأثر بغرائب الاساطير لنودع فيها أنواع الوجدان الاعلى، ونبعثها على حب الاعمال الجليلة والسجاياء الفضلى، فان طبع الطفل يتكون وينشأ في قوالب المثل التي تكون لها مكانة في نفسه عند ما يلقى اليه خبرها وتمثل له صورها. نعم ان (اميل) ان يكون قاتل مرده — وأين المرده اليوم — ولكن قصارى ما في قص هذه القصص عليه من الفائدة انها تهز نفسه وتحرك أريحيته بما فيها من ذكر غزوات عصر الابطال ولو كنت أجد منه انقباضاً وشكاً عند ما أقص عليه تلك الوقائع التي أبالغ عن قصد في بيان اخلاص ابطالها وعلو نفوسهم وأمانتهم لساءني ذلك وأحزني

نحن في شؤون الحياة لانزال دون غايات الكمال المبتغاة فيجب علينا — ان لم أكن واهمة — ان نعجب بما يروى عن اولئك الابطال من فضيلة

(١) هرقل أو هرقل اليوناني كما هو في أساطير اليونان (ميثولوجيا) ابن جوبيتر (المشتري) كبير الآلهة من زوجه الحكيم وأعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون الثنائين والضواري والافاعي العظيمة . (٢) تزيه من شجعان اليونان المشهورين وهو ابن { اجيه } ملك أثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصفه آدمي ونصفه ثور واشتهر في وقائع عصر الابطال

الشجاعة وان بعد احتمال وقوعها حتى لا نكون في أسفل دركات الجبن. في نفسي أمر أنا في أشد الحذر من الافضاء به الى (اميل) لسببين أحدهما انه لا يفهمه والثاني انه يذهب بما لهذه الخرافات من الشأن الرفيع عنده، وهو ان تلك المردة التي هي موضوع تلك الاساطير ليست سوى أشخاص هذه الصخور الكثيرة في كورنواي . فالحق والحق أقول ان هذه الاجرام الصوانية الهائلة تحتل في كل يوم أقصى ما قدر في هذا العالم على كل قوة ذات مقاومة غير مألوفة أن تحتمله. ذلك ان تنبأ لا كان يتساق تلك الصخور العظيمة المحيطة بذلك المكان الذي يسمونه نهاية الارض Land's End، وينقر باداة من الحديد نقرة يضع فيها قرطاسا من البارود ذافيلة ويشمل الفتيلة ويكر راجماً فيكون الانفجار ويتصدع الصخر وتنزل الارض ويضطرب البحر . فيعللون في الاساطير مثل هذا التزلزل والاضطراب بسقوط المارد .

يتراءى لي أن محو الخيالات من أذهان الاطفال لا يفيد المربين شيئاً فأين تلك الحكايات والقصص الغريبة التي كان الاطفال يفتنون بها لما فيها من السذاجة والغرابة لقد ضاعت ونسيت وصار عصرنا هذا هو عصر القصص والروايات الخيالية أبعد الأعمار عن القصص والاساطير المذكورة، فان القصص التي ندونها في هذا العصر لا تمثل الا الوقائع المعهود للناس نظيرها، لاننا بما كنا من أهل الحقائق المعتمدين على الوقائع الثابتة ومن سكان المدن الآهلة والحوضر البعيدة عن الوهم والتخيل كانت عنايتنا في التربية محصورة في ابداع جميع أذواقنا ورغائبنا في نفوس أولادنا . أقول ما قلت لا لانني أدعي الحكمة والفلسفة وأعوذ بالله من

دعوى الاشراف على الغيب والحكم على الاستقبال ، ولسكني اسائل نفسي عن حال هؤلاء الاطفال الذين صاروا شيوخا وهم في سن اللبان ، وقد قطعنا عليهم طريق الوهم والخيال ، فزجنا نعلمهم قيمة الفضة وهم في طور يجهلون فيه الحسن المطلق والجمال الذاتي . ومن العبث ان يقال ان ماتصفه لنا الاساطير من الاخلاق الفاضلة والمزايا العظيمة لا أثر له في الوجود ، فان عدم وجود اولئك الرجال والنساء الموصوفين بما ذكر من الاخلاق والمزايا في أديتنا وسمارنا ، وعدم تجوالهم في أسواقنا وشوارعنا ، يجب ان يكون من الاسباب التي تحملنا على عدم اخراجهم وطردهم من جنة الطفولية حيث يتمتع الاطفال ، في عالم التصور والخيال . فاستحلف القائمين بأمر التربية بالله (تعالى) ان يدعوا لهم متبوءاً في البيوت . وأما أنت يا عالم الخيال ، من الجنيات والابطال ، الذي هزرت قلوبنا في طور الطفولية ، وحركت نفوسنا للخيرات والفضائل النفسية ، بما كشفت من النقاب عن وجه الكمال ، وأبرزت من مظاهر الجمال والجلال ، فلا تنزل ولا تحتجب عنا في جر هذا العصر الوخيم ، المثلث بضروب الحسبان والهموم ، الذي شغلت أهله الاغراض المادية ، وطلب المنافع الجسمانية ، فاننا نصغر ونحقر اذا صرفنا أولادنا عن الاعتقاد بمظمتك الخيالية ، التي علمتنا الحسن الذاتي والعظمة الحقيقية .

أرى من الخطأ ان تعاب هذه الخرافات بيمدها عن الحقيقة فان هذا وإن كان مذموماً بالنسبة اليها فهو محمود بالنسبة الى طور آخر من أطوار العمر . فما يظهر لنا بعيداً عن الحميقة حقيقي في نظر الطفل . أخذت هذا الحكم من طبع (اميل) الذي اتبجح بأنني سبرته واختبرته ، فهو على عدم

سماعه شيئاً من الدين متدين بطريقة خاصة به، وله قوة محيية في ابتداء الصور الخيالية التي يمتاز بها الانسان في طور الطفولية وتضعف في سائر أطواره بالتدريج، فانه يرى وراء كل حادثة كونية كالمطر والريح وغروب الشمس قوة حية بل ذاتاً مشخصة، ففسد فرّ منذ أيام من البستان مذعورا لانه رأى سحابة مر كوماً ظهر في السماء باشكال غريبة وقال لي إنه رأى فيه رأس شيخ ذي لحية بيضاء . أليس لمثل هذا التأثير الناشئ من الخوف خوف الاجلال والاعظام الفضل في ادراكه معنى الالهوية الاول الذي فهمه الانسان . اهـ

الرسالة الواحدة والثلاثون

من هيلانة الى اراسم في ١٥ مارس سنة ١٨٥٠

تعليم القراءة والخط والرسم

لما يتعلم (اميل) القراءة ولا يكاد يعرف حروف الهجاء وربما كنت أنا الملمومة على ذلك لاني لم أحثه على التعلم الا قليلا. ذلك انني لا أتفك أذكر تلك الغضاضة والكراهة للتعليم الاول وما سببها على ما أرى الا الاكراه عليه وهضم ما كان يجب لطفل صغيرة مثلي من حق الحرية والاختيار . وأرى ان حملي « اميل » على التعلم لان غيره يتعلم كما كان يقال لي جناية عليه لان عاقبة هذه الحجة أن تطبع الناشئ على التقليد الاعمى والاقتداء بالناس في جميع عاداتهم من غير تفرقة بين الحسن والقيح . ولم يختار ركوب الصليب في هذه السبيل ولدينا المركب الذلول وهو حمل الطفل على التعلم

بالتشويق والتنويه بما في المطالعة من اللذة فقد يستغني الانسان عن الاشياء التي يجهل فوائدها ومزاياها .

أنا جاهدة في تلمس الوسيلة التي تنبه اشتياق « اميل » الى الحروف المطبوعة وتبعث فيه الميل الى معرفتها . واذا علم أن القصص العجيبة والاساطير الغريبة التي أفكره بماحها وأفكيها كلها مأخوذة من الكتب فلا بد أن يجد به الميل وتحمله الرغبة على أن يأخذ تلك الحكايات من مصادرها ويستخرجها من ينابيعها بنفسه في يوم من الايام . واذا تولدت هذه الرغبة يوم ما فكل ما بعدها يتبعها من نفسه وانني لا أفتأ أنتظر تولدها وانبعانها الحسن فيه . وقد طال تأخرها .

نحن مع صيرورة القراءة حاسة سادسة لنا بمارسخت ملكتها فينال
نخط خبراً بالعقبات التي تحول دون وصول الطفل الى معرفة الحروف
الهجائية بسهولة ، وأنا باحثة عما عساه يكون منشأ لهذه العقبات الثابتة
الراسخة ويشق عليّ الوقوف عليه وربما كان منشؤها ان مادون علم القراءة
والكتابة من سائر العلوم يساعد بعضها على معرفة بعض ، ويعسد متعلم
أحدها ويؤهله لفهم الآخر اذا هو انتقل اليه لما بينها من الصلة واتحاد
طرق الدلالة . وأما علم القراءة والكتابة فانه يخالفها في ذلك لا نقطاع الصلة
بين الاشياء وبين هذه الاشكال والرسوم الصناعية التي وضعت للدلالة
عليها ، فاذا انتقل المتعلم من مسميات الاشياء الى أسمائها المرسومة في الورق
انقطع الاتصال به فجأة

لا يصعب على « اميل » ان يميز فيما رآه من صور الاشخاص
المرسومة وجوه أصحابها اذا كان رآها لان الشكل في الصورة والمصور

يكاد يكون واحداً فاما الاسم المكتوب فانه لا يمثل له شخص المسمى بحال من الاحوال فهل توجد طريقة لربط هذين النوعين من الاشياء في فكره وأعني بهما الرسم والكتابة ؟ هذا أمر يطالب منك الجواب عنه .

أنا أكلم « اميل » بالفرنسية وهو يتكلم مع أهل كورنواي بالانكليزية فهو بهذه الطريقة يتعلم لغتين من اللغات المصرية بلا مشقة بل لا حرج عليّ اذا قلت بلا شعور منه بذلك، الا انه يغلط فيها غلطاً غريباً فيمزج أحيانا بعضهما ببعض مزجا يكون من أشد الاضاحيك استضحكا . مثل لنفسك غلاما يقول مخبرا لك بأنه يريد الخروج (Je voudrais togo out) ألسنت تغرب لهذا الخلط مضحكا ؟ لا غرو فما كان تكوّن اللغات المختلطة فيما سبق الا في مثل هذه الحالة وهي تجاوز جنسين متمايزين واختلاطهما زمنا في مكان واحد . أنا أعتقد انني أعلم « اميل » وهو في الحقيقة معلمي لانه قد فتح عيني وهداني الى عدة مسائل ذهب تبني في البحث عن حياها في الكتب سدى . وليت شعري هل تصدقني اذا قلت لك انه يعلمني التاريخ ؟

يعرف « اميل » الرسم والتصوير وان كان لمّا يعرف القراءة والكتابة فهل ولد مصورا ورساما ؟ لا أنكر أن النظر الى خرايشه (١) يضعف هذا الاعتقاد أو يذهب به ولكنها على كل حال عوار آدميين وحيوانات ومساكن وغير ذلك . وهو لا يكتفي بأن يحاكي بالقلم العادي أو الرصاصي شكل ما يقع عليه بصره بحسب ما يتفق له بل أراه يحاول التعبير عما في نفسه من الوجدانات وما في فكره من الحكايات بما يرسمه

{١} جمع خرباش أو خربوش وهي الخطوط الفاسدة غير المنتظمة ويقال خربش الخط

على هذه الاوراق من خرايش الخطوط والصور . انظر كيف حاول أن يكتب اليك مكتوبا — استغفر الله قد أخطأت في كلمة يكتب وكلمة مكتوب وكان ينبغي أن أقول : يرسم لك خطا برابايا^(١) وأنا لا أخشى أن يصعب عليك فهم الرسم الذي يرسله اليك فارجو أن أكون أنا في هذه الدفعة شامبوليون^(٢) هذا الرسم فأقول :

يمثل لك الرسم ريمحاءصوفاً هبت لليلتين من شهر ابريل وظلت تعصف الى الليلة الثالثة منه وليس هذا مما يحصل هنا نادراً، والله ييوتنا فانها مبنية بالصوان (وهو الحجر الكثير الوجود في الضواحي) ولولا ذلك لتداعت أولدكت بقوة العواصف والاعاصير الشديدة التي تضرب لها هنا السماء والارض والماء. على ان البحر لم ير منذ سنين بمثل هذا الاضطراب الذي أحدثته هذه العاصفة ولا يجد الواصف لهذه الحالة وصفاً الا ان يقول: ان حجاب الروع والفرع قد أسدل على هذا الكون الذي لانهاية له .

لا يسمع من لغط الناس المشؤم في هذه الحال الا اخبار الفرق والفرق تتردد من ساحل الى ساحل، ولم يكن خلفاء السواحل يومئذ هم منذ طلع الصباح الا مراقبة البحر الهاائج بمناظيرهم المقربة للبعيد يصوبونها الى الافق من على تلك الصخور الوعرة المحيطة بالخليج، وكانوا لا يكادون يبصرون في ضوء ذلك الصباح الملون بخضرة البحر الحواء (الضاربة الى سواد) على ان

(١) البربائي الخط الذي وجد على جدران البرابي وهي هياكل ومعابد معروفة في مصر (٢) شامبوليون هو أول من حل الخط البربائي والهيروغلفي بقراءة حجر رشيد المشهور

أشعة أبصارهم قد خرقت تلك الحجب الجوية، وعلم الناس أنهم ميزوا على بعد من وراء تلك الامواج المتراكبة المصطخبة سواد سفينة قد وقعت في شعب مخيف فانكسرت ساريتها الكبرى وتحطمت جوانبها فسقطت تضطرب كحوت أصيب بجروح عظيمة فصار يتقلب على جنبه وكان مما يثير الخوف ان الامواج التي كانت تهيجها العواصف فتعلو فجأة كالجبال ربما تتناول السفينة المتلفة من حين الى حين فتقذفها على تلك الصخور الصم. وصار يتسنى للانسان في ذلك الجو المطبق الحزن ان يميز في ضوءه السنجابي اللون أيدي الناس في السفينة تشير بقطع من الشراع .

لم يكن للناس حينئذ من أمنية الا نجاة هؤلاء الغرقى على أنهم ما كانوا يجهلون صعوبة انقاذهم وتعسره . نعم إن أهل كورنواي أولو شجاعة ونجدة ولكنهم مع ذلك أصحاب حذر وفطنة . هدأت الريح قليلا بعد شروق الشمس كامدة شاحبة والبحر مازال متماديا في طغيانه ، مصرا على عدوانه ، فكان يخيل لرائيه انه يتحرك بنفسه وأنه أخذته حمى نافض من القاصف فحدثت فيه هذه القوة العجيبة في الرعدة والاضطراب، وكان بعض الصيادين المحنكين يرمون بأبصارهم الى الامواج يتتبعون حركاتها بأعينهم المدربة ثم ينغضون رؤوسهم وتعلو وجوههم كآبة اليأس، وكان لسان حالهم يقول : لا حول لنا ولا قوة على انقاذ هؤلاء المساكين . أتى على الناس نحو نصف ساعة وهم يتراوحون بين اليأس والرجاء كان عليهم كنصف قرن . ذلك أنهم كانوا يرون بعض اخوانهم بين مغلّب الموت ونابيه وهم يرجون منهم النجدة فلا يجدون لا نجادهم سبيلا . وبينما في هذه الحالة اذا بزورق النجاة قد أحضر فصاح الناس صيحة واحدة

كانت منبعثة عن جميع الصدور ، وهذا الزورق يعمده الملاحون للدواهي الكبيرة وقد أحضر بقوة السواعد والخيول ووضع في مكان من الساحل يرجى منه الوصول الى الفرقى ، وما عثم أن امتلأ بالناس على وهنه وخفته ، وعظم الخطر في ركوبه ، وقد تحمل « قوبيدون » الذي تطوع في هذه الخدمة منذ سنتين أو ثلاث كل مشقة في الذود عن مكانه وحفظ مجذافه وكان الذين ركبوا الزورق يحسدونه على شرف التعرض لمخاتل المحيط ونفاخه ، وما نجح في ذوده ودفاعه هذا الا بقوة حقوقه المكتسبة بسابق هذه الخدمة . أنزل الزورق في البحر وانحنى المجذفون الجريثون على مقاعد تعلو نصفها الامواج وأوغلوا في البحر وكان « اميل » على مأرى يأسف أن لم يكن له من السن والقوة مايؤهله لمساهمة رفيقه قوبيدون في هذه السياحة الدالة على جراءة الجنان ، وشرف الوجدان ، وأراه قد اكتسب في هذا المشهد من العبرة باخلاص المخلصين ، والاسوة باحسان المحسنين ، مالا أبيض لنفسى التعبير عنه بالكلام ، ومحاولة شرحه بفصاحة البيان ، لثلا أضعف من قوته ، وأشود من صورته ، فان حضور المشاهد العظام ، ورؤية الاخطار الجسام ، تعلمنا بغير كلام ، وتربينا بدون إلزام .

غاب الزورق ساعات والناس في قلق مميت واذا بصائح يصيح : هاهو ذا راجع ، وكان يقترب من الشاطئ حقا والناس في ريب من نجاحه في مسعاه الشريف . وما كان أشد شجاعته في مساورة غضب الامواج السائرة ! وأنت ولا شك تعرف ماتأتي به صناعة الملاح من هذه العجائب ، أعني الزوارق المنشأة من الهواء والبلوط التي هي في الخفة كالريشة وفي القوة والمتانة كما يحب الخير ويرضى . كان بخيل للرأي في كل لحظة

أن الفواعل الكونية المصطخبة ستبلى بقوتها هذه الصدفية الخشبية التي تطاولت بجراتها الى منازعة البحر في غنيمته ، ولكنها تطاولت فطالت وحاربت فظفرت ، فكأن هذا الزورق كان انسانا يسبح وقد أعطته جنية طلسمها ليتقي به مفزعات النوء ، وما كان أبعد منظر رجاله والماء يتدفق من فوق قلائسهم المشمعة وثيابهم المزينة وهم راجعون أعزاء ظافرين ! وان كان الموج نال منهم وترك أجسامهم كاجسام الضفادع ونحوها من حيوان الماء ، وقذف بهم أحيانا في مهاوي عميقة كبطون الاودية ، وطفر بهم أخرى الى قنن عالية كشماع الجبال يظهرون بها للابصار في ضوء الشمس السقيم ، وكما غلبتهم الامواج على مجاذيفهم فنزعتها من أيديهم بادروا الى استرجاعها بقوتهم كما يأخذ الشجاع سلاحه من عدوه . صاح قوم من الملاحين كانوا على صخرة قائلين « نجوا »

فلما سمعت هذا الصياح شخصت يبصري الى الزورق الذي كان يدنو من الشاطئ دنواً غير محسوس ، وأنشأنا نميز بين رجال الزورق ثلاثة من الفرقى شاحبي اللون شحوبا مفزعاً وفتاة صغيرة ليس فيها أدنى علامة على الحياة .

وصل الزورق بمشقة شديدة ورسا في مرسى من المراسي المحمية بالخليج فلم ألبث أن تلقفت بعض التفاصيل عن حادثة الفرقى فعلمت أن انقاذ الفرقى كان عسرا خطرا ، وانهم لقوا الألقى الشديدة ، ويظن انهم قضوا يومين على الطوى . وقد وجدوا معششين كالمطير البحري حول بقايا أدوات السفينة التي لم يدمرها البحر كلها تدميراً ، ولا شك انهم لما صاروا عرضة لجميع شدائد الجو تساقوا هذا الموضع الحرج عند اغتيال

الامواج سطح المركب وثبتوا فيه بخوارق الشجاعة . وقد تعب منقذوهم في تخليص الحبال من أيديهم التي أيدها البرد ، وكانوا عاجزين حتى بعد نجاتهم عن مدافعة النعاس الذي كان يندخ عليهم بكلا كله .

كان الناس يتساءلون : من هم ومن أين أتوا ؟ ومما يزيد في سوء حالهم انهم ما كانوا يحIRON جواباً لانهم ما كانوا يفهمون خطاباً فحسبت انهم يعرفون غير الانكليزية مخاطبتهم بالفرنسية وبالالمانية بل استنفدت جميع ما أعرف من اللغات فلم أر في وجوههم أماره على فهم شيء منها، وكان في الميناء بعض الملاحين الروسين واليونانيين والنرويجيين فلم يكونوا أسعد مني حظاً في مخاطبتهم . تجلت هذه الحادثة بشكل الامور الغريبة فكأن هؤلاء الغرقى في نظر الناس أموات بعثوا ولم يعرفوا لغات الاحياء .

وأما الفتاة الصغيرة التي يظهر انها بنت خمس فكانت نجاتها كمعجزة من المعجزات وكانت أبصار الملاحين قد زاعت دونها ولم تهتد في الضباب الذي أثارته الامواج اليها ولكن قوييدون لمح بعينه التي تحاكي عين الفهد شبه كتلة معلقة في بقايا أدوات السفينة وخاطر بنفسه في التسلق لاكتشافها أشد المخاطرة فألقاها بنتاً قد لفت في نسيج ولبوس وعلفت على ارتفاع عشرين قدماً وسط الحبال المتقطعة وكانت مغمى عليها من البرد والجوع والخوف فأخذها وألقاها في الزورق فظلت في غيبة نعاسها كذلك الطائر البحري المسمى مويتا الذي يرى متخدراً طافياً على سطح المحيط .

أدرك هؤلاء الغرقى في الوقت الذي كان يجب انقاذهم فيه اذ لم يمض على ذلك بضع ساعات حتى هاج البحر هيجة حطمت بقايا السفينة وبددت ألواحها تبديداً وكانت القرائن تدل على انه لم ينبج من ركبها الا هؤلاء .

أخذ الفرقى الى ملجأ الملاحين ليساعدوا على ضعفهم، وطلبت أنا ان تضم البنت اليّ والفضل كله في هذا البر لا خلاص قويدون، وليت شعري من أي البلاد هي؟ إن ملاح وجهها وشعورها الحالكة وجلدها الذهبي تدل على انها من البلاد الجنوبية . هل هي يتيمة؟ وهل غرق أبوها؟ ومن هو صاحب اليد التي علقها في بقايا السارية؟ تلك أسرار محجوبة عني ولكن الظاهر أنها ليست لاحد الذين نجوا من الفرقى، ولا بد أن نقف قريباً على خبر السفينة ومن فيها، وسأكتب اليك بما أعلمه من ذلك وأسنودعك الله قائلة إن من حبك أن أتأثر بمصائب الناس وأهتز لها .

(حاشية) عرف اسم السفينة وهو (أيا كوكو) وغرقاها من البيروفيين الذين يتكلمون الاسبانية غير الصحيحة . هذا كل ما علم الى الآن عن هذه الحادثة البحرية المحزنة . اهـ

الرسالة الثانية واثلاثون

✽ من الدكتور ارسم الى زوجته في ١٨ ابريل سنة - ١٨٥ ✽

التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة

تلقيت رسم « اميل » فاغتيبت به والله ما تفضلت باضافته اليه من الشرح الذي كان كالمفتاح لمغاقه فلولا له لما تقذ ذهني في سرخطه البربائي، لاشك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدي رهن لمن شاء، على أنني أرى فيه السفينة

الغريقة وان كانت قوانين علم المراثيات لم تراعى في الرسم بالتدقيق ، وذلك الشيء الطافي على وجه الماء لا بد أن يكون زورق النجاة ، وأما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطأ في معرفته فهو وجه قويدون ، وكأني أرى بعين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الأرض تلك الفتاة المغنى عليها التي نجت من الغرق . أراك تجمدينني فهمت ذلك الرسم الذي لا أعرف من آثار ولدي سواه ، وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي .

إن صناعة الاطفال تذكرنا دائماً بطفولية الصناعة ، وإن تصوير بعض أشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التي تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات أجلى تمييزاً من انسان (الغاب) الوحشي الذي لا تعرف لغته ولا تاريخه قد علم عنه اليوم انه كان في زمن ما ينقش بالظران ^(١) على الحجر أو على قرن الايل القطبي صوراً سمجة لا أثر للاتقان فيها كصورة الفيل القديم ذي الفروة المسمى « بالموث » كما رسم بعض الحيوانات الاوابد الغريبة التي كان يغالبها في التسايط على الآجام والغاب

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى مارست فنون التقليد من قبل أن تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها .

أستنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي أن يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تتلمسينها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة . قد أحسنت النظر اذا انتبهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكها ، وانه ماثم الا المواضعة والاصطلاح ، فان الطفل ما رأى

(١) الظران بالضم والكسر مع تشديد الراء جمع الظر وهو الحجر المحدّد

في الكون شيئاً هو (أ) أو (ب) ولكن اختراع هذه الحروف هو من أعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه. واذكري ان الامم القديمة كانت قد استعدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليها، فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم، وأما أبناء هذا العهدان هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم، فانه ينتقل فجأة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة. وبعد هذا يندهش معلمه من استثقاله ما يراه امامه من العقبات. ليس هو الذي يحق له المعارضة في مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك.

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد أن الحروف الهجائية التي اخترعت أولاً ربما لا تكون الا صوراً لبعض أشياء كانت تنسب اليها أكثر من غيرها، والخط ابتدئ باختصار في الرسم، وليت شعري هل محيت تلك الآثار البربائية بتمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة؟ أقول ان هذا الامر محل للشك، وإني أعرف رجلاً كيساً كان يرجع أشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقية. نعم ان مضاهاته كانت أحياناً تأسف عن بعض التكليف، ولكنني أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق في ذهن «اميل» بين طائفتين من الاشكال تظهران لأول نظرة متباعدتين كأن بينهما بحراً رهواً. فاذا رسم مثلاً مسطحاً مستديراً يمثل به الشمس اكتب في أسفل هذا الرسم اسم هذا المكوكب بالفرنسية «Soleil»، معنيهاً باظهار حرف O مكبراً فاذا كان الرسم «منزلاً» «Maison»، أو ثعباناً

«Serpent» ، أو طريقاً متعرجاً «zigzag» ، أو عيناً باصرة «œil» ، بذلت جهدي في بيان وجود الشبه التي عساها توجد بين الحرف الاول من هذه الكلمات والاشياء التي تمثلها في الذهن فان « اميل » يفهم بهذه الطريقة أن الخط هو كيفية أخرى للرسم بها يبين الانسان مراده بأوضح مما يحاوله بالرسم وفي زمن أقل .

إن الذي يحير الطفل ويضله هو الزامه اتباع طريقتنا في النظر بدل أن نستدرجه من المعلوم الى المجهول استدراجاً سهلاً ، فتريننا نبادر الى صب المعاني العقلية في ذهنه صباً على حين أنه لم يكتسب بعد ملكة تميز هيات الاشياء المادية - نضطره الى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ، ولكني أرى اننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه جناية تقضي بالاسف ، فان الزامه التعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله الى الملاحظة والتعلم بنفسه ، وضرر الاستبداد في البيوت لم يكن أقل من ضرر استبداد الحكومة .

أرى ان الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاثة ضروب من التمرين مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها في التربية الاولى ، على ان الرسم هو الذي تجب البداية به فان في ذلك مزايا كثيرة أولها كفاية الطفل مؤنة ما للدرس من السامة والملل في أول أمره ، فان معظم الاطفال يكرهون الكتب ، وما منهم الا له ميل الى الصور ، بل فيهم دافع طبيعي يحملهم في الغالب على أن يرسموا بأيديهم ما يقع تحت أبصارهم ، فالرسم عندهم ضرب من اللعب خصوصاً اذا مارسوه بدعوة الغريزة واجتهدوا

من تلقاء أنفسهم في أن يمثّلوا الأشياء استمالة لهم. ولا انكر ان ملكة التمثيل والمحاكاة لا يستوي فيها جميع الاطفال ولكن التأسي كاف في تنبيهها غالباً. ليت شعري هل ولد الانسان رساماً؟ هذا مالا أعلمه وانما الذي يثبت له لنا التاريخ هو ان فنون الرسم كانت في جميع الامم سابقة لا تتشار الكتابة والعلوم واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يعيد نفسه في الاطفال كل يوم بأعيننا. ومن مزايا الرسم أيضاً انه يربي القوة المحركة في نفس الطفل، فان في فتح أبواب الكون له قبل فتح الكتب امامه مبادرة الى ارشاده الى يذوق العلم. فمحاكاة الجماد أو الحيوان أو النبات توجه نظره دائماً الى الصفات المقومة لماهية ما يحاكيه وان جاء الرسم ناقصاً. الرسم هو تمثيل أشكال الأشياء وحدودها بخطوط فيجب ان يكون الراسم قد رآها وقام في نفسه معنى ما يميزها عن غيرها من العلامات والصفات الاصلية. وأما الكلمات المكتوبة فانها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة فانه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه أن يسمي عدداً لانهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة، وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة أضحت معظم العقول البسيطة التي لا هم لها الا القشور.

لا يوجد الاستقصاء والتمعق في معرفة الأشياء الا حيث يوجد القياس والمضاهاة، فاذا لم يعتد الطفل التفكير فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جداً بفهم ما يقرأه.

آخر ما اذكره من مزايا الرسم انه إعداد أوّلي كبير النفع في تعلم الخط فان «اميل» بتخطيط صور الأشياء التي يستمتعها بتخطيطاً حسناً

او رديثا يمرن اصابمه على الحركة ويكتسب نوعاً من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية. ولكن الغرض انما هو إعداد الذهن للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور الى الخط الذي هو رسم المعاني فلو اننا تيسر لنا ان نربط في حكم «اميل» التمثيل الخطي للاشياء المشهودة بالعلامات الممنوية التي تقوم مقامها لكننا كأننا وضعنا على البحر الفاصل بينهما جسراً، على انه لا شيء ايسر من تصغير الرسم في العمل فان «اميل» كلما رسم شجرة او ثمرة او حيواناً اقول له: إنك قد رسمت حروفاً من حيث لا تدري غير انه توجد حروف اخرى اصعب من هذه رسماً وقراءة يكتبها المتعلمون، فاذا هجبت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الاعجاب هيجاً شديداً اكتب له الكلمة الموضوعة للشيء الذي رسمه واحرضه على محاكاتها — افعل ذلك كله وانا اضحك .

سواء عندي نجاح في ذلك ام لم ينجح مادام يجتهد في كتابة تلك الكلمة ولا شك انه يجتهد في ذلك اذا حمل عليه بالحدق والمهارة ولا بد من اعادة الكتابة عدة مرات قبل ان يكتسب شيئاً من ممارستها ولكن الاصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف (اميل) من هذا الحين السبب في الكتابة وكيف ان الناس قد استبدلوا برسم الاشياء حروفاً اصطلاحية تدل على ما يدل عليه الرسم وتفضله بكون مساحتها اصغر ووقت وضعها اقصر . هاتان هما مزييتا الخط على الرسم وهما اللتان اطيل له الشرح فيهما لانهما اقرب الى فهمه وادنى من علمه .

الطفل يجري في تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجري الدولاب فما احسنها طريقة للدخول في عالم المعقول .

نعم اني عرفت بعضاً من المصورين كانوا لا يستصوبون مطلقاً ترك ملكة المحاكاة والتقليد مطلقة بلا قيد في الطور الاول من الحياة ، ويرون ان الطفل انما يرسم في الغالب بالهوى لا بمقتضى الفطرة كما يعتقد ، وهذا الاطلاق يفسد عليه عمل يده بما يعتاد من عدم النظام. ولوصدقناهم في ذلك لقننا بوجوب الولاية والتأديب في تعاليم الفنون الجميلة. هذه مسألة يمكن اختلاف آراء الناس فيها كغيرها من المسائل ولكنها على كل حال ليست محل نظري فاني أراهن بألف ازاء واحد على ان «اميل» لن يدعي استحقاق جائزة رومية على الرسم، فأني وجه لي في الخوف او الرجاء في ان يصير بعد مصورا؟ الذي ابتغيه هو ان يكون رجلاً ولا شك في ان الشعور بما يوجد في الكون يعين على انماء العقل والطبع. ومهما كانت رداءة رسومه فان اقل ما فيها انها تشهد له ببعض التفات توجه الى ما يحيط به من الاشكال وهذا يكفي منه الآن. فاذا كان ممن لهم ملكة حقيقية في الفنون فلا بد ان تظهر هذه الملكة فيه يوماً ما. أليس من الشواهد التي تذكر في هذا المقام ذلك الراعي الصغير الذي كان يتعلم الرسم بنفسه في اثناء رعي زماجه ولما تكمل فيه بعد بواسطة التعلم في المدرسة صار (الاستاذ رفايل) ؟

أرى ايضاً ان تعاليم الكتابة كان يجب ان يسبق القراءة او ان هذين التمرينين يجب ان يتصل احدهما بالآخر. كان اندروبل - وهو من اعلم اهل عصره ولا بد ان تكوني سمعت شيئاً من سيرته في انكثرة - يبحث من سنين عديدة عن طريقة معقولة لتعاليم القراءة والكتابة، ولما كان في الهند اتفق انه رأى يوماً من الايام امام مدرسة في ضواحي (مدراس) ثلة من احداث الهنود يرسمون بأصابعهم حروفاً على الرمل فوقف يلاحظهم

ملاحظة المتأمل ، وبعد ان عرف طريقتهم ضرب بيده على جبهته قائلاً :
« قد وجدت مطلوبي » ليت شعري كيف كانت هذه الطريقة ؟ هي ولا شك طريقة بسيطة جداً . ذلك ان أطفال الهنود لما كانوا أقرب منا الى النظرة وكانوا لذلك أعمى بمقتضيات العقل كانوا يتدئون برسم الكلمة التي يرونها مكتوبة ثم يمحون عن أسماء حروفها ويتجهجون مقاطعها ثم ينتهون بقراءتها .

أخص فائدة أراها في هذه الطريقة أنها تشغل اليد والفكر ، فان الذي يتعب الطفل ويسئمه عند ما يقف امام كتاب انما هو التفاته الذي يطلب منه بلا بصيرة ، فان عمل الانسان بنفسه وبحته وتخمينه وسيره من المعلوم الى المجهول طريقة فضلى في مخالطة الضجر وخداعه .

لست والحق أقول معجباً كثيراً بطرق التعليم المخترعة فانها تفوق الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطلقاً . ويحضرني أن هولاندياً أعرفه خطر بفكره أن يجمع مجموعة من النعال ، وأراك تقوئين ضاحكة : هذا خاطر غريب . نعم انه غريب ولكنه وقع فان الانسان لا يكون هولاندياً بلا شيء وقد وجدت في خزائنه المقفلة بالزجاج كثيراً من النماذج المفيدة ففيها من جميع الانواع ومن جميع البلدان والاعصر من البابوج ونعل المشخصين الى جرموق الصينيين ، ومن نعل متوحشي أمريكا الشمالية الى بابوج كبراء الترك ، ففي هذه المجموعة من النماذج المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسي صناع النعال شيئاً واحداً الا وهو شكل قدم الانسان . اذا صح ما أقول فربما دعاني الى توجيهه مثل هذا اللوم الى واضعي طرق التعليم . ذلك انهم يتعقلون كما ينبغي وبعضهم ليس

مجردا من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الانسان في أطوار حياته المختلفة .

الطريقة الفذة التي أراها تلائم حالة التلميذ إنما هي سلامة ذوق معلمه، ولا أقصد بذلك أنه لا موصول غيرها يمكننا ان تترشد به في تيه التربية، بل اعتقد ان كثيرا من الطرق العلمية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالا مفيدا في تعليم الاطفال. لاشك أنك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) التي أدخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلاميذ بواسطة استعمال كرات من العاج . هذه الآلة وان لم أقف على مزايتها تمام الوقوف أنا على يقين من أننا أخذناها عن الصينيين وهي الحاسب الكروي المسمى في مملكة السماء (سوان بان) .

وعلى كل حال أعوذ بالله أن أتقد مثل هذا الاخذ بل آسف من عدم رجوعنا كثيرا الى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة لتسهيل الوصول الى بعض العلوم الاولية على المبتدئين .

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم أطفال التاريخ، وقد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكون اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة، ولم نقف عند حد معرفة مناشئ العلوم فقط بل أدى بنا البحث في دوال المعاني أثناء أطوار الحضارة الاولى الى معرفة استعداد العقل البشري وطرقه المتعاقبة في الوصول الى العلوم ، فاما ان أكون مخطئا خطأ فاحشا واما ان يكون هذا الترتيب الطبيعي في الترقى هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث .

طرق التعليم عند الامم التي وقفت فيها حركة الترقى والتقدم عبارة عن شؤون دائمة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون الا وسيلة وفتية للطفل في الاجيال المتعدنة فانه وان كان في الاصل جاهلا مثل هؤلاء الامم يمتاز كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحول التي كأنها مرسومة في أعضائه، فهو يمرج بسرعة على معارج حالت بين الاجيال الدنيئة وبينها عقبات كؤود فلا يقف في عروجه هذا الا عند الحد الذي تضمه له استعداداته وملكانه الشخصية ونوع القوم الذين يعيش بينهم وتأثير الزمن فيه . فنسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهي لا تلائم الا حاجة وفتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وفتية . فيكون من الحق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعليمية كما كان من الجور في القرن السادس ارادة ابقاء الامم على قوانين القرون الوسطى وعقائدها .

الرسالة الثالثة والثلاثون

✽ من إراسم الى هيلانة في ٢٢ ابريل سنة ١٨٥ — ✽

تربية قوة الخيال والتلطف في محاوراة الاطفال

أرى أن (اميل) على ما وصفته لي قد حيت اليه بدائع الخيال وغرائبه وأنا مسرور بذلك مهما بلغت درجته في نفسه لاني لأحب من الاطفال من كان مشككا مرتابا فان الارتياب فيهم من دلائل نضوب

قوتهم الخيالية وعقمها . ولست ادري ان كان حنين الانسان الى ما وراء هذا العالم المشهود من اسباب شرفه او من امارات خسسه وكلا الامرين في نظري سيان اذا كان هذا الحنين يرفع نفسه من حضيض هذا الكون المادي، ويسمو بها الى ما يمثل في الخيال من معارج الكمال الروحي، وانا اقسامك الاسف على ما يضيعه القائمون على الاطفال من قوة الخيال التي كانوا يجوبون بها مفاوز عالم الغيب وهم متعلقون بشعور جنياته . ذلك لان لله (سبحانه) حكمة في قسمة المواهب بين الناس حتى فيما هو اشدها خطرا وهو المواهب الخيالية فلم يهبها لنا عبثاً فليس لنا ان نسعى في اماتة قوة من قوانا لمجرد حكمنا عليها بأنها وهمية او خلو من الفائدة بل الاجدر بنا في شأنها ان نطلب لها ما يقابلها ويوازنها ، فقوة الخيال مثلاً سيأتيها الزمن بما يعارضها من قوة ملاحظة الحوادث الكونية ومملكة التعقل والاستدلال فاستحلف المربين بحق الحياة وقدرها في نفوسهم ان لا يقسروا من قوى الاطفال وان لا يمحوا منها شيئاً فان الانسان لم يبلغ من الغنى بها حداً تزيد فيه عن حاجته .

ان لنا في الكون لعبرة فلننظر الى حوادثه فاننا نرى جميع الموجودات في حركة واضطراب وتغالب وجلاد وترق وازدياد ونشاهد ان القوى المتعاندة تزوج فتولد نظاماً ، والفواعل المتباينة تألف فنشئ ملائمة ووثاماً ، فأني ضرر يلحق الانسان اذا جرى في تربية نفسه على هذا المثال .

الرسالة الرابعة والثلاثون

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢٣ ابريل سنة ١٨٥٠ ﴾

خطابه « لامييل » وحثه على تعلم الكتابة

اليك مكتوبا « لامييل » في طي مكتوبي لك وهو :

ولدي العزيز ! لقد أبهجنى مكتوبك الذي أرسلته اليّ وانشرح به صدري كثيرا، غير اني انبهك الى أن هناك طريقة أخرى للكتابة هي الى الكلام أقرب من طريقتك اليه، واحثك على المبادرة الى تعلمها، فأسأل والدتك أن تعلمك طريقتها في قراءة رسومي القلمية التي تغاير رسوماتك بعض المغايرة . في نفسي أمور كثيرة أروم الإفضاء اليك بها ، فهل لديك ماتحب ان تكاشفني به ؟ فاني على عدم تمتعي حتى الآن برؤيتك، مشغول الفكر بك ، عامر الفؤاد بحبك ، فاذا وافقتني كلمة منك استبشرت بها وهشت لها نفسي ، ولست أدري كيف أصف ما أجده من الفرح لو منّ الله عليّ بلقائك فضممتك الى صدري .

الرسالة الخامسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢٠ يونيه سنة ١٨٥٠ ﴾

الصحة في تغير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الفباء

كان « اميل » عليلا وكنت مشفقة عليه في بداية مرضه من الحمى

الحصبة، ولكنه لم يصب بالحصبة. والسبب في عدم اخبارك بذلك: هو أن الدكتور كان قد تعهد بأن يكشفك بسير المرض، ثم انه لما لم يجد فيه أدنى خطر عليه رأى من العيث أن يوقظ مانام من همومك ويحرك ما سكن من دواعي قلقك، ولقد عجبت اليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة، وثابت اليه أو ابد القوى، واما أنا فكان شأني غير ذلك لان ما قاسيته من التعب في ليالي سقمه التي لازمت فيها السهاد، وما كان يساورني فيها من الحزن والاشفاق، قد تزعزعت له صحتي، ووهت به عافيتي، وللطب الانكليزي في مثل حالي هذه دواء لا بد أن يكون هو سيد الادوية على ما أرى، وسندي في هذا الرأي ما أراه من ثقة الاطباء به في وصفه لمرضهم، ومن اذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم، وهذا الدواء هو تغيير الهواء .

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مرازيون جيد، غير ان أخص ما يعول عليه أطباء الانكليز في ايصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر في مجالي الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم، وإني والحق أقول قد أعجبت بهذا الرأي بعض الاعجاب لاني أعلم أن ضواحيننا التي يتوارد عليها السياح كثيراً غاصة بضروب المحاسن الحقيقية، ولهذا السبب لم أعارض في هذا الرأي بل أذعنت له اذعان المريض المطيع الذي يحل أحكام العلم ويكبرها .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية، فإف السيدة وارانجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت بأن تشرع لنا طريق السير، وسقط قويدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف

مقدمها مرت عليها أيام كانت فيها أسعد حالا بأصحابها ، وعلى فرس كبير السن لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط في انجاد هذه الجهة وأغوارها الكثيرة ، فاستأجرناهما باجرة قليلة ، وفي صبيحة يوم طعننا استوى الزنجي البار على كرسي المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه .

كان وجه « اميل » - وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه - يتلأأ فرحاً ويزهو بشراً وطلاقة ، لانه لاشيء يلد للاطفال كتوقع الحوادث ، ولكننا لم نصادف في طريقنا شيئاً منها نقص عليك حكايته ، فلم نلاق سلبة ولا وحوشاً ولا أسارى مقيدى في مغارات الصخور ، مع اننا قد جئنا أرضين مقفرة تحسدها سواحل قحلة مهجورة معرضة لجميع ما يطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه .

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوي بتغيير الهواء ، بل كنت أرمي الى غرض آخر أيضاً وهو أن ينفع « اميل » بما يشاهده من المناظر الخلوية وصورها المدهشة فتنتقش لها في نفسه آثار حية ، فانه يقال ان أول شيء بعث في نفس بايرون^(١) تباشير ولعه ولهجه بالشعر انما هو منظر ما يوجد في هضاب ايقوسية من البحيرات وقمم الجبال ، ولست اعتقد أن (اميل) سيكون بايرون عصره بل لأجد شيئاً من الحق في التطاع الى ذلك ، ولكنني أتذكر واحزن ان رأيت من حيث هو انسان لا يتأثر بما هو مسطور في صفحات الكون من جيد الشعر وبديعه .

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزي مؤلف القصص الكثيرة التي

منها قصة الغلام هارولد وقصة الدوق جوان ولد في سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير في تنبيه القوى الحاسة في « اميل » وهاأناذة أعترف لك بخطائي صاغرة إذ قد تبين لي اني تعجلت في هذا الامل، فاني رأيت لا يشوقه الا النظر الى الجزئيات واستطلاع وقائم الارياف وهو من حداثة السن بحيث يصعب عليه ادراك الاشياء في جملةها ومجموعها.

أرى ان الطريقة المثلى في تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة في نفوسهم هي ان لا تطلب منهم الملاحظة ولا يحملوا عليها، وقد سرت على هذه الطريقة في سياستي « لاميل » فلم أشذ عنها الا مرة واحدة . ذلك أننا كنا في رأس ليزارد^(١) وما أكثر عجائبه ! وان أردت تخيلها فمثل لنفسك صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطخب، ومنها ما غمره البحر فطوق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطي أملس مصقول لا تفتأ الامواج تغسله، ثم تصور ان بصرك يتبع من بعيد خط السواحل فيرى ما يتخللها من نقطة الى أخرى من الصدوع العظيمة والوهاد والغارات المظلمة، فاذا وقف الانسان وسط هذه المشاهد الكبرى كانت حيرته في اختيار المكان الذي يشرف منه عليها . وقفت أنا واميل تجاد (كينانس كون) وهو أحد الخلع التي يرى فيها البحر أجمل ما يكون وسط الأطلال وقطع الصخور، وأخذت بيده ثم قلت له : انظر الى هذا المكان نظراً بليغاً وانقشه في حافظتك فلملك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم .

كأنني بك تقول ! هل القوة الذاكرة مما يآتمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ

{١} هورأس من رؤوس سواحل انكلترا في الطرف الجنوبي الغربي لفونتيه كورنواي

والذكر ؟ فأجيبك بأن لي بعض الحق ان أعتقد هذا اذا رجعت الى مادنتني عليه تجربتي . ذلك اني أيام كنت فيما يقارب سن « اميل » سافر والداي الى مقاطعة أوفرني^(١) وأخذاني معهما، وفي يوم من أيام اقامتنا هناك صعدنا على احدى شعاف الجبل المسمى « مندور » وهناك نشدني الله والدي جاهراً بصوته أن لا أنسى ما كنت أشاهده في تلك الساعة مادمت حية، ولا أراك الا سائلي عن نتيجة هذا الإقسام، فاعلم ان جميع ما كان ينبسط امام ناظري في ذلك الوقت من المشاهد المجددة بي وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوماً في لوح ذاكرتي، ومن هذا تعرف السبب الذي حملني على اتباع هذه الطريقة مع « اميل » نعم ان والدي قد أوصياني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا أذكره الآن فلم يجد هذا شيئاً في الحفظ . وأنا أستنتج من ذلك انه ان تيسر في وقت ما ان يكون للمربي شيء من السلطان على حافظة الاطفال فلا ينبغي الافراط في استعماله لانه وسيلة فعالة .

اذا وكل « اميل » لنفسه كانت دهشته بالاشياء التي يراها أكثر من اعجابه بها، وهذا مما يحماني على اعتقاد انه لا بد في رؤية الامور على حقيقتها كمال الرؤية من شيء من الخيال . خذ لذلك مثلاً وهو ان الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التي يحوبها بصره وهي دائرة ضيقة بالنسبة الى الواقع، فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ما وراءها من بقية البحر، فاذا كان الشاعر يفنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف أمام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ما وراء الافق من امتداد المحيط فانه

(١) مقاطعة أوفرني هي اقليم قديم من أقاليم فرانسة قاعدته « كلير مونت فيراند » تكونت منه ومن جزء الهوت لوار « والسكروز » مقاطعتا « كاتال وبوى دودوم »

متى انفك ساعة من ربة عجز المشاعر الظاهرة اتسعت في خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائئة المضطربة التي لا يرى منها الا جزءاً حقيراً مهما كانت دقة بصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لا دخل للحس فيهما، وبالجملة فإنه يرى الجلال والعظم في ماهية البحر ومعناه الذهني لا في صورته المريئة .

نخلو نفس (اميل) من ملكة التفكير التي لا بد أن تظهر فيه بتقدمه في السن يكشف لي سر عدم اكترائه بما يراه من مناظر الكون، بل تقليده غيره في الاعجاب بها، كما يبين لي سبب انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر بباله مطلقاً ولهجه بها لهجاً شديداً . ذلك أن معظم الصخور التي يتكون منها رأسا ليزارد ولندس اند (طرف الارض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها، كأنه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الخريّيت منها صور العمود وعرين الاسد والمطبخ والمنافخ والمقلاة والفرس ورأس الدكتور جونسن ووجه الدكتور سنتاكس وغيرها، فن هذه الاسماء ما ينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها أو بعدها من الحقيقة، غير ان منها أيضاً ما هو مبني على وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها، ومن المحتمل أن تكون هذه الالاماب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التي تمثل هيئة الانسان أو شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحوتات هي التي بعثت في نفوس الاولين فكرة صناعة التماثيل، ومهما كان أصل هذه الصناعة فإن هذا الفن الفطري الاضطرابي الذي نقشته على الصور ان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل »

الى معرفتها، فانه كان يجتهد من نفسه في ادراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التي لم تعزب أيضاً - كما يدل عليه أسماء تلك القطع - عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء. من عهد ان رأيت جميع النمودجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة في المغارات وسلاسل الصخور لم يسعني الا الارتياح في ان هذا الفن من مخترعات الانسان . ذلك لانك تجد فيها أصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبايك الطويلة المتبوعة والعماء وغيرها من الاشكال الكثيرة، فليس على الخيال الا أن يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المترامية حتى يميز النظر من بينها مثلاً لمعابد عتيقة، وصفوفاً من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة، وزخرفاً رمزياً، ووحوشاً خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصاً مستقلة .

كان بودي على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين أن أعلم (اميل) في هذه الفرصة الجميلة بأن ألقى في ذهنه معنى للآثار السلتية^(١) التي لا تخلو منها بعض جهات كورنواي، واكثرها شيوعاً هو كما تعلم الدوائر القيسية^(٢) والاحجار الطويلة القائمة في الارض على قواعد كالسلات ، والرءوس الصوانية الطبيعية التي صارت بعد عمل صناعي قليل هي الحصون الاولى للبلاد تحميها من لصوص البحر وكان أشد هذه الآثار استمالة لي مدرج

(١) السلتية نسبة الى السلتي وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطالية وبريطانية العظمى وايرلاندة (٢) نسبة الى القيس لان القيسيين هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد في غير محالهم

يلدّين في رأس ليزارد، ومما يحمل على الظن بأن يد الانسان هي التي نحتت هذا المدرج في الصخر ما يشاهد في بعض أرجائه من آثار أعمال تلك اليد الفطرية التي محانصفها كروور العصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور. ومن الاقوال المروية في شأن ذلك المدرج أن الدوائر العظيمة الناتئة في سمك الحجر كانت فيما غبر من الزمن صفوف درجات وان السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحن خطته يد الفطرة ووهدة يزبد البحر في قاعها فجعلوها مسرّحاً لا لبصار النظار وعمالوا لجمعهم حولها. اذا صحّت هذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذي كان يحشر الناس له في هذا المكان ؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهود جدير بانارة وجدان الاعجاب والاكبار خصوصاً في هذه البقعة ولكني ارجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرايين وتلك شعائر أقل مافيه العظم والجلال .

يوجد أيضاً في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخلنج الادكن المحزن فيورث رائيها الغم والخوف، ولكن ! أني « لامليل » أن يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهي خلو من أثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ؟ وكيف يرجي منه الاهتمام بها ؟ على أني أرى أن نفسه قد انفلتت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوماً، واني استند في هذا الرأي على أمر صدياني جدا غير ان كل شيء في عالم الطفولية هو أكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الامر :

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد « اميل » فارادان يشهر هذا اليوم العظيم بمأدبة خفيفة . موافاة لما تقضي به عادة أهل البلد الذي نسكنه ، وانه فوق ذلك قد عمد في هذا العيد الى اختراع افتججه افتجاراً ، فقد أخذ بثوبي وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا في غاية الدهش كوما من الاحجار المتوسطة في الحجم مرتبة . مرصوفا بعضها فوق بعض بنوع من الحدق والصناعة وقد عددتها فوجدتها سبعة . فعلمت . من ذلك أنه قد استفاد . من مدرسة قدماء « السات » ، فانه لما فهم من الآثار التي زرناها على طول الساحل انها اقيمت تذكاراً لحادثة من الحوادث . طبق مارآه علي نفسه فأصبح كما ترى ، وله ان يقول ماقاله هوراس^(١) من قبله وهو « قدرفت لنفسي أثراً »

على اني أسائل نفسي : لماذا تسمى سن « اميل » بسن التمييز والتعقل ؟ فليت شعري أي شيء يتعقله الطفل في السابعة من عمره ؟ لاأراه يتصور الجزئيات فانه لم يعمر من الزمن ما يكفيه لتصورها ، ولا يدرك الكليات ، فانه يجب لا إدراك هذه ان يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد ، واني اذا حكمت بمقتضى ما أدتني اليه تجرتي واختباري أقول : ان « اميل » لا يزال أكثر انبعاثاً الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها ، فالذي يهمه ويشغله انما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وتوابع دلائل الفكر واماراته ، وسأبين لك مرادي بمثل آخذه من ضروب تساينا فانتظره في المكتوب الآتي . اهـ

(١) « هوراس » هو شاعر لاتيني شهير ولد في سنة ٦٨ ومات في سنة

الرسالة السادسة والثلاثون

✽ من هيلانة الى اراسم في ٢ نوفمبر سنة - ١٨٥ ✽

تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري

فرغت من اقامة معهد التمثيل الصغير الذي كنت حدثتك عنه في بعض
مكتوباتي السابقة، ولي أن أقول ولا أخف: انه ناجح مؤد الى الغاية المقصودة منه.
استحضر لي الدكتور وارنجتون من لوندرة فانوس سحريا، وهو آلة
جميلة معدة لان تجلي فيها المناظر المتعاقبة بواسطة الضوء واللون، ومن
خواصها انها تكبر ما يمثل فيها من الاشياء تكبيرا في غاية المناسبة، وترسم
على حجابها الذي هو من النسيج صورا لا يمكن أن يرى أظهر ولا أوضح
منها، لذلك تراني قد قمت بما أخذته على نفسي من رسم معظم الصور وتلوينها
على زجاجها مختبرة ما يكون للوهم من الاثر في النفس عند النظر اليها، وقد
بدالي أيضا أن من المفيد أن أواف بين ما مثله هذه الآلة من المشاهد
المختلفة بتنسيقها وجعلها على شكل قصة وجيزة تجعل التمثيل مرتباً متواصل
الاطراف يستميل النفوس ويهيج الانظار. ولما انتهيت من هذا العمل
دعوت الى المعهد في الشتاء الماضي عشرين طفلا من الولدان والولائد
مخالفة في ذلك سنة الكونتيسة «ديكاربانياس» فانها كانت تشخص في
بيتها القصص الهزلية وتأمر بوابها بأن لا يدخل أحدا، وسبب هذه المخالفة
اني أعقد أن الانسان لا يمكنه أن يلتذ بشيء من مروحات النفس الا

إذا كثر عدد حاضرها وانهم إذا كانوا أطفالا تكون الاستفادة أعظم والنفع أتم .

ابتدأت التمثيل بعرض أشياء في غاية البساطة كداخل ضيعة أو طاحون، والمعيشة في سفينة، ثم مثلت هذه السفينة في يوم آخر وقد نقلتنا الى بلاد بعيدة وكان أبعد ما عن أخلاقنا وعوائدنا أدعائها الى إثارة الاستغراب وتهيج الشوق في نفوس النظارة^(١) الصغار، فكانوا يحبون أن يروا يوتاً بنيت على خلاف طريقتنا في البناء وشوارع وساحات ورحبات عامة فيها رجال ونساء غريبو الازياء والهيئات، وكان فيما عرضه عليهم صورة صيد الحيوانات الوحشية خصوصاً أضخمها وأضرها كالفييل وفرس البحر والكركدن والاسد والنمر فلم أعدم منهم تحمسا في الدهش والاعجاب بها، ثم أريتهم قافلة تجوب الصحراء فشاقهم منظرها كثيرا . ولقد كفتني هذه التجارب في الاقتناع بأن في فانوسي السحري عزيمة « يأسمة انفتحي »^(٢) واني إن لم استعن به على فتح أبواب المجهولات لأصدقائي الاحداث كنت مخبطة ملومة .

يتشوف الاطفال كثيرا الى معرفة كيفية تكون الحيوانات والنباتات والصخور، وتتشوق نفوسهم الى معرفة طريقة نشوء جميع ما يشاهدونه كل يوم . من أجل ذلك آذنت جماعة النظارة جهرا بأننا سنمثل على الدوام قصة ذات بهجة وجلال مؤلفة من عدة فصول تسمى تاريخ الارض . استغنت عشية هذا التمثيل بجميع ما في الفانوس من قوة الاستعداد

{ ١ } النظارة هم المتفرجون (٢) عزيمة سحرية خرافية لفتح الابواب المغلقة

ذكرت في كتاب الف ليلة وليلة

وبصور اعتمد في رسمها على آراء علماء طبقات الارض من الانكليز وبقليل ماحصلته من العلم بمطالعة الكتب، واستقر رأيي على ان أجعل في التمثيل لقواعل الكون وقوى الطبيعة لساناً تفصح به عن الحقائق والحوادث وهو تجاوز يمكن ان يسمح به في قصص الغناء والتلحين الشعري، علي انه لم يكن المقصود من ذلك قرص الشعر بحال بل كان الغرض منه ايضاح ما لم تكف آثار الضوء والالوان المتنوعة في اظهاره على الحجاب اظهاراً تاماً بعبارات في غاية السهولة مثال ذلك ان أقول للنظارة: أتدرون ماذا كان يقول المحيط الذي هو أصل الاشياء لما غمر سطح عالم ازهقت روحه مياحه؟ الحق أقول انني لم اقف على كلامه ولكنني إخال أنه كان يدعو الحياة دعاء الانبياء ويسألها أن تزيل الوحشة من أعماقه المظلمة ولججه القاحلة.

ولا غرو فقد بدا في أشعة الضوء السحري أقدم ماعرف من أشكال الحيوانات كالأوداميا^(١) والنانجولا^(٢) والأورتوسيراتيت^(٣) طاغية البحار السيلورية^(٤) والتريبوليت^(٥) وغيرها من مخلوقات الكون الأولى التي رسمت صورها اعتماداً على بقاياها الأثرية أو على ما انطبع على الصخور من تلك البقايا.

- (١) الأوداميا حيوان هلامي من المكونات الأولى توجد آثاره ولا تعرف أخباره (٢) النانجولا حيوان رخو ذو محارة مخروطية مستطيلة يشمل جنسه عدة أنواع بادت ولم تبق إلا آثارها وأعضاء الحركة في هذا الحيوان توجد في رأسه (٣) الأورتوسيراتيت حيوان هلامي رخو يقوم فيه الذراعان مقام الرجلين محارته ذات فلتقتن يشتمل جنسه على عدة أنواع بعضها عائش وبعضها بائد فلم يبق إلا آثاره (٤) السيلورية نسبة إلى بلاد السيلور وهم اقوام كانوا يقطنون بلاد الغال في بريطانيا العظمى (٥) التريبوليت حيوان رخو محارته ذات فلتقتن

ثم تلا ذلك ظهور أول أرض انحسر عنها الماء فنهدت على سطحه ، وكانت طوائف من الجزر كان يخيّل للنظارة بواسطة المغالطة البصرية أنهم يشاهدون الاعشاب الشجرية تنبت منها وذلك كالسيجيلاريا^(١) والاستجماريا^(٢) وغيرهما من المثل الاصلية للنباتات القديمة ، ولست أنكر أن جميع هذه المناظر هي صور في نهاية الحقارة بالنسبة لما تمثله من المشاهد الكبرى للكون في عصره الاول ، ولو ان انساناً - كان قد قدر له أن يشهد خالق الاشياء - حضر في معهد تمثيل تلك الصور لما وسعه الا أن يضحك منها لانها ليست الا أشباح لاعب ، ولكن لا يعزب عن ذهن هذا الساخر أن هذا التمثيل انما جعل للاطنال ، وأن القصد منه هو تعليمهم وهو غرض جليل يجب الاغضاء عن حقارة ما يتخذ من الوسائل للوصول اليه .

كان يتلو كل عصر من عصور تاريخ الارض فترة جهالة عمياء وسكوت عام كان يدل - كما نبهت النظارة اليه - على اشتغال الدهر بعلمه البطيء الخفي .

ظهر في الفصل الثاني من القصة سلسلة مناظر مختلفة آذنت بحصول بعض الحوادث الكبرى على سطح الارض ، منها أن جزراً نتأت من الماء وتواصلت فكانت بدايا تكوّن القارات المستقبلية ، ومنها أن ظهرت نباتات وحيوانات جديدة لم يكن عهد لها وجود في العالم الى ذلك الحين . وأخص ما أثار دهش النظارة من تلك الحوادث وهاج اعجابهم دور ظهور

(١) السيجيلاريا نوع من النباتات البائدة التي لا يوجد منها الا آثارها بمحتوي على نحو ستين صنفاً ويوجد في الطبقات الفحمية من الارض (٢) الاستجماريا نوع آخر من تلك النباتات

الزواحف وقد حملني مارأيته من ذلك على اعتقاد أن بين طفولية الكون وطفولية الخيال مناسبة ومطابقة لما خلته من ارتياح نفوس تلاميذي الصغار لمشاهدة صور تلك المملكة الحيوانية البائدة ، فاني قد مثلت لهم الليبرانتودون ^(١) وهو ضفدعة كالثور في الضخامة ، والاختوزيور ^(٢) ذو العين الهائلة ، والبليزوزيور ^(٣) الذي عنقه كعنق الشبان ، والميغالوزور ^(٤) فيل الزواحف الذي رأسه كرأس الضب ، والهيليوزور ^(٥) ذو الظهر الشائك ، وصنوف الحيات الطائرة المسماة بالبرودا كتيل التي تشابه ذلك الوحش الخرافي ذا الاجنحة الذي وجهه وجه امرأة وجسمه جسم عقاب واسمه الهازلي ، فأثارت دهشهم وإكبارهم لها بمقادير أجسامها الهائلة وقوة الدفاع فيها ثم تلاشت نوعا بعد نوع كما تتلاشى الاحلام .

كانت النظارة يعتقدون ان جميع هذه المخلوقات كانت عائشة على وجه الارض لاني كنت أؤكدهم ذلك بدمتي ، وكان هذا التأكيد مصدر استغراب جديد لهم ، على أنني ما قصدت اضلال أحد منهم ولا التمويه عليه بل قصصت عليهم بالايجاز كيفية معرفتي إياها وبينت لهم ما أضففته من عندي الى ما عرف حق المعرفة من تركيبها وتاريخها ، ولو أن سائلا منهم سألني عن سبب انمحاءها من على وجه الارض لاعتضاني سؤاله ، على أنني كنت أجيبه : إنامعاشر الموجودات قد زج بنا في محيط الدهر زجا شديدا ،

(١) الليبرانتودون هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانكليزي المسمى أوين بما عثر عليه من بقاياها (٢) الاختوزيور نوع من الضب فني فلم تبق الا بقاياها (٣) البليزوزيور نوع آخر من منه (٤) الميغالوزور نوع ثالث منه أضخم من السابقين (٥) الهيليوزور نوع من الزواحف الهائلة وجدت بقاياها في أرض انكلترا

والدهر كما تعلم منشأ القلب ، وقد وجد في طبائنا الاستعداد لجميع ما قدر لنا من ضروب تصاريح الحياة واستحالاتها ، فمها كان عمر الزواحف القديمة طويلا فلا بد أنها قد مرت بما قدر للكون من النظام العام كما كانت تمر أشباحها على الحجاب المعد لقبولها .

آذن الفصل الثالث من القصة بمناظر خلوية اجتهدت في أن أمثل فيها بعض آيات العصر الذي يسميه علماء طبقات الارض فجر حياة الارض الحالية (أيوسين) وظهر بعد الزواحف الضخمة جسام الحيوانات الثديية كالمايغاتيريوم^(١) الهائل ، والدينوتيريوم^(٢) مارد المردة في عصرها ، والمستودنت^(٣) كبير الحيوانات البائدة الصفيقة الجلود وغيرها مما لم أذكره وان كان من أغربها . أحضرها سحر الفانوس فعرضها على الانظار برهة ، ثم لما رأيت ان هذا الكون الذي نعيش فيه لم يخلق لها حتى ما كان منه في حيز الوهم والمغالطة لم تلبث ان لبت دعوة العدم فزالت على التعاقب كما بدت . على أن ماتلا هذه العصور الاولى من الاستحالات والانقلابات في النباتات والحيوانات التي كانت موجودة فيها قد آذن بان الارض صائرة الى أحوال العصور الحالية ، فأنشأ الاطفال يتدرجون في الشعور بأنهم في أرض يعرفونها مع ما كان لا يزال يوجد من التباين بين ما فيها وبين ما يعرفونه من أرضهم . كانت تتجلى امامهم غابات تقارب أشجارها أشجار غاباتنا تجول فيها أيل ضخمة الاجسام تعدو وراءها السباع التي لا يزال

(١) نوع من الحيوانات الثديية انقرض وبقيت بقاياها { ٢ } نوع آخر منها أرقى من الفيل توجد بقاياها في الارض الرملية والحجرية (٣) نوع من الزواحف البائدة الهائلة

نسائها يفترس فرائسه الى اليوم في الصحاري والقفار .

لم يكن البرد الى ذلك الحين قد كدر صفاء هذه المشاهد التي كان يسبح فيها ضوء الشمس ممزوجاً بحرارتها القوية ، ولكن في آخر العشية بدت تبشير الشّبح فكان لها مناظر محزنة متعاقبة استعنت في ابرازها للعيان بكل ما في فانوسي من قوة الاستعداد، ففهم منها النظارة أن حيوانات العصور الاولى قد أهلكتها هذه المؤثرات المبيدة وأنها أوت الى أقاليم أخرى أشد حرارة من اقاليمها الاولى ، وكان صاحب السلطان على هذه الاقاليم الباردة هو الوعل القطبي والفيل ذوالنقرة المسمى بالموث، وكان يخيل للأطفال ان الارض صائرة الى الفناء وختني أطالع في عيونا كثيرهم التفتاً آيات القلق والحيرة ولم أر من الضروري ان أسرّي عنهم هذا القلق فقد تكفلت بذلك الحوادث، استغفر الله بل صور الحوادث .

بدت امامهم مغارة نحتها يد الفطرة في سمك الصخور فكانت ملجأ أوت اليه الحيوانات الوحشية كالذب والضع الذي هو نوع من الكاب وغيرها من النزلاء التي ترجع في نسبها الى انواع من الحيوانات قد اصبحت اليوم مستأنسة ، ثم ظهر لهم خالق جديد هو عجيبة الكون ذلك هو الانسان . رأوه على ضوء نار اوقدها لنفسه في جانب منزل من الارض وهو شبه حي عرف كيف يخطه لنفسه ، فليت شعري ما هو ذلك الخلق ؟ ومن اين هو ؟ لاشك ان مثل هذين السؤالين هما من الاسئلة المعضلة التي يحار الانسان في الجواب عنها والمناقشة فيهما امام اطفال لا تتسع عقولهم لها ، على اني لست متتبعة في العلم بالاجابة عنهما من أجل ذلك رأيت من الحزم أن أطفى فانوسي واكف عن الخوض فيهما .

اجابة لطلب جميع النظارة - كما يقال في اعلانات معاهد التمثيل - قد استعد معهدنا لايجاد عدد عظيم من المشاهد ستمثل في قصتنا .
 عقدت النية على الاستمرار في دروس التمثيل هذه وعلى أن أحيي لأصدقائي الاحداث بواسطة الفانوس تاريخ الانسان ومقابله لقواعل الكون وما اتخذ من آلات صيده وأدوات عمله الاولى وتجاربه الصناعية . مذ كانت الصناعة في مهد طفوليتها، ثم أين لهم بعد ذلك بهذه الطريقة عينها ما عرف من المجتمعات القومية والعوائد القديمة وآثار الفنون الاولى، فاني أرى انه لا شيء الا ويمكن أن يفهمه الاطفال على شرط اطلاعهم على كل ما تحدثهم به من الاشياء والنزول معهم في التعبير الى الحد الذي تطيقه أذهانهم .

لست أغبي عن قيمة صناعة رسم الاشباح ولا أجهل ما تساويه تلك الالاعيب الخيالية ، ولا خفاء في اني لأدعي أنني اذا استعرضت امام «اميل» بعض الصور لما كانت عليه الارض والناس في عصورهم القديمة أكون قد علمته علم الطبقات الارضية أو علم التاريخ . واني أعلم أيضاً أن كثيراً من الصور السحرية لا تلبث أن يزول أثرها من أذهان الاطفال كما يزول من حجاب الفانوس، ولكن كل هذا لا شيء فيه فحسبي أن يثبت في أذهانهم صورة أو صورتان فان تم ذلك رجوت لهم في مستقبلهم أن يجتهدوا في تحصيل العلم بأنفسهم من المدرسة الكونية أو من مدارس الكتب، وعلى كل حال فليس الغرض من تعليمهم في الصغر أن يحصلوا العلم وانما الغرض منه ان تبعث فيهم روح الشوق والميل الى المعرفة . اهـ

الرسالة السابعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٤ يولييه سنة — ١٨٥ ﴾

« بقيه أخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من السلام »

لقد زها « اميل » بالملكتوب الذي أرسلته اليه وأعجب به اعجاباً كثيراً، وكان فيما رأيته شديد الحلق من عجزه عن قراءته بنفسه، وهو على انتظاره بلوغ أهلية الترسل قد طلب اليّ أن أكتب اليك بما لقفناه من أخبار حادثة الغرق بعد الذي أخبرناك به فأقول : قد ابتلي ملاحو السفينة بضروب المحن وأنواع الشدائد ثم اخترمتهم المنية فلم تبق منهم إلا واحداً أنشأ يستجم ويستجمع ما تبدد من قواه ، وتيسر التفاهم معه بواسطة ربان اسبانيولي يعرف لغته . ومما استفيد من أقواله أن السفينة الغريقة المسماة (أيا كوكو) كانت لرجل من الملاحين في بلاد البيرو^(١) شحنها بضاعة وقصد بها انكثرة، فما هو الا أن أحاطت بهاريج عاصف من أشد ما يمكن تخيله من العواصف فأغرقتها. ومما يوجب الاسف أن غرق ذلك الرجل أصبح مما لا سبيل للرب فيه، وقد كان اسنصحب بنته وهي في الخامسة من عمرها لاسباب لاتزال في طي الخفاء، وكان من في السفينة يدعونها « لولا » وهو اسم مخزل فيما أظن من دولوريس .

عهدت الى بعض الناس هنا بمراسلة أهل الفتاة في بلدهم ولما يجبه

(١) بلاد البيرو جمهورية في أمريكا الجنوبية عاصمتها ليا وسكانها ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس

أحد منهم ، ويقول الملاحون إنها فقدت والدتها من بضع سنين وليس لها أخ ولا أخت ولم يبق من ذوي قرباها الا أباعدهم ، ويؤخذ من كلامهم أن صاحب السفينة كان من المثرين ، ولكن ما أدرانا أن ثروته لم تكن قصورا في اسبانية ^(١) لان البيرو هي اسبانية وراء البحار .

أثار سوء حظ هذه الفتاة في نفسي عواطف الرحمة والحزان فأمسكتها حتى يأتيني فيها أمرك ، وأنا على يقين من أن عملي هذا لا يقع منك الا موقع الرضا . نعم اني قد لاحظت في أحوالها وهيات أفعالها شيئا من الجفاء والوحشة ، ولكنني أرى على هذا الجفاء الصباني مسحة من الحسن والطلاوة كما ان وجهها تبدو عليه مخايل الجمال والنضرة ، وهي الآن تعلم « اميل » ما تعرفه من الاسبانية على قلته وهو أيضا يعلمها الفرنسية والانكليزية ، ولا غرو فان الاطفال يتفاهمون بالزر من الكلم أسرع ما يكون . اهـ

الرسالة الثامنة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٧ يولييه سنة ١٨٥٠ ﴾

تعليم السباحة وتربية العضلات

أنا مع اشتغالي بتربية عقل « اميل » أرى ان أخص ما يجب الاشتغال به في سنه هذه أن تعد فيها أعضاء سليمة قوية لاحتمال متاعب الحياة ، من أجل ذلك تجدني أحثه على ممارسة الرياضات البدنية والاكثار من

{١} يشير بقصور اسبانية الى المثل الفرنسي المشهور وهو قولهم ان فلانا يأتي قصورا في أسبانية يضربونه لمن يتعلل بالاماني الباطلة ويحلم بأدراك المقاصد الخيالية

قبض عضلاته وبسطها اختياراً، واقتحام العقبات التي لا يخرج عن وسعه اقتحامها . نعم ان لي رجاء قوياً في أن لا يصير من المصارعين ولا أحب ان ارى فيه مثالا صغيراً لذلك المصارع الشهير المدعو «ميلون دو كرتون» وان أوتيت من أجله انفس شيء في الدنيا، ولكني أرى ان كل ضعف يلحق الانسان بدنياً كان او عقلياً يصير سبباً من أسباب استعباده .

بدت على قوبيدون منذ حين سمات الكدر لكون « اميل » لا يزال جاهلاً بالسباحة، ولما كان يفضي اليّ بأسفه من ذلك كنت اعترض عليه بأنه لا يزال من حداثة السن بحيث لا يستطيع ان يمسك نفسه على الماء، وهو اعترض لم يكن له قيمة لانه اذا كان ما يمتري الانسان من الخوف عند وجوده في مكان مجهول له هوا كبر العوائق التي تعطل جري حركاته في هذا المكان فلا يكون تقدمه في السن الا من اسباب ازدياد هذا الخوف وقوته . والذي يستفاد من كلام الزنجي البار انه كان يسبح من عهد ولادته، وهو يقصد بذلك ولا شك انه لا يذكر تعلمه السباحة كما انه لا يذكر تعلمه المشي على الارض لان هذين النوعين من الرياضة هما في نظره من الامور الفطرية . انتفت عني شكوكي ومخاوفى بتأكده ان لا خطر على « اميل » من تعلمه ذلك الفن، وقد رأيت ان من مزايا تعلمه انماء العضلات وتقويتها، وكأنه يوسع مجال حرية الانسان في حركته ومرحله في برزخ يصل بين عنصري التراب والماء . وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل النجاة ومن هذه الجهة يكون تعلمه فرضاً علينا لا نفساً ولنظرائنا . على انني كنت اعرف في قوبيدون انه وان كان يفلب عليه التهور في تعريض نفسه للخطر يحرص كل الحرص على حياة « اميل » فلا

يعرضها لما يخشى منه ولو سيقَّت له في ذلك الدنيا بخذافيرها .

يوجد على مقربة مناشبه بحيرة صغيرة ناشئة من اجتماع مياه غدير يصرفه عن الانصباب في البحر ما يمترضه من الشباب والكشبان رآها قوبيدون موافقة لتعليم «اميل» مبادئ السباحة فأنشأ يعلمه فيها غير متخذ له منطقة من الفلين ولا مثانة مملوءة بالهواء ولا غيرها من الآلات الأخرى التي تستعمل أحياناً. ان لم اكن واهمة - لمساعدة قوى المبتدئين في السباحة ، ولما كان يقال له في ذلك كان يحجب بلسانه الساذج قائلاً يجب ان يكون الطفل فلينة نفسه، وارى ان طريقته في التعليم سهلة جداً على حسب ما تيسر لي من الحكم عليها، فأهم شيء بنيت عليه هو بث روح الثقة في نفس المتعلم ، وقد اكدي من رآه في وقت التعليم انه من اجل ان يكون قدوة في ذلك لتلميذه كان يستلقي على ظهره في الماء ناظراً الى السماء ساداً فاه متنفساً بأنفه وقد برز جزؤه من الماء، فكان لسان حاله وهو في هذا الوضع يقول لناظريه : هاأنتم أولاء ترون ان الانسان لا يصح ان يفرق، وانه اذا غرق بعض الناس فانما يفرقون مختارين .

لم يلبث هذا الاستاذ ان ابدى كثيراً من التيه والفخر بتقدم تلميذه، غير انه كان يرمي في سبيل نجاحه الى غاية ابهر من ذلك واظهر، فكنت اسمعه يهيمهم متهمكماً بالسباحة في البحيرة قائلاً ما احسنها سباحة في مفتسل ! دعيني من البحيرات وحدثيني عن البحر تجدي اذنا صاغية فهو الذي يمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه، ولكنني كنت اعارضه وانهاه عن الذهاب «باميل» اليه وعن تجربة سباحته فيه لما كان يخامر قلبي من لراوع والفرع المنبث عن المبالغة في توهم ماعسى ان يكون في ذلك من الاخطار،

لاني اكبر هذا الخلق العظيم واجله إجلالا مشوباً بالروع، فانه كثير أما اغتال
 اناسا في نواحيننا، ولا بد ان اقول: ان «اميل» ايضاً كان يشاركني في هذا
 الروع بعض المشاركة، فان البحر خلق حي مضطرب يرتفع ويجذب السابح
 فيه اليه مصخباً، وفي كل صفيحة من صفائح امواجه شخص بل عد ولذلك
 السابح عامل على اهلا كه، وفي دوام روحت هذه الامواج وجياتها
 ما يمثل للانسان اضطراب بحر الازل بعوالم المخلوقات ويقوم له منه اكبر
 موعظة وذكري تنبهه الى ضعفه وعجزه .

لم يطل عهد نفور «اميل» من البحر وخوفه منه، وها انا ذا مبينة
 لك السبب الذي قمع ذلك النفور وشرد هذا الخوف فأقول :
 إنه يفهم من سجنك معنى مبهما، ولم ارد ان اكشف له حقيقة
 هذا الامر الذي يهيج الكلام فيه ساكن آلامي ويشير كامن اشجاني
 لسبيين، اولهما انه يصعب عليه فهم مرادي من الكلام (فماذا عسى ان
 يفهمه من قولي له ان والدك سجن بسبب سياسي ؟) وثانيهما ان
 سوء ادراكه للحوادث التي حصلت قد يبعث في نفسه بغض فراسة
 وعداوتها، لذلك تراه قد جره امساكي عن الخوض في هذه المسألة الى
 ان يخترع لها حكاية يعالها بها، فهو يتوهم انك اسير في قبضة جنية او
 غول اوتنين، وانك رهين قلعة يحصنها البحر، وربما كان الباءت له على
 هذا وجوده يوماً مافوق صخرة وغشيان المدايه واحاطة الامواج
 به إحاطة ذلك الكلب الخرافي ذي الرؤوس الثلاثة المقول عنه في
 أساطير الاولين بأنه حارس جهنم، ومهما كان الحامل على ذلك الاعتقاد
 فانه قد وطن نفسه على ان يحمل حملته الاولى لتخليصك مصاحباً لعزم

كعزم اشراف المائدة المدورة (١) او كعزم شاب باسل قتال للوحوش
غلاب للاغوال . على اني لا يسعني الاتهام الزنجي الخيـث بأنه زين له او هامه
وحبب اليه خدع نفسه ليحمله على مشايعته في آرائه وهواقفه لا فكاره .
دخل علي البيت كلاهما ذات يوم ووجه قويـيدون تملوه قـترة
الريـة، وقد غلب على « اميل » ما يغاب على كل ظافر بطلبته من الفرح،
فلم البث ان فطنت الى المكان الذي جاء منه، وهاج غضبي عليهما الى حد
ان صار وجهي أحمر كالجر، وعنفتهما على مخالفتها لامري فلم يستزعزع
« اميل » لهذا الهياج ، بل تلقاء بثبات الشجعان، وأجابني وقد بدا على
وجهه من الاصرار ما لم أعهد فيه من قبل فقال: اني اريد ان تعلم السباحة
لافك والذي من أسره وآتيك به، فاسمعت منه هذه الكلمة وشاهدت
لحظه المعرب عن حرية ضميره وخلوص طويته ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة
عن سداجته وعلمت مقاصده النبيلة - حتى سكنت ثائرتي وكفت بادرتي،
فبششت في وجهه بعد العبوس وتبسمت له وضممته الى صدري وأشبعته
تقبيلاً في جبينه الذي كان لا يزال مندى بماء البحر .

الرسالة التاسعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٨ يوليو سنة - ١٨٥ ﴾
اخباره بالمفوء عنه

اذا صح ما نشرته الجرائد الإنكليزية وما ذاع من الاشاعات في

(١) اشراف المائدة المدورة هم رهط من الاشراف عددهم اثنا عشر بمجملهم
كتاب القصص القديمة من رفقاء أرتوس وهو شجاع قصصي من شجمان بريطانية العظمى

الهواء لم تبق حاجة « لا ميل » في ان يتساحح تساحح الاشراف ولا ان يطوي
 البحار ليخلصك من قبضة التنين الذي يعتقد انك في اسره - لان الناس
 هنا يتكلمون بمحصول عفو سياسي ، واني كنت اتنى ان يحصل لك من
 الحكومة فوق هذا العفو عمل يكون جزاء لما لحقك من الضرر وتحقيقاً
 لمقتضى الانصاف، ولكني لم اطلب لك شيئاً من ذلك فلا تعجل بالرفض
 واعلم ان قلبي يرقص طرباً كلما فكرت في وقت التلاقي . اه

الرسالة الأربعون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى هيلانة ... ﴾

بشرى الحرية

ايتها السيدة .

علمت الليلة في لوندرة خبراً أبادر بأبلاغك اياه : ذلك ان زوجك
 قد منح نعمة الحرية وفي الختام لك مني السلام والاحترام . اه

الكتاب الثالث

في اليافع

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور اراسم

الشذرة الاولى

حررت في مرازبون في سنة - ١٨٥ الداخلة في سنة - ١٨٦

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شؤون حياتي كلها

وجدتها هي بعينها ^(١) ولما تلاقينا كنا كأنا لم نفتق في حياتنا، فان
النوى لم يغير شيئاً من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلوبنا على ما
كانا عليه من الارتباط والاتحاد، وغاية ما حدث اني اراني الآن آنس
مني في جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها، نعم انها لم تبق طفلة كما عهدتها
ولكنها لم تأخذ من مرور الايام الا ما يزيد المرأة في القلوب محبة وفي
النفوس تأثيراً، فكان روحها وملاح وجهها تكملت وتطهرت بادائها
فروض الامومة المقدسة

(١) يريد زوجته أم « اميل »

كنت أوشكت أن أقنط من معرفتي لولدي، ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن الذين هم أكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولاداً أو رزقوهم وحرموهم رؤيتهم، وربما كان هذا هو الباعث لهم على الاهتمام بالتربية وجعل البحث في شؤونها غايتهم ليؤدوا بذلك ما فرضه الله عليهم منها بنوع آخر من الاداء .

فايت شعري بماذا استحققت أن اكون أسعد من هؤلاء مع كونهم أجدر مني بالسعادة ؟

ما أشدني حنواً وتأثراً عند تقبيل ولدي إياي ! وما أعظم زهوي وأعجابي به عند ما آخذ بيده وأتزه معه في المزارع ! وان الدنيا لترى في عيني جديدة وهو معي كأن لم أرها منذ سبع سنين . لا جرم أن الانسان لا يصبر وهو رهين السجن محروم من الحرية فكل ما كنت أراه من أشجار وصخور عمرت عمر الدنيا القديمة كان يخيل الي انه لم يخلق الا بالامس .

خطر في ذهني ساعة خاطر العود الى فرنسا ولكن الف مانع — وان شئت فقل الف وهم — قد تحول بين المرء وبين معيشته في وطنه، وما أدراك أن من هذه الموانع ما يعتريني من الالم الممض الذي لا أستطيع التعبير عنه اذا رأيت أمة عظيمة عهدتها حرة قد أصبحت في قبضة حاكم وجميع ما يحصل في هذا الوطن لا يقل عن ذلك ايلاماً للقلب ولا ازهاقاً للنفس . يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من الواجب عليهم لا أنفسهم ولا وطنهم أن يخدموا هذه الاوطان وهم بمعزل عنها، فثل هؤلاء فيما أرى أشد حباً لها لانهم سواء قربوا منها أو بعدوا عنها يحبون نفحاتها وينتمشون بمجاهداتها في سبيل الخير وبما لها من الآمال في الوصول

اليه. جرحهم في صميم أفئدتهم مامس أمتهم من القروح وان كان يبدو من حال الامة عدم شعورها بألمها كأن في مرور الزمن عليها واعتيادها احتمالها من قوة التأثير ما يكفي لاندماها جميعاً. مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب والتفني يلومون الناس وحوادث الدهر ولكن اذا حاول محاول امامهم ان يغض من كرامة فرنسة ويحط من شأنها استشاطوا غضباً وتبغ^(١) الدم في عروقهم. ذلك أن هذه القطعة من الارض التي تسازلوا عن سكنائها مختارين قد تغفل حبها في أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم، فتراهم يبذلون الوطن نفسه في اعزاز شأن المعنى الذي قام في أذهانهم منه ويفضلون الحكم على أنفسهم بالبعد عنه على رؤيتهم اياه مهيناً ذليلاً.

كأني بسائل يقول : لماذا اتخذت هذه العادة وهي تقييد أفكارك ومذكراتك كل يوم بحسب المصادفة والاتفاق ؟ فأجيبه ان هذا مطوي أيام معيشتي في السجن أنشره للناس لاني لما لم يكن لي فيه أنيس أطارحه الحديث كنت أكتب كاني أراسل نفسي

الشذرة الثانية

(تعليم المسميات قبل الاسماء)

لم تخلف طريقتهما في تربية « اميل » أملاً من آمالي فلتبقي على ماهي بسبيله من تهذيبه وتنقيفه بما تقدمه له من الانسنة وبما توحيه الى نفسه من الثقة بها ، على اننا من عهد أن أنعم الله علينا باللقاء رأينا من المفيد أن نقسم العمل بيننا لان التعليم - ان لم أكن غالياً في حكمي - هو من وظائف الوالد

غالباً وأما التربية فانها من أعمال الوالدة وان أردت أن تعلم أين نحن من قيام كل منا بعمله فأقول :

لما يدرس « اميل » شيئاً درساً منتظماً فهو انما لقف دروسه الاولى في علم التاريخ الطبيعي متفرقة على نحو من الاتفاق وذلك بمعاينة ما كان يجده كل يوم على شاطئ البحر من أنواع الحار والصفد . ثم اني أمكنه حيناً بعد حين من النظر بالمنظار المعظم (الميكروسكوب) - وهو آلة شائعة الاستعمال جداً عندنا - محرراً أجزاءه بنفسه فيكبر له بعض عجائب المخلوقات غير المتناهية في الصغر، وأريه بالمرقب (التليسكوب) - وهو آلة أرصدها النجوم ليلاً - عجائب المخلوقات غير المتناهية في الكبر . وقد ملأنا انا من الزجاج بالماء الملح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكاً وكنا نجدد ماءه كل ثمانية أيام، ومنه تلقى « اميل » كل ما عرفه فيما أرى من علم حياة الحيوانات التي تعيش في جوف البحر . وفي بعض الاحيان اكرر بمشاهدته بعض تجارب سهلة جداً في الكيمياء والطبيعة، وهو على جهله باسمي هذين العاملين يدرك بعض الادراك تأثير بعض الاجسام الفطرية في بعض . وفي ذات يوم رأي أنصنع مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الاتفاق في شيء بدالي منه انه أدرك استعمالها في الجملة لاني رأيته يريد محاكاتها . جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن .

لا بد ان اكون أنا « واميل » تابعين في التعليم لمذهب ارسطاطاليس لان أغلب دروسنا يحصل في وقت التنزه، فاني أدع لامور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير الا أن يكون اجابة عما يوجه الي من الاسئلة مجتهداً في أن يكون الشرح واضحاً والبيان وافياً . وقد

عرفت من محاورته أن الوسيلة الى اصغائه الي هي تتبع سلسلة أفكاره عند حادثته . ان كثيرا ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الاطفال ليبالغون لهم في البيان ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة الى أن يثبتوا بذلك لانفسهم انهم على معارف واسعة وعلوم حجة . أنا لا أعلم « اميل » شيئاً بل أعلم معه فعوضاً عن كوني أعلمه طريقتي في النظر أجتهد في معرفة طريقته وتمييزها ومالا يميل الى معرفته بحال أجهله مثله أو أتجاهله . نعم ان هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الاستاذ في نظر تلميذه ، وانه لا بد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن بعض شهواته ، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صنع العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الاطفال لبس هو الا كرم الالفاظ على الرمل .

مالكة البحث عند الطفل هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتناء والمراس فان الشوق الى معرفة الاشياء يتولد في الانسان ولا يولد معه ، وانما يكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها . ولا ريب أن أعين تنبه « اميل » والتفاته بأن أريه مالا يراه في الاشياء لاول نظره اليها ، غير انه في هذه الحالة يجب أن يكون هو مصدر الميل الى ذلك أيضاً وأن يكون صدور هذا الميل منه فطرياً . ثم ان الاطفال في الجملة مدفوعون جداً بسائق الطبع الى الاكثار من السؤال ، فرأيي ان التعجيل لهم بالجواب قبل السؤال وتجاوز حدود ما يطلبون معرفته هو مما تحبو به ناز هذا الاستعداد المبارك لان ذلك يفضي بكثير منهم الى التزام السكوت ليكفوا أنفسهم مؤنة سامة الدرس وطوله اه

المشذرة الثالثة

« تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا »

اني أخشى منغبة افراطي وافراط هيلانة في ميلنا الى تلك الصبية التي ألفتها العاصفة بين أيدينا لجواز أن يطلبها بعض ذوي قرباها يوماما، وكيفما كانت نتيجة هذا الميل فلا بد لي هنا من اثبات أمر يتعلق بعلم تركيب الانسان ومنافع أعضائه فأقول: كانت دولوريس لما التقطناها وآويناها الى بيتنا محلا لجميع العيوب التي توجد في نظائرها اللاتي من قبائرها وبلادها . كانت مع نظرافتها مكسالا وانية قليلة العناية بشأن نفسها، وان كان لابد من التصريح قات انها كانت كثيرة الوساحة، وكان هذا الاغفال منها لنفسها مع مقدار عظيم من التفتنج والتدلل من موجبات كدر هيلانة وحزنها، ولم ينجح في الكسر من زهوها والطأمنة من صلفها ما اتخذته لذلك من العظات وضروب التوييخ وأنواع الايلام الخفيفة . ولما كان فيها من حدة المزاج بل والتهيج عند مخالفتها فيما تريد - كانت لا تبدي أدنى اشتهاا للتعلم . أفرغت هيلانة جهدها في ايقاظ عقل هذه الحسناء ناعسة الغابة^(١)

{١} يلوح المؤلف بقوله «هذه الحسناء ناعسة الغابة» الى أسطورة من أساطير الكاتب الفرنسي شارل بيرولت المسماة حكايات الجن . ملخصها ان أحد الملوك وزوجته ابتليا بالمقام مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسناء فجملاها في كفالة سبع جنيات وأولاهن وليمة أعدا فيها لكل واحدة منهن صحفة فاخرة لها كيس من الذهب الخالص فيه مائة - وشوكة وسكين من الذهب أيضا وفي أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية عجوز =

من سبائه فأخفق مسعاها وبطل أثر ما استعملته من التعاويذ والطلسمات لرد هذا السحر الذي لا يدري أية جنية خبيثة من جنيات البيرو رمتها به على ما يظهر. وإن أردت أن تعلم من الذي أبطل هذا السحر فاعلم انه «اميل» ذلك لان ميل «لولا» الى أن تعجبه وإن تتحاي ضروب سخريته بها وأنواع زرايته عليها. كان أشد تأثيرا في ارادتها من جميع عظائنا ونصائحناء، كان هذا أول سلطان «لاميل» على قلبها ولا خطر فيه في سنهما . من ذلك الحين وقع التنافس بينهما، أما من جهةه فلشدة زهوه ونخره بما له من التقدم عليها في علومه القليلة، وأما من جهةها فلغيرتها ورغبتها في منازعته ذلك التقدم، والمرجو من هذا التنافس أن يعود دائما بالفائدة على كليهما فإن درسهما مجتمعين أحسن وأتقن منه منفردين، لانه إذا اعتبر «اميل» نفسه أعلم من «لولا» اجتهدت في التبريز عليه في ميدان المطالعة. أرى ان هذه الصعبة تقيدهما في أخلاقهما أيضاً فائدة كبرى، فإن الاطفال على علم تام بما يشتركون فيه من العيوب، ولا يبق بعضهم على بعض في تشهيرها وتعبيره اياها، لذلك نرى «اميل» قلما يوقر «لولا» فيما يراه من النقائص، وهي أيضاً لا تقصر في أن تكيّل له الصاع بمثله بدون

= ثامنة لم يكن حضورها في الحساب فقدمت لها صحيفة بلا كيس فظنت ذلك احتقارا لها خافت احدى الجنيات أن تسيء هذه العجوز الى المولودة فخرجت ثم ان كلا من الاخريات منح المولودة صفة حمية ماءدا العجوز فانها قالت ان الفتاة ستحرق يدها بمغزل وتموت فجاءت الجنية التي كانت خرجت وقالت انها لامتوت واسكن يغشاها الناس مائة سنة ولا يوقظها الا ابن ملك من الملوك ثم اتفق أن الفتاة رأّت مغزلا في يد عجوز فتناولته فحرق يدها فسقطت نائمة ثم نقلت الى قصر لوالدها في غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك وتزوجها

أن يكون في هذه المشاغبات الخفيفة ما يكدر صفو مودتهما الشريفة في شيء،
وكأنني بقائل يقول : ان هذه المزايا بعينها توجد في معاشرة الاخ لاخته
ووجودهما معاً، فأجيبه بأني في شك من ذلك لعدم تمام الشبه في الجهتين.
زرت فيما مضى مدرسة للصم والبكم كانت تنقسم في أول نشأتها الى
قسمين أحدهما للذكور والآخر للإناث، فلم تلبث التجربة أن كشفت
عيوب هذا التقسيم فان الصبايا اللاتي كن مقصورات في قسمهن كان
يبدو عليهن التأخر عن الغلمان سنة أو سنتين، ولم يكن الغلمان أنفسهم بارعين
في التقدم والنجاح، فخطر في بال القائمين على المدرسة أن يجمعوا الفريقين
في غرف واحدة فكانت نتيجة هذا التغيير محمودة فانه لم يمض الا يسير
من الزمن حتى زال تأخر أحد الفريقين وانحطاطه عن الآخر وتقدم
الآخر تقدماً لا نزاع فيه . ذلك لان العجب الذي هو خلق فطري في
الذكر والانثى، والطمع الذي هاجه في نفوس الغلمان وجود منافسات
زاهيات بأنفسهن بينهم واهتمامهم بأن يظهروا في أعينهن ممتازين عنهن،
كل ذلك ساعد من الجهتين على ازدياد درجة معارفهم في دروسهم مع
انهم كانوا هم التلاميذ الاولين لم يتغيروا وانما ظهر أن قواهم تضاعفت .
لماذا لا يصح في حق الناطقين والناطقات ماصح في حق الصم والبكم .

انما يعارض القائمون على تربية الناشئين في الجمع بين الذكور
والإناث بحجة المحافظة على الاخلاق والآداب، ولو كانت هذه المعارضة
مبنية على سبب صحيح لكانت وجيهة سديدة، ولكن لا بد أن نجيب
هؤلاء المعارضين بأنه لم يفكر أحد البتة في جمع هذين الصنفين في
قاعات النوم العامة، ولا شك أن تقسيم محال المدرسة وأفنيتهما والرياضات

المدرسية بالحكمة والتقدير يجب كثيرًا من المضار التي يخشى منها على الآداب والأخلاق .

على أن العمل العقلي إنما جعل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة وقمعها لا لتبنيها وتقويتها ، وإني أرى - خلافاً لأولئك المعارضين - أن في التفريق السلي بين الصنفين خطراً على الفضيلة ، فإن فرط الاحتراس والاحتياط الصادر عن الرياء والنفاق لا يكون منه إلا دعوة الفساد إلى الاحتيال للتطرق إلى الأخلاق من سبيل الشر فلا يلبث أن يظهر فيها . وإن كثرة بث روح الحذر في أطر المعاملات وأعفها توقظ في اليافعين ما هو نائم من شهواتهم ، وتظهر ما يكون كامناً من أشواقهم ، فينبغي أن تزال هذه الحدود المادية ويعتاض منها بحدود الله التي فطرهم عليها وجعلها في نفوسهم سياجاً لما فرضه عليهم .

لأأريد مما تقدم أن الذكر والانثى في التربية سيان يصلح لأحدهما كل ما يصلح للآخر ، كلا ! بل كل منهما يقتضي تربية خاصة لاختلافهما في المواهب والفروض والغرض الذي خلقا لأجله . على أننا نرى النابغين والنابغات من الصنفين يتكافؤون ويتناسبون في بعض ذرى العلوم والفنون الجميلة والشعر ، فالأجدر بنا أن نفكر في أعداد الأزواج بين ما أوتيته الانثى من رقة الوجدان ، وما أوتيته الذكر من حصافة الجنان ، فإن في ذلك لذة حياة الصنفين ، وإن في تربية شطري النوع الإنساني منغزلين كأنهما لا يشتركان في شيء مما خلقا لأجله تعجيلاً بقطع الصلة الاجتماعية ، وأما تقديم الصبية إلى الصبي وتفهيمه أنها ستكون له في مستقبله رفيقة في العمل

والكدح في سبيل الخير والعدل والحق فهو أكثر انطباقاً على مقتضى الفطرة وعلم الاخلاق ، وعلى كل حال ستتعلم « لولا » و « اميل » معا الى ان تقتضي الحال التفريق بينهما ، واني لا أرجو لكل منهما خيراً كثيراً من وراء هذا الاقتران العقلي . اهـ

المشذرة الرابعة

الجزيرتان - والتعليم بضرب الامثال

يحسن أحيانا في حوار الاطفال ان يكون تفهيمهم الحقائق على طريقة ضرب الامثال .

سألني « اميل » منذ أيام : لماذا وجد في الناس فقراء ؟ وبدا لي من « لولا » كثرة اهتمامها بمعرفة العلة في ان فيهم أغنياء .

جرت على الالسنه جواب مشهور لهذين السؤالين وهو « ذلك ماأراد الله » وما كنت لاجيئها بمثل هذا التعليل ، لانه فيما أرى ليس من شأنه ان يؤدي الى أذهان الأطفال معنى كبيراً لعدل الذات العلية ، وما كنت أيضا لأدخل معها في أعوص مسائل علم الاقتصاد السياسي وأضعفها . من أجل ذلك رأيت ان أحسن جواب أخرج به من هذه الحيرة أن أقص عليها قصة فقلت

روى انه كان يوجد في مكان سحيق من بحر لست على يقين من معرفته جزيرة بني فيها الأغنياء قصوراً من المرمر وزرعوا في أرضها بساكنين وحدائق ذات بهجة ربوا فيها من الأزهار ما يندر وجوده في غيرها

واحتفروا بركا توفيراً لأسباب اللذة، ولم يكن في الدنيا ما يعادل زخرف موائدهم، فقد كان يطاف عليهم بصحاف من الذهب فيها أقشار ضخمة طبخت بمرقة سرطان البحر (وهو ألذ ألوان الطعام في ذوق « اميل » !) وكانوا في لباسهم بالغين حسد الافراط في التألق خصوصاً نساءهم وكان أولادهم يلعبون الكعبة ^(١) في الميادين العامة بكرات من الماس

وأما فقراء تلك الجزيرة فكانوا يمشون حفاة. وكانت صباياهم تغدو كل يوم في أسمال من الثياب فتطوف بأبواب الاغنياء التماساً لما ألقاه خدمهم من قمامات موائد العشية . ولم يقتصر الاغنياء في سوء معاملتهم على استعمالهم في الاعمال الشاقة الممقوتة بل كانوا يحتقرونها، وبلغوا من ذلك الى حد انهم كانوا يحظرون على ذوي الثياب الرثة منهم أن يوجدوا في المتنزهات العامة، ولم يكن لهذا الحظر من سبب سوى خوفهم على بسطها السندسية أن تدنسها أقدامهم، أو خشيتهم أن يكون منظر رؤسهم قذى في عيونهم، وهذا هو الأقرب الى الحقيقة

من أجل ذلك كله غادر الفقراء المدينة ذات ليلة وآووا الى جبل ليأتمروا بالاغنياء، فكان رأي الشبان منهم أن يأخذوا أسلحتهم ويسطوا عليهم وهم نيام في مضاجعهم ويقتسموا أموالهم، فقام من بينهم شيخ حكيم وتربص بهم حتى قرت شققتهم، ثم قال : إياكم أن تفعلوا من ذلك شيئاً لاسباب ثلاثة أبدىها لكم : أولها أن الاغنياء يقوم على حراستهم في صروحهم

(١) الكعبة بالضم والتشديد لعبة : يأخذ العبي خزفة فيدورها ويجعلها كأنها كرة ثم يتفامرون بها وتسمى هذه اللعبة في الحضرة باسمين قاما الخزفة فيقال لها التون وأما الآجرة فيقال لها البكسة

خدم هم شر منهم، وكلاب أضرى من الجراس أنفسهم. ثانيها اني لا أعنقد ان سطوكم هذا عليهم وسلبكم لأموالهم يكون من العدل، لانهم قد كسبو هذه الاموال التي تحسدونهم عليها أو كسبها أسلافهم من وجوه شريفة أو خسيصة ثم ملكوها من بعدهم بمقتضى قوانين - أرى مع كوني لأدرك كنهها كمال الإدراك - انه لا بد لوجودها من سبب لان جميع الناس محافظون عليها مطيعون لاحكامها حتى الآن. ثالثها أن مايجوز أن تنزعوه اليوم من أعدائكم بغلبتكم عليهم يجوز أن يسلبه غداً منكم غيركم بقوته وضعفكم، فعلينا اذن أن نفكر جميعاً في اتخاذ وسيلة أخرى: لا بد أنكم سمعتم بوجود جزر أخرى في البحر غير هذه الجزيرة التي قضى علينا نحس طالعنا بالولادة فيها، فقد حكى لنا فقراء الملاحين اخواننا الذين يحضرون الى هنا بسفينتهم مشحونة بالارزاق ومواد الزخرف التي يستعملها الاغنياء - أنهم رأوا غير مرة في أسفارهم أرضين تنهد من الماء مكحلة بالنباتات والاشجار الكبيرة المثمرة ، ويستفاد من حكايتهم أن احدي هذه الجزر خالية من السكان ولا ينقصها الا ارادتكم حتى تصبح جنة جنة النمار دانية الجنى ، فان لنا سواعد قوية تساعدنا على العمل وهأنا ذا مع شيخوختي سأكون لكم قدوة فيه وأمدكم بنصائحي عند الحاجة ، هذا هو رأيي قد أفضيت به اليكم فانظروا ماذا تفعلون .

فتلقى جميعهم نصيحته بالقبول وما عثموا أن هاجروا الى تلك الجزيرة متعاقبين على سفن واهنة صنعوها بأنفسهم من ألواح خصاصهم ، فتمثل الاغنياء فرحاً لسفر هؤلاء الفوغاء ولم يستطيعوا كتمان فرحهم بل كانوا يصففون ويجهرون بقولهم : حمدا حمدا هذا الخلاص

قلما كانت تلك السفن تقل الا أشخاص المهاجرين لانهم كانوا لا يملكون شيئاً . أستغفر الله ! بل حملوا معهم فيها أدوات عملهم .
مضى على سفرهم بضع سنين انقطعت فيها أخبارهم واختلفت أقوال أهل الجزيرة في شأنهم ، فمن قائل بأن البحر ابتلعهم ومن واهم بانهم أكل بعضهم بعضاً ، وبينما هم في هذا الاختلاف اذ رأوا ذات يوم سفينة مشحونة بالغلال وعروض التجارة رست على ميناء جزيرتهم ، فلم يلبثوا ان عرفوا من لهجة ملاحيها وبعض ملاح وجوههم انهم من سكان السالفين ، وقد أخبرهم هؤلاء الملاحون انهم آتين من جزيرة أخرى استقامت فيها أمورهم ونجحت نجاحاً عظيماً ، لانهم ما حرثوا الارض وأحيوا مواتها حتى جللتها الحصاد وملأتها المزارع والمواشي ، فاعتبر الاغنياء هذه الاخبار من الاساطير وقهقروا اسماعها فهقمة المجانين .

على ان الملاحين لم يكونوا مبالغين في شيء مما قالوا ، فانه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة القفرة على نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع ، وكان سكانها في معيشتهم على وفاق تام لانهم كانوا منها في غبطة وهناء وقد ضربت عليهم السكينة رواقها ، فكانوا يعتبرون أبناءهم بدوراً خلف أرقى وأكثر منهم ، ولذلك كانوا يبكرون بتعليمهم العمل وانشائهم على حبه .

أصبح الامر على خلاف ذلك في جزيرة الاغنياء ، فكانت الثروة فيها تنقص من يوم الى يوم ، لان سكانها لما كانوا من فرط الكبر والكسل بحيث انهم يستنكفون أن يتولوا بأنفسهم حرث الارض لم تلبث أن امتلأت عاقولا ، وتعطلت جميع الحرف والصنائع لفقد عمالها ، وتبع ذلك زوال مواد

الزخرف، وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يقيم مُنْأَدها
فزع الاغنياء في بداية هذا الانحطاط الى صناع الجزائر المجاورة لهم
فلم يجيبوا دعوتهم لانهم كانوا على بينة مما كانوا يماسلون به اخوانهم فلم
يرضوا لانفسهم ما قاساه هؤلاء من ضروب الاهانة .

ثم ان من بقي في الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيراً من
الذهب والفضة ، وانهم اشتروا من التجار الاجانب كل ما كانوا في حاجة
اليه مدة من الزمن ، ولكن كل كنز لا بد من نقاده بالغاً من الكثرة ما بلغ
خصوصاً اذا كان أصله لا يتجدد ، ومن أجل ذلك لم يمض الا بضع سنين
حتى غاضت أموالهم ، وأنشأوا يندمون - ولات حين مندم - علي ما فرط
منهم من القسوة والظلم في معاملة الفقراء .

صاروا الى حالة محزنة جداً ، فقد تخلى عنهم من كانوا يحوطونهم من
الخدم والحشم لعجزهم عن دفع أجورهم ، وعجزت خيلهم عن جر عجلاتهم
لفقدائها من كانوا يقومون على تغذيتها واصلاح شأنها ، وكانت نساؤهم ترى
في الشوارع متعلات نعالاً من الديباج مشوهة الاغقاب ، ولا بسات
جلابيب من الحرير المذهب كلها ممزق ومخرق ، لانه يخجل اولئك السيدات
الجليلات ان يرقعن ثيابهن بأيديهن ، فاذا نظر اليهن ناظر وهن في هذه
الاهدام بهذا الصلف والعجرفة دعت حالهن الى الضحك والاستهزاء بهن لو
لم يكن من القسوة واللؤم الاستهزاء بالتعساء البائسين ولو كانوا من الاشرار .
وجملة القول ان جزيرة الاغنياء المترفين قد أصبحت جزيرة الفقراء
المقدمين . كان القحط يزداد فيها من سنة الى أخرى ، فقد ضعفت الارض
عن التحصيل لعدم ما كان يخدمها من الايدي ، وكاد الاغنياء يموتون جوعاً

في صروحهم ، ولو لم يتداركهم أولئك الفقراء الذين أخرجوهم من ديارهم
بالافراط في سوء معاملتهم وبساعدهم بما فضل عن حاجتهم لهلكوا على
بكرة أبيهم .

كان « اميل » كثير الاصغاء اليّ في حكايتي لهذه القصة وما فرغت
منها حتى ابتدرني بقوله : يستفاد من القصة اذن ان العمل هو سبب الغنى
والثروة ، فاجبته : ان هذا ليس مطرداً ولكن أقل فائدة له انه يغني الامم
التي تعرف منهاج العدل وتسلكها . اهـ

الشدرة الخامسة

الخط الديواني

أنشأ « اميل » يخط بالقلم خطأً مناسباً لحاله ولكنني في شك من
جريه على قواعد الخط في شيء مما يكتبه .

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية ، وكان يدل على
حالة من أحواله سواء فيه الحسن والقيبح ، ولذلك وجد متوسمون يعقدون
انهم يقرأون في خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعدادة النفسي ،
ولا بدع في هذا فان كل أعمال الانسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه ، فلا
شيء من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى في أن يكون الخط
- وهو الاثر الدقيق المثبت لصنوف الوجدان وأنواع المعاني على الورق -
سمة من سمات النفس وامارة من امارات الطبع ، يشهد لذلك أن كثيراً
من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا في حياتهم طريقة منهم في صوغ

حروفهم عدة مرات ، فلا يمكن أن يكون هذا التغير — الذي يحق لنا المراهنة على حصوله — بغير شعور منهم أجنبيا عن بعض استحقاقات حصص في عقولهم . ومن الامور التي اعتقد الباحثون في هذه المسألة انهم تنبهوا اليها ولا حظوها ان أقرب أطوار الكاتب الى الفطرة هو ذلك الطور الذي يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات اليها أيضا .

اخترع الناس في هذه الايام للخط طرقا لاشك ان لها مزية في تهذيبه وتقويم يد الكاتب ، ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض ، فنحن في هذا القرن — قرن السكك الحديدية والاقلام الحديدية نسارع كلنا الى تحقيق الوحدة في كل شيء ..

لو أن هذا الميل الى الصناعة اقتصر على امارات الفكر وقوالب المعاني لكان الخطب هينا ولكنه لم يقف عندها بل تعداها الى الفكر نفسه . أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هي التي تعوزنا فقد وجدت طرق سهلة صيرت مبادئ العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس ، وكل يوم يتحدث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا ، وهو أمرنا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه . ولكني لا أرى عليّ حرجا ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الانسان في هذا القرن الى مدارك أسمى مما بلغه في القرن الثاني عشر ؟ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي الى العمل والاخلاق الممتازة التي تجلّى في صورة مجتمعه المظلمة والاعمال البديمة أكثر مما كان له في ذلك القرن ؟ هل ارتفعت قوة الادراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وأأسفى ! أننى التفت حولي عراني الذهول ، وملكني الدهش لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم ، وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الايام حتى عمّا السابلة والغوغاء ، ولو أنهم قالوا : ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده ، لكان هذا القول أصح وأقرب الى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل الى طريقة بديعة في الاكثار من الدوايب والآلات المحاكية للفكر ، وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزيمة ، وأزهق التكلف في آداب اللغة روح الالهام والسليقة ، واستنزات الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشهما وحلا محاهما ، فترانا الآن مسوقين بلا شعور منا على طريق عام الى محو ضروب الفضل والرجحان في العقل والخلق محوا تاماً فعليك أيها الانسان من الآن ان تقنع بأن تكون لجميع الناس . ولا شك أن هذه الحالة التي عليها العقول الآن ترجع الى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا ، منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية ، ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم ، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب الى ستر عيوب الاطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريمة التي تكاد تكون آلية محضة ، أقول : انها أقرب الى ذلك منها الى قصد اكتشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها ، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم الى أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا نافعين وهو الواجب ، بل يعملون غايتهم الارثقاء

الى المناصب ونيل الغنى ، ويقتضون منهم أن يبلغوا اليها . وهم بذلك يكبرون بحمل الاحداث على أن يتبينوا أن المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة المدارس

(مذهب تشغيل المعلمين بالاعمال المادية الشاقة)

توجد في بعض المدارس بانكثرة عادة قديمة يدهش منها الاجانب كثيرا وهي ان التلاميذ - فيما يوجد منها بمدينتي اتون وهارو وهي التي يدخلها أبناء السراة غالبا - يخدم بعضهم بعضاً ، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقا بمكانة التلميذ في قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم ، بل بالاقدمية وبعض الدرجات المدرسية ، فيجوز أن يلزم الطفل الغني السري تنفيذ ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وإيقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه اليه في قاعة الدرس ، فيقع إيجاب الخدمة على من تجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذي أستعججه من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التبعية الذاتية ، فان الاقدمين من التلاميذ يسرون أحيانا مع من يمدونهم خدما لهم من اخوانهم سيرة في غاية القسوة ، حتى انه ليقع منهم في حقهم ما نقرأه في قصص مولير ^(١) المضحكة من الشتائم

(١) مولير هو أكبر شاعر قصصي فرنسي ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات

في سنة ١٧٢٣ مسيحية

وضربات الأكف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالى على خدمهم بأرجاحهم وأيديهم الخفيفة الحركة . أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صُبراً على الذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين . وهكذا شأن الدنيا وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو والظفیان من سلف الى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً في هذه الطريقة ، فانه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم . ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالي الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين . ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته الى جماعات من العلماء واليا فعين منقسمين الى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطري ، لانهم كانوا في هذه الاعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم اما لبادا أو كناسا أو وقادا للمصاييح او موقظا لآخوانه في الصباح أو منظما لقاعة الدرس ، وكانوا يتناوبون خدمة المائدة ، وكانت الاعمال المسخرة التي تمتضي أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضا في نظر التلاميذ . لان رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم الى مباشرتها . ولينك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس المفرح الذي يبديه كل تلميذ في القيام بعمله الذي كأنه فرض اختياري أوجبه على نفسه . كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ انها كانت تسلية لهم من عناء الدروس ، لانه كان من رأي رئيسهم ان في المراوحة بين الاعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق

ذلك أن يلقي في نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوي ، فإن الانسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه .

تعرض لي في بعض الاحيان أحوال تحمائي على اعتقاد أن ماندعيه من حب المساواة ليس الا زياء وتفاقا ، لاني لدرى من لا تقتر ألسنتهم عن اللهب بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها في أعمالهم ، فالطفل الذي يرى في المدارس أو البيوت أناسا استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعاً ان الاعمال الشاقة أو الكريهة هي من حظ الطبقة السفلى من قومه ، ولا يفيد في محو هذا الاعتقاد من نفسه ان تحدثه في المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة ، فانه يعلم كمال العلم ان ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ، ولما كان يتوسم في والديه انهما يعدانه لان يكون من العلماء ويكفيانه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الاعمال التي من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه كان رأيه في هذه الاعمال لا بد أن ينتقل الى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون الا كثير الانسياق الى احتقار جميع الصناعات والزراية عليهم .

صممت أنا وهيلانة على تكليف « اميل » أن يعمل كل ما يلزم لفراشه وحجرتة وثيابه ، ولا أكره ان أراه يسمح نعليه ويسوي عند الحاجة طعامه ، فان الفائدة التي تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الاعمال ، بل فيه أيضاً تنمية لحيته الشخصية بتعويده الاستغناء عن مساعدة غيره فالاسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه .

الشذرة السابعة

رؤيا منام

(فيما يجب أن تكون عليه التربية وفي آثارها اذا كانت كما يجب)

رأيتني ممتطياً جواداً أسبح في بلاد مجهولة لا أدري أهي من الدنيا القديمة أم الجديدة، ولسكني بحسب ما بدالي من ظواهرها أرى أنها لا بد أن تكون واقعة على تخوم بلاد الالدرادو^(١) أو الاوتويا^(٢). بصرت في طريقي بحظائر مسيجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترة التي لا توجد قط في مراعيها - تسوم آمنة لا كلب يحرسها ولا راعي يراقبها، ولاحظت في انتظام طرق الري في هذه البلاد وحسن توزيع الماء بين جهاتها - على نمط يثير الاستحسان ويدعو الى الإعجاب - انه كان من مزاياه امتلاء جو ريفها بالنسيم البارد المنعش على مافيه من حرارة النهار . وشاهدت سلاسل من الهضاب متكئة بالأشجار كأنها في تنابُعها واتصال بعضها ببعض تخط للرياح والسحاب طريقهما . ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله

(١) الالدرادو كلمة أسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطاً من مدينة بيزار اكتشفها في أمريكا الجنوبية وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الأرض شيء كثير ثم أطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم (٢) الاوتويا كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن ما يتخيل من النظام ووصفها كاتب اسمه توماس موريس في كتاب له .

آثار النعمة والاعتباط . نساؤه حسان وولدانه أسوياء أصحاب الأبدان
يشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلًا قويًا بأسلاً .

ثم رأيت حواضر هذا القطر ولم اكن لرؤيتها أقل مني دهشاً لرؤية
قراه، ومما أرشدت اليه في احداها بنا أن كأنما أقيم في عصر يسميه أهلها
الآن عصر الهمجية، أحدهما سجن والآخر مأوى للمساكين، وقد أصبحا
من أهلها خلاء لعدم اللصوص والبائسين، ومع انهما لم تبق لوجودهما
فائدة حفظهما القائمون على شؤون المدينة ليكون فيهما ذكرى لتاريخهم .

حدد في هذه البلاد ما للناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما
للحكومة وما عليها من ذلك، وامتاز بعضه على بعض امتيازاً بيناً، ولهذا تجد
الرايا لا يولون حكامهم من شؤونهم الا ما ليس من مصالحتهم أن يتولوه
بأنفسهم، وحقيقة الامر ان القوانين فيها على قلتها جداً وصدورها عن رأي
من اختارهم الامة نواباً عنها لا سبيل لها الا على ما كان من الاعمال متعلقاً
بالحكومة، ولما كان الناس جميعاً هم الذين قد سنوا لانفسهم هذه القوانين
لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الامتثال لاحكامها حقاً وسخفاً على انهم
يؤمنون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث اضواء العرفان .

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره، النافذ قوله، ولم يعهد أن ملكاً من
الملوك المتنعين في صياصيمهم، المعتزين بمحصونهم، كان له من المعامل والمتاريس
ما يعادل ما يحيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة، وأنواع الضمان
المؤيدة له، القائمة على اعزازه، فالقوم أحرار يتفكرون في كل ما يكتبون
ويكتبون كل ما يفكرون، وقد يدعشهم كثيراً على ما أرى - أن يعلموا أن
فوق الارض أمماً في قدرتها أن تستسلم لحاكم، وتلقي بنفسها في قبضة ظالم .

لاقيت في هذه المدينة شيخاً - لا اذكر أين ولا كيف لاقيته - وقع التعارف بيني وبينه فأخذ على نفسه ان يشرح لي نظام حكومتهم ويطوف بي على المعاهد المدة للمنافع العامة لاني لم أر في المدينة قصوراً بنيت لبعض الافراد توفية لاسباب لذاته ولا مسالح ولا دوراً للجيش ولا مواخير للفحش . لما راقتني ماشاهدته قلت للشيخ هل لك ان تخبرني باسم ذلك الواضع الكبير الذي سن لكم هذه القوانين ؟ فتبسم ضاحكاً من قولي وقال : أراك آتياً من عالم آخر ، فاعلم أن قوانيننا ليست من وضع البشر ، واني أراني الآن مضطراً الى أن أقص عليك تاريخنا في كلمات قلائل فاستمع لما أقول : اننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالا من غيرنا من الامم ، وآخر ملك تولى علينا ولم نذكر منه شيئاً حتى اسمه (لان النسيان أحسن عقاب للمسيئين الاشرار) خلع من عرشه بعد حكم أسخط عليه جميع رعاياه وألبهم على نبد طاعته والخروج عليه ، ثم عرض الثأرون بعد خلعه صوراً مختلفة وأشكالا متنوعة للحكومة ، وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا ان آباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية تراجعوا وقال بعض لبعض : ان الاولى لنا أن نرجع الفصل فيما شجر بيننا ، وان تترك لاعقابنا النظر لا تقسم فيما هو خير لهم ، فانه لاخير في أحسن الاوضاع ولا في أعدل القوانين ان لم يجد في أخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها ، وحينئذ اتفق القوم على أن يبقوا من قوانينهم القديمة اكثرها مطابقة لحكم العقل حيناً من الدهر ، وأن ينشؤوا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والاخذ بها . ثم لملك لم تر مدرستنا انها أصل نظامنا السياسي فيها بنا اليها .

أخذني الى مكان على مقربة من المدينة فما هو الا أن تجلي لنظري في

أشعة الشمس المشرقة قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء قد عادل اتساعه وانفساح ارجائه ماله من الفخامة والجلال لو أردت أن أصف لك جملة تعييت بذلك . بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة، وبلغ من الازديان بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون الى حيث ان جدرانها كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم لكون ماحوته ينقش على أذهان التلاميذ ومشاعرهم ، وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلاً من أجيال الانسان، وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأثر القلب وتأخذ باللب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف فتجد حوله الآجام والصخور ومساقط الماء وتحت البحر .

وقفت على إحدى حلقات الدروس فاذا بعلمان يمارسون أنواع مختلفة من الرياضات البدنية كالمصارعة والعدو والرمية بالقوس، وأكثر مدهشت له في هذه الحلقة أن معلمها كانوا من هنود أمريكا الحمر الاصليين كما تبينت ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية . قال لي الدليل : إن هذه القبيلة المتوحشة لم تأت الى بلادنا الا من عهد قريب ، وانما جذبها الى حدودنا حسن أخلاق قومنا ورقة طباعهم ، فاننا لم نعتبرهم أعداء لنا كما يفعل غيرنا، بل دعوناهم الى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم الى ما تحصله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار وجعائها على البسداوة . ولما كننا لانجهل ما لهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق، فقبل فريق منهم ذلك منا ، وهام أولاء الآن يروضون أبناءنا على احتمال الآلام الجسدية غير مفضين من جباههم ، وعلى استعمال أبصارهم وأسماعهم في اجتناب

لم ينصب لهم من الجبائل ، وابطال أثر ما يكاد لختهم من المسكايده ، ويعودونهم
البسالة في ثني أعضائهم وليها موافقة لسلطان الارادة وتعرف أخلاق
الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية .

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم - كما قلت - الى
دارات مختلفة للتربية والتعليم شهدت أحداثا عياد التي تقام في هذه الدارات
التاريخية أو العلمية من حين الى حين فخل لي اننا في أثينة (عاصمة بلاد
اليونان) ان لم أكن وأهبا ، وأبصرت قلعتها المسماة بالاقروبول شاخصة
أمامي على صخرة يعلوها معبد وتماثيل وآلهة صنعت من النحاس الاحمر
والمرمر ، ورأيت في الجانب الغربي لهذه القلعة دهايزها التي أقامها
بريكليس^(١) وكنت أشاهد طوائف من الفتيان في ازياء يونانية يشخصون
اليونان في أطوارهم وأحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة ويتكلمون
بلغتهم ويمثلونهم في تنزههم في المدينة أو غدوهم في مرافئ بيرية^(٢)
ومونيخي^(٣) وقالير^(٤) فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحالم ، وأقسمت
بأثينيه بروماخوس لا كتتهن هذا السر .

فلما رأى صاحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة ما رأيته قال لي : ان الامر
في غاية السهولة : ذلك أننا لما تبين لنا بالاختبار أن التاريخ في تعليمه للاحداث
يمر بأذهانهم مرور الظل غير تارك له فيها آثاراً يذنه اجتهدنا في أن نجعل
له جسماً محد فيه صورته فترى تلاميذنا لا يتصرفون في تعلمه على مطالعة

(١) بريكليس أحد رجال حكومة أثينة الاندمين (٢) و (٣) و (٤) بيرية

ومونيخي وقالير كلها مدن يونانية فيها مرافئ

ما كان في العصور الخالية ، بل هم يعيشون في تلك العصور . فقلت له : لا بد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المماهد . فكان جوابه أنها غنية لمهارتها في طرق الكسب ولا أنها هي التي تدبر نفقاتها بنفسها . على اني أرجو أن لا تخدع بما تراه ، فإن ما تظنه بذلاً للمال واسرافاً فيه هو في الحقيقة تدير له وتوفير ، ولو صح ما نسمعه عن أوربة القديمة لكان ما تنفقه أممها على حكوماتها في جانب التبذير ، وما تنفقه على التعليم العام في طرف التقشير ، وأما نحن فأمورنا تجري على خلاف ذلك ، فحكومتنا لا تكلفنا أو لا تكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل أرزاقنا على مدارسنا ، فكان لنا بالسير على هذا السنن ما يسمى في عرف التجارة صفقة رابحة . والله طريقتنا في التربية ! فأننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت وغيرها من الاثقال التي توقع الحكومات في مهواة الفاقة وتؤديها الى الخراب .

هذه الامة التي ضل عني الآن اسمها لا تقصد في تربية عقول أبنائها وتقوم طباعهم الى اعدادهم لأن يتبعوا في مستقبلهم نظاماً مقررأ كائننا ما كان ، بل قد عقدت النية على ان تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات ، فبعثها إقدامها على أن تعهد بمستقبل بلادها الى معارف الاجيال الجديدة وعلومهم ، فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما ان للحكومة قوانينها ، وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه ، وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة ما ينحلي به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل الى التأديب ، ولكنهم

لا يسلّمون عليها بما يقتضونه، فالمخالفون يحاكمون الى محكمة ينتخب أعضاؤها من اخوانهم لمدة معلومة، ومن مصلحة هؤلاء الاعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وأن لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والفرس لعلهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في المآل. ويقوم امام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار، ثم يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام، وما يحكم به من الجزاء يصير على كونه غاية في الخفة شديد الارهاب والزجر، لانه يؤدي الى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لامن معلميها فقط.

يقيم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر منها غير قسم الصبيان، ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهارا.

قال لي الشيخ: إننا نعمل كثيرا في طريقة تربيتنا للناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس، فمن اللاتي نعهد اليهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على التلاميذ، فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم امامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة، والمستعدين منهم لان يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويشير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حربا عوانا، كل ذلك في سبيل ارضائهن وهيج اعجابهن، ولما كان المعروف فيهن انهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كل ما تعلموه المدرسة تطيب أنفسهن بالركون الى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقى والتصوير،

فاذا صرن محكمات في الذوق أعلن حسان الاعمال ونوّهن بقدرها وتوجنها تاج الشرف والفخار. كذلك يعتاد احداثنا أن يستشيروا النساء ويستترشدوا بأرائهن ويلتمسوا تصديق وجدانهم لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم من ترقيهم منهن دلائل استحسان هذه الاعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة وينشئون على أن يعتبروا عيون ربّات الجمال مرايا تتمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أدائها .

لا يزال صدى الكلمات الاخيرة التي سمعناها من ذلك الشيخ يرز في أذني ، اذ قال لي في نهاية حديثه : « لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا ما لا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهش والعجب فحسبك أن تعلم كيف اننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود المذل والبؤس والاستعباد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة ونفياً لحرارة الحياة، وأن تعرف أن الامم الحرة انما تنشأ برجالها الاحرار ، وان آباءنا لم يخطئوا أن التمسوا في وجدان كل انسان أقوى ناصر على الاستبداد، لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجودا، فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الاحداث وجدان العدل والحق الذي لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانوناً نظامياً في كتاب ربما ان رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد، وجملة القول إن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل المدرسة هي التي توجدنا وتنشئها . »

الشذرة الثامنة

تجلى العلم في العمل

زرت بالامس أنا واميل و«لولا» مسبك قصدير في بانزانس واقع على ضفاف خليج الجبل ، ولست أقضي العجب من منعطف هذا الخليج الذي كأنه في عظمه وجماله صدر تيتيس^(١) أحاطت به السكة الحديدية فجعلت له من شريطها قلادة . يوجد المسبك تجاه الخليج ويتألف بناؤه من أماكن قديمة تقوم على أعمدة من الخشب يغطيها سقف من البلاط الاسود لا يتردد الناظر اليها في ان يحسبها سقائف لانخفاضها وانقراجها للرياح من كل ناحية .

رأينا في احدى السقائف أكواما من تراب أسمر يسمى بمعدن الحجر جمعت فيها ووزعت على غير نظام ، وتختصر أعمال المسبك في احالة هذا التراب الادكن الى معدن يطلبه التجار كثيرا .

كانت زيارتنا للمسبك في نحو الساعة التاسعة من المساء أي بعد غروب الشمس بزمان طويل في ليلة ظالماء كان يتخال ظلامها بصيص نار الافران التي بنيت بالآجر وجعل لكل منها باب حديد في وسطه ثقب مستدير كأنه حذقة من نار .

يصهر القصدير وبعد مكابذته محنا مختلفة يتجرد مما كان متمزجا به

(١) تيتيس جنية من جنات أساطير اليونان

من المواد المكدرة لصفائه، وهي الحصى والكبريت والنحاس فاذا تم ذلك جاء وقت صبه وهي الساعة المشهودة : يخرج هذا المعدن الثقيل الصافي من ثقب في أسفل الفرن وقد بلغ من الحرارة درجة البياض، ويسقط في خاية من الحديد المصبوب، فيذكر الناظر ساعة باستدارة سطحه ولمعانه القمر في احدى ليالي الصيف أبيض ساطعاً .

اذا صب القصدير في الخاية آخر مرة (ولا بد من اذابته أكثر من مرة) ألقيت عليه أغصان من الشجر الأخضر خصوصاً أغصان النفاح فنفوره وتهمجه وويل حينئذ للعمال والناظرين الذين لا يبادرون بالابتعاد عنه لينفوا عوادي هذا المعدن الغضبان، ذلك ان فقايع الهواء التي تنفصل منه ترتفع معها قطيرات محرقة تسمع لها نشنشة تنبجس من كل ناحية انبجاس الشرر من باقة نار الزينة .

لاجرم أن « اميل » و « لولا » لم يدركا السر الكيماوي في جميع هذه الاستحالات التي تعادرت معدن الحجر قبل صيرورته قصديراً، بل ربما لم يحصل في ذهنهما من مجموع ما حصل من الاعمال الامعنى في غاية الابهام ولمكن قد شاقهما من هذا المنظر جدته فانهما رجواني ان آخذهما الى المسبك مرة أخرى .

أرى أن القائمين على تربية الناشئين قد أفرطوا في التفريق بين العلم وبين ما يربطه بالصناعة من الروابط، ومع كوني لا أنكر أن ما في المدرس من المعامل الكيماوية والمجموعات التعليمية والدروس العامة هو من المساعدات العظمى على التعليم، واقصد قصداً أكيداً أن أسنعين به على

تعليم ولدي في مستقبله، تراني أفضل الآن أن أختلف به الى معهد آخر
تتمثل فيه امامه الاعمال ونترأى له الواسع .

زرنا معاً متحفاً من متاحف الدفائن الآثرية في بانزانس وهي ليست
كبيرة في بلاد كرنواي والكثير فيها انما هو المعادن النفيسة كالرصاص
والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن الحجرية الغريبة فلم يلفت ذهن
«اميل» ما في خزائنه من قطع هذه الدفائن المرتبة الا قليلاً، وأما «دولوريس»
فأخص ما استرعى نظرها ما يوجد فيها من فلذ البلور وبعض الحجارة التي
لو تناوأتها يد الصناعة لصارت من مواد الزينة الجميلة .

ثم أخذنا طريقنا بعد ذلك بأيام الى منحة كبير يمتد مكشوفاً على
ضفاف المحيط بين جبال من الصوان بعجتها يد الانسان فكان رآه في
نظر الغلامين أحسن من جميع متاحف الدنيا .

ففرق عند الطفل بين أن يرى من وراء الزجاج معادن حجرية رتبست
في رواق ترتيباً خالياً من دواعي التأثير وبين أن تتمثل أمامه الصخور في
وضعها الطبيعي ويشاهد الارضين وقد شاه وجهها وانقلبت ظهراً لبطن،
وكتل البلات الاسود والرخام السماقي في جسامتها المريسة وقد تناوبها
المصدع وبارود المدفع فأوسعها صدعا وأشبعها كسراً، وقد هاج شوق
«اميل» منظر أعمال النحت هياجاً شديداً فطفق يخاطب النحاتين ولا
بدع فالانسان في سنه لا يستنكف أن يخاطب كل من يراه لان قلبه
حينئذ لا يكون أفسده الكبر . وقد استفاد من محاورته معهم ، فلم تذهب
عليه عبثاً . وان فتى ايقوسياً اسمه «هوج ميلار» صار من أشهر العلماء في
بريطانية العظمى ببركة تكسيره الاحجار ونحتها من منحة حجر رملي

قديم ، واستولى استيلاء المالك على اقليم ذلك المنحت الحافل بالدقائق
الاثرية وأصبح اسمه كأنه علم له .

ربما احتذى « اميل » مثل هذا العالم اذا زرنا معا اقليم « ديفونشاير »
فاعتضد المطرقة وحمل المنحات ، فاني أراه مدفوعاً على ذلك بسائق الطبع ،
لانه يشتهي كغيره من أثرابه أن يهجم على ما يلاقيه من العقبات فيدبره
ويزيله ، ولان الدقائق الاثرية التي يستخلصها الانسان بنفسه من الصخرة
أغلى في نظره كثيراً مما يجده منها رتباً في المتاحف ، ذلك لان آثار الاجسام
المضوية تكون غالباً من الاختباء في باطن الحجر بحيث إنه لا بد قبل
استخلاصها من تمييزها منه ، بل ربما صح لي ان أقول : إنه لا بد من تخمين
وجودها بما يبدر من تحت غطاءها الجافي من سمة تدل عليها أو طرف من
أطرافها ، ثم إن الصخرة تارة تكون صلبة فتقاوم منححات الناحت وتحتمله ،
وطورا تكون هشة افئلاشى وتفتت ، وفي كلتا الحالتين يهدم الخرق
والخطأ بنقرة واحدة عمل الدهر في قرون كاملة ، وما أكثر ما يتعلم الطفل
في هذا الجهاد ! نعم ان « اميل » سيضل فيه غير مرة وسيتفق له أن يخسر
لقطاته أو يعيبها على حين اعتقاده أنه حصل عليها سالمة من كل نقص ،
ولكن لا شيء في هذا فان مثله من اليافعين اذا غابته العقبات المادية وجد
عليها وبمشه ذلك على الانتقام لنفسه منها فلا يلبث أن يظفر بها .

كأن مشاهدة المناحت واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات
الارض الى فن العمارة فسيدكر « اميل » اذا عرض له في طريقه ما في
المدن من الابنية العظيمة ان حجارها نحتت من قاع البحار القديمة ، واذا
يرأى للمعابد والقصور أحضر نوع حجارها في ذهنه الصخرة التي نحتت

منها والمخلوقات الغضوية القديمة التي صارت هذه الصخرة رمساً لها .
العلم الذي يحصله الانسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعاً ولكنه
يكون متيناً راسخاً . خذ لذلك مثلاً الزهرة التي تجنى من غور بعد اقتحام
ما كان دونها من العقبات يكون لها في ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون
لزهرة رآها بلا عناء مجهزة محفوظة في إحدى صحف المجموعات النباتية ،
وما يجمعه المرء بنفسه من المحار والصدف على شاطئ البحر يدرب بصره
على ادراك ما يميزه من صفاته الظاهرة أكثر مما يدربه على ذلك ما يوجد
منه مرتباً ومعنولاً في رواق معد له ، فالبحت يكسب البصر واليد دربة ومرة
أنا لاشك في أن التجارب الكيميائية والطبيعية مفيدة لمن منحوا
الميل الى التعلم ، ولكني أرى ان عامة الاطفال قد يبدون من الارتياح الى
العلم معمولاً به في الصناعة ومن الانفعال بما يرونه من آياته فيها أكثر
مما يبدونه لمثل هذه التجارب ، وقلما يوجد معمل من المعامل الكبيرة إلا
وهو أيضاً مدرسة كبرى للعقل ، فما أبهر ما يرى فيه من قوى الطبيعة مقيدة
ومطلقة ! « وكل » مؤلف من عجلات وأسنان تسحق الحجر سحقاً ، وتمضغ
الحديد مصغاً ، وتقطع الخشب قطعاً ، وآلاف مؤلفة من أنباض البخار
الذي يحرك جسم هذا الكل ، وانسان استبدل بأعضائه هذه الاعضاء
الصليية في كده وكدحه ، فحلت محله وجرت على مقتضى ارادته ، وقام هو
عليها يلاحظ مجاهداتها العجيبة بعين قريرة ساكنة . نعم ان هذا المشهد
لا يأخذ أول الامر الا يبصر اليافع ولكنه متى كان فيه شيء من الشوق
الى العلم لا يلبث أن يسأل عن سبب هذه الحركات الاستقلالية ، وعمما

للمواد بعضها في بعض من التأثير المتناوب ، وبالجملية عن سر الطرق التي تحيل المادة الفطرية الى محاصيل صناعية .

ليس أحقر الاشياء أقلها اثارة للشوق في صنعه دائما ، ولا ملاحظته أقل جدوى في التعليم ، فعلمة الكبريت والدبوس والشمعة — كما بينه فاراداي " حق البيان — لها بعلمي الطبيعة والكيمياء تعلق يدركه كل واحد من الناس ويعرفه لأول نظرة .

أنا أعلم ان تحصيل علم عدة من الصناعات والاختصاص به يقتضي أن يعيش الانسان أضعاف عمره ، ولذلك لا أرجو من « اميل » اذا رأى غيره يشتغل بحرفة ان يحيط خبرا بأسرار العمل فيها ، على أن الشبان أقل حاجة الى الوقت منهم الى غيره ، فلو أن القائمين على التعليم أحسنوا في توجيهه الى غايته ماشككت قط في أن الطفل الذي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره يتعلم في المعامل شيئا كثيرا .

وجاء القول ان لدينا في جميع المدن الكبرى بل وفي القرى كثيرا من معاهد العمل التي لو اختلف الطفل اليها لادرك بالعيان والحس بعض قوانين المادة وتعلم حب العامل وتعظيمه . ولكن أقل فائدة له من ذلك ملاحظة طرق الصناعة أو الزراعة ان لم يباشر شيئا من أعمالها يديه وذلك ميزة أخرى له ، فليت شغري هل يصح في نظر العقل أن تفصل هذه النبايع المتدفقة للعرفان وتبخر حقوقها من العناية ، وتكون دراسة الالفاظ هي موضوع الاهتمام والرعاية .

{١} فاراداي عالم انجليزي من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه في الكهرباء

ولد في سنة ١٧٩٤ ومات سنة ١٨٦٧ مسيحياً

المشذرة التاسعة

(اتفاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما)

تناظرت مع هيلانة غير مرة في ضرورة تعليم «اميل» تينك اللغتين واقرائه ما الف فيهما من الكتب ، ولست ذاكرالك من هذه المناظرات الا ماخصها فأقول : الواجب أن يربي كل طفل تربية من ينبغي أن يكون من كبار الرجال فلك هي الوسيلة التي يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم في مستقبله ، ولهذا كان حقاً على المربي أن يعرف طبعه ويبحث في ضروب ميله ويخبّر أنواع استعداده العقلي . ولما كان الفضل والامتياز يحصلان في هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه أن يبحث في هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده .

فالذي أعياه في طريقة المربين عندنا هو اغفال ماللناشئين من القوى وضروب الاستعداد الذاتية وعدم اعتبارها في شيء من التربية . ذلك أنك ترى بعض الناشئين مثلاً قد ولد رحالة ليضرب في الارض ويحجوب آفاقها ، وأخص حاجة له فيما خلق لاجله هي معرفة اللغات الحية لينفاهم بها مع الاجانب في بلادهم ، فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهمتين انقطع التخاطب بهما من على وجه الارض . وترى آخر خلق ميالاً الى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به في بحر من الكتب ماله من قرار ، وتجد ثالثاً أهد للتجارة ورابعاً سخر للزراعة

لا يراعي مالكل منهما من الميل الى ما أعد له بل يتبع في حقها ما قضت به العادة وجرى عليه العرف ، وهو انه لا بد لمن يريد الاشتهار بالعلم في هذه الدنيا من سجنه في المدرسة ثمان سنين . كم رأينا من متعلمي اللاتينية واليونانية من يقضي عليهم بأن لا يتعلموهما في حياتهم لانهم متى خرجوا من المدارس واشتغلوا بمصالحهم قل وآيم الحق أن يخطر ببالهم تصفح كتاب فرجيل ^(١) أو ديوان عمير ^(٢) والنظر في صحفها البالية التي قضوا في مطالعتها كثيراً من ساعات النصب والسامة . ولست أقصد بقولي هذا تجريد أية معرفة من معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقاً . ولكن لا حرج علي أن أرتبت في أن ما يخدمه كثير من التلاميذ من زمنهم في تعلم تينك اللغتين لا يساويه ما يعود عليهم من الفوائد بتعلمهما . أنا أعلم كل ما للمنتصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما ، فله أن يقول : ان معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب لغتنا ، وانه لا يسمع أحداً من الناس انكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير المبارك في عقول الناشئين الذين تغذوا بلبان معارف الاقدمين حق التغذية ، وإن مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية ، وتعارض عصرنا الذي تساوت فيه الناس وانمحت درجات التفاضل بينهم واشتغل أهله بالحقائق الثابتة دون غيرها بمصوّر الابطال وما سما

(١) فرجيل هو شاعر لاتيني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح

{ ٢ } عمير هو أشهر شعراء اليونان الاقدمين لا يعلم مكان ولادته ولا تاريخها

(المنار : كذا كتب المترجم والمربون السوريون يربونه « هوير » ويكتب

بالقلم الافرنجي هكذا « Homer-ere »)

وأفاد من مخترعات الجليل ، وتستمر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الطاهر بدون أن تغير من طبيعتنا شيئاً ، ثم ان بُعد أهل تلك العصور عنا ومباينتهم لنا في الاخلاق والعوائد مما يساءلنا أيضاً على أن نبصر من خلال كتبهم الشعرية ضياء منتهى الكمال المطلوب

وفوق ذلك فان هذه الكتب حافلة بالاناشيد الوطنية التي كان من آثارها ما تراه في عهد الجمهورية الجميل من احتقار الملوك وجر ذيل الخيلاء عليهم ، فلقد كفت نفحة هبت من رومية أو من أثينة في إثارة بغض السلطان المطلق بقلوبنا في القرن الثامن عشر ، فان حكماء هذا القرن وزعماء الفتنة الفرنسية فيه قد استمدوا مما وعوه من الكتب المدرسية أصلح الصور لا يقاط العقول ، وبث روح الحياة السياسية في النفوس ، وكان لخيالات الغابرين في ذلك الجهاد الذي قام في سبيل الحق من البلاء ما كان للاحياء أنفسهم فلا تقل لبني غراقوس^(١) وبرتوس^(٢) وقانون اوتيقا^(٣) انهم قد ماتوا ، بل هم احياء يعينوننا على كفاحنا ، ويعاضدوننا في جهادنا ، ويسمعوننا من أصواتهم ويشهدوننا من أساهم ما يقوي عزيمتنا على السعي وراء الحرية ، التي هي غاية النفوس الأبية .

أنا لا أنازع في أن معرفة اليونانية واللاتينية قد تكون من الرياضات النفسية المفيدة ، ولكني أقول : إن لرياضة النفس وتربية العقل طرقاتي ،

(١) غراقوس حاكم روماني اشتهر في اسبانية ورزق ولدين سميا بالفراقين وكانا من قضاة الشعب (٢) بروتوس أحد قتلة القيصر الروماني (٣) واما قانون اوتيقا فهو حفيد قانون القديم وهو ضابط روماني كان من حزب بومباي وبعد ان شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى افريقية وقتل نفسه .

وان من الظلم الفاحش قصر معنى التعليم على فرع واحد من العلوم ، فقد يكون الانسان عالماً بشاراليه بالبنان، وخطيباً باهر البيان، وسياسياً حصيف الجنان - وفي أمريكا ما يشهد لصحة ذلك - وهو لم يقرأ في حياته كتب «أرسطو»^(١) ولا ديموستين^(٢) ولا شيشيرون^(٣) باللغة التي الفت بها. ذلك ان مراقبته بنفسه للامور ومعاملته للناس واختلاطه بهم ودراسته لآداب لغته واستعداده الفطري كثيراً ما تغنيه عن الزخارف المدرسية، فرأي هو ان الاحوال التي تحتف بالطفل وما يكون فيه من القوى والمكاث الذاتية هي الواجب التعويل عليها في تحديد الطريقة التي ينبغي سلوكها في تربيته، فان طرق التعليم انما أوجدت للاحداث ولم توجد الاحداث لها. لما أعلم حق العلم ضروب استعداد «اميل» ولا حالة عقله حتى أحكم على ألبق أنواع التعليم به وأشدها ملائمة لطبعه، والذي أرجوه له هو ان لا يكون بعيداً عن العلوم ولا عن آداب اللغة، ولست أرى من وجوه الاعتراض على الجمع بين هذين النوعين من المعارف سوى ما يقتضيه تعلم اليونانية واللاتينية من الزمن ، فان اتفاق سبع سنين أو ثمان من العمر في تحصيل لغتين مهمتين تحصيلاً في غاية النقص غالباً هو إسراف كبير في عصر لا يحصل الانسان فيه متوسط المعارف الضرورية إلا باتفاق معظم حياته ، واني باحث الآن فيما اذا كانت إضاعة ذلك الزمن الطويل في تحصيلها لازمة لطبيعة الصعوبات التي يصادفها المتعلم فيه أو انها ليست من لوازمها وان من الميسور التغير فيها والتقليل منها .

{١} أرسطو حكيم يوناني مشهور (٢) ديموستين أشهر خطيب يوناني آثاره عقدونية
على فلوبس وألب أثينة على الاسكندر {٣} شيشيرون أشهر خطيب روماني

أول سبب - فيما أرى - لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو افراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للأطفال، لانهم يبدأونهم به قبل ان يكونوا تعلموا أوراقوا شيئاً بأنفسهم، فترام لجعلهم كيفية صوغ الالفاظ وتركيب الاساليب التي هي قوالب المعاني لا يكادون يتمتعون بلغتهم نفسها مضبوطة، ولجسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجنًا تعاقب عليه الاجيال الناشئة تكفيراً لسيئة جهل آبائهم الاولين، فهم لا يعرفون شيئاً من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحابّ البيئية والجواذب الاهلية وهي التي كانت تحبب العمل اليهم وتشعر قلوبهم قدره، فأصبحوا لا تصل اليهم حرارتها الا من بعيد جداً. فقي أول عمل لهم يمرنون به قوام الناشئة تفاجئهم ألفاظ وحشية، وصيغ نحوية، وتراكيب مجهولة، فيتصيدون اتفاقاً بأيديهم السراء، من محارم الكدراء، ضرباً من مخالفة القياس، وأثواها من ضعف التأليف، تجري بها أقلامهم، ولا تدركها افهامهم. فرحمى لهم من حيارى ذاهلين، لا ينفعهم تعاقب التمارين، ولا تتابع الامثال، فليس تكرار الاغلاط والخطات الواحدة في تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة الى اصلاحها. أنا أحب ان يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئاً من العالم وان ينفق ذهنه باختكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات، فان كل واقعة روعبت تولد في نفس مراقبها لذة وتنمي فيه شعور الحاجة الى المعرفة، فاذا حصل له بكسبه بعض معان بينة صار بهذه الوساطة أحسن استعداداً لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مبهمة من الالفاظ. ثم ان من أسباب طول المدة التي نقضى في تعلم اليونانية واللاتينية - على ما أرى - ان المربين يعلمونهما للأطفال قبل ان يظلمهم على شيء من

أحوال الرومان واليونان والانسان لا يحسن تعلم لغة قوم الا في بلادهم . ومن أجل ذلك سألهم عند تعليمهما « اميل » بأن اجعل له من آثار أهائهما بلاداً يتعلمها فيها . وفي هذا المقام تظهر فائدة انشاء معاهد التعليم التي من قبيل القصر البلوري . نعم اني على يقين من أن مشاهدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومثل المعابد والمباني الاثرية العامة لاتعين التلميذ على فهم شعر عمير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينية اذا اقترن تعلينهما بتعليم تاريخ قوميتهما وما يشهد لهم من دلائل التقدم القديم لاتبقيان لغتين مندثرتين اندثاراً تاماً كما لو علمتا مجردتين .

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيراً بسبب اجالها العقل في آثار الغابرين ، وسياحتها بالنفس في أعمال الماضين ، ولأن سن الايفاع هي السن التي يسهل فيها اندماج اليافع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو أن معنى الاستقلال الذاتي لا يظهر الا قليلا في هذا الطور من الحياة . فبكثرة هذا النوع من المعيشة مع اليونان والرومان فيما بقي من آثارهم ينتهي التلميذ بان يهتم بأخلاقهم وعاداتهم وشؤونهم قبل أن يعرف لغتهم فتراه يتابع بعقله الاسطول اللاتيني في سلامين^(١) ويشهد خلف بومباي^(٢) واقعة فرسالا^(٣) ولا يسبقن الى خاطر ك أن هذا الوجود الفكري فيما غبر من الزمن ليس هو الا وهما محضاً فانه لا شيء مما كان في الماضي قد مات موتاً تاماً .

(١) سلامين وتسمى الآن كولوري هي جزيرة في خليج أثينة (٢) بومباي قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافراً (٣) فرسالا مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بومباي

لم تجد طريقنا في تعليم اللغتين اللتين نحن بصدد الكلام عنهما نقمًا
لأنها لا تزال عليها مسحة من تعليم القرون الوسطى وهي التي طبعها عليها
القسيسون والرهبان اذ لا تزال العقبات تقوم في سبيل دراسة آثار الاقدمين
دراسة صادقة، وأولها ما للدين المسيحي من الاوهام والوساوس في آلهتهم
التي تراه على قهره اياها لا يزال يعتقد أنها مضرّة حتى في انهماكها امامه ،
فان رجال هذا الدين مع استئثارهم على توالي القرون باللغات القديمة
واحتكارهم معرفتها كانوا يعمون في تعليمهم بازهاق ذلك الروح الذي
ألهم الصانع ما ظهر على أيديهم من تحف الصنائع وطرفها ، وكانت فنون
الوثنيين وآداب لغاتهم من الغنائم التي اهتم أولئك الرجال بحفظها ، غير أنهم
كانوا يحترسون كل الاحتراس من اظهار آخر ما اكتشفوه من أسرارها
للأحداث ، وكان من مصلحةهم ان لا يزيلوا عن تلك الاسرار الا طرفاً من
حجابها ، لانه كان لا بد لما يعيه الخلف من آثار السلف أن يردم يوماً الى
عبادة الطبيعة وجمالها. ومن أجل ذلك كان رؤساء الدين لا يفتأون يذكرون
الناشئين بأن آلهة الوثنيين آلهة باطلة لا أصل لها الا الكبرياء والكذب ،
وانه لا ينبغي النظر اليها الا من بعيد مع الاسترشاد في ذلك بهدي
الدين المسيحي .

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس في تعليم « اميل » تينك اللغتين
واقرائه كتبهما ، فانه لا بد لمن يزاول دراسة أمر من الأمور أن يكون له
فيه شيء من الاعتقاد ، فما ضره لو أنه أخاض في الاشتغال بهرقل^(١)

(١) هرقل بطل خرافي مشهور بأعماله العجيبة

وأعماله ! ومن ذا الذي ينقم منه ان قدم قربانا للإلهات العفيفة^(١) ولمزوة^(٢) الحكيمه الأبية ! فان في كشف حقيقة الاشخاص الخرافيين الذين وجدوا في خيال الاقدمين ، وكانت حياتهم ملاءمة كل الملاءمة لخيال اليافعين ، وفي ازالة الوهم من عقول هؤلاء في شأنهم ، تعجيلا بزعة عقيدتهم في النوع الانساني . ولا يظن ظان اني أقصد بما أقول أن أوقف « اميل » عند الوثنية فاني انما أريد بهذا القول أنه لا بد لمن يريد النفوذ الى أسرار لغة قوم من اخلاص آلهتهم .

الشنرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مثل هاتين القوتين في فتنة العقل والتغريب به كمثل الفتانات الخرافية التي كانت تظهر في بحر صقلية وتستهوِي الملاحين بشجي صوتها فتوردهم في شعابه مورد الهلكة ، فانهما بعلو مكانتهما وجلال خطرهما في دراسة اللغات ، وبخداعهما العقل أحياناً في آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان الاستعداد الحقيقي أكلاً ، وقد يكون الذنب في ذلك على المربين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية ، فان أحدا لا يرتاب في كون تينك القوتين من المواهب الخلقية الميمونة ، بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للافراط في تنميتها فإنك ترى التلميذ الذي تربي على طريقنا

(١) الالهات العفيفة في أساطير اليونان هي الالهات الفنون التسعة بنات المشتري

(٢) مزوة - او مزفا - هي في الأساطير المذكورة الالهة الحكمة والفنون والحرب .

يصف لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته ، ويفوه أمامك بجمال من القول المنشور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان لم يشعر هو بشيء منها قط ، ويبيدي من الهيج والافعال في بعض أحوال لا علاقة له بها من حياة غيره ما لا أثر له في نفسه ، ولو أنك سألته أن يتغنى بذكر الأشجار وظلالها ، والانعام ورعاتها ، والربيع وأزهاره ، لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ما قاله فيها فرجيل^(١) وهوراس^(٢) من النعوت والوصاف ، ومع أنه قد يكون خيرا له أن يذهب الى المزارع ويرى بنفسه ما يحصل فيها وكيف يحصل تراه شديد الاحتراس من موافاتها خشية أن يخسر فيها اللاتينية وما تواضع عليه الاقدمون من الصور اللفظية لتأدية ما كان يعرض لاذهانهم من المعاني والافكار ، واذا استوصفته قنالا انبرى يصف لك ما استعمل فيه من الآلات ، وكيف كان اصطدام الجيشين ، بالفاظ مطمئنة ، وعبارات مججلة ، وهو لم يشهد شيئا من ذلك ألبتة . فاذا كان مرادك اختباره في محاصرة العدو وجدته قد انتهى من حصاره كما انتهى فرتوت^(٣) ، عرفت فيما سبق تلميذاً كان يبدو عليه كثير من مخايل النجابة نال

« ١ » راجع الهامش عدد ١ من تعليقات الشذرة التاسعة (٢) هوراس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسيح (٣) فرتوت هو كاهن مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١١٣٥ ق . م . وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الاشراف السكرام . والمؤانف يلج الى واقعة لهذا المؤرخ وهي أنه كان يكتب تاريخا لحصار رودس وانتظر طويلا ورود أبناء صهيبة له عنه فلم تحضر فأنتم تاريخه قبل ورودها تم قال اني متكدر من ذلك ولكن قد انتهت من حصاري

اكليلا مكافأة له على قرضه شعراً وصف فيه زج سفينة في البحر وهو لم
ير في عمره سفينة ولا بحراً .

نعم ان الشبان في هذه الايام لا يكادون ينفلتون من المدارس الا
وهم رافضون لآثار السلف نابذون لها ظهرياً ، غير انه لا معنى لهذا الا انهم
يعتاضون عن مثل الغابرين مثل الحاضرين ، لأن محو طيات التقليد
وغضونه من النفس وارجاعها الى صقاتها الفطرية ليس من السهولة بالمقدار
المتوهم ، فاننا كل يوم نقرأ في وصف الكتاب والشعراء المبتدئين قول
واصفهم في الواحد منهم انه نابغة يفتش على نفسه ، فليقل لي بربه هذا
الفتاش أين أضل نفسه حتى أصبح ينشدها .

ان تربية تكون بدايتها اضلال ووجدان الاستقلال الى حد انه
ينبغي لاجل الاهتمام اليه تلمسه سنين طويلة لمن الغرابة بمكان .

أنا لا أشتحي ولا أرجو أن يكون « اميل » ميالا الى وقف نفسه
على دراسة آداب اللغة . ولو أنني وهيلانة دأبنا في تحييدها اليه وأفلحنا في
حجب حالة عقله بزخارف الذاكرة لا خمننا في مسعانا الى غايتنا المطلوبة .
فانقاء لهذا الخطر تراني مصمماً على ارجاء تعليمه اللغات القديمة واقرائه
كتب مؤلفيها . وقد جمعت له مشاهدة الاشياء مقدمة على علم الالفاظ
فأصبحت علومه على ما فيها من النقص لها أصول في الخارج ترجع اليها ،
ودعائم في الواقع تستقر عليها . وسعيت في ايتائه ما هو لازم للانسان في
بحثه عن الحسن والحق من آلات الضبط والدقة العقلية أكثر جدًّا من
سعي في الافضاء اليه بمالي أو بما لغيري من المعاني .

وقبل أن أجعل البحث في مثل الاقدمين في مكنته سأعني كل

العناية بقتبها الى أن هذه المثل لا تقلد، فانه من السخف المحقق أن نباري الغارين مباراة نحن على يقين من غلبتنا فيها من قبل أن ندخلها، وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لانفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة؟ والذي لاغضاضة علينا في أخذه عن كتاب اليونان والرومان انما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الانشاء وترتيب المعاني والدقة في التعبير عنها، وانتقاء الالفاظ اللائقة بها. فكما أن من يعاشر بعض خواص الاجانب يقتبس شيئاً من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجباً لمشابهته لهم بحال من الاحوال، كذلك معاشرة الاقدمين بواسطة ماتركوه من آثارهم توحى اليها شيئاً من عوائد العقل واللسان المناسبة لسائر الاقوام المستضيئين بضياء العرفان.

التقليد الخسيس - سواء قلد فيه الغابرون أو الحاضرون - لا يقتصر سوء أثره على اضعاف الذوق والميل الى الفنون بل يسلب الناشئين أيضاً شرف النفس وكرامتها. فلشد ما يندعون بما تؤديه لهم الالفاظ عند قبولهم إياها من المعاني صحيحة أو فاسدة لان أساليب الانشاء والالفاظ والجل تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر الخميقي فتراهم يتوهمون انهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون والحق انهم يرددون ما فكر فيه المفكرون. ولعمري ان هذا هو أصل بعض الاباطيل التي تحاول من قرون عديدة اطفاء نور العقل، ذلك ان ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحداً منها فقد أخذ على نفسه الانقياد الى جميعها، ألا ترى الشاب المتعلم الذي اعتاد تقليد ما يصفه المقلدون بالمثل الحسنة يصاحبه في سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذي ألفه من التقليد فتجده يخبى ويفزع عند كل عزيمة ذاتية.

نعم انه قد يخاطر بحياته في براز أو يعرضها للملأكة في ساحة قتال لانه يرى ذلك مستحسنًا في نظر الناس ، ولكنه اذا دعي الى مقاومة عادة بربرية ، أو تأييد حق قل ناصروه ، ورأى ان من وراء ذلك الاستهداف السخرية والزراية عليه ، نكص على عقبيه نكص الجبان ، وفر فرار الرعيد .

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولا ويأتيهم رزقهم بلا نصب ، ولكن ما اكثر ما يسومون أنفسهم من الخسف ! وما أخط ما يفسلون بها اليه من دركات الذل ! عرفت امرأة برزّة^(١) محبوبة حسنة المحاضرة وكانت أرملة ولها ولد كان قبلة آمالها فبدا لها يوماً من الايام أن تنشئه على أحسن آداب المواضعة المعروفة ، فرأت أن الاستشهاد بأقوال الكتاب اللانبيين في المقامات المناسبة من المحاورة والتمثل بأشعارهم وايراد أمثالهم من الامور التي لا بأس بها ، بل رأته يكسو المحاور اذا كان حسناً برداً من الخطر ، ويلقي عليه مسحة من جلال القدر ، فأرسلت ولدها الى المدرسة فغادرها كيوم دخلها خفيف العقل لم يستفد من العلم الا قشورا محبوباً عند الناس ، ولكونه أوتي ذاكرة مباركة كان يتكلم في كل موضوع ويناقش كل شيء ولا يبدي رأياً الا قبول بالاستحسان لانه يسهل على كل انسان أن يرضي الناس عنه اذا سلم لهم ما يقولون ولم يعارضهم في شيء من آرائهم ، فكان ثرائرا فاقد الخلق حسن الصورة عقيم الفكر . أرادت والدته أن تصيره رجلاً من الاكياس ، أو نائباً لاحد الحكام ، أو معتمدا سياسيا لحكومته في بعض البلدان ، وان أحببت أن تعرف ماذا صيرته قلت انها صيرته طفيلياً . طزقتنا في التربية تظهر بادي الرأي سخيفة مضحكة ، وان جاز ان

(١) البرزة المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويختلف اليها القوم

تكون مما يتعاضى على الافهام ادراكه وربما لا تطابق أية طريقة غيرها مطابقتها لمقاصد حكامنا ونظامنا السياسي .

التلاميذ في مدارسنا مقترعون مديون تبكر الحكومة بتأهيلهم لعمالهم على نظام معنوي يشف عن حذق واضعه ، فأنت ترى القائمين على تربيتهم يوزعون عليهم متاعاً من الآراء والعلوم التي يجب عليهم تقلدها في مستقبلهم ، مراعين في ذلك الدقة العسكرية التي تراعى في توزيع متاع الجنود وينادونهم « الهوينا » : أيها الاحداث اياكم أن تحيدوا عن الخطة المضروبة لكم . نعم ان منهم من يولونهم أدبارهم ولا يصغون الى نداءهم ، وان كثيراً من هؤلاء يتحيزون الى فئة الآخذين بحرية النظر ويتضاعف عددهم كل يوم ، ولكن لشد ما يلاقون على ذلك من العقاب فانهم يحرمون من تقلد الاعمال العلمية في المدارس الجامعة ، ومن القيام بالاعمال الادارية في الحكومة ، فلا يولى أحدهم شيئاً منها ، وفوق ذلك تراهم ان لم يسيروا سيرة مرضية أخذت الحكومة على نفسها تعليمهم كيف يسرون بما تتابعه لهم من ضروب الايذاء ، وما تبلوهم به من العقوبات والنكبات السياسية ، ولا غرو فانهم في قبضة حاكم ماهر والذنب عليهم في أنهم لم يعرفوا من قبل ان لهم والياً يقوم عليهم وأستاذا يرشدهم .

ولما لم يكن هذا هو الفلاح الذي أرجوه « لامليل » وكان الذي يعنيني من أمره قبل كل شيء إنما هو حفظ كرامته وشرفه من حيث هو انسان ، كان نصيب هذه الطريقة مني محض الاعجاب بها دون أن أرضاها لتربته . اهـ

الشذرة الحادية عشرة

﴿ في المؤلفات المنمّدة للناشئين واختيارها ﴾

أجد في تسي انبعاثاً كثيراً الى اعتقاد أنه لا شيء أضر على كتاب
الاقدمين وأدعى الى هجر مؤلفاتهم من اطراء المعاميين اياهم واعنيادهم
الاعجاب بما كتبوا .

ذلك ان هؤلاء بالزامهم الطفل حفظ ما يختارونه له من هذه
المؤلفات وارشادهم اياه الى ما يجب عليه أن يراه فيها من ضروب الحاسن
خشية أن يقصر في احترام آثار سلفه، واكرامهم له على ملاحظة جميع ما
فيها حتى علامات الفصل والوصل - بذلك كله لا يفلحون غالباً الا في أن
يكرهوها اليه وهي أحسن أعمال عقل الانسان

فالإفراط في الوقاية من جانب المعلم يصير سبباً للضعف من جانب
المتعلم ، وإفراط ذلك في إعجابه بما يعامه يذهب بالحمية من نفس هذا
فيما يتعلمه .

والمقصود من التعاميم على أي حال انما هو انشاء القوة الحاكمة في
نفس الطفل ، وأما في شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على تلك الطريقة
فانه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامثال ما يكفي
لان يروا الحسن فيما يمدح لهم والقبح فيما يذم (وفي التلاميذ من هم كذلك)
لا تكون أذواقهم من أجل ذلك أسمى من أذواق غيرهم ولا أكثر منهادربة

بل هذا مما يدعو الى سلبهم قوة تمييزهم الامور بأنفسهم فتكون همتهم في مستقبلهم مصروفة الى تلقي آراء من تعتبر آراؤهم حجة من الناس لا الى النظر في الامور والحكم عليها حكما مستقلاً .

سأدع ابني وشأنه في انتقاء كتبه فلا أجنبه الا ما يكون منها ضاراً بالاخلاق لاني أود أن يكون هو صاحب الخيار فيما يفضل في نظره من كتب الآداب ، فاذا ضل ذوقه في الاختيار عوات في رده الى الصراط السوي على ضروب نمو عقله لا على ما يدعو اليه كدري من أنواع التوبيخ والتأنيب ، ومع كوني لأضن عليه بالارشاد متى سألني إياه تجدني أقصد أن يلتمس فيما يطالعه تنمية أفكاره وتربية ضروب وجدانه الذاتي .

نعم اني قد أشتهي أن أقدم له بعض كتب مخصوصة واغبط لوانه اتفق معي في التأثير بما فيها ، غير اني لأجدني محقاً في اقتضاء ذلك منه لان الاعجاب بالشيء من أجل أن يكون مفيداً لا بد أن يصدر عن نفس المعجب ، ولأن الانسان في كل طور من أطوار حياته منفرداً كان أو مجتمعاً يتصور للحسن كما لا يطابق - بالضرورة - بعض أحوال تتعلق بنفسه أو بمنافع أعضائه . يدل ذلك على ذلك اننا لانكاد نعرف الآن ما قرأناه في عهد شببتنا من الكتب ولا مؤلفيها ، ولا نحس بشيء من الميل الى كتب الادب التي طالعناها في ذلك الزمن ، ولم يبق من الشعراء والكتاب الذين كانوا أساتذتنا فيه بكتبهم من يصحبنا في شيخوختنا الا النزر اليسير . اهـ

مذرة (اثانية عشرة

لا يسلم وجه الشمس من كاف

قضية لا محيص من تسليمها فاننا في طور الانتقاد الذي لا ينفلت من تحليله وتفتيشه شيء، فقد تناول الاديان وآداب اللغات والتاريخ والاضاع القومية، فلا تجد عبادة من العبادات الا وقد وجه اليها العلم ضرر وبامن البحث لا قبل لها بمقاومتها، وأصبح ما كان يخاله الناس من اللغات والنقوش البربائية والحروف معميات لا سبيل الى الاهتداء الى معانيها، وقد نبذت مغاليقها وألقت بين يدي العلم مقاليدها وأسلمت اليه أسرارها، ولم يغن عن الاغاليط التي شبيها مر الدهور أنها قبعت رءوسها في ظلماتها وسسترت نواجمها في حنادسها، فانه لم يبق في مكتبتها أن تفاح في التغيرير بالعقل بما لها من القدم، فقد عرف سبب حدوثها وكشف الستار عما كانت ترتعد له فرائص الاقدمين من المجرادات الخيالية فعرف الانسان نفسه وكله دهش واستغراب لخوفه وفزعاه، لانه قد عرف اليوم كيف نشأت الالهة^(١) ورأى مذاهب كان لها

(١) يشبه كلام المؤلف هاهنا أن يكون تقريراً للمذهب الماديين ويدل بفحواه على أنه لا يعتقد بالله ولا بملائكته ولا بصحة المذاهب الدينية في هذين المعنيين وينسب الى النواميس السكونية كل ما كان وما يكون ويزعم ان العلم قد هداه الى أصل معنى الالهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو في النظر وما يؤدي اليه من الاشر والبطر. كيف يصل العقل الى معرفة كنه الاله وهو لم يصل الى معرفة نفسه؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً والعذر له ولا مثاله انهم نشأوا على دين مناقض للعقل

ماللبديهيّات من القوة والرسوخ تضاءات وتلاشت أمام العلم بالنواميس الكونية التي كان يتوهم أن هذه المذاهب فوقها ، وأبصر أسرار مستغلقة كانت تعاصت على العقل أذغنت إليه الآن فضى يحكم فيها بكشف أصلها وبيان منشأها .

من الظلم والاجحاف عدم اعتبار هذه الحركة العلمية في تربية الناشئين ، فكيف يصح أن لا يدخل المدارس ما وصل إليه العلم من نتائج بحثه الا بعد قرن من ظهوره لو دخلها .

انتقاد آداب اللغتين اليونانية واللاتينية

أنا لا أريد الآن أن أشتغل من وجوه الانتقاد الا بما يتعلق بآداب اللغتين اليونانية واللاتينية فأقول قد اعتاد المعلمون أن يفردوا هذه الآداب بالدرس دون بقية آثار الاقدمين كما لو كانت آداب كل لغة فرعاً مستقلاً عن تلك الآثار، ولا أراهم يستندون في ذلك الا الى وهم - غيت - من قبل بدحضه - ولهذا تراني اذا ذكرت «لاميل» أسماء آلهة عمير (هو ميروس) وما ورد من صفاتهم في أساطير الهنود ووقصصت عليه أشهر وقائعهم وسيكونون من معارفه القدماء، ولم يبق عليه الا أن يعرف كيف كانوا يواصلون الاسفار ويجوبون الاقطار وكيف كان الواحد منهم يبدو في هيات متباينة وهو أمر لما يجي وقته . ذكرت من شعراء الاقدمين عمير ولهذا المناسبة أود لو أدري ما الذي يعود على التلاميذ من تفهيم المعلمين اياهم ! ان ديوانيه الموسوم أحدهما بالعلياد (الالياذه) والثاني بالعديسي هما من ابتكار رجل من الغابرين اذا كان جميع الناس اليوم يعلمون كيف تولدت القصص الشعرية الحماسية في الامم القديمة والحديثة

لا ريب أن في هذه القصص محاسن كبرى وعبرا جليلة، غير أنني سأتحامى كل التحامي أن أجمل سيرة أخيل^(١) مثلاً نموذجاً «لاميل» محتذيه في سيرته، فإن هذا البطل - الذي عبث ولها عن مصالحة أمته وقعد عن منازلة أعدائها في حومة الوغى أن أبى عليه قومه جارية رقيقة كانت محلاً لأطماعه وكان بهذا سبباً في طول مدة رزايا الحرب وشدايدها - لم يكن حقيقةً برضا الآلهة عنه وميلهم إليه، فهم باشتغالهم به وإعانتهم إياه على خصمه لشجاعته غير مراعين إغفاله لواجبه قد جعلوا عاقبة الحرب عبرة سيئة وهي ظفره بهكتور^(٢) أي ظفر الطيش الحربي بالوطنية الصحيحة.

لم يقتصر الاقدمون فيما جهلوا من الأمور على نكرهم بعض الاصول التي هي الآن أساس وجدان الانسان بل تركوا لنا ميراثاً من الابطال والمذاهب الفاسدة التي تدعو دراسة كتبهم الى بقائها ان لم يقارنها الاحتراس والحذر، فإن سحر ما يحفظ الناس من آثارهم قد حى كثيراً من المظالم القومية قروناً عديدة من وثبات العقل ولا يزال يزودها عنها، وإن المفرم منا بالمطالعة المفرط في المميشة بين كتبه المفرط فيها بين أبناء وقته يرى في أكثر أوقاته قليل التأثير جداً بما شاع في الناس من العادات السيئة الكثيرة التي يرجع أصلها الى أخلاق الاقدمين وعوائدهم.

الحضارة اليونانية كان لها من وجوه الحسن ما يشير الاعجاب بها، ولو أن «اميل» كان بدراستها كأنماً صادقاً لما كنت الا في غاية الرضا عن

(١) أخيل في أساطير اليونان هو بطل يوناني أبواه تيتيس وبسيلي قتله باريس في حصار طرواده «٢» هكتور في هذه الاساطير هو ابن بريام وعقيقته وزوج أندروماك ووالد استنيا كس قتله أخيل أخذاً بثار باتروقل.

ذلك ، ولكني لأحب أن يكون خدعة التشدد في ميله اليها لما فيها من وجوه القبح أيضاً، فلشد ما احذر فيها الرقيق وبخست قيمته ونسيت حقوق البائسين والمغلوبين فلم يحض عليها أحد ! اللهم الا صيحتين أو ثلاثا انبعثت من أعماق وجدان الانسان ووصلت اليها بعد اختراق حجب ما مر من الازمان، ولكم هلك في سبيل تلك الحضارة من أجيال وباد من أنسال ! ولم يكن فيها أحد يهني بتخفيف مضض البؤس الذي كانت تقاسيه الدهماء، ولم يكن العمل يستوجب للعامل أدنى حق من الحقوق لانه لم يكن يصلح الا لأيدي الطعام. نعم ان ظاهرها ومنظرها كان موقفاً فان ما ازدانت به من الفنون والشعر والدين السمع والآلهة الباسمين في وجوه الابطال كان يكسو تلك الامة المغتبطة بروداً جمعت كل ما للكمال المنشود من ضروب العظم والبهاء ولكن العبرة بالخبر لا بالمنظر .

التاريخ الروماني هو دون التاريخ اليوناني بكثير لا لأن رومية لم تنتج رجالاً كباراً بل لأنها كانت تفرط في عبادة القوة وقد لاقت جزاء هذا الافراط ، فانها بعد أن استعبدت غيرها من الامم آل أمرها الى استعباد نفسها . فانتقل لي هذه الامة الفاتحة - وقد أظهرت للعالم ما للفتح من النتائج اللازمة - ماهي الامم التي علمتها والشعوب التي أصلحت شؤونها ؟ أرى الناس تتعلمهم أخبار غزواتها وتهزم أحاديث نصراتها ولا أرى أحداً منهم يستقصي أسباب مصائبها ليشفي من جنون الحرب ويبرأ من هوس القتال .

إني اذا أقرأت « اميل » اليونانية واللاتينية وجرت له بذلك ينبوع الآداب القديمة والتاريخ كان قصدي منه ولا شك توسيع عقله وتنمية

إدراكه ، بيد أني أرمي الى غاية أخرى أمكن في نفسي من هذا وهي أن
انشئ في نفسه الاستعداد للسلوك في هذا الكون ذلك لان ما تتضمنه
تلك الآداب من أسى الإقدام النفسي والإخلاص في العمل ، وحب
الوطن أشد في قلب اليافع تأثيرا وأبلغ في نفسه موعظة من جميع مايقوله
الخطباء ويوصي به الحكماء ، بل في نفس التجمس الذي يبدو منه في
استحسانها بذل لنفسه لانه يخرجها من معقل امتناعها ويخلعها عن عرش
صانعها ليسويها بمن استحق الحياة استحقاقا صحيحا . وإني لأقنط من فلاح
الطفل الذي لا يروقه شيء ، وأما من آتس من نفسه التأثير بما لغيره من
بهاء العظمة ورونقها فذلك الذي أوتيت نفسه سرا من أسرار الله . ان
فضائل الغابرين أبلغ من فضائل الحاضرين في خاب الخيال بما عليها من
مسحة القوة والبسالة ، وأعمال اليونان والرومان لبعدها عنا بحسب ترتيب
الازمان يخليها البعد والغربة ببعض السمات التي قد تعالي بها فتجعل لها
من القيمة فوق ما تستحقه ، ولكن ذلك لا يزيدنا الا لاجابة في دعوة الناشئين
الى اجلالها واعظام قدرها ؛ واذا علمت ذلك رأيتني غير مخطئ في التعويل
على تأثير الاقدمين في ترقية أفكار ولدي وتهذيب خلقه .

على اني أعلم حق العلم ان جميع ما خلفوه لنا لا يدعو الى الاعجاب على
السواء ، فما سيديون ^(١) الذي جندل انيبال ودمر قرطاجة ^(٢) مثلا بالبطل

(١) سيديون واسمه ايمان الملقب بالافريقي الثاني كان رابع أولاد بولص اميل
ولد في سنة ١٨٥ ومات في سنة ١٢٩ ق.م تبناه عمه الذي هو ابن الافريقي الاول من
أسرة سيديون وكان على يده انتهاء الحرب الثالثة بين رومية وقرطاجة فكانت هي
خاتمة هذه الحروب فانه أخذ قرطاجة في سنة ١٤٦ ق.م {٢} انيبال هو قائد قرطاجة
تولى قيادة الجيش في الحرب الثانية التي حصلت بين قرطاجة ورومية وبعد انتصاره =

الذي سأسترعي الى سيرته ذهن « اميل » كلا ! بل سأوجه كل همتي الى تفهيمه ان ما يلاقي من الهزائم اجلالاً لوجدان الحق أعلى منزلة وأعظم خطراً من الانتصار ببض الصفاح وسمير الرماح، وأن المجد الصحيح انما هو في علو النفس وشرفها، وسأقول له : أرأيت اليوم الذي انتصرت فيه رومية على قرطاجة ؟ فذلك هو اليوم الذي وفي فيه ريجواوص^(١) بعهدده فانطلق الى افريقية وحده لا يثنيه عنه لاجحة زوجته وأولاده ولا دعاء اخوانه وأصدقائه مع علمه بأنه ملاق حتفه وساع الى هلاكه . في ذلك اليوم ظهر ان رومية قد برزت على قرطاجة في صدقها ووفائها ولم يكن تبريزها عليها في غير هاتين الفضيلتين الا أمراً مرتين بوقته اذ كان لا بد لقرطاجة من الغلب والقهر .

لامراء في أن الجمهورية الرومانية أيام مجدها وعلوها كانت تسفر عن أخلاق شريفة وطباع كريمة ، وليس كذلك حالها في عصر تدليها واضمحلالها، ولو أنني أردت تبصير « اميل » علة هذا التدلي لحصرتها في إعواز الفضائل الجمهورية إعوازاً كان سبباً لنجاح الحكم المطلق في رومية وطول مدته . قلست أخشى على الحرية ما قد ينتبها من الاخطار المادية ولا أخاف على رومية أن يقف بأبوابها التركيونيون^(٢) أو بورشينه^(٣)

= في مواطن كثيرة هزمه سيبيون فانتحر بالسم تخلصاً من انتقام الرومانيين . واما قرطاجة فهي مدينة أفريقية قديمة . (١) ريجولوص قائد روماني قتله القرطاجيون لانه أرسل من قبلهم الى رومية للمفاوضة في المبادلة بالأسرى فتكلم في مجلس الشيوخ بما ينافي هذا الطلب وعاد الى قرطاجة فمات صبراً (٢) التركيونيون هم بعض ملوك رومية الاولين (٣) بورشينه هو ملك اترورية حاول اعادة التركينيين الى ملك رومية فهدده موشوس سيفولا فولى مذعوراً

يبتغون الاستيلاء عليها مادام فيها أمثال موشىوس سيفولا^(١) وإنما الذي أخافه على أمة من الأمم هو خسة الضمائر وأثم السرائر .
نفوسنا هي مواطن الظلم ومكان البغي فالذي علينا هو أن نحاربه فيها ونجلبه عنها قبل محاربة الملوك الظالمين واجلاء الجبابرة انفاشمين، من أجل هذا لم يك ينفع بروتوس^(٢) وأنصاره أن بقروا بطن القيصر فان قلب رومية كان مقروحا بالداء القيصري .

كان أولى بذلك الرجل وقد أراد أن ينزع تاج الملك ممن كان مستعدا له ان يرجع أولا الى قلبه فينزع منه كبر الاشراف ثم ينزع ان استطاع من نفوس قرنائهم ما عاق بها من الرذائل والنقائص التي تقتضي وازعاً يرد من جماعها ويكف من نزعاتها، ولولا تقصيره في ذلك لاستحق ما أتاه من الاعمال الدالة على الشهامة والبسالة أن تبيض به صحف التاريخ، بل كان من شأن هذه الاعمال أن تؤخر استقرار حكم الاستبداد ولكنها لم تستطع أن تقوم بالامة من وهدة انحطاطها .

حدثت في أخريات أيام الجمهورية الرومانية أحداث كثيرة شوهت محاسنها كالنظام العسكري الوحشي واهدار الدماء وضروب التعذيب والاطماع الخسيسة وبيع الضمائر وتناوب إرسال^(٣) الضعفاء والاوغاد التعلق بعجلة الظافر . على أنه كان لا يزال يظهر في جهات مختلفة من

{١} موشىوس سيفولا هو رجل روماني أراد أن يقتل بورشينه ملك اثرورية فأخطأه وقتل كاتب أسرارته وأراد ان يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى في جذوة نار مستعرة (٢) بروتوس واسمه مرتض جوليوس أحد قتله قيصر الروم (٣) الارسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء

قرارة الدهماء المنهوكين المنحطين بمض الاخلاق الفاضلة ظهور الصخور التي تشرف على ماحولها من المياه المنخفضة . ولا قنوط من ارتفاع شأن الحرية ما بقي في الناس أباة للضميق موقوفون بظفرهم في الذود عنها، فان هؤلاء يشهدون الجهاد في سبيلها وقد يلاقون الهزيمة فيه ، ولكنهم لا يشهدون اندثارها اندثاراً لا قيام منه . وانما ترهق روح الامل من حياتها متى انحازت العقول بعد كلالها وهي صامتة الى حكومة مطابقة، لكنها ساكنة مطمئنة، تالين للمحكومين كلما شعرت بازدياد أمنها وزوال مخاوفها، فأضرت نظام سياسي على أمة من الامم انما هو الحكم الاستبدادي المجرد من الصرامة والقسوة، وكذلك كان حكم أغسطس للرومان .

كان عجب الامة في ذلك الحكم لا يزال يتغذى ببعض ضروب من الغرور غريبة، ككونها لا تزال خير أمة بل أميرة الامم، وكون أعلامها وألويتها لا تزال مبعجلة في الخارج، وكونها تنتصر على المتوحشين، من حين الى حين، وكونها صاحبة الآلهة وصحف الكاهنات، والفنون الجميلة والآثار العظيمة التي تروق الاجانب، وكونها جددت بناء رومية وهي المدينة الابدية من قواعدها الى سقوفها — كل هذا صحيح ولكن واحسرتاه ! فليست تعبئة الجيوش ولا انشاء القلاع والحصون ولا بناء المعابد مما يغني عن الامة من سقوطها شيئاً، فقد بقي معبد المشتري المسمى بالقابيتول في رومية بعد فناء الرومان .

ليس لي الا كلمة أقولها في شعراء عصر أغسطس وهي أن أحسن هؤلاء الشعراء قطعاً في نظر المعالين هما (فرجيل) و(هوراس) فهما اللذان يحب هؤلاء

أن تجعل كتبها في أيدي الناشئين أكثر من غيرها وإن كان كلاهما قد تجرد في معظم ما كتب من شرف النفس وكرامتها. ألم يلاحظ من قرأ عنينية^(١) فرجيل أن نفس مغراها مملو وهو مغزى ما كان يرد - علي ما أرى - في ذهن شاعر زاهر الخيال في أيام الجمهورية الجميلة، فقد وصف فرجيل ممدوحه المسمى (عني) بالإنسان الذي تجلت فيه العناية الإلهية، وتوحدت في شخصه الأمة، وبأنه المنجي لأُمته، المؤسس لجيله، ومثل هذه المعاني يرى عليها أنها موسومة بمسمى الملك الذي برزت في عهده، ومطبوعة بطابع القرن الذي ظهرت فيه، وسواء كانت حسنة أو قبيحة من حيث الفن، فهي تشف عن حالة العقول في ذلك العصر، وتسفر عن الخطة التي رسمتها لنفسها الحكومة الذاتية حتى في نفوس الخيار من الأمة.

إن أجود الأشعار وأحسنها ليس في استطاعته أن يحجب دناءة النفس، ولا أن يسترخسه الطبع. ولقد كان شعراء اللاتين قدوة سيئة لخلفهم بما كان يصدر عنهم من ضروب التمليق الخسيسة وأنواع المدائح التي كانوا يطرون بها أغسطس تحقيقاً لأغراضهم ونيلاً لآمالهم، فأسسوا به في الدنيا من حيث لا يشعرون وظيفة الكتاب والشعراء المتزلفين. على أن فرجيل و«هوراس» كانا أميري هذه الصناعة، ولم يكن غيرهما فيها إلا عيالاً عليهما أخلص لك ما تقدم فاقول: إن دراسة آثار الأقدمين تختلف ثمراتها باختلاف الطريقة التي تبشر بها فاجلال هؤلاء بلا قيد ولا تمييز ولا نقد يؤدي إلى ما تؤدي إليه جميع ضروب الوثنية وهو صغار النفس وضعفها،

(١) عنينية فرجيل تصيدة قالها في مدح عني وهو أمير طروادي ابن أنشيز والزهرة وصفه فيها بأنه مؤسس النسل الروماني

ذلك بأن مايؤثر عنهم من المحفوظات والخرافات والكتب والاشعار الحسنة له من الظلم والتحكم في النفوس ما لا تقل الخشية منه على الناشئين، عن خشية ظلم الحكام الغاشمين ، وتحكم الطغاة المستبدين . وبهذا يبطل العجب من أنه يوجد اليوم من تلاميذ اليونان والرومان من يلتمسون في علوم البيان وسائل للذود عن مصالح الغابرين ومغالطاتهم ، ومنهم من يرومون منها دروعاً حصينة للحرية تكف عنها عوادي الباغين .

نحن على ما فينا من النقائص كلها أحسن من الاقدمين حالا وأرفع شأنًا، وان جاز علينا التدلي والانحطاط كما جاز عليهم، لان فينا قوة النهوض والارتقاء الى ما انحططنا منه . وان لنا عليهم لفضلاً كبيراً بسمو وجداننا، فكأننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على أنفسنا ان نكون خيرا منهم ، لان وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرتقي بمرور الزمان ، ولعمري انه لا ينكر ما للحضارة الحاضرة من ضروب التأثير في النفوس والعقول الا مكابر خبيث الطوية ، ولست أريد بما قلته أننا أصبحنا بهذه الحضارة أكثر من الاقدمين أخلاقاً فاضلة، وطباعاً باسلة، ومعارف واسعة، وتحمساً في الميل الى الحسن . لا! البتة ، بل أريد أن معاني العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت في نفوسنا فصرنا أكثر منهم اهتماماً بمن يخالفوننا في العناصر والاحوال القومية والاقاليم واللوان الجلود ، فنحن الآن من حيث كوننا من بني الانسان أقل من اليونان والرومان بعدا عن كل ماله مساس بالانسانية .

السفرة الثالثة عشرة

السفر من أركان التربية

ان لما تتأثر به النفس وتحفظه الذاكرة في الصغر من اللصوق والتمكن ما لا ينبغي على أحد . هذا شكسبير^(١) يدعو حاله الى اعتقاد أن معظم الفضل في بلوغه تلك المكانة العالية في الشعر يرجع الى نشأته بالقرب من نهر الآون^(٢) الاينق الذي تفيض مياهه على مدينة استراتفورد^(٣) وما يحيط به من الاودية الخصبة الغنية بالشجر والنبات ومجاورته لغابة اردان^(٤) التي كانت متنزهاله في سنيه الاولى من حياته . يدلك على ذلك انه لما كتب فيما بعد القصة الهزلية التي عنوانها « كما تحب وترضى » اتخذ هذه الغابة نفسها محلا لأهم منظر من مناظرها ، ومثل أماكنها للنفوس ، وجلّى مواقعها للاذهان ، بأوجز العبارات ، وأوضح الاشارات . لم يكن هذا الا لكونه مع نزوحه عن مركز استراتفورد الذي هو مسقط رأسه لم ينس منظر هذا الريف بل حفظه في مطوى من مطاوي نفسه . وهذا أوليفارجولد سمث^(٥) ذو العقل الثاقب والذكاء المتوقد ، لم يذهله حين أقام في لوندرة ماشاهده فيها من الاختلاط والتشوش عن ذكر قرية (لشوى) التي نشأ فيها ، ولم ينسه ما كان

(١) شكسبير هو أشهر شعراء الانكليز كما مر (٢) نهر الآون هو أحد أنهار انكلترا المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد (٣) استراتفورد هي أهم مدينة في مركز استراتفورد (٤) غابة اردان هي في هذا المركز أيضا (٥) أوليفارجولد سمث هو شاعر ونصفي انكليزي شهير ولد سنة ١٧٢٨

يراه هناك من جدول الماء والطاحون والكنيسة وفندق الحمام الثلاث وسياج العضاة وغير ذلك من خصوصياتها، بل مدحها في القصة التي كتبها بعد وسماها الكميته (الابرن). وكان واشنجتون ارفنج^(١) الكاتب المجوني الرحالة الذي استهوى النفوس ببدائع ظرفه، وخاب الالباب بدقائق وصفه، يحمدا لله (تعالى) ان أنشأه على ضفاف بحر أوتسون^(٢) ويقول: ان ما كسبه طبعي المختلف العناصر من الخير والتهذب يصح ان أرجعه الى محبتي لهذا النهر في صغري، فقد كنت في حدة الحمية الصديانية، اكسوه بعض الخصائص النفسية، واعتقد ان له روحاً يقوم بها، وأعجب بما في طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة، ذلك لانه ليس من الانهار التي تبسم صفحاتها عن خداع، وتضمر السوء بما تحتمل من الشعاب المهلكة والصخور الغدارة، بل هو طريق مائي بهيج جمع الى عظم عمقه كثرة اتساعه، يحمل السفن التي توكل الى أمواجه بقلب سليم ونية شريفة، وكنت أتخيل نوعاً من المجد والعجب في استقامة مجراه وسكينته وسلامته الباهرة.

انما مثلت يعض الشعراء لانهم هم الذين نعرف شيئاً من أحوالهم النفسية في حياتهم. غير اني لا أرتاب أبداً في أن ما يحتف بالناس من الاحوال والامور الخارجية لا يحدث في نفوس جميعهم أثراً واحداً وانهم يختلفون أيضاً في درجة التأثير بها، وان ما شاهده الانسان في صغره يلزمه في كبره ويصير جزءاً من نفسه، وما صحبه من الاشياء وهو يافع لا يجانبه في كبره، بل يظهر أثره في صورة خلقته وفي مجرى أفكاره.

(١) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصي أمريكي ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة

١٨٥٩ (٢) بحر أوتسون هو خليج متسع على السواحل الشمالية للقسم الانكليزي من أمريكا

ليس كل ما يحيط بالإنسان مما تتناوله مشاعره يصلح على السواء لحفظ صحة عقله ، فقد روي أن (ملتون)^(١) كان يتألم ويشكو مر الشكوى وهو يتلقى دروسه في مدرسة (كبردج) الكلية من ضواحي هذه المدينة معلا شكواه بأنها خلو من الظلال الوارفة التي تجذب آلهات الشعر وتؤويها . وكان (روبرت هول) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت الذي كان يتعلم في تلك المدرسة بعد (ملتون) بقرن ونصف ينسب أول نوبة أصابته من نوبات الجنون الى استواء الارض بمركز (كبردج) وخلوها من الربى والهضاب الشجراء .

الناس وان اختلفوا في درجات تأثرهم بفقد ما هم محتاجون اليه لا أظن أنه يوجد منهم من لا يتأثر البتة بما يكون من العيوب والمناقص في المناظر الريفية التي يراها على الدوام ، اللهم الا قليلا لا يعتد بهم . واذا صح ذلك فإشدد ما يبلغ هذا التأثير السيء من أذهان الاطفال ، فان الرجل البالغ قد حصل له من قوة النفس والخيال ما يكفي لمقاومة ما يحثف به من الاشياء ، فحسبه في معظم الاحيان أن يخرق قلبه شعاع من أشعة الحب ، أو يكون في نفسه وجدان قوي ، أو تجتمع في ذهنه بعض المعاني حتى يرتقي بالريف المبذل الذي لا قيمة له في ذاته من شيوع الابدال ، الى الاختصاص بشرف الخيال ، وليس هكذا حال الحدث الذي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره ، فانه في هذه السن لا عمل له في فطرة ما حوله من المخلوقات ، لانه ليس في استعدادده اذ ذاك ما يكسوها بهاء ، ويزيدها رونقا ورواء ، بل هو يتأثر بها كما هي ، فن الفوائد الكبرى له ان

يولد أو يتربى بالقرب من بعض المناظر الكونية العظمى كمنظر نهر جميل أو بحيرة أو جبل أو غابة .

منظر الريف في (كورنواي) منظر مهيب غير انه واحد لا تغير فيه ، ولت هذه البلاد كانت أكثر أشجاراً مما هي الآن ، فان مثل اليافع الذي لا يرى الا ناحية من نواحي الكون كالصخور أو البحر كمثل من لم يقرأ الا كتاباً واحداً .

لا بد في تربية الانسان خصوصاً في صغره من تنوع الفواعل لتنوع آثار اتفعله بها ، ذلك لان كل فرد من أفرادها يميل الى بعض المناظر دون بعض ، حتى يكون هذا البعض الذي يميل اليه كطبعه في الاختصاص به ، ومعنى هذا ان ضروب الحسن في الطبيعة تقابلها في نفوس الناس مناسبات ذاتية ، وليس المنظر الذي يتخيره الانسان ويرتاح اليه يأتيه على الدوام عفواً بل لا بد من السعي وراء تحصيله ، فمن الناس من ينشأ اتفاقاً في سهل من السهول ويكون ميله للمناظر الجبلية . ويوافق هذا قول أحد الكتاب في وصف رجل لا أذكر الآن من هو : انه عربي ولد في ظل شجرة تفاح بنور منديا^(١)

بلغ « اميل » السن التي تبدو فيها حاجة الناشئ الى الاختلاط بما حوله ، والمربون يحددون هذه الحاجة في معظم المراهقين بايتائهم قصصاً في الاسفار هي ولا ريب أدعى الكتب الى التفاتهم اليها واشتغالهم بها ، غير انه مما لا نزاع فيه ان وصف البلاد بالغاً ما بالغ من قوة البيان وضبط التحرير لا يرتقي في تأدية العلم بها الى درجة المعاينة ، بل هو أدنى منها كثيراً فلا يمكن أن يستغنى به عنها . من أجل ذلك كانت سن الثالثة أو الرابعة عشرة هي السن

{١} نور منديا إقليم من الاقاليم الفرنسية القديمة التي دخلها العرب الفانحون

التي يظهر فيها هوس الملاحة في رؤوس الصغار من سكان البلاد المجاورة للبحر كالكثرة، فكم من صغار من هؤلاء البسلاء يصيدهم من ولوعهم بالتجوال في الاقطار السحيقة مرض لا يحد ولا يوصف! كما يصيب المصنور الخطاف في الفصل الذي يهاجر فيه رفاقه، فيتسملون من بيوت أهلهم فلا يعودون اليها في حياتهم. واما سكان البلاد الاخرى فان حب السفر لا يكون في الكثير منهم الا حاجة وقتية لانهم بعد ان يقضوا بضع سنين على سفر يركبون فيه متن المهالك يرجعون الى أوطانهم فيعيشون معيشة الاستقرار. الذي يدهشي من المرين هو قعودهم حتى الآن عن البحث في الارتفاع بالأسفار في اتربية وجعلها ركناً من أركانها. إن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم الى الزمن، قلت إن السفر الى أمريكا مثلاً لا يقتضي الآن من الزمن أكثر مما يلزم لتعليم التلميذ شكل الكرة الأرضية تعالماً فيه شيء من الحق، على ما في السفر ومعاينة الاشياء من الفوائد الكثيرة التي لا يستفيد منها المتعلم من أي درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية، وإن قيل إن ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذي يخيف المرين منه ويصدّهم عنه، قلت قد فهمت هذا الاعتراض الا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة وإنما أكبر العوائق في هذه السبيل هو حذر الآباء والامهات وخوفهم على أولادهم، فان فكرة غياب الغلام الغر عن نظرامه، ووكله لا موج البحار، ومخاوف الاسفار، وتخليته ونفسه، مما يهيج نفوس الامهات وتثور له قلوبهن. لا جرم ان اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والاجلال، ولكن ينبغي ان يفهمن القائمون على التربية أن ليس في الغياب شيء يقطع أواصر الرحم وان عرى المحبة

والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة معها اتسعت مسافة البعد بينها وأنه لا خوف من الحرية الا على الابناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة. على أنه لا يصح أن تكون محبة الوالدين لأولادهما الاعزاء مقصوداً بها لذتهما، بل لابد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهم فان رحمتها بهم تدب اليها شبهة الاثرة اذا انحصرت في ابقائهم في كنفهما وان أخل ذلك بتلك المصلحة .

وفوق ذلك فانه لم يكن من العيب أن استعمت في أيامنا هذه قوة البخار في طي المسافات الشاسعة ، وتقريب الاقطار المتناثرة ، وأبعدت الملاحة في فتوحاتها ، ورخصت للناس أسعارها . فاصبح السفر الى البلاد المسامطة لنا من أسفل معتبرا عند شبان الانكليز من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر ، وقد شعر النوع الانساني بنمو أجنحته للرقى فلا يحيص من التسليم ، وأنا أخشى ان لاتفي حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر ولا الجدول الاطلانطيقي شيئاً مما يجده خلفنا في نفوسهم من الحمية والحاجة الى رؤية العالم .

جميع الام الحرة أم رحالة لا يعوقها بعد المسافات ، ولا اختلاف الاقاليم ، ولا العقبات المادية ، بل ولا تعلقها المتعين الاعمى بالزاوية التي تعيش فيها من الارض .

القوانين التي جرى عليها توزيع أجيال النوع الانساني على البلدان قد تحدد بعضها بالنظرة وبعضها بالتاريخ وكثير منها بسياسة الحكومات، وما زال الحاكمون في كل عصر يمنون أشد العناية بان يعيش المحكومون ويموتون

في الارض التي يَبْسُط عليها سلطانهم سواء في ذلك الاغنياء منهم والفقراء، وقد استنتجوا من كون هذا الامر مفيداً لمصالح ملكهم أنه من الفروض التي لهم على رعاياهم ونجحوا في اقناعهم بذلك ، وكان من أوهام المربين وخيالات الشعراء وأفكار رجال الدين ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس في القلوب غريزة يشترك فيها الانسان والعجاوات وهي حبه للمكان الذي ولد فيه. نعم إنها من الفرائض الحسنة ولا تنس أنها هي السبب في تألف الجماعات ، ولكن لا يعزب عن ذكرك أيضاً أنه يسهل أن يساء استعمالها ليبقى المستضعفون من الناس عبيداً للاقوياء الفاشمين .

لما كانت جماعات الانسان في بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها في بقعة من بقاع الارض كانوا معتادين من صغرهم المعيشة في الاماكن التي يجدون فيها ما يقتاتون به ، ووصلت بهم هذه الحالة الى حد أنهم قد عدوا هذه العادات الانحصارية من الفضائل ، وأما أنا فلا أعدّها الا معيبة ولا أقدرها بما لا تستحق ، فما زال الفلاح اللاصق بأرضه يقلبها ويزرعها أدنى منزلة في الجملة من المدني والمدني نفسه يستفيد ويرتقي كثيراً اذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم .

الامم التي تكون عالة على أرضها أجنبية عن لغات غيرها في وسعها - ولا شك - أن تقوم بعظائم الامور وجلائل الاعمال ، لكنها تكون أكثر من غيرها استهدافاً لقوارع البغي السياسي ، فانها لا تتأثر من تعطيل القوانين ولا من إبطال كفالات الحرية ولا من دوس حقوق الافراد واهتضامها ، ذلك لان أبناءها يلتصقون وهم كالمستمتتين بقطعة الارض التي تؤويهم وقد دنسها الدم الذي سفكه عدوها الظافر وجعل منه قراباً لسيفه ،

فالاغتراب أشد رهبة في صدورهم من جميع المصائب ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القومية من كل ناحية ، فاذا نفي بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الأحزاب المستضعفة إما بحكم الضرورة أو بما يتخذ من طرق القهر في زمن الفتنة كان النفي أبلغ المحن في نفوسهم ألماً ، فترام حيارى لا يدرون أين يذهبون ولا ماذا يصنعون ، وقد صارت الدنيا في أعينهم وهم خارجون من ديارهم صحراء يعوزهم فيها الدليل ووحشة لا يجدون فيها الانيس . وأما الامة التي يعتاد أفرادها من نعومة أظفارهم قطع أجواز البحار ولا يكونون بممزل عن لغات الامم الاخرى وعوائدها ويدرسون أبعد ضروب الحضارة عنهم وأشدّها اختلافاً ، فانه لا يكون لصروف الدهر عليها سبيل ، ولا يخشى بنوها بطش القوانين الخاصة ولا التغريب بل يكونون أصدق من فليس الثاني ^(١) اذا قالوا متشبهين به « ما كانت الشمس لتغرب عن حكومتنا »

ولقائل أن يقول : إن عادة السفر قد تضعف في الاحداث العاطفة الوطنية ، فاجيبه : اني لا أميل قطعاً الى عموم معنى الوطنية واتساعه ، فإتسع من تكون الدنيا كلها وطناً له ! اذلا يكون الانسان انساناً الا بشرط أن ينتسب الى طائفة معينة من البيت الانساني ، وأن يكون له لغة وأمة خاصتان به ، غير أنه لا ينبغي أن يتوهم ان حب الوطن الحقيقي يضع كثير من معناه اذا تجرد عن روابط الوثنية المادية التي كثيرا ما تشوهه وتبخس قيمته ، فليس الوطن مطلقاً عبارة عن الجبل أو السهل أو الغدير الذي يولد الانسان

(١) فليس هو ابن امتاس أحد ملوك مقدونية الخمسة الذين تسموا بهذا الاسم

بجوارها اتفاقاً، وليس هو من القرميد أو الحجر، ولا هو بالمكان الذي يحصره سطح يقدر بالقراسخ المربعة، كلا ! ليس الوطن شيئاً من ذلك، ولكنه مني يقوم بالذهن بل تاريخ الامة بل آثار سلفها، وان شئت فقل : انه وجود كلي تشعرجزيئاته بالمعيشة فيه ولا شيء من ذلك كله يضيع في ركوب متن البحار، ولا في اجتياز المفاز والقفار. اذا نقش على لوح القلب وتحققت به النفس.



جاءتنا اخبار من بلاد البيرو بواسطة بعض معارفنا تحمل على الاعتقاد بأن دولوريس قد سلبت أموالها بتواطؤ حصل بين أقاربها، وقد استفتينا العارفين بالقانون فكادوا يجمعون على ان هذه القضية الغامضة لا ينبغي غموضها ولا ينكشف سرها الا في البيرو، وانها تقتضي ان نوسط فيها صديقاً يعمد اليه بمصلحة الفتاة المهضومة فنقبنا عن هذا الصديق فلم نقع عليه .

صنائع البر يستلزم بعضها بعضاً، فانا وان لم نتب هذه الفتاة الاجنبية قد التقطناها، وآويناها الى بيتنا، وصار من الحق علينا انصافها في بلدها .

فكرت في أن أسافر بنفسي للقيام بهذه المصلحة فرأيت غير واحدة من العقبات تدفعني عن تنفيذ هذا القصد : من ذلك ما يقتضيه قطع تلك الشقة البعيدة من النفقات، وعدم احتمال الفوز بالحق في الدعوي، والروابط التي تربطني بالبقاء في أوربة، وبالجملة فان سبعين اعتراضاً قويا قد وقفت بي موقف المتردد بين الاقدام والاحجام، فقد تعاهدت أنا وهي لانه بعد الذي ذقناه من ألم الفراق ان لا نفرق، ولا أدري ان كان في مكتتها احتمال سفر شاق كهذا. ولو أنه اقضى ان نمثل مريض الفرقة مرة ثانية لما ريثت في اطراح خاطره. على ان هذا الخاطر لا يزال يساورني والحالة التي أصبحنا فيها بسبب

كفالتنا لتلك الفتاة العزيزة علينا وما ياحقنا من تبعات التقصير في شؤونها لم تكد تترك لي حرية الاختيار في السفر ، بل قد شعرت بواردي أمرني به أمراً . وأقول على أي حال : أفلا يجوز أن يكون الانسان منافقاً يتخذ المقدور من حيث لا يشعر ستاراً لا خفاء ثقاه ؟ أفلا يصح اننا مع اعتقاد امثالنا في العمل لحكم الضرورات تتبع في أغلب أعمالنا ما توحيه الينا شهواتنا أو نمزج المصلحة التي نتخيل اننا نقوم بها لغيرنا بشيء من الائرة أو يكون ميللي الغريزي الى التجوال هو الذي قد تنبه في نفسي واجتهدت في مواراته بحجاب صنيعه المعروف أو ان تكون لي غاية خاصة أو سبب خفي يدفعني الى تغير الهواء الذي أنا فيه ؟ .

لست أقطع بشيء من ذلك ، ولكني كلما تساءلت خيل لي ان قصدي الاول انما هو نفع الولدين اللذين أخذت على نفسي تربيتهما . لو كان في وسعي أن لا أستفتي الا ميللي وذوقي لجاز أن لا تكون البيرو هي المكان الذي أتخذه من الارض موضوعاً للدرس والتعالم وذلك لفرط بعدها ، ولكن ! ما أوسع السفر اليها من ملعب يتجلى فيه كثير من الوقائع والمراي ! اذ يرى المسافر سموات مجهولة له يمرها من الكواكب مالا ينير أقطارنا الكامدة ليلاً ، وبحارا مشحونة بالغرائب ، وسواحل قاصية أبرزها للعيان فعل الجبال النارية ، وخليطاً من الاجيال الآدمية التي لم يتم امتزاجها وتسفر أخلاقها عن تاريخ تام .

سن للمراهقة هي السن التي يكون فيها التأثير قوياً ، فهي التي تنتقش فيها على المخ صورة العالم الخارجي أتم انتقاش وأدقه وعند « اميل » الآن من العلوم الصحيحة - ان لم أكن واحدا - ما يكفي لاشتغاله بالكون وسيؤمله

درس الوقائع الكونية المحسوسة لدرس المعقولات ، فان تعليم فن الالفاظ ومحسنات اللغة لحدث لم يشاهد شيئاً بنفسه ويراقبه ويحس به كثر الزهر في كهف . اه

الشذرة الرابعة عشرة

﴿ التربية بركوب البحر ﴾

عن ميناء لوندرة في ٣ مارس سنة - ١٨٦

في البحر : — تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التي تقلنا في يومين وها نحن أولاء ننام فيها من الآن .

ذلك اني كنت قرأت في الصحف الانكليزية منذ ستة أسابيع اعلاناً بأن سفينة تسمى المونيتور تسافر عما قليل الى بلادالبيرو، فلم ألبث عند وصولي الى لوندرة ان سألت عنها ولاقيت ربانها في أحواض الميناء، وهو رجل في نحو الثانية والاربعين من عمره أسمر قصير بادن تؤذن بدائه بأن ستنتهي بسمن مفرط مع ماهو فيه من عيشة الجد والنشاط، ويطري الناس خبرته ومثانة سفينته، وإني قلما صادفت وجهاً أطلق من وجهه ولا أدل منه على الذكاء والاستقامة . وقد تبين لي انه عرف في استراليه ربانا جسورا انقطع للملاحة، لا يعرف غيرها، كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقاً فلما علم اني صديق صديقه أقبل علي بصدر رحب وقلب سليم، وكان من نتيجة هذا التعارف أن اتفقنا على أن اكون طبيباً للسفينة

كما كنت لذلك الصديق، وان يكون « اميل » تلميذاً بحرياً في مدة السفر. لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الامر لما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل، فاجتهدت في تسكين روعها مبيناً لها مقاصدي منه. بلغ « اميل » الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة، وأصبح طويل القامة قوي الجسم يتمتع بصحة تامة من أسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذي جرى عليه، وقد بدالي ان اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية، وشد أعضائه وتذليل عضلاته بأعمال تقتضي من المهارة مثل ما تقتضيه من الشجاعة الحقيقية، فاني وهيلانة ما قصدنا قطعاً ان نجعله واحداً من اجنة العلم الفاسد الذين لا حياة لهم الا في رؤوسهم، فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين^(١) الذين أعجزهم الدرس عن العمل، فليس هذا هو الكمال الذي نطلبه « لاميل »

رأيت الناس في مكان لا يحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ، فهم يتلفون بناهم، وينهكون أجسامهم، ولا أدري أي قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تتجبر في أذهانهم تواضعوا على أن يسموها علماً!! غير اني في شك من أن ما يحصله المتعلمون من تلك المعاني يعوضهم شيئاً مما خسروه في سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم. ولست أقصد بقولي هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فان الانسان خلق ليعلم، وإنما أريد ان يفهموا أن العمل البدني والعمل العقلي متكافئان في لزومهما

{١} الخدج هو الذي يولد ناقصاً بعد تمام مدة الحمل

لتقوية العقل واحصافه ، فلينا أن نربي كل ماوهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه

استشرت « اميل » قبل اعترامي على هذا الفكر فالفيتة مملوء النفس به لانه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخرا بتعلمه حرفة . ويجب في هذا المقام أن أبين مرادي ، وهو اني لأعتقد بحال ان من حقي أن أختار لولدي عملاً تقوم به معيشته ، كما أني لا أدعي لنفسي حق إلزامه الايمان بعقيدة دينية أو سياسية ، على أنه لما يأت وقت التفكير في الحرفة التي ينبغي أن يشتغل بها ، ولا أدري هل يعرف بنفسه مايلامه من الحرف أم لا ! فان تربيته في غاية البعد عن نهايتها ، بل هي في بدايتها ، ولكني أرى أنه مهما حذق المربي في التذكير بانشاء الطفل على الميل الى النفع والطمع فيه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ، ولقد عرف « اميل » مما تلقاه على والدته من الدروس شرف العمل وكرامته ، فتراه يتخيل الآن أنه سيكسب أجرة سفره بتسلقه شُرْع السفينة وهو تخيل غير صحيح الا في جزئه ، غير أنني تحاميت كل التحامي ازالة هذا الوهم من نفسه ، وتركت له أن يفخر بأنه يطعم خبزه الجاف بكده ونصبه فان أقل ما في هذا أنه مفخرة كنت أكون جديرا باللوم لو أنني حرمت منه منها .

ثم ان النعائم في سفينة تجارية مفيد ومقو للعقل ، خصوصاً اذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شهور ، فخرية الانسان على ظهر البحار هي ان لا يخضع الا الى الواجب فطاعة البحار في الحقيقة فيها شيء من الاختيار وهذه هي الخاصة الفارقة بينه وبين الجندي ، فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبيدي من قوتها ما يكفي لامثال أمر الربان

وهو يعلمه بقول موجز ما جهله من تلك النواميس يكون قد حمه في عمله هذا بين الاستقلال والحكمة .

لست أبالغ لنفسي البتة فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة ، فانا أعلم أن « اميل » ان يكون بحارا مجرد ما يمارسه من ضروب التمرن في حبال السفينة ، بيد ان بلاءه في ذلك لا يمكن أن يتخلف عنه استفادته منه ، فانه بواسطته يتعلم شيئاً من أحوال البحر ، وبه يعرف أجزاء السفينة الأساسية وما يطاق عليها من الأسماء ، فكثير من أترابه لا يعرفون شيئاً من أمر هذه الدنيا الساحجة .

أخص ما أعني به في هذا الامر أن يحصل في ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للانسان في مقاومتها أو قهرها من ثبات الجأش وحضور الفكر ، وسيكون هذا أعظم درس له في سفره ، ومما لا يسعني إلا أن أضحك منه اني أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين ورموا من صغرهم كبرا وغرورا أنهم ملوك الخلق ، فهلا وصفوهم أيضاً بأن أيديهم البيضاء الرقيقة لم تخلق الا لتقود عجلة الشمس في أرجاء السماء ؟ رويداً أيها المعلمون قفوا بهؤلاء الملوك امام البحر فانظروا ما يهتريهم من الرعب خشية أن تبصق أمواجه الكثيفة في وجوههم .

واما (اميل) فانه لا بد أن يتعلم من الآن ما يجب أن يبذله الانسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية ، وكيف ينبغي أن يكون معها في كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء .

حدثت الربان - وهو رجل شهم - في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته فقمهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه إياه وهو أن من المفروض على الشبان أن يعتبروا العمل العقلي جزاء للعمل البدني ومكافأة عليه .

النشرة الخامسة عشرة

ما يتعلم في السفينة

في اليوم الخامس من شهر مارس بلغنا ميناء جرافستند^(١) حيث سلم معرف التاميز^(٢) زمام سفينتنا الى معرف الزقاق (البوغاز) الذي أخذ الآن على نفسه إبلاغنا ما وراء مصب النهر .

في نحو الساعة السادسة من المساء برز الربان على ظهر السفينة وتعهّد بنفسه ماشحن فيها من المؤن كالماء والبقسمات وبراميل اللحم المملح واستوثق من سلامتها ثم قضينا ليلتنا على المرساة .

وقرب حد الظهيرة من الغد سارت بنا السفينة تجرها باخرة صغيرة الحجم شديدة القوة تسمى «نلسن» وفي وقت مرورنا حبال متارة «نور» هبت علينا ريح طيبة فامكنتنا من مد بعض الشرع ثم تغير لون الماء فصار ذا خضرة كدراء .

كانت تلك الساعة هي المعينة لنزولي الى حجرات المسافرين لعيادتهم فيها ، وليس القيام بشؤون الصحة في سفينة انكليزية كبرى من الاعمال

(١) جرافستند هي إحدى مواني انكلترا وموقعها في الجنوب الشرقي لوندرة (٢)

التاميزانهر من انهار انكلترا يمر با كسفورد ولوندرة ويصب في بحر الشمال

(الوظائف) التي يؤجر صاحبها بلا كسب ولا كد، فإن «المونيتور» تحمل خمسة وثلاثين راكباً من الدرجة الأولى وقل منهم من يقوى على أول صدمة للبحر عدو الانسان ويكون آمناً من العثار، فلم ينج من مرضه الا هيلانة وامرأتان أخريان أو ثلاث

وفي اليوم الثامن من الشهر بلغنا حوالي الكشبان فألقى معرف البوغاز مقاليد السفينة الى ربانها، ونزل بالساحل ثم رجعت الباخرة الجارة بعد ابلاغنا هذا المكان من حيث أتت ووكلتنا الى قواني أي الى شرع سفينتنا، ولما رأى المسافرون والملاحون ان هذه البقعة هي آخر موقف يؤذن لهم فيه بالاقتراب من البر حمل كثير منهم المعرف وسائل لاصدقائهم تتضمن باليداهة آخر وداع لهم .

جاء دور البجاجة الآن في العمل فدوا أيديهم اليه بهمة وإقدام، واشتغل الضابط الأول والثاني للسفينة بترتيب الجرس، فبينما لكل حارس عمله ثم تدات من جميع السواري وهي في نصف ارتفاعها أنسجة طويلة نفختها الريح وشفقتها، فانشأت السفينة تميد وكأنها شعرت باستقلالها من وقت ان ثابت اليها أجنحتها، وكانت قبيل هذا تبدو عليها علائم الكابة والحجل ان ترى مقودة بغيرها .

أديرت على الملاحين كأس من خمر غسل السكر استحقوها كل الاستحقاق بكدهم وانصبهم .

مما عرفته من الإماكن في مسيرنا (بيشي هيد) وهو رأس في أميرية (قوتية) سابقس وجزيرة وايت وستاوت بوينت . وقد صلو الماء الآن ذا خضرة بهيجة تطفو على سطحه أعشاب بحرية تشبه التبني

الطويل. صادفتنا سفينة راجمة الى انكثرة فخطبناها بأعلامنا الملونة وسألناها بهذه اللغة السرية أن تبلغ سفر سفينتنا مكتب الملاحة لشركة ليود.

انتهينا من اجتياز الزقاق (البوغاز) فخرجنا منه وكان الجو صحوًا فصعد

المسافرون على ظهر السفينة لاستنشاق النسيم البارد.

قلما رأيت اللج مرة لم يكن مرآه فيها مشارا للعجب في نفسي، ولكن أخص ما شغل ذهني منه الآن هو جملة العلوم التي استفادها الانسان من ممارسة البحر: انظر الى النظام الكوني تجد علم الهيئة الذي يبحث فيه عنه انما تولد من الملاحة، فانه لولا أن حاجة الانسان الى الاهتداء في سيره على ظهر البحار دفعته الى درس الفلك لكان من المحتمل أن لا يخطر بباله أصلاً أن يتقصي سرا من أسرارهِ، فاحتياجه الى السعي في طلب الغنى هو الذي اضطره الى قياس الزمان والابعاد قياساً مضبوطاً، فترى الملاح الساذج مع انه لا يعرف القراءة حائزاً بالتحقيق لكثير من العلوم العمالية. سله ان شئت وليكن ذلك عن بعض الامور الطبيعية تجد كلامه فيها يرجع الى ما قرره العالم الذي قضى سنين كاملة في دار من دور الكتب. واذا كنا الآن قد أنشأنا نظن أن للرياح والزوابع قانوناً فانما كان ذلك بسبب ما جمع من ملاحظات البحارة المختلفين في السفن الموزعة على جميع البحار. فأصبح أشد القواعد الكونية استعصاءً على الضبط منقاداً الى قانون، ودخل أبعد الحوادث عن النظام في نظام العلم العام، وكشفت المسابير اغوار قمر المحيط وقفاره المفروشة باسلااب فرائسه، وأضحى الآن من الميسور رسم خريطة لتيارات البحر السفلية. ثم ان الفضل فما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل العالم راجع الى الملاحين.

خلق البحر مثلاً للازل لانه مثال للحركة فشهد تولد اليابسات المتعاقبة وانعدامها وارتفاع الجبال وما وقع على مر الدهور من ضروب فعل الارض وانفعالها مما لا يزال يرتجف منه فؤاده ، وهو اليوم كما كان في مبدأ العالم لا يعتوره نصب في جهاده وجلاده ، فتراه يعض بعض سواحله ويقرض ما يقاومه من الصخور الصوانية ، ويقتلع بعض أجزاء الارض من أماكن مختلفة فينقلها من أحد نصفها الى النصف الآخر لينني بها سواحل جديدة وجزرا ورءوسا لا بد أن يهدمها بعد ، وبدأ به على العمل يتحول من مكان الى مكان على تداقب العصور بالقوة الساكنة التي توجد فيما لا يموت من الاشياء ، وكما انه رحم للخلائق العضوية الاولى هو أيضاً كبر مستودع للحياة .

من المحقق الذي لا مرية فيه أن ممارسة البحر قد وسعت دائرة علومنا ، ولكننا قد استفدنا منه ما هو أجل من العلم نفسه ، الا وهو ما يتحلى به الرجال من الفضائل التي ينميها في النفس الجهاد مع المحيط المخوف فلولا هذا الجهاد لما عرف الانسان شيئاً يستحق المعرفة ، فما أمثل الملاحه طريقة للتربية ! فذلك المربي القاسي العبوس وأعني به البحر ييث كل يوم في أذهان غلمان الذين يتغذون بلبان معارفه أن النفوس متساوية ، وان الفلاح إنما هو في الاعتماد عليها ، ويعلمهم من البسالة مالا ترعزه الخطوب ، ومن الصبر ما يقوون به على احتمال كل ضروب الحرمان واقتحام جميع المخاطر ، ومن ذا الذي في وسعه أن يصف ما آتى الجنان من الثبات ، وما لبس النفس من درع القوة وهو وان غلبه الملاحون بمثابرته على قهره وثباتهم

في طلب الظفر به ، يحق له في نفس هذا الغلب أن يفخر بغاليه فإنه هو الذي أنشأهم وهم تلاميذه .

الشذرة السادسة عشرة

﴿ التريية بسفر البحر ﴾

يوم ١٤ مارس سنة ١٨٦٠

اضطرتنا الريح الى أن نجتاز خليج بسكاي (١) وقد أكد لي الربان أنه وأمثاله يتحامون ما استطاعوا التورط في هذا المجاز الذي يهاب اسمه الملاحون أنفسهم ، وهو على شدة تلاطم الامواج فيه لم يعق السفينة عن المسير . وربما حدا بي ذلك الى اعتقاد أن من البحار ما هو كبعض الناس في كونها أمثل مما اشتهرت به .

منذ بضعة أيام أتيح لي فراغ من عملي فشغلته بدرس سفينتنا فاذا هي دنيا صغرى تطفو على الماء جعلتها جميع العلوم والصناعات ميقاتاً لاجتماعها . ترى الملاح فيها يلجئه عوزة الى استئناف التمدن كل يوم فكأنه روبنسن (٢) في جزيرته يخترع معظم الفنون النافعة ليستفيد منها ، ذلك أنه خلوه من صاحبة يتولى بنفسه غسل ثيابه وفراشه واصلاحها ، وتذلك نظافة حجرته دلالة كافية على ماسيكون عليه بيته الخلوي في مستقبله فقد أوتي هذا الليث البحري من غرائز العناية بالبيت ما أوتيته النملة .

(١) خليج بسكاي ويسمى أيضاً خليج قشقوني هو خليج في المحيط الاطلانطي وانغ غربي فرنسا وشمالى أسبانية (٢) يومى الى روبنسن كروزو صاحب القصة المشهورة الذي كان في جزيرة مقفرة يخترع كل ما يحتاج اليه من أمر المعيشة

من مزايا السفينة أيضاً أنها تؤدي الى كل من تراح نفسه للعمل من ركبها عملاً يشغله، فقد عاود قويذون الاشتغال بالطهاية التي سبق له أن شرف باجادتها في أسفار سالفة وجعلت زوجته قهرمانة^(١) واختضت هيلانة بمساعدتي في التمريض والعزف على البيانو تسرية للسامة عن المسافرين وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعه .

جاز «أميل» التمرينات الاولى وضارت قدمه قدم بحار وأنشأ يتسلق سلم الجبال التي على جانبي السفينة وهو يؤدي الاعمال التي يعلمه الملاحون تأديتها بما يكفي من الحدق المتظر من غير مثله . ومعيشة المتعلمين البحريين أمثلة في سفينة تجارية على ما فيها من النصب والعناء معيشة صحية، فان تعرضه لتسميم البحر يشهي اليه الطعام حتى انه ليكاد ياتهم حوتاً من الحيتان المسماة بالكلاب البحرية لو قدم اليه، والله خفته ونضارته في قبضة الازرق ذي الطوق المتكسر الذي يسين نحره اجاءني غدوة اليوم إثر عمل شاق بالنسبة لطفل مثله وألقى برأسه بين ركبتي وهو يتصبب عرقاً فاحسنت ان أشجعه لأن أطريه لأن الاطراء هو سم النفوس يفرط فيه الآباء لا بنائهم بما يعيشهم عليه من الرحمة العمياء فهم بذلك يعودونهم ارضاء غيرهم، وكان حقاً عليهم في رأيي ان يعلموهم ارضاء وجدانهم . من أجل هذا اقتصرت على ضم ولدي الى صدري وتقبيله غير اني أحسست حينئذ بالعبرة في عيني وهو على كل حال قد اعتبر هذه الملاطفة مني مدحاً له لانه انصرف من عندي للمضي على عمله مملوء القلب بالفرح ولا إخال أحداً نكراً استحقاقه

لهذا المدح أي لتلك الملاحظة .

ليس في السفينة أحد الا وهو يهتم بأن يكون نافعا من جهته حتى « لولا » فقد فاجأتها بالامس ويدها كتاب كانت تطلع عليه طفلة في الخامسة من عمرها اتخذتها صديقة وتعلمها فيه الهجاء . اهـ

الشذرة السابعة عشرة

طريقة صيد خنازير البحر

يوم ١٩ مارس سنة ١٨٦٠

نحن الآن تجاه جزيرة (ماديرا) تجري بنا السفينة بريح طيبة كانت من بداية سفرنا تهب من الشمال الشرقي . وقد أحدثت بنا في هذا المكان قطعان عديدة من الخنازير البحرية وأنشأت تمرح في الماء وتلهو بالزبد المتخلف على غوارب الامواج من انشقاقها بحيزوم السفينة في مسيرها فبادر جميع الركاب الى السطح لمشاهدتها وكان من « لولا » لما رأيتها ان قالت : ويكأن هذه الحيوانات مغتبطة بمعيشتها وكأنها لم تصب بمرض البحر في حياتها .

استعد ضباط السفينة لصيدها فوقف أحدهم عند الساري المقدم ورمى خطافا كان معه على واحد منها ظن ان أصابته أيسر وحينئذ جر الملاحون الحبل المعلق به الخطاف وهم في هذه الحالة يجب ان يكونوا خفاف الايدي أشداء السواعد والا وجد الخنزير المصاب وسيلة للرجوع الى الماء والانفلات من أيديهم ، وقد نجحوا في الرمية الثانية فاصطادوا أحدها ، ومما شاهدته فيه ان كبذه يشبه كبد الخنزير البري ولحمه أقل جودة من لحم الثور على انه

يحضره في الدهن ان لم يكن بطعمه فبلونه لانه أحر ضارب الى السواد
ويستخرج من لجه زيت جيد الاستصباح يستعمل في السفينة اه

الشذرة الثامنة عشرة

{ وصف ما يرى في البحر من المشاهد الطبيعية }

يوم ٢٢ مارس سنة — ١٨٦

نحن الآن مارون أمام الجزائر الخالدات وان كنا لم نرها - وهي
مرتسمة على سطح السماء المتسع - الا كرويا الحالم ، وقد اضطرتنا الرياح
المتناوحة الى التوغل في المحيط .

اننا منذ سفرنا نشعر بارتفاع الحرارة ارتفاعاً عظيماً غير ان هذا
اليوم هو أخص يوم أحسنا فيه بدخولنا اقليماً غير اقليمنا حتى ان «لولا»
نفسها على ما بها من شدة التأثير بالبرد خلعت ثياب الشتاء وارتدت ثوباً وردياً
كان غروب الشمس بالامس من أجل المناظر وأبهائها ، وكان الليل
مهيباً والقبة السماوية المظلمة ترهب بلائى والنجوم التي هي كالرمل عدا . ومالي
وذكر أسماؤها فلا فائدة في ذلك ويكفيني أن أسميها بالنور . ومما ميزناه
منها الزهرة التي مع كفها عن دعوى الالهية واقتناعها بأن تكون في
مصنف الكواكب لم يضل عنها ميلها الى التفتيح النسوي فلا تزال تحب
أن ترى نفسها في مرآة البحر

في نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الاسود

الذي كان مشدوداً حول الافق يلاثم السماء بالماء رويداً رويداً ، ثم بدامن بين حافئيه ضوء مخضر يحاكي ماء البحر في لونه فانتشر على الامواج وهو ضوء الفجر ، وساعة طلوع الفجر في العروض التي نحن فيها الآن من الساعات المشهودة على قصرها وقصر مدة الشفق أيضاً فانه يخيل للرائي فيها ان العالم بأسره مضاء بالكهرباء وربما كان قصر مدة الشفقين سببا في ذلك .

مما حملناه معنا في السفينة ديك صغير وضعناه مع دواجن أخرى في أحد أقفاصها أسمعنا صياح التنبيه والايقاظ ثلاث مرات فكان لصوته الشبيه بصوت البوق تأثير محزن قابض في نفوسنا بسبب أحوال الغربة التي نحن فيها ، وكان يسري الى القلوب بلا عائق لانه كان يذكّر المسافرين بأوربا الم القديمة وأرضها ، ومعيشة المزارع وما يعالجه المزارعون من الاعمال الشاقة

ثم تتابع انمحاء الكواكب من السماء فأخذت تنطوي في أعاليها وتصطبغ باللون الازدرختي

ثم أشرقت الشمس فاذا الامواج أنفست وقد ملكها الاجلال وتولاها الاعظام ، يخيل للناظر انها خشعت لهذا الينبوع الذي هو مصدر الضياء والحياة ، وصارت السماء كلها جذوة نار ، وترقرقت سبجات من النور الذهبي على صدر المحيط الذي نهدت منه الارض بالتدريج تئلاً بهاء ونضرة .

لم يقع بصري على « اميل » و « لولا » معاً الا في هذه الساعة وحدها من النهار . رأيتها جاثين جثية عبادة واستغراق في المشاهدة

فايت شعري هل اقترب كلاهما في تلك الساعة من ادراك معنى الالوهية
بمراقبة جمال الكون وبهائه ؟ . اه

الشذرة التاسعة عشرة

« وصف الاسماك الطيارة وكلات البحر وطريقة صيدها وضوء المياه ليلا »

نحن الآن سائرون تحت خط السرطان ، ويرى على « لولا » انها
لغاراتها تقلب وجهها في السماء تفتيشاً عن ذلك الحيوان البشم الشبيه
بالسرطان البحري في شكل أرجله كما هو مرسوم في التقاويم التي جعل فيها من
علامات منطقة فلك البروج وهي بذلك تستهدف لسخرية « اميل » وزرايته
تجري بنا السفينة بأقصى سرعة لها تزجها رياح شديدة وقد مدت
جميع شُرْعها فجعات حبالتها تصر صريراً . ذلك انا أردنا اغتنام هذه الرياح
الانقلابية ^(١) التي يسميها الانكليز رياح الشمال الشرقي التجارية .

يتدرج النهار في النقص ويكاد الآن يساوي الليل .

تنقذف من باطن المياه أسراب كالغيوم من السمك الطيار وتسف
سفيف الخطاف فينما كان أحد الملاحين البسلاء يوقدمدخته (عود دخان
التبغ) البارحة اذ لطمه جناح بارد مندى على خده فتولاه من ذلك دهش
عظيم ، ثم التفت حوله فاذا هو بسمكة من هذا الصنف تحت قدميه على
ظهر السفينة ويندر أن تصل أمثالها في انقذافها الى هذا الارتفاع وانما
جذبها اليه ضوء المدخنة .

« ١ » الرياح الانقلابية هي التي تهب بين دائرتي الاقلابين من منطقة فلك البروج

أخوف سكان البحر الاخرى التي لم يرها « اميل » حتى الآن وأهيبها بلا نزاع كلاب البحر، وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة، وقد اصطادوا غدوة اليوم واحدا من هذه الغفاريات - كما يقولون لانهم أطلقوا عليها أبشع الاسماء كلها - وذلك بواسطة هبرة من لحم الخنزير زنتها نحو خمسة أرطال ألقوها اليه، وكان منظر صيدها مؤثرا فاسترعى أبصار جميع المسافرين وبعضهم على الصعود الى ظهر السفينة لمشاهدته، وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس وهو احتياط أراه ضروريا على ما فيه من القسوة، لانه شوهد غير مرة أن اغفاله كان سببا في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه أثناء معالجته النقلت من أيدي صائديه . ويا كل الملاحون أحيانا صغار كلاب البحر غير انهم يقرون بالسنتهم أن لحمها غير جيد، وهم اذا قتلوا هذه الحيوانات فانما يبعثهم على قتلها مجرد بغضهم لها، ولشد ما يؤذونها بسبب هذا البغض، وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها النقم فلانا أو فلانا من أصحابهم، فان لم يكن هو الذي النقمه كان أخوه أو أحد أقاربه . ولقد حاولت صدم عن ممارسة هذه الألاعيب الوحشية ميينا لهم أن الانسان لا ينبغي له أن يعذب عدوه بعد غلبه، فذهب نصحي أدراج الرياح ولكني آمل أن لا تفوت « اميل » هذه العبرة .

تبقى لكلاب البحر بعد موتها في السفينة رائحة خبيثة لا تزول الا بعد بضعة أيام وهكذا الاشرار يؤذون حتى بعد موتهم من يسعون لخلاص الناس من شرهم .

قلما يفهم الاطفال من القوانين شيئا الا قانون القصاص . ذلك أن

الملاحين اصطادوا دلفينا ^(١) عشية اليوم الذي اصطادوا فيه كلب البحر فما كان من « لولا » الا أن قالت وهي تنظر اليه نظراً يشف عن الرحمة « لقد استحق هذا فاني رأيته التهم كثيراً من الاسماك الطيارة الجميلة . لقد صدقت فان ما التهمه منها لم يكن الا لقمة واحدة من لقمه وان سنة الله في خلقه أن من أكل أكل ، وقد أثبتتها الملاحون لها بجعله عشاء لهم ، ولحم هذا الحيوان اذا غلي في الماء كان فيه شيء من الجودة الا أنه يكون ناشفاً .

في نحو الدرجة السادسة عشرة والدقيقة الثلاثين من العرض الشمالي أنشأنا نرى في السماء برجاً جديداً يسميه الملاحون صليب الجنوب وهو مؤلف من خمسة نجوم .

وعجيبة أخرى أبصرناها في ذلك المكان وهي ان المياه تضيء ليلاً وقد راع منظرها « اميل » و « لولا » فلم يستطيعا ان يفهما من التلذذ بجمالها وان كان قد بعث فيهما شيئاً من الخوف فان كليهما سألني من ذا الذي أوقد النار في البحر فقسرت لهما بما في وسعي ما أعلمه من أسباب هذه الحادثة التي لم تعلم تمام العلم وقد علل العلماء وجود هذا الضوء في الماء بوجود حيوانات مضيئة تشبه النباتات فيه .

كان ذلك النور من شدة سطوعه بحيث ان « اميل » تناول كتاباً من جيبه وقرأ فيه على انعكاسه عن الامواج الملتبهة هذا البيت من قصيدة لشكسبير وهو :

خير جزء فيّ روحي . وهي بالتحقيق روحك

نعم إن الله (سبحانه) لم يفض علينا جميع روحه وما أقل ما أفيض
علينا منه غير أن هذا القليل الذي يهبه لنا يتصل بروحنا اتصالاً حقيقياً^(١)
والذي يدهشني من حادثة ظهور الضوء في البحار أنها تقع عادة في
أحلك الليالي .

الشذرة العشرون

(طريقة صيد السلاحف البحرية)

يوم ٣ أبريل سنة ١٨٦ —

صرنا تجاه الرأس الأخضر ولما رأى الملاحون سكون الريح في هذا
المكان أدلوا قواربهم وسبحوا لصيد السلاحف البحرية، وهذه السلاحف
من عاداتها أن تظهر قريباً من سطح الماء فتكون كأنها نائمة فوقه، فتصطاد
بنوع من السهام له أربعة أسنان يسميها ملاحو الانكليز بالحجوب وكل
ما يصاب منها بتلك السهام يجذب بعد صيده الى القوارب بواسطة حبال
تكون في أيدي الرماة، وقد رأيتهم اصطادوا منها في ساعتين ثماني ، زنة
كل منها من خمسة عشر الى خمسة وأربعين رطلا انكليزياً .

الشذرة الحادية والعشرون

(غمامة منظري الشروق والغروب في بعض الجهات)

يوم ٤ أبريل سنة ١٨٦ —

أعوزتنا الرياح الانقلابية التي كانت مواتية لنا أحسن المواتاة على

(١٠) يعني بالروح الالهي ما به حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله

لبس لغيره صنم فيه فاضيف اليه

جرينا في فضاء المحيط وعوضنا عنها الآن رياحاً خفيفة متناوذة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للافق ، وانتقلت السماء في مواضع متفرقات منها بسحب بيضاء وسفرت في مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة . وللشمس في هذا المكان شروق يخطف الابصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله وأما غروبها فنفخ جليل . اهـ

الشذرة الثانية والعشرون

« أفاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء »

يوم ٩ ابريل سنة ١٨٦٠

تمطرنا السماء شأيب ووابلا حاراً وكل مانراه يؤذن باقترابنا من خط الاستواء فترى الملاحين على ظهر مقدم السفينة مشتغلين بوضع لحي كاذبة لهم وتغطية رؤوسهم بعوار من الشعر، وارتداء ثياب بشعة، حتى انه ليخيل للرائي انهم في أمس عيد المرافع، ويشهد « أميل » هذه الضروب من الاستعداد شهادة الخائف لعلمه حق العلم بما سيلاقيه ، فان كل تلميذ بحري لم يجتز خط الاستواء لا بد ان يقتحم صنوف بلائه ومحنه كما هي العادة، فلا تزال شعائر الملاحين القديمة متبعة وان كانت قد فقدت كثيراً من مظاهرها الصبيانية الوحشية التي كانت تجعلها مخوفة جداً في قلب المبتديء في الملاحة ، وعلى كل حال فالملاح طفل ولولا ذلك لما لاعب المخاطر ملاعبة الباسل المقدام .

الشدرة الثالثة والعشرون

« سرعة تغير الاقليم في بعض الاماكن والاعاصير المائبة »

يوم ١٣ ابريل سنة ١٨٦

اصطبغ « اميل » بالمعمودية البحرية فصار الآن من أولاد آله البحر .
حالة الجو في اختلاف وتغير فمن رياح شديدة الى سكون عام ومن مطر
هتان الى شمس محرقة ترمي رءوسنا بسهام اشعتها العمودية
لقتنا الربان الى إعصار من الأعاصير المائبة التي يخشاها الملاحون
بحق فرأيناه من مسافة بعيدة ، وأكثر ما تشور هذه الاعاصير في جهة
خط الاستواء . اه

الشدرة الرابعة والعشرون

« تبادل السفن صنائع المعروف »

يوم ١٥ ابريل سنة ١٨٦

صادفتنا سفينة قافلة من الهند أو من الصين الى بريطانيا العظمى
وآذنتنا بأشاراتها أنها مستعدة لحمل ما نحملها من الكتب ، ولما كان تبادل
صنائع المعروف مما تحفظ به المودة في البحر أرسلنا لها بعض صحف
انكليزية مضى على نشرها ستة أسابيع ، ولكن أخبارها يكون لها من
الجدّة عند ركاها ما لصحف الصباح عند سكان لوندرة ، وكتبت وكتب
« اميل » كلمتين لصديقنا الدكتور وارنجتون

الشذرة الخامسة والعشرون

« موت أحد الملاحين والاحتفال بجنائزه في السفينة »

« وبيان الحقيقة في سبب تأثر الاطفال بفاجعة الموت »

يوم ٣٠ ابريل سنة ١٨٦

تتناقص الحرارة ويتسدرج الهواء في البرودة لاننا صرنا في خط الجدي . منذ يومين آلم نفوسنا فقد واحد من رجالنا .

ذلك أن قطعة من قطع الاخشاب المنحرفة الوضع المستعملة في السفينة لشد حبالها لم يكن ربطها وثيقاً فأنت عليها نفحة من الريح فهوت بها على السطح فصادت في هويها رأس ذلك الملاح وهو قائم على الحراسة فلم آل جهداً في تجريب جميع الوسائل الفنية لا يقاظه وتنبهه، ولكني لم أفاح لانه لم يبق فيه أدنى علامة على الادراك، فسرى الوجوم في السفينة لان هذا الملاح الباسل كان محبوباً عند رفاقه، وصاح الربان بصوت أجش وقبدت على وجهه آثار الحزن مع اتقابه بالتجلد بأن تنقل الجثة الى غرفته. استولى سكون الحداد على السفينة فما كنت ترى على ظهرها الا

أنظاراً شفت عن الاسبى ووجوها نكرتها الاشجان وأسدل الليل على البحر بالتدريج حجب ظلماته كلها وأرخی عليه سدول أحزانه فما رأته قبل تلك الليلة بهذا المقدار من العظم والكآبة وكانت الامواج باصطخاها تشكو شكوى الاحياء من مضض المصيبة حتى خيل لي أنها نفوس تناجي نفوسنا.

وارباه ! ما كان أشأم هذا الصخب المتقطع الناشئ من ملاطمة
الامواج لالواح سفينة تقل ميتاً .

أقبل النهار وأدبر الليل بيد أن أضواء الشمس في اشراقها لم تقو على
قشع ماغشي النفوس من سحب الاكدار الليلية فبقيت جميع القلوب مثلوجة
متباعدة بضرب من الهول ، ذلك أن وجود الميت في بيت يث فيه على
الدوام الحزن مشوباً بالاجلال والرعب ، والسفينة بيت مضطرب فميسهل
انقصامه من عرى المودة بين من تطاوت بهم النوى من العائشين في
البر يتأكد بين العائشين في السفينة بسبب اشتراكهم في الحاجات والمخاطر .
تخلف يعقوب في ذلك الصباح عن اجابة داعي الشمس المشرقة
وعهدنا به أنه كان على الدوام أول من يسمع دوي صوته الشديد على ظهر
السفينة فاصبح وقد قضي عليه أن لا يكون هو الصائح بكلمة « تمام » .
كان من أسباب اشتغال قلوب المسافرين والملاحين بالحزن أيضاً
ارتقابهم لما كان قريب الوقوع من دفن الميت ومع كون أعمال التجهيز
كانت تؤدي في سكون كأنها من وراء حجاب كنا نخلس الملاحين في
بعض الاماكن روحات وجيآت خفية وقد أحدثت السفينة بتنكيس
الاعلام التي تزهو ذروتها عادة بارتفاعها فوقها فخراً بالامة المنتسبة اليها ،
وفي نحو الساعة العاشرة برز الربان على ظهرها ثم أقبل على ملاحيه وقال
بصوت منخفض قد حلت ساعة النحس فعلي بالربان الثاني وأخبروه بأننا
مستعدون ويعلم الله مقدار مايشق علي من تأدية هذا الفرض ولكن من
الواجب القيام بالواجب .

رتب الملاحون أكوام الحبال التي كانت تعوق السير بتيهاتها على

سطح السفينة ورفعوا أحد الاجزاء التي تتألف منها جدران السفينة فكان من ذلك نافذة شبيهة بالكوة كنا نرى منها البحر يتراوح بين الصمود والهبوط .

كان ناقوس السفينة يطن فيحدث عن طينته المؤلم اذا انتشر على وجه الامواج أثر محزن يغادر جميع القلوب واجفة .

لما كانت السفينة خلواً من القسيسين كان من العادات المضطربة في مثل هذه الحالة بانكلترة أن يهد بصلاة الجنازة الى ربانها . من أجل ذلك أخذ الربان مجلسه وهو مكشوف الرأس وبين يديه كتاب مفتوح والتفت عليه حلقة من المسافرين والملاحين يحفهم الوقار والخشية على تشوش هياتهم وأوضاعهم ينتظرون البدء في الشعائر الدينية .

أشار الربان الى رجلين من الملاحين بأن يهبطا من أحد سلاالم السفينة الضيقة فلم يلبثا أن صعدا يحملان الميت على نعش كبير مثقب وقد لف في قطعة من نسيج الشراع خيطة عليه وكان من الميسور تقدير ثقله بما كانا يعانيانه من الجهد في حمله ، ذلك أن العادة تقتضي في مثل هذا المقام أن يوضع في الكفن مع الجثة قذيفتا مدفع (القذيفة الكرة التي تقذف من المدفع) احدهما عند رجليها والاخرى عند رأسها .

مابرزت هذه الصورة المشؤمة من سدفة السلام (السدفة الظلمة المختلطة بالضوء) حيث كانت تبدو منها ببطء حتى اقشعرت لمراها أبدان الحاضرين وقد بسط على صدر المتوفى علم من أعلام السفينة عليه شارات السفن الانكليزية .

أنشأ الربان يتلو صلاة الجنازة بصوت شديد معتاد الامر والنهي ،

غير أنه كان يمتوره اللين حيناً بعد حين فذئخله نفحات ضعيفة مهتزة كأنها تذبعت من القلب، وكان ما يحصل في نفسه من التنازع بين التمالك والسكينة التي يراها لازمة لكرامته من حيث هو رجل وبين عاطفة الرحمة التي كان يكاد يبديها - يكسو وجهه هيئة غريبة جمعت بين القسوة والرحمة . وكان كاتب السفينة ينلو في ذلك الكتاب عينه الحكم الانجيلية وما كان يسمع أحداً من السامعين أن لا يعترف بشيء من الجلال لهذا الضرب من النحاور في معنى الموت بين رجلين مسنهدين في كل يوم لآلاف من المعاطب قد شهد كلاهما كثيراً من اخوانهما يتخرمون من حولهما ويشوون في ظلمات البحر السرمدية.

هذا الذي كانا يتناوبان تلاوته لم يك يشبه الصلوات بحال (فالكنيسة الانجليزية لا يصلى فيها قط على المتوفين) بل كان عبارة عن فكر مأخوذ من النوراة في معنى قصر الاجل ومصوغة في قوالب تشبيهات شعرية كتشبيه الحياة بعشب البوادي يخضر في الصباح ويذبل في المساء أو بالظل يسري على الماء، وتشبيه جمال الرجل والمرأة شوهنه السنون بثوب أكلته الارضة . وكان جميع الحاضرين يفهمون نص هذه العبارات العبرية لانه كان مترجماً الى الانكليزية .

على ان الساعة الاخيرة قد اقتربت فكف الربان عن التلاوة وأخذ يرقب عظم اتساع السماء والماء، ثم صوب بصره آخر مرة الى ذلك الشيء وهو مدرج في نسيج يعرف الناظر اليه من خلاله شكل آدمي معرفة مبهمه وقد وضع على شفا الفوهة التي صنعت في جدار السفينة ليلقي منها في البحر . ولم تكن الا اشارة من الربان ان سمع صوت غليظ رخو لسقوط رجل

ميت في البحر فشوهه للامواج فوران شديد فترجرج خفيف فدوائر
من الماء متداخل بعضها في بعض فلا شيء

التأم الآذي (الموج) على الجثة كما يلتئم بلاط اللحد، وقال الربان
بصوت خنفته العبرة والافتعال : أنت في وديمة البحر

كنت في كل المدة التي أستغرقها أداء هذه الشعائر أرقب «اميل»
حيناً فحيناً فأجده شديد التأثير وأما «لولا» فكنت أراها باكية .

يرجع تأثر هذين الغلامين الى سببين أولهما ان تجهيز الميت كان
مقرونا بما يهز القلوب من الوقار والهيبة ، ثانيهما انهما لم يكونا شهدا الدفن
قبل هذه المرة لجهلها الموت حتى هذه الساعة . نعم انهما كانا يعرفان بالتحقيق
ان كل شيء صائر الى الفناء، فقد شهدا حيوانات تزول واخواناً يتخطفون
من حولهم غير اني في شك قوي من كثرة اشتغالهما بهذه الطوارئ
الطبيعية ووقوفهما بالفكر عندها، والانسان لا يعرف الامور معرفة صحيحة
الا اذا فسكر فيها بنفسه، ولا أعدم واهما ياتي عليّ تبعة هذا الجهل لاني
أعلم أنه كان ينبغي من أجل إنشاء «اميل» على الاصول القديمة التي يحجبها
ذلك الواهم أن أريه على الخوف وأن أحيط له الحياة في مواعظي بوعيد
القبر ومخاوف الخلود، ولكن ما حيلتي اذا كنت لم أجد من نفسي إقداما
على ذلك فاني رأيته كثير الاغتياب بالحياة فصرفت جل عنايتي في محيى
الواجبات الى نفسه لاني دناءة التخويف من عقوبات الآخرة أو التأميل
في مشوباتها الغيبية .

المواعظ المحزنة لا تربى الوجدان بل تكدر صفاءه وتزعجه، فواشوقاه

الى الساعة التي يتأثر فيها اليافع بمشهد الموت فيأنس من نفسه الحاجة الى سبر غور ما قدر له في أخراه! ^(١)

الشذرة السادسة والعشرون

أقاليم البلاد فصول ثابتة كما ان فصول السنة أقاليم مرتحلة

(يوم ٦ مايو سنة ١٨٦ —)

الرياح باردة والسماء كدراء وتزعم «لولا» ان سفرنا استغرق الربيع والصيف والخريف وأتينا داخلون في الشتاء وحقيقة الامر هي ان أقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة .

صارت الامواج من الثقل والضخامة بحيث أصبح مسير السفينة شاقا وقد هبت علينا ريح خبيثة فهي ترفعنا الى الشرق نحو جزائر فوقلند ^(٢)

الشذرة السابعة والعشرون

وصف بعض أنواع الطيور التي في بوغاز ماجلان وطريقة صيد نوع منها

يوم ٨ مايو سنة ١٨٦ —

اقتحمنا مدخل زقاق (بوغاز) ماجلان ^(٣) وهو مجاز خطر ورأينا هناك

(١) ما كرهه المرء لولده من انشائه على الخوف من العقاب والرجاء في الثواب غير مكروه ووصفه هذين الامرين بالدناءة غير صحيح وأمله في أن ولده يسبر غور ما قدر له في أخراه وهم ظاهر وخدعة زينها له شك في اليوم الآخر

(٢) جزائر فوقلند هي ارخييل في المحيط الاطلانطيقي شرقي بوغاز ماجلان مملوك للانكليز (٣) بوغاز ماجلان واقع بين بتاغونية وتيردوفو «أرض النار» اكتشفه رحالة برتغالي اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الارض

طيورا يسميها الملاحون حمام الرأس الواحدة منها في حجم البطة البرية
أحد نصفها أبيض والثاني أسود وكانت تحوم حولنا أسراباً وتضطاد بشباك
تمد على كوئل السفينة (مؤخرها) فتشب فيها أجنحتها في غدوها ورواحها
عليها وتثورط فلا تستطيع انفكاكا
وشاهدنا طائراً آخر أثار التعجب في نفس « اميل » بعلو قامته
وارتفاع طيرانه وهو المسمى بالبطروش^(١)

الشذرة الثامنة والعشرون

كثرة الزوابع في رأس القرن

يوم ١٠ مايو سنة -- ١٨٦

رأس القرن حقيق بأن يسمى رأس الزوابع فقد هاجت علينا هيجة
خلنا فيها أن المحيط بأجمعه ينيخ بكلكله على سفينتنا الضئيلة . على أنها تقاوم
وتجري مع ما يلاطمها من الامواج ويتقاذفها من المهاوي لا يقعد لها عن
ذلك زجرة البحر فهو بهيمة كبرى وجدت من يروضها .

الشذرة التاسعة والعشرون

شجاعة الملاحين وتفضيلها على شجاعة الجنود وبيان انها تكتسب بالنعم

يوم ١٤ مايو سنة — ١٨٦

انتهينا من الطواف بالرأس ولسكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من

{١} البطروش طائر من فصيلة الطيور الراحية الارجل يعيش في بحار استرالية

من الجهد وما أشد ما عانينا من المشاق !! فقد كانت الريح تزف ف ثلاثة أيام وثلاث ليال زفرقة بلغت من الشدة الى حد أن ساري سفينتنا الا كبركان فيها يتنود تنود القصدة من ييس الحشيش .

لم يكن يؤلنا على ظهر السفينة سوى أيدي البحارين في ممارسة أعمالهم ، وما كان أشدني إعجاباً في نفسي بسيرتهم في تلك الساعات التي قضيناها في مكاحفة البحر ومغالبة الخطر ، فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها في رأيي ، لان الملاح بما له من الجرأة على الموجودات والنواعل الكونية يكافح الموت مواجهة فلا يحول بينهما الا سمك لوح من الخشب وليس غرضه من الكفاح ابادة نظرائه بل هو في مدافعة عن حياته يعمل لتجيتهم من الهلاك ، وناهيك بالبحر عدواً أوتي من العدد ما هو أشدها رهبة في العالم بأسره ، فانك ترى السفينة على وهنها وكونها ليست الا دولا باً من الخشب تطاردها الريح والبرد والبرق وجبل من الموج فهي في الحقيقة تقاوم قوى كوز من الا كوان برمتها . ولا مشابهة أيضاً بين قدر الملاح وبين ما يفاخر به السفسطي من اجترائه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء بارداً خالياً من العمل ، هيئات ! فان قدر الملاح هو ما يتجلى في عمله من قوة نفسه وهمتها ، فتراه مع استماتته بربه لا يستمسك بدينه لا يعتمد بعد ذلك الا على نفسه ، أعني على صحة بصره وضبط حر كاته وقوة أعصابه فان قهره عدوه سلم اليه ، ولكن هذا لا يكون الا بعد ان يرى آخر سلاح له قد تحطم .

تلك البسالة تكتسب بالتعلم وهذه الثقة بالنفس تسري بالمعاشرة ، بذلك على ذلك ان « اميل » كان في أول عهده بالملاحة شديد الزوع فما

لبث ان ذهب عنه روعه بالتأني برفقائه، لانه كان يرى من العار أن يرتجف
فؤاده وتزلزل قدماه امام هؤلاء الابطال وهم ثابتون في مواطنهم. كانوا
يشغلونه حيناً بعد حين بإدارة المصبات (الطامبات) ومعالجة الجبال . فلا
شيء يعمل كالعمل البدني في تقوية القلب ، فبطالة المسافرين هي التي عند
أدنى هيعة ^(١) تملأ قلوبهم بالمخاوف وأدمغتهم بالخيالات ، واما الملاح
فليس للخوف متسع في وقته .

من مزايا الملاحه أيضاً ان مافيها من مكافحة الخطر ينمي في قلوب
الملاحين حب الحياة ، فمن ذا الذي كان يحسب ان الانتحار لا يكاد يكون
معروفاً بينهم ؟

الضجر من الحياة من مميزات العصور الحديثة وهو أخوفها عندي على
الشبان وأشدّها إيلاماً لنفسي ، فاني أرى الاطفال يولدون غير مباينين بشيء ،
سائمين من كل شيء ، خامدي الاحساس ميتي القلوب ، فكم من فتاة اذا
انكشف لها وهمها لأول مرة فيما كانت تعتقده واقعاً تمنّت لو أنّها ماتت
قبل انكشافه ! وكم من فتى كسول لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ولم
يعامله الجد الا معاملة الغلام العارم يصيح قائلاً « ما فائدة الحياة » ؟ وليس
من غرضي هنا ان أبحث عن أسباب هذه المصيبة الملمة بالنفوس والاخلاق ،
وإنما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين : « انظروا الى الملاح تجدوا
أنه هو الذي عرف قيمة الحياة لانه في كل يوم يزود عنها أخطاراً حقيقية
لغاية نافعة وبذلك صار أهلاً لأن يقدرها حق قدرها »

من أجل هذه الاسباب كلها أرى ان « اميل » الآن في ولاية

معلمين حاذقين، وأما «لولا» فإنها والحق يقال لم تبد من البسالة شيئاً يذكر لأنها لبثت محتبأة في إحدى زوايا حجرتها، فكانت كالنعامة التي يؤكد العارفون بأخلاقتها أنها تتوهم أن غمر رأسها في الظلام منجاة لها من الخطر الملم بها، وذلك ما اضطر هيلانة إلى أن تكون قدوة لها في الاقدام تسكيناً لروعها، وكان هذا موجباً للاعجاب بها بحق.

« شجاعة النساء المحمودة »

من الخطأ أن يتوهم متوهم أن لا فائدة في الشجاعة للنساء، فانه إن كان يريد بها الشجاعة الحربية فاني قليل الاعتداد بها في الرجال فاكون أقل اعتداداً بها في المرأة المترجلة، ولكن لا يعزب عن ذهنه انه يوجد من ضروب الاقدار غير واحد، فان النساء مستهدفات للمخاطر التي نحن عرضة لها، ومضطربات لمغالبة ماغالبه من حوادث الكون الخارجي، وقد يوجد من الاحوال ما تتوقف حياتهن فيها بل وحياة أطفالهن على سكينتهن ورباطة جأشهن، فقرة العزيمة وثبات الجنان هما من الاخلاق التي تحتاج اليهما المرأة كما يحتاج اليهما الرجل.

من المصائب ان تسوء تربية الفتيات الى حد أن يتوهم ان تكلف ضروب الفرع القاتل عند كل مناسبة خصوصاً بحضرة الشبان مما يافت الانظار اليهن، فيقول من يراهن في هذه الحالة انهن يقصدن ان يظهرن في شكل الحمام المروعة. ويجمل ان يوعظن بأن الخوف لا حسن فيه مطلقاً، وانه يجب عليهن لا نفسهن اذا أهدق بهن الخطر ان يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة ان كن يردن ان يصرن مثارا للاعجاب والاستحسان. ولا صحة لما يعتقدونه على ما يظهر من ان ثبات جنان المرأة يسيء خلقها، بل

أجد جمالا وشرفاً فائقين في تلك الذات اذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة بل ومن قوة المدافعة تقتحم الخطر بقوة جأش تكافئ قوة الرجل . أنا أعلم ان من الاوهام السخيفة اعتقاد ان جفاء الطبع من لوازم الشجاعة ، ولكني أود لو أدري متى شوهد ان الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها وغير ذلك من فضائلها . حاشاها من هذا وان الجبن والاثرة لهما اللذان يوجبان قسوة القلب وغاظه .

سل أمّا جباناً ان تشهد عملاً جراحياً يعمل في جسم ولدها لتسليه وتسري من ألمه تجبك بأنها شديدة الاحساس كثيرة التأثير ، وبئس العذر عذرهما ، فما مرادها الا الاحتماء من كلفة التسخير . ثم لا يتخيلن احد ان قوة العزيمة والسلطان على النفس أو الشجاعة الحقيقية هي من الاخلاق التي لا ينتفع بها الا في طائفتين من الاعمال هما الحرب والملاحاة فاني أرى ان منفعتهما تتعدى الى كثير من الامور الاخرى لان الرجل والمرأة مهتدان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم بالآلاف من الاعداء والمعاطب ، ولأن البحر لا يقصد الا إزهاق أرواحنا وما أكثر ما يعرض لنا من الاحوال الخطرة التي يقصد فيها نقض أعراضنا والذهاب بحرماتنا . اهـ

الشذرة الثلاثون

مرح « لولا » في السفينة بعد زوال الخطر

يوم ٣٠ مايو سنة - ١٨٦

تشق سفينتنا « المونيتور » بجمالة خطرهما عباب أمواج المحيط الهادي وتتخذ لها فيه سبيلاً ، وقد عادت « لولا » بعد زوال الخطر الى ما كانت

عليه من الابتهاج والسرور فهي تفرح وتعدو على ظهر السفينة مع مالها من الحركات حافظة لتوازنها ، وتبدو قدمها الصغيرتان في خبيها من تحت حلتها كأنهما فأرتان . اهـ

الشذرة الحادية والثلاثون

{ وصف جزر جوان فرناندز }

« ويان ان احداها هي التي كتب عنها قصة روبنسن كروزو المشهورة »

يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٦ —

رسونا غداة اليوم في جوان فرناندز لضبط مقياس الزمن (الكرونومتر) وهذه البقعة مركبة في الحقيقة من ثلاث جزر يتألف منها مجموع متلاصق الاجزاء ، وتسمى الاولى منها ماساتيره والثانية ماسافويره والثالثة اسلادولوبوس وهي صخرة تكاد تكون جرداء أكثر الثلاثة تطوحاً نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر) لان القياطس تأوي اليها طلباً للراحة والدفء .

الجزيرتان الاوليان ماساتيره وماسافويره معشوشبتان شجراوان ومع اجتهد الحكومة التابعتين لها في تعميرهما لاتزالان قفرا لايعمرهما الا الممزر الوحشية وهي كثيرة فيهما ، ويقال إنها كانت تزيد عن ذلك لو لم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقتلها وتفترسها . وليت شعري الى أي حالة تصير هذه الكلاب اذا أبادت جميع ما هنالك من الممزر ؟ لا بد أن يأكل بعضها بعضاً . وجزيرة جوان فرناندز تذكر واقعة عظيمة جرت فيها وهي

انه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الانكليزي دامبير على ماساتيره فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو اسكندر شالكرك أثر مشاجرة احدثت بينهما . ترك هذا التبعس في هذه الجزيرة الفقر غير مزود اياه الا بشيء يسير من الغذاء والعدد فعاش هناك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته ، وفي سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادي الثيران الوحشية ان نزلا بالجزيرة فعثرا على ذلك الرجل فرقا لحاله وحمله معها الى أوروبا ، وكان شالكيرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع فاستعان بها دانيال دوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه الناس جميعاً ، ولشد ما يبديه الآن « اميل » و « لولا » من الاهتمام بمطالعة وقائع روبنسن كروزويه . اه

الشذرة الثانية والثلاثون

« الوصول الى خليج قلاو ووصفه وذكر نوع من الطير في تلك الجهة »

يوم ٥ يونيه سنة ١٨٦

يا بشرى ! هذه أرض ! هذه أرض !

بعد ان سافرنا تسعين يوماً دخلنا خليج قلاو وهو من أبهى مناظر الدنيا وأبصرنا جزيرة لورنزو ترتفع حيالنا ، أقول ترتفع وأقل ما في هذا اللفظ أنه حقيقة في استعماله هنا فقد نتج من حساب أحد العلماء أن سواحل سان لورنزو كسواحل الشاطئ المجاور لها ارتفعت عن سطح البحر خمساً وثمانين قدماً انكليزية من عهد العصور التي يعرفها التاريخ .

صخور هذه الجزيرة يعمرها آلاف مؤلفة من الطيور أخص بالذكر منها طائرا رأسه أسمر الى السنجابية وبطنه أبيض ناصع وذنبه أسود يقال انه هو الذي يحصل منه أهل الجزيرة على السماد المعروف بالغوانو وهو ثروتهم الكبرى لان الذهب والفضة كادا ينضببان من معادن بلاد البيرو فهي تتسلى عن الحرمان منها «يعم القدر ولا غرو فالذهب مذهب ومفسد، والقدر موجد ومغصب . اهـ

الشدرة الثالثة والثلاثون

« بيان فوائد العقبان »

يوم ٦ يونيه سنة ١٨٦٠

رسونا في مينا سيودال دولوس ريس

أخص ما أدهش « اميل » و « لولا » عند هبوطهما على البر كثرة العقبان التي تسكن سواحل هذه الجهة، فانها ترى عند كل خطوة في الشوارع وعلى سطوح المساكن، وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جائمة على جدار ورؤسها مخبئة تحت أجنحتها ذلك أنها ليس من خلقها الجفلان ولا تخشى من السكان شيئا لانهم يجلونها. هذه الطيور في غاية الشره، وشرها نفسه نعمة من نعم الله على أهل تلك البلاد لانه يساعد على حفظ الصحة في المدن، وكان « لاميل » فيما أرى اخطاء غريبة في شأنها فانه لما سمع الزراية عليها ممن درسوا أخلاقها في الكتب كان يتخيلها سلاية تسكن الهواء أكلة دنيئة للرّم، فلم يمض الا ساعات قلائل حتى زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه

فعلم انها محتسبة سخرها الخالق (سبحانه) في البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة، فهي تنقيها مما يلقى على الابواب من القمام والاحوم الفاسدة ومما يطرح فيها من الجيف، ويدل ماتبيده هذه الطيور من الاطمئنان الى الانسان والثقة به حق الدلالة على شعورها بنفعها له .

المسافة بين قلاو وليما فرسخان أسبانيوليان وسنبلغها غداً . اهـ

الشذرة الرابعة والثلاثون

التربية بالاعانة

يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٦—

مدينة ليما في نظري كثيرة الشبه جداً باحدى مدن أوربة، وان الاوربي الذي يسافر من بلده الى الجانب الآخر من الدنيا فيقطع في ذلك خمسة آلاف وخمسمائة وتسعة وثمانين ميلاً انكليزياً ليسحق ان يلاقي بعد هذا السفر من تركهم هناك من اليسوعيين والمحتالين والبغايا والراهبات ومعاهد الفجور .

في تلك المدينة شوارع لها من الرونق ما يناسبها وفيها ميدان أنيق يدعى « بالبلازامير » في وسطه بركة فخمة من البرنز ينبثق منها الماء في ثلاثة أحواض على أن هناك جدولاً يخترق المدينة أفضله كثيراً على ذلك العمل الفني . وهذا الجدول المسمى بالريماق يأخذ مياهه من مثالج جبال القوردبير، وبعد أن يجري ثلاثين فرسخاً يصل الى ليما فيقسمها الى قسمين متساويين تقريباً . ولست أدري اضلال أم حق ان أحس ببرودة مياهه اذا غمست أصبعي فيها كان ماء الثلوج لم يمهله اندفاعه أن يسخن بحرارة الشمس .

ليست الحرارة في تلك الجهة من الشدة بالمقدار الذي قد يتوهم مع كونها لا تبعد عن خط الاستواء الا نشر درجات. وتعال هذه الحالة بعامل مختلفة غير ان أخصها وضع المدينة فان المحيط الهادي يكتنفها من أحد جانبيها ويكتنفها من الجانب الآخر جبال القوردير القائمة شرقيها مكالة بالثلوج الدائمة. وفي ذلك ما يساعد بلاريب على ترطيب الجو وبينها وبين البحر فرسخان اسبانيوليان ولا تبعد الجبال عنها الا بثمانية وعشرين فرسخا فكان البحر والجبال منطقة مزدوجة تمنطق بها الساحل لتقيه شدة الحرارة .

الذي يدهش (اميل) و (لولا) كثيرا هو أننا بحسب منزلة الشمس الآن في فصل الشتاء مع اننا في شهر يونيه على ان الحق أن لاشتاء في بلاد البيرو، فان السنة فيها تنقسم الى فصلين فصل الرطوبة وفصل الجفاف ففصل الرطوبة يتبدى من شهر ابريل ويستمر الى اكتوبر وفيه يغشى المدينة ضباب ثقيل فاتر يسميه أهل البلاد بالغروي، وقد يبلغ أحيانا من الكثافة والإسفاف (الدنو من الارض) خصوصا في الغداة حدا لا نكاد نرى فيه ما هو شديد القرب منا من الاشياء، ويقال ان هذا الحجاب يتمزق في شهر اكتوبر أو نوفمبر فترفع قبة السماء سنجابية اللون ولا يلبث الطل أن يتلاشى بحرارة أشعة الشمس النفاذة وحينئذ يتبدى فصل الجفاف أي الصيف .

لا ينبغي أن يفهم من قوائنا فصل الرطوبة الفصل الممطر فانه قد يمضي قرن ولا تسقط على طول هذا الساحل كله قطرة من مطر. عرفت ذلك لاني منذ بضعة أيام كنت أسأل شيخا من هذه البلاد : هل تذكر

انك شهدت مطراً في حياتك ؟ فكان جوابه لي « قط » فسألته عن عمره فقال انه ثمانون سنة .

الضباب ندى يحيل التراب الى وحل ويكفي لاخصاب الارض هنا إخصاباً متوسطاً . على أنه يوجد في أماكن أخرى من بلاد البيرو وديان وربي قرية من الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية اذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عما قليل حافلة بالنبات ، فالارض لا تسأل السماء ، الا أن تتصدق عليها بالماء .

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصاين حرارة على أن الناس هنا يؤكدون لي أنهم يجدونه مبرداً بما يهب من نسيمي البر والبحر ، فكان هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما ، فيهب نسيم البحر في الجملة حوالي الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوه متراوحيين الشدة واللين الى غروب الشمس ثم يركد ويستتب السكون ، فاذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشي جاء دور نسيم البر الذي يهب من الجبال فيبقى على هبوه الى الغداة .

في رأيي أن سكان ليمّا أشد ما فيها غرابة وأدعاه الى المراقبة فلا أظن أنه يوجد في سكان بقعة أخرى من بقاع الارض ما يوجد في ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم ، وفي ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة . ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين (وأعني بهم الاشخاص المولودين في أمريكا ممن هاجروا اليها من الدنيا القديمة خصوصاً أعقاب

اليوت الاسبانية العتيقة) ومن الهنود والزوج والخلاسيين ^(١) وغيرهم من الاصناف ، فترى من ألوان وجوههم كلما ثقفتهم الابيض الشاحب والاصفر النحاسي والاسود الكهربي وما يتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدة من اشتباك الارحام واختلاط الانساب ، واني اذا اعتبرت في الحكم عليهم ما قام بنفسي من آثار الانفعال برؤيتهم لأول مرة حكمت بانهم متشابهون بالارواح كما تشابهوا بالاشباح .

تتماز النساء البيض والخلاسيات عن غيرهن بعينين نجلاوين سوداوين نتوقدان ذكاء ، وبشعور طويلة غداثرها الثقيلة مرسلة ، ولون تقاوم وضاحته الفطرية حدة الشمس ، وأنف مع خلود من شبه الانوف اليونانية لا يعوزه شيء من القنا ^(٢) وفم مزدان بالثنايا الجميلة على ما قد يكون فيه من السعة أحيانا ، وقامة وسيطة معتدلة ، وقدمان بلغتا من الصغر حداً يدعو الى العجب ، ويدين صيغتا صياغة دقيقة ، وجملة القول في وصفهن ان صورتهن هي صورة « لولا » اذا كبرت .

أنا لا أعلم الى الآن شيئاً من أخلاقهن اللهم الا ما يظهر لي من أنهن (أعني الغنيات منهن) يقضين أوقاتهن بين الزهور والمطور والاقراص العطرية والمربيات والخللوى ، ولئن اعتمدت في الحكم عليهن على ما أسمعه عنهن ممن يحتفون بي لقلت إنهن يقسمن وقتهن بين دسائس العشق وشعائر العبادة ، ولا إخال أحداً لا يدهش اذا علم أن الاديار والكنايس تشغل من المدينة ربعها . ومما أكدته لي أهل ليما أن الرجال منهم شديدو الغيرة على

(١) الخلاسي هو الذي يولد بين أبوين أحدهما أبيض والثاني اسود { ٢ } القنا مصدر قني الانف أي ارتفع أعلاء واحد ودب وسطه وسبغ أي طال طرفه

نسأهم ولسكني لأعتقد شيئاً مما يقولون فإنهم لو كانوا كذلك حقيقة لما أباحوا لهم الذهاب للاعتراف في أغلب الاوقات . اه

الشذرة الخامسة والثلاثون

ذكر شيء من أخلاق أهل إيما وأحوالهم وأهل بيت « لولا » ووالديها

يوم ٣٠ يونيه سنة ١٨٦ —

مالبت منذ وصلنا الى إيما ان التزمت الاشتغال بمصالح دولوريس، وأول شيء رأيت من الواجب البداءة به في هذا السبيل أن أجمع تفاصيل ما يعلمه الناس من الاخبار الموثوق بها في شأن مولدها ووالديها ودونك بالايجاز نتيجة ما هدتني اليه ابجائي :

أما والديها فهو من بيت أسبانيولي كان رحل الى بلاد البيرو واستوطنها بعد الفتح بزمن يسير . وأما والديها فكانت من النساء ذرات اللون ويعنى بهن الخلاسيات بحسب اصطلاح الناس هنا وكانت مع احتواء عروقها على شيء من الدم الهندي لا يتأتى لعين غير عين المستعمر الخالص الغيور ان تكتشف فيها بقايا سمات صنفها التي انمحي أكثر من ثلاثة أرباعها ، فانه لا قدرة لغير المستعمرين على ان يميزوا في الذات الجميلة لاول نظرة ما يسميه الانكليز بأثر ظلف الشيطان المشقوق ، فهم يلتمسون هذا الاثر حتى في شكل الاظافر ويحق ان تلم أنه مع خضوع هذه البلاد للحكومة الجمهورية ومع تشابك الاجيال فيها لا يزال بهض البيوتات الاسبانيولية يرون من الامتياز ان يثبتوا صراحة أنسابهم ونقاوتها من الاختلاط وان يحرصوا

على بقائها كذلك، فان هذا في رأيهم شارة من شارات الشرف، وفي رأي غيرهم والحق يقال نعمة يحسدونهم عليها. يدلك عليه ان الخلاسين في الطبقة الخامسة بل وفي الطبقة السادسة يدعوم عجبهم الى التألم من ان يعرفهم الناس بهذه الصفة حتى انهم ليلذون كل ما يملكون لو ضمن لهم الاتفكاك من اماراتها التي تراها مع نهايتها في الخفاء وقرب تلاشيها تم على خسة أصلهم كما تقرر في الآراء والافكار .

ذلك ما حدا بي الى ان احدث نفسي غالباً بان معيشة الناس مجتمعين ربما كانت في بدايتها مؤسسة على حاجتهم الى احتقار بعضهم بعضاً . ومهما يكن من هذا الامر فقد كان زواج ذلك الاسبانيولي الحر بتلك الخلاسية معتبرا عند كل اهل بيته من سوء الحظ لانه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات متعلقة بالجيل الاحمر ، ورسخت فيها شديد الرسوخ . وكانوا يرفعون عقيرتهم افتخارا بأنهم لا ينفكون عن تخير الامهات . ولا أدري أ يكون هذا من أسباب الفرقه بين الزوجين فيما بعد أم لا ، غير انه قد عرف ان اقترانهما لم يقرن بالهناء والغبطة فقد ماتت هذه الفتاة الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد ان وضعت بنتا .

لم يطوح والد « لولا » بنفسه في الاعمال البحرية تطويحاً تاماً الا من بعد تأيمه . وكانت السفينة التي غرقت به حيال سواحل بنزاس ملكا له . وقد أجمع الناس على انه كان كثير الفخر ببنته وانه لعزمه على تربيته تربية أعلى من التربية التي ينشأ عليها أغلب النساء في ليا حملها معه ليضعها في إحدى مدارس لوندرة الداخلية .

كان يحب هذه الطفلة وفي هذا أقوى موجب للظن بأنه هو الذي

علقها بمزيد الاحتراس والعناية في أدوات السفينة قبل أن تغتاله الامواج .
بلغ خبر الفرق ما وراء البحار غير انه شاع أيضاً في ليا أن هذه
المصيبة شملت الرجل وبنته فلا شك أن ما أرسلته أنا وهيلانة من
الرسائل اعلاماً بنجاة « لولا » ومطالبة بحقوقها قد حجزها من لهم مصلحة
في اعدامها .

ما نجا من الفرق الا ملاح واحد لم يرجع بعده الى ليا قط لسبب
لا أعلمه ، فلم يتيسر له أن يكذب ما أذيع هناك عمداً من الروايات الموضوعة
لما وصلنا الى ليا عرفت « لولا » بلادها ان لم أكن واحدا من خلال
ما حفظته ذاكرتها من آثارها في الصغر ، غير أن هذه البلاد لم تعرفها
قط ، فقد كان من عرفتهم بها من آل بيتها ينظرون بالريبة فيها فيقولون
نعم انهم كانوا سمعوا بسفان غرق في البحر وبأنه عمهم أو ابن عمهم ولكن
ما الدليل على ان تلك الفتاة التي عرفتهم بها بنته فانهم كانوا محقين كل الحق
أن يعتقدوا موتها ، وأما ما قدمته لهم من الاوراق الدالة على ثبوت نسبها
له فكانوا يتعلمون عليها بأنها مكتوبة بالانكليزية وهم لا يفهمونها بل هم
ما كانوا يريدون أن يتكلفوا قراءتها .

ذلك ما اضطرني الى أن أقصد العارفين بالقانون فكان رأيهم في القضية
انها من القضايا الممضلة المرتبكة وأنها تقتضي فراغاً واسلاف نقود وعبثاً
كثيراً من عبث المحاماة ، وأنت تعلم حالة القضاء في بلادنا وهو في بلاد
البيرو أدنى منه أيضاً الى الطفولية .

عمال الحكومة الذين سألتهم في هذا الموضوع وان كان أغلبهم ينتمي
الى بيت والد الفتاة متفقون على انه ترك بعض المال ، غير انهم يقولون وفي

قولهم أمارات الريبة ان جل هذا المال ضاع في سداد ديون المتوفى، والذي ظهر لي أشد الظهور هو أن المضي في هذه القضية يجر الى تشويش كثير من المصالح الخاصة التي لاشك في أنها اتسعت بمصيبة السفان . تلك هي حالة الامور .

الشدرة السادسة والثلاثون

« فوائد الشدائد — بذل النفس للمحجوب أول الحب »

يوم ١٥ يوليه سنة — ١٥٦

كان منا خرق وطيش كادت عواقبه تكون علينا خساراً مبيناً. ذلك أني و«اميل» و«لولا» خرجنا عشية أمس نتنزه والساحل ممتطين أفراساً فأوغلنا في سيرنا معتسفين ولا يلبث الانسان بأذني بحث في شكل هذه السواحل الظاهري أن يدرك ان البلاد نشأت من الزلازل الأرضية . من أسمى الافهام التي انتهت اليها حكمة العلوم الحديثة على ما أرى^(١) ادراك أن للناس فوائد فيما يتلون به من المصائب فان لها دخلاً عظيماً في تكون العالم المادي

وما أدراك ما هذه المصائب ؟ اذا رُجت الارض رجاً وتولاها الاضطراب عم الفزع كل من على ظهرها ممن يشهدون زلزالها ، ورأيت الحيوانات جافة حيرى لا تدري ماذا يراد بها .

{١} لقد طاش رأيه فان القرآن القديم نطق بهذه الحكمة التي رآها حديثة في آيات كثيرة جداً وتداولها المسلمون في منشورهم ومنظومهم ولاكنه لا يعلم . ذلك

وان لمن شهد الزلازل من سكان هذه البلاد قصصاً عنها يروونها
للاجانب تحاكي قصص التوراة، فكأنّ من قرية كانت بالامس عامرة
سميدة أصبحت خاوية على عروشها فلا يجد الباحث عنها في عرصاتِها الا
أطلالا بالية ورسوماً دارسة. واذا انقضت الزلازل لم يكن للناس حديث
مدة الشهر التالي لوقوعها الا قصصها المحزنة، فمن رجال ذهب عقولهم من
الفرع، وأموال لعبت بها أيدي الضياع، ونساء وأطفال وشيوخ خربت
عليهم بيوتهم فحققتهم ردمها .

لايسلم تاريخ هذه الرزايا من اختلاط القصص به فيما يحكيه الناس
هنا أنهم شاهدوا في زلزلة ليلية على وميض البروق المشؤم أن الارض قد
انشقت وبرزت هيا كل قدماء الاقنين ^(١) من قبورها ثم عادت فغيت في
هذه المهاوي التي ما لبثت أن التأمت عليها .

سكان شطوط المحيط في هذه البلاد أشد تعرضاً للمعاطب فان
البحر في بدء الزلزال يتقهقر عن الارض كأنه قد ملكه الذعر، ثم يماود
الكرة وقد هاج غضبه، واشتد صخبه ولجبه، وهنالك تتكسر أناجر السفن
وتتقطع سلاسلها وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دوراناً، وأما جسور المياه
فانها تستسلم لضغط الامواج فتفتح أبوابها للخراب والهلاك .

وللبيرانيين من المعرفة الصحيحة بما لأرضهم التي استودعوا حياتهم
وعيالهم وآمالهم من ضروب الختل ما يجعلهم في عامة أوقاتهم على حذر منها
فترام لا يذوقون النوم الا غراراً مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم
لاقل لفظ أو أدنى رجة سائلين ما الخطب ؟ فاذا قيل زلزلة برزوا جميعاً .

(١) الاقنين جمع أنقى وهو أجد أشرف قدماء الهنود بأمريكا

على أن لهم بهـ هذا القطر الذي تميد بهم أرضه كلف العاشقين لجماله
وخصبه ، فانك نجد في البقاع المزروعة منه حقول الذرة وقصب السكر
والقطن والفواكه الاسبانيولية كالبرتقال والليمون والرمات والتين
والزيتون قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كاللوز والاناناس ، فتلك
الارض المتزلزلة حبلى بالحياة فهي تنمو وتعلو وتنفس ولا ينبغي أن ينقم
منها أنها في عملها هذا تشوش عمل الانسان أحياناً بما لها من صنوف
التدمير وضروب التخريب .

لم يسلم الشاطئ الذي كنا نتمتع به عليه من فعل الزلازل الارضية التي
لا شك في أنها تبتدىء من سلسلة جبال الاندز^(١) فان الانسان فيما يلاقيه
هنالك من الشقوق والأنجاد والاعوار التي لا تلبث بعد انخسافها أن ترتفع
لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية .

كانت « لولا » تسير على الساحل وكلها زهو وعجب باستقبالها « اميل »
في بلادها ومرحبته اياه غير مفكرة في شيء عسى أن يكون من الحبائل
تحت هذا الساحل المتباين الذي دثرته العواصف والاعاصير ، فهمزت
جوادها بحدة مفرطة وأخذت به شطر البحر وكنا نحن نتبعها ولكن من
بعد لبلادة فرسينا ، على ان « اميل » لم يلبث ان خف اليها خفة المستيثس
لما نبهته هيعاتي الى الخطر الذي كانت ملاقيه له ، فلما بلغ تلك الفارسة المرحه
لم تكن الا على نحو مئة متر من هوة بين صخرتين كان لا محيص لها من
التردي فيها بجوادها مرسله الشعر في الهواء مشرعة السوط ، فأخذ بعنان
فرسها وقسره على التحول يسرة ورفع يديه قائماً على رجليه

{١} سلسلة جبال الاندز هي سلسلة عظيمة من الجبال في أمريكا الجنوبية

ثم ما لبث ان وقف كأنه ألهم الوقوف فجأة .
وأما « لولا » فقد امتنعت (تغير لون وجهها) وارتعدت فرائصها
لأنها كانت أبصرت الهوة وشكرت « لاميل » همته بأن قبلته تقيلاً
يشف عن الوداعة وسلامة القلب كالذي يقع من أخت لاخيها .
وفي يقيني ان هذه الحادثة لم تزد شيئاً على ما يضره كل منهما الآخر
من المحبة والوداد ولكني أحسب اني لاحظت من عهد حصولها فرماً
دقيقاً في رعايات « اميل » لها بزيادة تحديه (تطفه) عليها فكان بذل النفس
للمحبيب أول الحب .

ذلك أمر لا بد أن تكشفه لنا الايام لاني وهيلانة قد عودنا هذين
الغلامين أن نصدقهما لمجرد قولهما فلا أخالهما يجسران على غشنا . اهـ

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثار والمدن المجهولة في البيرو والموازنة بين القوى والاعمال

يوم ٢٨ يولييه سنة ١٨٦٠

كثيراً ما نلاقي هنا هنوداً أصابهم يشتغل بعضهم بالتماس الثلج من
رءوس الجبال ونقله على ظهور البغال الى (ليما) حيث يعتبر من أوائل
مشتبهات المائدة وبعضهم بنقل الملح اليها من سواحل البحر على قطعان اللاما^(١)
ياله من بون بعيد بين ما عليه هؤلاء الهنود الآن من الذل والشفاه
وما كانوا فيه من العظمة والرخاء .

{ ١ } اللاما حيوان من حيوانات البيرو بأريكة يشبه الجمل

معابد الانقين التي يرشد أهلها السائح الى زيارتها وطريقهم الحربي المشهور الذي اختطوه لمقاتلتهم ونظام ريهم العجيب الذي كانوا يبلغون به مياه الجداول الصغيرة الى الحقول بما كانوا يحتفرونه من الخنادق ليخصبوا به من الارضين ماصار بعدهم محلا - كل ذلك مما يحمل على الاعتقاد بأن الاجيال الاصلية التي كانت متوطنة وسط أمريكا أوقفت في سبيل تقدمها بحلول الجيل الابيض الذي انقض عليها في بلادها انقضا العقاب فعاقها عن رقيها فانها كانت تسعى اليه ومن ذا الذي في استطاعته أن يخبرنا بما كان يحصل لو أنهم أمهلوا حتى باغوا مثال تمدنهم الصحيح ؟ ربما كان انعكس الامر فذهب مثل خريستوف كلومب من حمر الجلود فاكتشف الدنيا القديمة .

قبائل الهنود التي لم تخضع الى اليوم للحكومة الامريكية تحذر ما يقدم لها من الهدايا وما توعدها به من المزايا على حد قول القائل :

« الروم أخشى »^(١)

ولم تقلح الحكومة في ارسال الدعاة اليهم لدعوتهم الى النصرانية فانهم يمامون أن لفظ انجيل في فم الابيض معناه الاستعباد لجيلهم ومصادرتهم في أرضهم .

يعتقد بعض أهل ليا أن من المدن البيروية أو المكسيكية القديمة مالا تزال موجودة لم يبلغها الفاتحون من أسبانية واذا سألهم أين هذه المدن لا تجد منهم أحدا يستطيع أن يجيبك عن هذا السؤال، ثم اذا قلت

{١} الروم أخشى جزء من بيت شعر لشاعر لاتيني أذكر منه شطره الاول وترجمته :
« الروم أخشى وان هم قدموا تحفا »

كيف ان أحدا من سائحي اليوم لم يعثر عليها أجابوك إن هؤلاء الاقوام القدماء سكان تلك المدن مكثوفون من كل ناحية بالصحاري والآجام والمستنقعات وسلاسل الجبال وغيرها من العقبات الكثيرة وبذلك حفظوا من قلاهم . على ان الوصول اليهم يقتضي وطء قبائل متوحشة تمنع الاجانب اسندخول أرضها وتجزئ عليه بالقتل مثل الهنود البسلاء (انديوس رافوس) وهم جيل حربي يسكن الهضاب الواقعة شرقي البيرو و(القونشوس) ويقال انهم من أكلة لحوم البشر .

ولقد ذهب فريق آخر من البيرويين في دعاويهم الى ما هو أبعد من ذلك فلم يقتصروا على القول بوجود المدن المذكورة بل قالوا ان بعض ركاب التماسيف الخاملي الذكروا المترفين من التجار وطلاب المهن زاروها المرة بعد المرة ومن هؤلاء الزوار من انقطع ذكركم فلم يسمع عنهم شيء ومنهم من حكوا ما عاينوه منها فهم مصدر ما عرف عنها غير انهم لبعدهم عن الحضارة بل وعن العلم لم يخبروا بما اكتشفوه الا بعض التجار الرحل أو الصيادين ولم يستطع هؤلاء عند حكايتهم لما وعوه أن يؤدوا لمن سمعوا منهم الا أخبارا مبهمه جدا. والذي ينبغي أن يعتقدي مثل هذه الاحاديث هو أنه يحسن قبل نبذها واعتبارها من الاساطير أن يفكر فيها مرتين لانها على كل حال ليست بعيدة عن الحقيقة بعد ان اكتشف استفنس^(١) وغيره من السائحين الذين جابوا وسط أمريكا ما اكتشفوا من الآثار الحقيقية وبعد الابحاث التي حصلت وسط الغابات الكثيفة ولم يشهدوها الا البيغآت والقردة ، وخصوصاً بعد ان ثبتت للعالم صحة بعض الآثار

المروية عن الهنود ثبوتاً واضحاً من أطلال المدن المكتشفة مثل قوبان وقيشي واوقوزينجو وبالانقا وغيرها من المدن الكثيرة المدفونة تحت جذور الأشجار من قرون طويلة .

نعم إن موضوع البحث والنظر هاهنا ليس مدناً بائدة بل هو مدن حية قد يعثر فيها أن وجدت على تاريخ جيل من أجيال البشر برمتهم ومعابدهم وآلهتهم وقسايسهم وشرائعهم وعوائدهم .

ربما مال « اميل » و« لولا » اذا سمعا مثل هذه الحكايات فانقدت بها تخيلتهما الى أن يباشرا البحث عن تلك المدن المجهولة فإن من هو مثلها في سن المراهقة لا يفكر في العقبات ولا يحسب لها حساباً فهما من هذه الجهة شبيهان بعمامة الناس، ولو اني ثبطت عزم هذين القرنين الصغيرين وأخذت توقد ذهنهما للمت نفسي على ذلك، ولكنني انتهزت هذه الفرصة فقلت لهما انه لا يزال في بلاد البيرو كما في غيرها كثير من الأشياء التي يلزم اكتشافها غير انه يجب على الانسان قبل كل شيء أن يعرف كيف يزن قواه بطبيعة ما يريد مباشرته من الاعمال . اهـ

الشذرة الثامنة والثلاثون

« التربية بالتأثيرات الطبيعية »

يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٠

صاحبتنا نخدة اليوم على مقربة من ليما زنجياً آتياً اليها يلتمس رزقه من عرض حيوان يسمى البوما وهو الممثل للإسد في أمريكا كانت قبيلة

من المتوحشين اصطادته حياً وكان ربه وهو شبه مشعوذ يؤمل أن ينال بعض النفود من عرضه على النظارة (أي المتفرجين)

كان هذا الرجل على شدة فاقتة وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوباً بصيبة زنجية عليها طمر أزرق رأيت في مشيتها قز لافسأتها بالاسبانيولية التي لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت فكان جوابها أن أرتني إحدى ساقها فإذ فيها جرح دام ورأيت قدميها قد ورمتا ورمماً مفراطولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة في لحمها وهي التي تسبب عنها الجرح قطعاً ثم خبت بما اعتوره من المشي والوصب ولدغ الحشرات فإن هذين المسافرين كانا آتيين من مسافة بعيدة جداً .

مازلت بهذه الشوكة حتى نجحت في ساقها ثم ضممت أجزاء الجرح بعضها إلى بعض ولما لم أجد خرقه أعصبه بها ناولتي « لولا » مندليها ولم تقتصر على ذلك بل دعيتها رحمتها بهذه الفتاة إلى خلع نعلها ووضع قدميها المرصوتين فيهما فلاءمتها أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهذه المسكينة فأعربت « للولا » عن شكرها ثم غادرناهما ومضينا في سبيلنا .

انبعثت « لولا » إلى عملها هذا باعثة من بواعث الخير القلبية إلا أنها مالبت أن أدركت صعوبة الاحتفاء في أرض صابئة خشنة كأرض اليرموق فان طرقها لامشابهة بينها وبين مخارف البساتين الكبرى في انكثرة أنشأ « اميل » أولاً يسخر من حيرة صديقه في مسيرها حافية ولكنه لتأثره من صنيعها دب فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة .

لم يكن الباقي من طريقنا طويلاً جداً ومع ذلك وقف « اميل » في

أثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثاً متبعاً في ذلك نصيحتي وفي آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشعوز يقود البوما وعرفت « لولا » الصبية الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتها في يدها فما كان أشد غمها لهذا المرأى . انظر كيف بخستها عطيتها وكيف استعملتها .

فسريت عنها ما خامر قلبها من النكد بأن قلت لها إن العادة طبع ثان وإن هذه الصبية لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لا عتيادها الاحتفاء على أن نية اسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو أخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لا يصل النفع اليهم .

والذي رأيته خيراً من هذه العظة كلها هو أن ما وجدته قلبها الطاهر من السرور باحتمال « اميل » إياها قد دلها فيما أرى على أن الانسان لا يخسر شيئاً مما يسديه من المعروف . اهـ

الشذرة التاسعة والثلاثون

« بيان نخامة مشاهد الجبال »

يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٦٠

زرنا بعض أجزاء من جبال القوردبير ولم يكن سبق (لاميل) أن شاهد مثل هذه الجبال التي يصح أن تسمى بالالاب^(١) الامريكية فرائه كل الروع ما لهذا الخلق الهائل من مظاهر الفخامة والعظم مع أننا لم نبلغ منها الا أدنى شعافها

لا بد ان لاحظ هنا أن القدماء كانوا قليلي التأثير بما للجبال الشاخنة

{١} جبال الالب هي سلسلة جبال عظيمة في أوروبا

من المحاسن الرائعة فاننا لم نر لشعراء اللاتين من الكلام فيها الا النذر اليسير
ومعظم ما قالوه استهجان واستقباح وقد يحدوبي ذلك الى القول بأنه كان
يلزم ان يدهمهم من الكوارث المحزنة ما تهتز له نفوسهم وان تستضيء
بصائرهم بنور العلم ويتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من
مزايا العصور الحديثة ولو تم لهم هذا لادر كوا أن في سيارنا الذي نعيش على
ظهره (الارض) من المظاهر الهائلة البديعة ما يدعو الى الاعجاب الحقيقي. اهـ

الشذرة الاربعون

« انتهاء قضية لولا بالصالح وعزم الدكتور اراسم على العودة الى أوربا »
« وتركه قوبيدون وزوجته هناك »

يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٦٠

كسبت (لولا) دعواها وان شئت قلت خسرتها فكلما القولين
صحيح باعتبار جهة النظر .

اضطررنا الى المصالحة في هذه القضية الكثيرة الارتباك لما يقتضيه
الفصل فيها من الانتظار أشهرا بل سنين فعرض على الخصم أن يعطوا
بنت السفان مقداراً زهيداً من النقود وبعض ما كان لو الدهامن الارضين
والارض هاهنا لقيمة لها اليوم أصلاً ما لم يستغيا صاحبها بنفسه أو
بواسطة وكيل له يقيم في هذه البلاد .

فأما أنا وهيلانة فما جئنا لنقيم في (ليا) بل قد انتهت مهمتنا ولم
يبق الا السفر لاسيما وقد تلقيت مكتوباً من الدكتور وارنجتون يدعوني
الى لوندرة لامور نافعة لي بينها فيه .

وأما قويدون وجورجية فانها خيرات بنن الزراعة خصوصاً
زراعة الاقطار الحارة وليس من ذوي العقول الضعيفة وأمانتها تقوم
بكل ما في بلاد البيرو من الذهب ولا أرى ما يمنع من العهد اليها بزراعة
أطيان (لولا)

وإنه ليشق عليّ مفارقة هذين الشهمين غير أنني أرى أن إقليم انكاترة
لم يخلق لمثلها من الزوج وأما اقليم جنوب أمريكا فانه يؤذن بأن سيكون
لها فيه بتوالي الايام مناخ جميل ووطن سعيد . اهـ

الشذرة الحادية والاربعون

بيان ما عاد على « اميل » من الفوائد في هذا السفر

يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٦٠

رجعت السفينة التي كانت حملتنا من لوندرة الى قلاو منذ ثلاثة
أسابيع ويعلم الله متى يكون مجيئها ولهذا رأينا بدلا من اجتياز رأس القرن
ان نركب هذه المرة في سفينة تجارية على نهير الامازون^(١) تسير بنا
والشاطيء حتى نبلغ سواحل البرازيل حيث نجد سفينة تكون مسافرة
الى انكاترة فان هذه الطريق أقصر من الاولى بمسيرة عشرين يوما .
تنوي (لولا) ان تعود معنا لان بلادها لقلة ما عرفته منها لم تبعث
في نفسها شيئا من الرغبة في توطنها ولانها تعلم فوق ذلك اننا نحبها .

{١} المعروف ان الامازون اكبر أنهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهير أحد

فروعه القريبة من لما

ماندمت على هذا السفر بحال « فاميل » قدمضى وقته هنا في الالتفات الى العلم والامعان في مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلاً اليها مجاميع في علم التاريخ الطبيعي بل حاملًا ما هو خير له منها . ضروب الافعال الكثيرة بما رأى ، وصنوف الذكر لما وعى ، وقد تربى طبعه في مدرسة الاختبار والحياة التي لا يربي الرجال غيرها .

نعم اني لا أعني بهذا القول أن ألزم جميع من هم في سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده ، ولكن رأي الذي لأحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من أصدافهم ورأوا الكون في الكون قبل أن يروه في الكتب لغنموا من ذلك أكثر مما يخطر في الوهم . اهـ

الكتاب الرابع

في تربية الشاب

الرسالة الاولى

(من « اميل » الى والده)

عن مدينة بن في ٨ يناير سنة ١٨٦ -

وصف معيشته - نادي الطلبة الالمانين ومحاوراتهم - تهاقهم على خدمة الحكومة -

تفكر « اميل » في أمره - تأمله من عدم فهمه اللغة الالمانية -

ذكره « لولا » - استبحاشه من غربته

انتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لابد من تأديته

(٥٠ التربية الاستقلالية)

وصرت أدعى منذ أسبوع بالسيد الطالب

من المفروض عليّ أن أكشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب : أما نهاري فأصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائهم ، والمقارنة بين اللغات وغير ذلك . وأما ليلي فأقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا ، وأما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولدياً^(١) وبعد العشاء تارة آوي إلى حجرتي وطوراً أنتزه في المدينة ، ولما أطلع على أسرار طائفة الشبان كلها لكوني أجنبياً . على أن أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة إلى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانين ، فما فتح بابه حتى رأيتني تأثماً مغموراً بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته ، وكان يخيل إليّ أنه يمتد إلى غير نهاية وكنت أسمع أصواتاً وأغاني وقهقهات ولا أبصر شيئاً من الصور الحية ، وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كأنما تسبح منه في بحر لحي ، وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خيل إليّ أنها تعوم في الضباب ، ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المنسدل على القاعة كلها . ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوهاً آدمية لأن بصري كان يتدرج في اعنياد هذا الجو الغريب والانس به ولم يكشف عني الحجاب كشفاً تاماً إلا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث أقيم مصطلى عظيم ، فرأيتني في جمع حافل

{١} اصولي جزء من عشرين جزءاً من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وربع

من الشبان على رؤسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وفي أفواههم
المدخن وبين هذا التشويش واللفظ عثرت على حلاق (جمع حلقة) من
الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تعقهم عن المداومة على
الشرب والتدخين .

لم تعد أذني سماع الاصوات الألمانية اعتياداً يكفي لمتابعة مجرى
الحديث وفهمه . على اني فهمت من خوى مسمعه انهم يتناظرون في مقاصد
ووسائل بعضها أسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر ، وكانت
البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تنقذ
بين أنفاس الدخان ، ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأت بعض
من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم
وقد جعلوا يغنون جهاراً في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ
ما يدل على انهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصلاح شؤون الكون .
أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما
سمعت هي أن يلوا عملاً من أعمال الحكومة ، فكأنهم يؤمل أن يكون خادماً
لها على تفاوت بينهم في ذلك ، فإذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلاً
رأته يتقدم اليها حاملاً شهادته راجياً أن توليه أحد الأعمال الخالية في
إدارتها ، ومعظم هذه الأعمال لا يولى الا بالامتحان ولا يناله الا من يظهر
انهم أعلم من غيرهم وحينئذ يعول الذين يخبون فيه على الاشتغال بالأعمال
المستقلة ، ولا أدري أهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامة
هي التي ينبغي أن ينسب اليها التغير الذي يحصل في عقول شبان الدكارة
عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر

فالواقع هو أنه ليس بين أخلاق الطلبة وأخلاق غيرهم من الالمانيين أدنى مشابهة :

الطلبة يتظاهرون بالتفنج " والشذوذ والعريضة ، ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين أنهم ممثلون سكية بل جهودا وبلادة . والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم المبالاة بالخوض في أي بحث نظري وبالهجوم على جميع المسائل سياسية كانت أو دينية أو قومية بما يدهش من جرأة الجنان . وبقية الامة يظهر عليها التشدد في الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية . وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع المميزات التي لا منشأ لها الا اتفاق النسب ، على حين أن أواسط الناس يحلون ألقاب الشرف اجلالا لا حد له ، فترى الفريقين كأمتين متميزتين . وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الامة الارغبتهم العظمى في أن يلوا لهم بعد مبارحة الجامعة أعمالا رسمية . على أن هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدو منه من حدة أفكارهم الحرة .

دعني سيرة هؤلاء الشبان الى التفكير في سيرتي ، فاني قد بلغت التاسعة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة أشغل بها ، واذا أردتني على الاقرار لك بما أجده قلت : اني أحيانا انس من نفسي فتورا في الهمة وضعفا في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدرا . نعم انك قد رأيت مني تقدما سريما مناسباً لحالي في العلوم ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس

مضت، وما ذلك ولا شك الا من الطريقة التي أهلتني بها أنت ووالدي للعمل العقلي وهي مراقبة الامور والاسفار، وما تلقيته منكما من الدروس النافعة، ولا أشك ان لي طمعا في العلم ولكني أجهد فكري في استقصاء مايموزني من الخصاص، فأونة أتوهم اني أحس في نفسي بروح إلهي يقدرني على كل شيء، وساعات يخيل اليّ اني قد فزيت في عجزتي وتجردت من حولي وقوتي، وتارة تملكني الافكار، وطورا يستحوذ علي وجدان الحاجة الي العمل. والذي أراه يقيناً اني لم أجد الى الآن استقامة واستقراراً فيما لنفسي من القوى ان صح ان يطلق ذاك على ما لشاب مثلي من الشهوات القوية التي تدعوه الى السعي لا دراك مقام له في هذه الدنيا.

لما بلغت لىما منذ شهرين كنت أعتقد اني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها في الكتب فما لبثت ان تبين لي خطأي في ذلك ومنشأ هذا الخطأ اني كنت أحسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت وأسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات، فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية، فاذا جرت حولي المحاورات اصغيت اليها وما كنت أسمم الا أصواتاً لا أفقه شيئاً من معانيها، فكنت مطلق البصر أسير السمع لان من الاسر المعنوي الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم . كان الغلام الذي في الثالثة من عمره -وهو في هذه السن لا يعرف من تلك اللغة الا التلعثم ببعض الفاظها- يعرف منها أكثر مما أعرف حتى اني لما كنت أحاول مخاطبته كان ينفض الي رأسه استهزاء كأنه يقول : « اليك عني فليست افقه لك قولاً »

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذي فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الاشارات، فهل يمكن أن ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف

انتقالها الى الاذن اختلافا يسيرا باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثيل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض .

استأت جدًا من هذه العزلة جاهدت جهادًا عظيمًا في التجرد من الإنكماش الذي أجده من حيائي الطبيعي وأنشأت اليوم أنطق بالالمانية نطقًا مفهوميًا ، وإني لأعلم أنه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ، ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع أصواتها من أفواه جميع الناس في هذه البلاد . وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فيما أرى بل هو فهم ما يسمع من التجاور بها بين اثنين من أهلها ، فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما أن أفهم كلمة منه اللهم الا ما كان من تحية المساء وهي : « ليلتك سعيدة » .

مثل اللغات الاجنبية ان لم أكن واهماً كشل دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بادئ بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل أن سيظهر لي النور عما قليل .

أرجوك أن تنوب عني في ثقيل «لولا» وأود لو أدري هل هي مواظبة على سقي الازهار وتمام العناية بالطيور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدفائن ؟ وآمل منك ايضاءها بأن تذكرني كما أذكرها . اهـ

إذا أنا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فاتما في قلبي لا نفرقان ولهذا لا أزيد ما شيئاً الا أنسى على حرمانى من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها جرركم غدوكم ورواحكم في البيت ، وعلى أنسى بقربكما عند

اصطلاء النار ليلا فاني هنا في وحشة أي وحشة. اختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يعلوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب الى الخضرة ، وفي إحدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوت كطير الكوكو عند انقضاء كل ساعة تكرر تكتمكتها التي لا تتغير ، واسمع حسيس احتراق الحطب في التنور وطرير الباب من صفق الريح إياه ، وأرى البدر خارج الحجرة صاحب الوجه يرفو اليّ من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بصور الاشجار والازهار ما بين بيضاء وحمراء ، وقد أحسست باغري راق عيني مع أن هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الى الحزن ولكن لا تلمني فاني مازلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدي فاني أحبكما وأرجو من هذه الجهة على الاقل أن أعيش طول عمري طفلا . اه

الرسالة الثانية

« من اراسم الى اميل »

عن لوندوة في ١٣ فبراير سنة ١٨٦ -

فراق الولد لوالديه سنة فطرية - العلم في ألمانيا - نقد الطالب ما يقرؤه من أفكار غيره - القصد في علوم المقولات - نفع الأمة بالقيام بالواجب على قدره الطاقه - اختيار الشاب العمل الذي يشتغل به بعد - يان انه لا حرية لامة يتكالب شبابها على تولي أعمال الحكومة - التحذير من الملحدن - يان أن الرأي العام لا قيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى - خدمة الامة لذاتها لا للجزء .

اذا كنت يا عزيزي «اميل» تألم من استيحاك فحن تألم من فراقك

ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لا بد منه ، واعلم أنه لو كان في وسعي ان أبرح لو ندرت واخلف من أقوم عليهم من المرضى لمرافقتك الى حيث أنت الآن لكنت فيه مترددًا ، فقد آن لك ان تتعلم كيف تسير سيرة الرجال . الطيور تحب أفرانها ولكنها متى آنت فيها من القوة ما يكفي لاستقلالها بنفسها في الطيران شجعته على تجريب أجنحتها فيه ، سنة الله الذي أراد أن يهب الحرية لجميع البرايا .

أنت تعلم حق العلم أنني لم أرسلك الى « بن » الا لأسهل عليك درس لغة الالمانيين وأخلاقهم وأفكارهم ، وأنا أعلم انك الى الآن قد استقلت بنفسك في تعاملك فكنت في باطن الامر وحقيقته استاذًا لنفسك ومرشدًا ، وليس مأخذته عني من الدروس شيئًا يذكر ، ولكن قد اقتضت أحوال هذا العالم أن توجد مذاهب وطرق لا بد في تعلمها أن تلتمس من ينايعها ، وألمانية في يومنا هذا هي مقببس نور العرفان وهي البلاد التي يجب أن يعرف لها الفضل في الحكمة والعلم والنقد وآداب اللغة ، ومدارسها الجامعة محط رحال الكثيرين من أفاضل الاساتذة وجهابذة العلماء ، ولست مع ذلك أدعوك الى قبول تعليمهم على غير بصيرة وتلقي أقوالهم وآرائهم قضايا مسلمة ، اذن اكون قد تخليت عن جميع الاصول التي أسير عليها . فلانسان شيء لا ينبغي أن يسمح به لاحد الا وهو حرية الفكر ، فالعلوم التي تنلقاها في الجامعة لا يمكن أن يتسع بها نطاق عقلك ويقوى بها ادراكك ما لم تراقب ما فيها من أفكار غيرك مراقبة ذاتية . واياك ثم اياك أن تنهك قواك التي أنت محتاج اليها في العمل بفراط الانكباب على دراسة المعقولات باللغة ما بلغت من الطلاوة وبعد الغور ، فان البحث في المعقولات لا قيمة له

الا اذا أدى الباحث الى وسيلة ينفع بها نظراءه ، والمحـب لنفسه من يقصر ثمرة فكره ودرسه عليها . لا مراء في ان الاتصاف بالعلم من الامور الحسنة ، ولكن أجل منه وأحسن ان يكون الانسان محباً لوطنه نافعاً لاهله ، ولا يعزب عن ذهنك ان المانية ليست بلادك وان آثار سلفك هي حكمة القرن الثامن عشر وان أمك هي الثورة الفرنسية .

آلمتني عبارة من مكتوبك وهي قولك « اني أحيانا آنس من نفسي فتوراً في المهمة وضعفاً في العزيمة ، واسائها عما أصاح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدرآ » فاعلم انه ليس من الضروري لتحقيق النفع في الانسان ان يكون من كبار الرجال ، فأما رجل صدقت نيته في فعل الخير وصح قصده للنفع فانه يغير من حالة القوم الذين يعيش فيهم بقدر ما من التغيير ، وعلى كل حال ليست الحياة الا نتيجة القيام بفروض صغيرة ، فمن أداها كلها بما في وسعه من الوسائل كان في الغالب أفضل ممن يسعى في الاشتهار بعمل خطير . وليس شيء من أفكارنا ولا من أعمالنا بضائع علينا ، فان آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس أو فيمن يخلفوننا ، ومن ذا الذي يستطيع ان يقول ان الحركات الكبرى التي غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمران لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين ؟ كلا ! بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء واشتهارهم الا صورة منعكسة لفضائل اولئك ومساعدتهم المحمودة .

اقنع بأن تكون كما أنت مع مواصلة السعي في تنمية غرائذك وتوسيع نطاق مواهبك بالدأب في العمل والمدارسة ، واذا احتجت في بعض أوقاتك

الى تكبير دائرة وجودك ، فنصفح دواوين الشعراء الحقيقيين ، وكسب أئمة
النظار المشهورين ، وتمنع بما تجده في نفسك عند مطالعتها من عظم القدر
وسمو المكانة الذي يسري اليك منهم ، فان في ذلك غبطة لا يحيط بها
الوصف ، فاذا هبطت من هذه المقامات العلى لم تعدم حولك من النفوس
الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يغنيك الاشتغال بهم عن الاهتمام
بغيرهم ومن صنائع البر ما فيه تسلية لك عما يعوزك من الخصاص . واعلم انه
لا يثألم مما في عمله من مواضع الضعف والقصور الا محب لنفسه أو خيئ ،
وأما من يستسلم ويرضى بقسمته ويتعلم ليعمل فانه لا يطلب فوق ما قسم
له من العقل شيئاً بل يكون مغتبطاً به غير حاسد لغيره .

أراك أيضاً تغلو في الاهتمام باختيار ما تمارسه من الاعمال ، فانه - وان
كان مما لا مزية فيه ان كل فرد من الناس يجب عليه ان يعيش من كسبه
وكده ، واني أغم لو رأيته مفرطاً في هذا الامر الذي هو أول فرض على
الإنسان - ينبغي أن تعلم ان جملة الدروس التي تتلقاها الآن مع كونها تؤدي
الى جميع الحرف لا تنفع لك باب واحدة منها ، ولا أرى في ذلك ما يدعو
الى كدرك لان كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك ، فان لم يفدك في نفسك ، فتمد
تجد فيه وسيلة لنفع غيرك . على ان ما في الكون من طوائف الامور المختلفة
وطبقات الحوادث المتباينة مرتبط بعضها ببعض فلا بد في معرفة أمر منها
معرفة صحيحة من معرفة أمور كثيرة لها بهذا الامر تعلق بعيد . ولست
بهذا القول ألزمك السعي في تحصيل ما يسمى بالعلم العام ، الذي هو ضرب
من الخيالات والأوهام ، وإنما أريد به تفهيمك ان للعلوم قضايا عامة لا بد
لك من تصور حدودها الاصلية قبل تفرغك لتحصيل علم منها على حiale .

أنت ولي أمرك في الحكم على ما يلائمك من الاعمال وليس عليّ
الا أن أسألك عدم النأسي في ذلك باخوانك من الطلبة فكن كما يرشدك
اليه خلقك وميلك، اما طبيباً أو محامياً أو مهندساً أو صانعاً أو آلياً أو غير
ذلك ولكني أسألك بالله أن لا تكون عاملاً للحكومة .

أي حرية ترجى لقوم ينطلع المتعلمون من شبانهم الى الانظام في
سلك عمال حكومتهم؟ قد كان فن ظلم الحكام للناس في الايام الخالية من
الفنون الصعبة الكثيرة المشكلات التي يلزم لتعلمها استعداد خاص ونفس
كنفس مكيفيل^(١) وأما الآن فيظهر من أحوال الرعية أنهم يعنون أشد
العناية بكفاية حاكمهم مؤنة استعبادهم بالحيلة أو القهر لانهم يتهافتون على
احتمال نير عبوديته . فأني ملك أو عاهل يجد حول أريكته رءوساً خاضعة
واطماعاً سافلة نهمة كاطماع الكلاب التي لاهم لها الا قضم العظام ، مادام
بين يديه من الاموال الوفرة ما ينفقه كيف يشاء، ومن المناصب وألقاب
الشرف والرتب الكثيرة ما يوزعه على من يريد .

ليس الإلحاد والوقاحة مقصودين على أحداث ألمانية، فانك حينما
حملت تيجن من الشبان من لا يعتقدون بشيء ولا يوقرون شيئاً فكن
منهم على حذر ، لان هذا الفسوق العقلي يساعد قطعاً على تثبيت الاوضاع
القديمة . ذلك ان هؤلاء الذين يدعون لا تمسهم حرية الفكر لم يخلصوا من
قيد الاثرة، ومن هذه الجهة تأخذ الحكومة منهم بالنواصي والاقدام، أعني
أن عبادتهم لنجح مساعيهم وطمعهم في الوصول الى ما يبتغون ، وظلمهم

(١) مكيفيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن

كتبه كتاب الامبر وهو مختصر في السياسة المفسدة للإخلاق

الى المناصب والتمتع بمرتبتها الجسيمة لا تلبث أن تدعوهم الى توقيف النظام الذي سنته الحكومة واجلاله ، وإني لا أعتد بجراءة العقل ما لم تصحبها بسالة النفس وتزهرها عن الاغراض ، ثم إنه مهما كان بلوغ كل أمنية في الدنيا ممكناً بمحض هوى الغير ورضاه لم يعدم المستبدون عبيداً متحمسين في خدمتهم يعملون لهم ما يشاؤون ، وتجد من كانوا من الشبان بالامس منطقيين متحذلقين يصبحون وهم أكثر الناس سجوداً للقوة واستكانة للسلطان .

ولاية أعمال الحكومة هي بلاء الامم في هذه الايام فالبلاد التي رئيس حكومتها هو الذي يوزع مناصبها لا يمكن أن تكون آراء الناس فيها الا نتيجة عمل حسابي لما يربح منها ، فاذا وقع خطأ سياسي أو ديني من الحاكم وكان ينتج للموافقين عليه بعد الحساب عشرة آلاف فرنك مثلاً فإنه يصير حينئذ صواباً ، واذا أتى امرأ خسيساً ودفع ضعف هذا المقدار قيل انه قام هذه المرة بما تدعو اليه الهمة والبسالة فيجب الاخلاص له .

يلهج الناس كثيراً بذكر الرأي العام ويقولون إنه أقوى كفالة للحق والحرية ، وهو صحيح اذا كان أمر الامة بيدها وكانت هي التي تلي شؤون إدارتها ، وأما اذا كان حالها غير هذا فالرأي العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد ، فان أكفل وسيلة لظلم الامة هي إعدام شرف النفس من أفرادها ، وازهاق روح الاستقلال بينهم بتحييب الحكومة القائمة اليهم ، وحملهم على رجاء بقائها . ورب قائل يقول : ان عدد العمال في الحكومة لا يذكر في جانب السواد الاعظم من الامة ، فأجيبه : ان هذا الاعتراض عبث لانه قد نسي أن بازاء كل عامل نال منصباً ألفاً من الناس يطلبونه

ويرجون رجاء قوياً ان ينالوه يوماً من الايام، فمال المال يكافئه عالم آخر من السائلين ومن ورائهم جميع طلاب الاموال . واذا كان تحرير الناس من الاستعباد لا يتأتى الا متى أعانوا عليه بارادتهم، فأى وسيلة تبغثهم على ارادة التفصي من ربقتة اذا كان فريق منهم وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم قد بلغت بهم الحال الى ان يكون استعبادهم قوام معيشتهم ، والفريق الاخر يغبطونهم على هذه النعمة ولا يأسفون الا على عجزهم عن مشاركتهم فيها .

لست أقصد بهذا القول ان من لوازم المناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها أو الساعين في تقلدها . حاش لله ! فانها في الحكومات الحرة كحكومة أمريكا مثلاً من شأنها ان تنمي فيهم قوة العزيمة ومكارم الاخلاق، لان الحكم في اختيارهم راجع الى انتخاب الامة، ولانهم انما يملكون بالاعمال مروراً، ولان جميع الولايات لا تلبث ان يعود أمرها الى الامة فتقلدها من تشاء . ومن هنا يعلم اني لا أتكلم عن الامم التي حكوماتها مؤسسة على الشورى، وانما أتكلم عن الحكومة التي تولى الاعمال فيها بالمحاباة والهوى فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم في تقلد تلك الاعمال ، لان حكوماتها لا تبغي في الحقيقة الا نفوساً سلسة القياد تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الادارية، وطباعاً لينة عطفّت على كل ناحية فلم تبق لها وجهة ذاتية، وعقولا مثقفة - ولو لم تسم عن عقول العامة - تستعمل زخرف القول في تصوير ما وضع من النظام بصورة معقولة . واني لتمر بي ساعات أحدث فيها نفسي بأن من ظلم الشعوب ان يلوموا حكامهم على استعبادهم، فأى معنى للومهم اذا كانوا قد جعلوا مقادتهم بأيديهم، وكان الالباء لا يثمنون لانبائهم الا تقلد

المناصب ذات الرواتب العظيمة التي لا عمل فيها بدلا من صرفهم الى وجوه الكسب الاخرى ! بل اذا كان كل الناس يؤملون ان يكونوا عائلة على المصلحة العامة، ويودون لو ان للحكومة من العقل والوداعة ما يكفي لمنعها من الانتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد، فما أسخف عقولهم اذ جعلوا أنفسهم ترابا ثم هم يدهشون من وطء الحكام اياهم ! .

أنا لا أنكر ان نيل الشاب منصبا من المناصب الكثيرة المقررة في الحكومة أسهل عليه كثيرا من ان يفتح لنفسه بابا للكسب في قومه بمجدارته وأهليته الذاتية، ولهذا لا يلبث الانسان ان يعرف الام التي اعتادت الارتزاق من حكوماتها لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الاعمال وابتكارها، فترى فيها الصناعة والزراعة والتجارة تنساق في مجرى العادة بتكاف وجهد، والاموال تحذر الخروج من جيوب الممولين، والتقاويم التجارية التي تأبى الحكومة حمايتها، يشق عليها - كما يقال - ان تطير بأجنحتها، والصناعات الحرة تمحوم حول السلطان لنيل الاعمال والمحابة وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة، وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان وتبدل بتدلي الحياة العامة التي يحطها سلطان رجل واحد، وحاجة التغذي من يد الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتعلقين .

كأنني بك تقول لي : ان ذلك الذي وصفت عيب في شكل من أشكال الحكومة وذائب لمجموع الامة التي ترتضي هذا الشكل، وانه ليس مما يمتد به كثيرا ان يزيد عدد عمال الحكومة واحدا أو ينقص واحدا لانهم جيش لا يمد، فأجيبك على هذا بأني لست أجهل أن واحدا من الناس ليس في قدرته ان يغير أحوال أمة بأسرها، ولكن اذا ارتكن كل فرد من أفرادها

على هذه المغالطة فاستسلم للتيار المحتوم الذي يسوق غيره فلا ينبغي أن يرجى شرف للأوضاع القومية ولا حرية للناس . أن الأمم اذا تدلت وفشت فيها عدوى التأسي وجب على كل انسان حقيق بأن يسمى انسانا ان يرفع لها من نفسه لواء المجد ويدعوها الى النهوض ، فانها لا تنهض من انحطاطها الا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية . وكم من رجل يشكو من خسة السرائر في قومه ، ويتألم من دناءة نفوسهم ، وهو شريك لهم بالواسطة في فعل ما أدام الى هذه الحالة بكثرة خشيته وتحرجه في سيرته ! فانه اذا تعفف هو عن تولي المناصب الرسمية قد يريدها لابن أخ له أو لاحد اللاتدين بيته ، وبهذا يصير شريكا في الضرر الذي يندب سوء مغباته .

هذه يا بني أفكارى قد أفضيت بها اليك صراحة ، فان كنت راغبا في بلوغ منصب رسمي فوسيلتك اليه ميسرة جدا وهي أن تذلل وتستكين ، وأما اذا فضلت كرامة نفسك واستقلالك وشرفك على المزية التي تجدها في سهولة فتح باب الكسب وسرعته ، فاني أهنيك عليه من صميم قوادي ، ولكن لا بد لك حينئذ أن تعرف ما أنت داخل فيه فانك بتنازلك عن رعاية الحكومة تضطر الى كسب قوتك بالعمل والجهاد ، ولا تجد من أحد حمداً على كدك ونصبك ، وترى كثيرا من الناس يسخرون من بسالتك واقدامك ، فعلام يحبونك اذا كنت تسفهم وتزري عليهم بالنهج الذي تسير عليه في عملك وفكرك ! .

اخدم الامة ولا ترج منها جزاء ولا شكورا ، فانها لا تملك ما تهزيك به ، لانه ليس بيدها شيء من أموال البلاد ولا من ألقاب الشرف ولا من وسائل التنويه واعلاء الذكر . على أنها قد تنكر مالك من حسن

النية في خدمتها ، فليس عليك حينئذ الا الاعتماد على قواك الجسدية والعقلية وانه ليس في هذا الانكار المتوقع ما ينبغي أن يريكم فليست أم مسألة للانسان في حياته أن يبلغ مقاماً سامياً، بل المسألة الكبرى هي أن يكون قدره أعلى من المقام الذي يشغله .

وأما أخبار البيت فمنها أن «لولا» عهدت اليّ إعلامك بأن طيورك وزهورك في حالة راضية، وان دفائنك بعد أن حفظت في بطن الارض مليونين أو ثلاثة من السنين سالمة من التغير تغيرت قليلا من غبار لندرة ودخانها، وبأنها قد رتبت مجموع حشائشك وانها أشد لك ذكرا منك لها. وفي الختام أقبلك أنا وامك قبلة الوداع ونرجو ان نكون دائماً على علم بدروسك ومقاصدك وحالة معيشتك فكل ما يتعاقبك لعننا . اهـ

الرسالة الثالثة

من « اميل » الى أمه في ١٢ مايو سنة ١٨٦ —

انضاؤه اليها بحبه لفينة من الممثلات — كيف تعلق قلبه بها — استعلامه سيرتها
تغنيه انقاذها مما هي فيه — طلبه المغفرة من أمه بعد اعترافه لها بالحب

اني منذ عرفت نفسي ابثك جميع ما يسوءني وما يسرنني وما أكره وما أحب، وأكشفك بالخير والشر ولا أكتُم عنك شيئاً، حتى اني لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة الى البيان، لانك كنت تطالعين أفكاري في عيني، وتبصرينها تجول على جيبني، وهذه أول مرة لي في حياتي أسررت فيها سرا وليت شعري الأبوح به الى قصب نهر الرين ؟ اذاً لتضحك

مني كما تضاحك من اذني الملك ميداس^(١) أم ابته الى القمر ؟ لا ! فقد سمع كثيراً من أمثاله ، أم اكنه في قلبي ؟ اذاً لا نبنتي عليه سريري، ماأنا بفاعل شيئاً من ذلك بل أريد ان أودعه صدر أمي .

على ان الإفضاء به ليس من السهولة بالمقدار الذي كنت أتوهمه فاني ما أنشأت أخط هذه السطور الاولى من مكتوبي حتى ارتعشت يدي وخفق قلبي واست إخالك الا ساخرة مني ، ولكن أقل ماأنا واثق به منك أنك لن تجدي عليّ أن صدقتك الخبر ، واذا كان الامر كذلك فلا بد من افشائه وهو: اني أحب !

الآن أراك تسأليني من هي التي تحبها وأين رأيتها وكيف عرفتها ؟ وفي هذه الاسئلة مايزيدني حيرة وارتباكاً .

في مدينة بُن ملعب من الطبقة الثانية غير انه مشهور بحسن اختيار القصص التمثيلية فما يمثل فيه قصة مريم استوارت^(٢) وقصص

(١) ميداس بحسب ما جاء في أساطير اليونان هو ملك فريجية وهو قطر من أقطار آسية الصغرى اشتهر بواقعتين نذكر احدهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع، وهي أن أبولون بن المشتري حكمه في المناظرة التي قامت بينه وبين بان اله الرعاة في الموسيقى والشعر والفنون وكان بان صديقاً للملك فحكم له فلم يكتف أبولون في الانتقام من ميداس بساخ جلده حياً بل جعل له بدلاً من أذنيه أذني حمار فغطاها ميداس بتاج حتى لا تظفر الناس ولما علم أن حالته لا بدله من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يلبث أن ثقل عليه الكتمان فاحتفر حفرة في الارض بمعزل عن الناس وأسر فيها قوله « إن للملك ميداس أذني حمار » فانفق بعد حين أن نبنت في هذا المكان تصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول .

(٢) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية ومريم لورين =

شيلار^(١) وقصة غويت عن فوست ومرغريته^(٢) وغيرها من القصص الشهيرة، وللموسيقى والاغانى الموقعة عليه فى هذا الملهب يومان أو ثلاثة تمل فىها ممل الأءىاء والوقائع الئمئيلية، وأناأذهب اليه فى بعض الاحيان لسببين أولهما ءروج نفسى من عناء الءرس وئانيهما ايلافها أصواء اللفة الالمانية. فمن نلحو شهر ابتءاء قينة بافيريية^(٣) فئية ءغنى على الموسيقى هناك، وكان أول ماغنئه قصة النبى من ءوقيع مايرير فبلغء من الاجاءة فى ءغنيئها الى ءء ان جميع طلبة الجامعة كانوا يلهجون بءكرها كانها آية من الآياء فءريت معهم فى مساق الاعجاب بها، ولما انطلقت الى الملهب ورأيتها ءاألة فى باأة الئمئيل كان كلئ عيونا ءبصر وآءانا ءسمع وليس صوئها هو الءى اسئءء اعجابى به مع كونه من أنءى الاصواء وأنءرها بل الءى ملائى اعجاباً هو ما فى ءغنيئها من الروح بل ما فى ءلقها من اللىسن والائقان، فبء ليلي كله ألىم بها ولا يفارقنى طيفها وكئء أراها بين الافلاك السماوية وأسمع أنغام الكواكب الموسيقىة فكأن فيئاغورس^(٤) كان يلىب قينة مئلى

= ولءء سنة ١٥٤٢م وماءء سنة ١٥٨٧م ءزوءء بولي عهد فرنسة (من أول ءكم فرنسيس ائئانى) وبمء موء زوءها رءعء الى ايقوسية وءزوءء بهـ نرى ءرنلى ثم بالكونء بوئويل ثم نار عليها رعاياها فلاءء باليصاءب مءكة انفكائرة الئى ءبئها ١٩ سنة ثم أمرء باءءامها (١) شيلار شاعر ألمانى شهر ولد سنة ١٧٥٩م وماء سنة ١٨٠٥ ومن أشهر قصصه المءزنة الئهبية ووالانئئين وغليوم ءل (٢) غويت واسمه جان ولف ءانج هو أكبر كاءب ألمانى ولد فى فرنك فورسيرلين سنة ١٧٤٩م وماء سنة ١٨٣٢م وفوسء اسم لشلىص ءرافى مشهور فى ءككاء الالمان بأنه ءعاها مع الشيطان . (٣) نسبة الى بافير اءءى ولاياء ألمانية

(٤) فيئاغورس فيلسوف يونانى ولد فى ساموس سنة ٥٦٩م وماء سنة ٤٧٠م أقام بمصر وبابل مءة طويلة ثم رءع الى بلاد اليونان وأسس مءرسة فى كرونون وهو أول من قال بالئناسل وعرء نظام العالم اللىقى .

عند ما كان يحدث تلاميذه عن حسن الحان النجوم .

ولخوفي من انقضاء اعجابي بها فيما يلي من التمثيل عاهدت نفسي على ان لا أختلف الى الملعب ليالي تغنيته، ولكني ما استطعت ان أوفي بعهدي وقد أتقى عني كثيرا خوف اقلالي من التحمس في حبها بما اكتشفته فيها على توالي الايام من الخصائص الجملة التي لم اكن لاحظتها من قبل، ولا بد من الاعتراف لك بأني كنت أجلس في الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئياً لها وقد حسب لحظي مرة أو مرتين انه لاقى لحظها . . . ولكن ربما كان هذا ضلالا ، ومع ان التمثيل كان يكثر اكثر من أربع ساعات كنت دائما أجده في غاية القصر وأغادر مقعدي في ختامه وقلي مغمم بما لا يوصف من الاضطراب .

خطر في ذهني أن أخطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها اليها غير ممضاة مني على يد بواب الملعب الهرم ففعلت وكنت أقول في نفسي وقت نظمها : أقل فائدة لي منها أن تعلم ان واحدا من الناس يحبها، ولكنها كانت أبياتاً رديئة، وأقرّ بأنها ما كانت تؤدي نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل وهذا مادعاني الى عدم اعتقاد صحة ما قيل من أن الشعر من لوازم الحب كما قرأته ذات مرة في بعض الكتب ، وليس في قدرة أحد - حاشا المصطفين من الخلق - أن يعبر عن كل ما يجده في نفسه ، وياليتني كنت واحدا من هؤلاء النوابغ الممتازين .

كنت من مساعي في القرب من هذه الفناة واقفاً عند الحد الذي بينته لك، فبينما أنا في يوم من أيام الآحاد أجوب المتزّه الذي تجتمع فيه نساء المدينة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر اذا بها أقبلت آخذة نحوي في

مخرف ، نخطر ببالي أولاً أن أتكذب هذا المخرف بسلوك احدى السبل المقاطعة له لانه كان يخيل لي أنني سأصعق مما قام بنفسه من ضروب الافعال والاضطراب، غير اني تثبتُ ومشيتُ مشية الجندي الباسل الذاهب الى حومة الوغى فرأيتها في بزة بالغة من الرونق غايته على بساطتها. وارباه ! كم وددت لو كنت في تلك الساعة قفازها أو زهرة قلنسوتها أو مظلتها التي تقيها حر الشمس ؟ أقول ذلك وأنا أعلم انه كان مني قبيحاً ولكن لا ينبغي ان اكتم عنك شيئاً من مواضع ضعفني .

في اللحظ خاصة الجذب فاني كنت أشعر من لحظي اذا رنوت اليها أن كله اقرار وتصريح بالحب ، ولما مر كل منا حذاء صاحبه جرى على وجهي لألاء حسننها كما يجري لمعان البرق ، ولم أجسر على الالتفات خلفي الا بعد ان جاوزتها بثلاثين خطوة فرأيتها قد بعدت عني مهرولة ، غير اني بصرت في المسافة التي بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح إياه فما تريت في التقاطه فاذا هو منديلها قد سقط منها ... أو تعمدت اسقاطه . فعدوت خلفها ودفعته اليها فأظهرت الدهش من ضياعه وتلطفت في اسدائي الشكر على رده ، وراقني أن سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية فلاح في ذهني أن أعرفها اني صاحب الشعر الذي أرسل اليها ولكني كنت من شدة الاضطراب الذي استولى على نفسي بحيث لم استطع تحريك شفتي بكلمة ولا بد ان تكون حسبني ابله .

يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه ان الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرم في ذلك انهم لم يحبوا في حياتهم فان منديلها وهو قطعة

من النسيج الباتستي ^(١) الرقيق كان يتضوع عن عطر لطيف لن أنساه مادمت حياً . وفي اليوم التالي لهذا اللقاء انطلقت الى ما حول المدينة من الربى الزاهرة فجئيت باقة من ألطف ما وجدته من الزهور البرية وأدلتها على العفاف، ولما حان وقت التمثيل خبأتها في قلنسوتي المدرسية وأخذت محاسبي في الملعب فغنت كعادتها بصوت يسمو بسماعيه الى السحاب، ولكن كان يخيل اليّ ان هذه المرأة التي لاقيتها في الطريق أمس ذلك اليوم أكلت من قينة وان كان استعدادها للتغنية مثارا للعجاب . وبعد ان انتهت من غنائها وانصرفت استعدادها لجميع السامعين فهطأت حولها باقات الزهر من غرف الملعب والكراسي المقابلة لباحتها ، وأن لي ان ألقى اليها باقتي فاهتممت غاية الاهتمام بأن تبصرني عند إلقاءها مع تظاهري بالاختفاء خاف جيرانني، وما أدراك ما فعلته حينئذ ؟ لقد أهملت كل ما ألقاه غيري من الأزهار النادرة مثل زهر الكاملية ^(٢) وزهر النين الهندسي والورد ذي الاشنة وعمدت الى باقتي الحقيمة المؤلفة من أزهار برية فتناولتها وضمتها الى قلبها. أفلا ترين في ذلك برهانا على حبها لي ؟

ستمقولين لي: أنت لا تعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها، وانه كان ينبغي لك قبل ان تعلق نفسك بالاماني والاهام ان تكون على بينة من أخلاقها وكيفية معيشتها، فاجيبك: ان هذا أيضا لم يفتني وأقر بأنني لم أقف من تحري سيرتها الا على أخبار لا يزال فيها شيء من الغموض ولم يجمع لدي في هذا الصدد الا أقوال في غاية التعارض والتناقض، فانت تعلمين

(١) الباتستي نسبة الى باتست وهو أول صانع لهذا النسيج (٢) الكاملية

زهرة يابانية جلبها الى أوربة مرسل ديني اسمه كاملي فنسبت اليه

مقدار مال الشبان فيما بينهم من القسوة على النساء ولا سيما الممثلات، فقد بلغ الحسد من افساد خلق الانسان الى حد ان جعل من لذاته تمزيق أعراضهن مع ما لهن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام، ولست بمخف عنك شيئاً مما يقولون فبعضهم ينسب لها من هنات الشباب ما يغير دمي ويشير غضبي، وبعضهم يقول انها تعيش مع أمها في حي من عزل عن المدينة، وقد أراني الطلبة هذه الام تصحبها ليلاً عند خروجها من الملعب فلم أجد بينهما مشابة ما، وان أردت الوقوف على شيء من نعتها فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر شاربها، واني لمتألم من تصور أن مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المدرة، ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية فمن الفضل أن تعامل بجميع ما يجب لفتاة مخلصه مثلها من صنوف الرعاية والتكريم. على اننا ان سلمنا حصول أسوأ ما يتأتى حصوله منها وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائماً مرضية، أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرها من الناس؟ إني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغاً أستبعد معه أن لا تكون لها نفس زكية، وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشراً فاضلاً كريماً. وارباه! أي نخر أناله لو أتيح لي أن أمد يدي الى تلك الروح الملكية فأنتاشها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود الى نور الهدى والفضيلة.

ها أنا ذا قد كشفت لك مكنون سري، ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي، والآن أقع بين يديك راجياً منك غفران خطيئتي

الرسالة الرابعة

(من هيلانة الى ولدها)

عن لندرة في ٢٣ مايو سنة ١٨٦ -

في بيان وجوب عدم تداخل الوالدين في حب ولدهما
وتلطف الام في نصحه وبيان انخداعه

لقد راقني منك يا بني العزيز صراحتك وموافقة سرك لعلايتك ،
واني مجتنبه كل الاجتناب ،مازحتك في غائيتك التي نطت بها أمانيك ،
ومع اعترافي بأن ما قصصته علي في شأنها لا يخلو من أمور تدعوني الى
التفكر وتبيح لي أن أنبهك في أمرها الى تفاصيل إخالها مربية ، أتحامي
أن أجرد تلك الاماني من زهورها وأعريها من روائها ، فليس عليك الا
أن تذكر انك شاب غرٌّ لما تختبر شيئاً من أمور الدنيا ، وانك وأسفي !
لسرعان ما تتعلم أن لا تغتر بالظواهر ، وعسى الله أن لا يجعل في ذلك
خساراً عليك .

قد تعاهدت أنا وأبوك على عدم التداخل في محباتك بحال من
الاحوال فأنت حينئذ آمن ضروب عذلي وتأنيبي ، ولكنك بما صرت
ولي نفسك مسئول عن جميع ما يقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام ،
واعلم ان من هو في مثل سنك يكون شديد الارتياح الى الاغترار
والانخداع ، فكم شاب يحسب من الحب ما ليس هو الا اضطرابا في مشاعره
وسرابا يبدو لحواسه ! لان الحب الصحيح هو الاستيلاء على نفس المحبوب

ولا يبلغه الا من كان حقيقاً به وأهلاً له .

لم يعلق بنفسه أدنى أثر مما للناس في المثلثات من الاوهام، وانهم لظالمون في حكمهم على كثير منهم، وحاشا أن أحكم على تلك القينة التي فنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها، وانما أنبهك الى انك ليس لك حتى الآن أدنى وجه صحيح في أن تستنتج من بعض أحوالها معك انها تفضلك على غيرك من عبادها، فمن غرور الشبان أن يعتقدوا انهم محبوبون لانهم محبوبون . على اني أسلم لك ان قلبها ملبّ لعواطفك فالذي تعرفه منها والذي تتلمسه من وراء حبها ليس من الخصائص المقيمة للمرأة في شيء، لانك انما تعشق منها تغنيها وحسنها ودعابتها وهي مزايا تستفيد العامة منها اكثر مما يستفيد الرجل الذي قد تصير صاحبة له، فهل تدري ما يبقى لتمثال حبك الذي تعبد من المحاسن اذا زال عنه زخرف الملعب ورونقه وغرور العشق وخدعه ؟

أنت نفسك فيما يظهر لي مرتاب من ماضي سيرتها لانك تتعنى لو اتيح لك انقاذها من الدرك الذي هي فيه، وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع، ومعاذ الله صيانة لشرف المرأة نفسه ان اعتقد ان ذنوبها لا تكفر، بل أسلم ما قلته من أن الحب قد يمحو بعض الادناس، ولكننا لا نعلم كثيراً من أمثال النساء اللاتي أبْن الى الرشيد بعد النفي . ثم اني لا أظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على البسالة من الصعوبات والعوائق، فان انقاذ الخاطئات الذي يحسن الطيش لبعض الشبان الاغرار أن يدعوه لا أنفسهم يلابسه في معظم الاحيان من الكبر والعجب أكثر مما يصاحبه من الاخلاص الحقيقي، فكأنهم بهذا يعتقدون ان ملائكة العشق اللاتي

اهبطن الى حضيض الرذيلة ليس لهن من الصلف والإباء مثل ما لهم
ان من يحاول ذلك العمل يجب ان يكون بالغاً من قوة النفس
ولطف الذوق مبلغاً عظيماً يسمو به عن الغضب من المرأة الخاطئة واذلالها.
ثم هل أنت في سنك هذه تأنس من نفسك قوة وإقداماً على كتمان الغيرة
فانها تبيكت ومؤاخذه للمرأة التي لم تكن طول حياتها عفيفة؟ وهل لك من
السلطان على نفسك ما يكفي لإخفاء ما يكون في معظم الاحيان مثاراً للريبة
منك وهو ندمك على اجلالك لمثل تلك المرأة مع انه لا يسمح به عادة الا
للزكية الطاهرة؟ فاذا كنت لم تستكمل هذه الصفات فخل الجهاد عنك
لانه لا يكون من ورائه الا زيادة من تزعم انقاذها خسراً.

من الامهات من يكتبن لا بنائهن في هذا الموضوع على أسلوب مغاير
لهذا تمام المغايرة، فقد يؤنبهن ويجهدن في تخويفهن من عواقب طيشهم،
وغير الامهات ربما لا يرين في كل هذا الا مقدمة لواقعة من الوقائع الشائنة
حصولها بين الشبان وهفوة عادية من هفوات الطلبة، وربما قلن فوق ذلك
وهن مبتسمات: تهوينا تهوينا فن الواجب اقالة عثرات الشبان. وأما أنا فاعلم
انك جادٌ فيما كتبت والا لما افضيت اليّ بسرّك ولهذا أجبك بالجد،
ولست أخاف عليك الا ان تكون خدعة لما في خيالك من التوقد الذي
هو من لوازم سنك، ومن العبث القول بالتساعح في أمر الحب فليس أحد
يسلم عليه بالاستخفاف به لانه اذا لم يرفع النفس ويزكيها فانه يسفلها
ويدسّسها، وحسبي ماقلته في هذا الموضوع فلا ازيدك عليه شيئاً.

جاءتنا اخبار من البيرو فقد كتب الينا قويدون وجورجية بأنهما

يذكر انك انت و«لولا» ذكرنا كثيرا .

ومما ينبغي ان تعلمه ايضا ان «لولا» تفكر في اختيار مهنة لها ، فقد قالت لي من ايام مضت «اريد ان اتعلم حرفة من اجل ان...» وماعتمت ان فرت الى حجرتها قبل ان تتم كلامها وقد احمر وجهها خجلا .

واراني ادركت مرادها وهو ان المرأة التي لامال لها ولا حرفة ليست حرة ، فاذا تزوجت فانما تزوج في الغالب مقام زوجها ومكانته ، و«لولا» لعزة نفسها وابائها تتذمر من هذا الاحتياج ولا ترضى الاستكانة له ، فهي تريد ان تقول يوماً ما لمن يرونها من الناس : ان في استطاعتي أن أعيش بعلمي واني اذا اخلصت في تحصيل الاغتباط والسعادة لك فذلك لاني أحبك .

اسنودعك الله يا بني العزيز وأوسع صدري على الدوام لتلقي أسرارك ومشاركتك في آلامك ، وابعث لك في هذا قبلة الحب الذي لا تتغير ، الا وهو الحب الذي لك في قلب أمك . اه

الرسالة الخامسة

من « اميل » الى أبيه

المدرسة الجامعة

في ١٠ يولييه سنة ١٨٦٠

كلفتني أن أجعلك على علم بدروسي فوافاة لرغبتك أقول : الجامعة التي أختلف اليها بناء في غاية الجدة وتفتح قاعاتها للتدريس في فصل الصيف

من الساعة السابعة صباحا الى الساعة الأولى بعد الظهر ومن الساعة الثالثة بعده الى الساعة السادسة، وتنقسم دروس الاساتذة فيها الى عامة وخاصة، فالأولى تلقى بالضرورة مجانا ويدفع الطلبة في مقابل تلقي الثانية «فريدريكين» ذهباً (٥٠) فرنكا كل ستة أشهر، وتنقسم جامعة «بن» مثل كل الجامعات في ألمانية الى أربع مدارس اختيارية أحداها للقوانين والثانية للحكمة والثالثة للطب والرابعة للالهيات ويتعلق بكل من هذه المدارس الأربع فروع مختلفة يدرسها فيها رجال مخصصون بها.

الجامعة تخلي بيننا وبين حرية التصرف في وقتنا اما باضاعته أو بالانتفاع به لاني لأرى لاحد منها أذني تفتيش ولا أقل هيمنة علينا في سيرتنا، على اني أعتقد ماقلته لي كثيرا من أن النظام التأديبي الناجع هو مايفرضه الانسان على نفسه ويلتزم اتباعه.

لامراء في أن أساتذة جامعتنا متضلعون من العلوم غير اني كثيرا ماشق عليّ أن أستتبع سلسلة أفكارهم في الدروس لسببين، أولهما أن هذه الافكار ليست في ذاتها واضحة، وثانيهما اني لقلة تدودي تصوير فكري بالالمانية حتى الآن أجد من الصعوبة في فهم تلك الافكار أكثر مما يجده غيري من المتعودين. ويدهشني من أمر هؤلاء العلماء انهم على سمو مكانتهم في العلم وبعد صيتهم مغبونون في أجر عملهم اذ استدلت على هذا بما يبدو عليهم من رقة الحال وبقناعتهم باليسير من العيش ورثاة ملبسهم الذي يكاد يكون وسخاً، وفقرهم هذا يؤلني ويزيدهم في نفسي إجلالا على اجلالهم الذي تدعوني اليه معارفهم، فأولئك رجال يحبون العلم لا لكسب المال ولا للتمتع بالحطام وانما محبونه لما يحصله للعقل من لذاته وضروب اغناطه.

ثم إن بعض المدرسين يرتجلون الدروس مطنين فيها ، وبعضهم وهم
الأكثرون يأتون بها مكتوبة فيلقونها على الطلبة، وهؤلاء يصغون لما يلقى
عليهم ويكتبون ما يعلقونه منه، وقد وضعت لنفسي نمطا في اختزال الكتابة
وهو وإن كنت لأشك في قصوره لأوليته يمكنني من إثبات الحدود
الاساسية لما أسمعته من الجمل .

ينقسم الطلبة باعتبار مذاهبهم الى كاثوليكيين وبروتستانتين متشددين
يعد بعضهم نفسه للأعمال الخطائية ، وحكماء يجتهدون في تأويل المذاهب
تأويلا مطابقا للعقل ، وماديين وهم قليل يصرحون بأن زمن الديانات قد
انقضى وانه لا ينبغي إضاعة الوقت في العكوف على مالا حقيقة له من
هواجس القرون الوسطى وأحلامها .

رأيتك دائما تجتنب الخوض معي في المذاهب والاسرار الدينية
واستنتجت من سكوتك عنها أنك قصدت مني الاستقلال بنفسي في
الاعتقاد ، ولقد حملتني عظيما فاني حتى هذا اليوم في غاية البعد عن معرفة
ما يستقر عليه فكري في كثير من المسائل التي ترجفني محاولة سبر غورها.
على أنه لا بد من الاقرار لك بأني لست مطر حاهذه الطائفة من الافكار
ولا مغفلا لها ، فكم من مرة نظرت الى السماء في سكون الليل وحاولت على
حدثة سني وجهلي أن أقرأ في نجومها حلا للغز هذا العالم ، وإني منذ اليوم
الذي شهدت فيه إلقاء جثة الملاح في البحر - وإخالك تذكره - لا ينفك
عني التفكير في سر الموت حتى في أحلامي، وقد سألت القبور أن تكشفه
لي فلم تخرج جوابا فعمدت من عهد دخولي الجامعة الى مطالعة ترجمة

الفيدا^(١) الألمانية والزنداويستا^(٢) والتوراة فأثرت قراءتها في نفسي تأثيراً بليغاً وكان يتراءى لي منها عالم جديد ولكن من خلال ظلمات لا يسعني إلا الإقرار بأنها لم تنقشع، ولست أدري أأعكف على دراسة هذه الكتب أم أعدل عن إماطة هذه الظلمات عما لا يتناهي فلا أشتغل إلا بما هو ثابت محقق من نتائج العلم .

أنا الآن أحوج إلى إرشادك والاستضاءة بنور علمك مني فيما مضى، ومن ذا الذي أسترشده وأستهديه سواك . ؟

جميع الطلبة يتعلمون المجادلة والمناضلة وأنا مقتد بهم في ذلك، فلي كل يوم ساعة أو ساعتان أقضيها في ممارستها لأن في هذه الممارسة تمريناً مفيداً في تقوية الأعضاء وتنميتها، ويؤكد العارفون من الطلبة أن أمهر المجالدين من يندر التحرش به . ومع اني لا أرجو مطلقاً أن أبلغ في المجادلة والمناضلة مبلغ الفارس سان جورج^(٣) أودّ لو أثبت في قاعة الممارسة ثبوتاً كافياً اني على علم باستعمال السلاح حتى يحسب الطلبة حسابي فلا يستخفون بأعضائي، فإن المبارزة كثيرة الوقوع بينهم وهم يجرحون فيها أحياناً، ولكن يندر والحمد لله أن يقتلوا ومن يجرح منهم لا يبالي بخدش وجهه بل يعتبر ندب الجروح على ما فيها من التشويه خلقة من موجبات اجلال النساء له .

أختم مكتوبي راجياً أن تثق مني بدوام محبتي لك وتعلق قلبي بك . اهـ

(١) الفيدا كتاب الهنود المقدس وهو اسم علم تحت أربعة كتب خاصة وهي الريحفيدا والسمافيدا والباجورافيدا والاثارفيدا (٢) الزانداويستا مجموع ما لا تباع زردشت من الكتب المقدسة (٣) سان جورج شخص يذكر في الاساطير انه أمهر المجالدين والمناضلين ..

الرسالة السادسة

من اراسم الى « اميل »

في التربية الدينية والفلسفة

قد حضرت يا ولدي مقاصدي في تربيتك الدينية فاني أردت أن أخلي بينك وبين عقائدك مع علمي بمخالفتي في هذا مخالفة تامة لما تجري عليه الامور عادة. ذلك أن الطفل لا يكاد يولد حتى ينسب الى أحد المذاهب التي تتنازع حكومة الدنيا فيتكفل والداه بتقليده ديناً محتجين فيه بعدم أهليته (وهو أمر بين البدهاة) لان يحكم بنفسه ويسبق عرف بلاده وعوائد قومه ونقائيد بيته الى تحديد الدين الذي يجب انتسابه اليه وهو الاستيلاء على نفسه، قد يقول قائل : ان الوالدين اذا فعلا ذلك فهو لانهما يعتبران أنفسهما نائين عن الامة في القيام على المولود قبل أن يعرف نفسه بنفسه. فأجيبه : أسلم لك ذلك ولكني أقول ان كان من حق الامة أن تؤدي الى المولود ديناً كان حقاً عليها أيضاً أن تختار له حرفة أو عملاً من أعمال الحكومة واذاً نصير في حكومة دينية اشتراكية .

لا ينبغي أن نجعل ولادة المولود سبباً لسلب حريته فان انقسام الوالدين في ضروب الوجدان واختلافهما في الانظار حتى في أيامنا هذه يجعل ولايتهما عليه مشكلة مرتبكة . ذلك أنه لا حرب إلا حرب البيوت فان شأن الوالدين في الدين غالباً أن يكون الاب كافراً والام مؤمنة^(١)

(١) هذا شأن خاص بالافريج ومن فلاحهم بلا بصيرة من المسلمين

فكيف يكون الوالد اذا تنازعه هذان المؤثران ؟ أقول انه يكون كأهل زمانه حيران عاجزا فانا كثيرا مانلاقي في الناس شبانا مشغولين بترقيم سرائرهم بخرقٍ من مذاهب المتدينين ، يخطونها مع آراء الاحرار من المفكرين ، ونصادف آخرين شاكين حائرين ، مع بقاء استمساكهم بأوهام الواهمين ، وقد فشا في الناس التباين والتناقض وعم بينهم التشوش والاختلاط .

وأما أنت فانك والحمد لله لم تبدل بشيء من هذه المحن لاني أنا وأملك لم نعتقد أن من حقنا أن نقتنم فرصة نوم عقلك فندعوك الى اتباع ما نحن عليه بدون أن يكون فيه رضاك ، واعلم أن لي ككل انسان غيري رأيا في المذاهب الدينية والحكمية التي يختلف الناس فيها وهو لا يلزمك شيئا ولا ينبغي أن تحفل به .

«أكرم أباك وأملك» ولكن لا تطع الا قلبك ، فأنت حر ومن حقك أن تسعى وراء معرفة الحق مستعينا في ذلك بالهمة والبسالة والنزاهة ، ولقد كان هذا السعي الى اليوم خارجا عن وسعك وبعيدا عن مقدورك فيجب الآن أن يكون هو عملك في جميع حياتك

ومن المفروض عليك قبل أن نقتنم بشيء في مثل هذه المسائل الخطيرة أن تبحث فيها وتدرسها ، فان مثل من يرفض المذاهب الدينية أو الحكمية على غير علم بها كمثل من يقبلها بدون بحث فيها ولا نظر ، كلاهما مناقض لنفسه ، غير منسدد في رأيه ، ولا شيء في الحقيقة أدعى الى الضحك من وقاحة أحداث الدكارة الذين يجهرون بأن المباحث النظرية التي ارتاض

٤٢٤ جهل المرضين عن الدين ونظرية الاستغناء عنه بالعالم (الثرية الاستقلالية)

بها أمثال ديكارت ^(١) واسينوزا ^(٢) وباسكال ^(٣) ولايبنز ^(٤) وهيغل ^(٥) ليست خليفة بالتفاهم وميلهم، فللجهلة الاغبياء منهم كلمة يطنطنون بها في هذه الايام وهي قول أحدهم وهو لم يفتح في حياته صحيفة من كتاب الكون «مالي ولا ضاعة وقي في حل مالا يسبر غوره من مسائل وجود الله، وخلود الروح، ووحدرة الروح والجسم أو تغايرهما خسي الاشتغال بالعلم»

أنا لا أشك في أن العلم الآن مشغل باستئناف عمل الديانات سالكا فيه طرقاً أخرى مغايرة لطرقها كل المغايرة فانه يرجو من البحث في الحوادث بحثاً تجريبياً ومراقبتها مراقبة قريبة أن يصل الى حق اليقين الذي كان أهل الدين يرجون بلوغه من طريق الهداية الالهية، واني لجازم بأنه قد سلك أقوم المناهج لبلوغ الحق وان كان من المتعسر معرفة النتائج التي يؤدي اليها بحثه. واذا فقهنا حالة المعارف على ماهي عليه الآن وجدنا شأنه المطرد انه لم يفدنا في بعض ما قديهمنا استقصاؤه من المسائل الا شيئاً من المعرفة قليلا جدا، فانا اذا استثنينا علم تركيب الحيوان لانه قد أمكنه ان يؤدي الينامعني من معاني الانسان على ما فيه من المذاهب المتعارضة والآراء المتناقضة وعلم

(١) ديكارت هو عالم رياضي ومهندس طبيعي وأخص ما يعرف به أنه فيلسوف فرنسي شهير يدعونه أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦م ومات سنة ١٦٥٠م (٢) اسينوزا فيلسوف ولد في امستردام سنة ١٦٣٢م ومات سنة ١٦٧٧م (٣) باسكال هو مهندس كبير وكاتب شهير ولد في كايرمونت فرانس سنة ١٦٢٣م ومات سنة ١٦٦٢م أثبت ثقل الهواء في سنة ١٦٤٨ وفي سنة ١٦٥٤ اعتزل في نورروبال دوسان حيث كتب اقليمياته وأفكاره (٤) لايبنتز هو عالم شهير ولد في لاينبرج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقة (٥) هيغل فيلسوف ألماني ولد سنة ١٧٢٠م ومات سنة ١٨٥١م

طبقات الارض لانه قد فتح لمقولنا منافذ نلمح منها على بعد منشأ الحياة، رأينا ان العلوم الصحيحة لم تكشف لنا الستار حتى الساعة عن علة ما من العال الاولى التي هي أهيج اشوق العقل من سواها، ولكن قد يجيني مجيب بأن هذه العال لا ينبغي الاشتغال بها قطعاً لانها ليست من متناول العقل، فأقول له: ماهي غاية علمك في هذا؟ أظن أن ما حصل من تجارب الانسان في بضعة آلاف من السنين يسوغ تحديد قواه وملايكاته المتزايدة؟ أم تريد أنه يكفيه على كل حال أن يسدل الحجاب على ما يجمله لينيم طمع عقله ويخمد شوق ادراكه؟ أنا لا أعتقد من هذا شيئاً بل أقول: إن الانسان لا يسهل عليه الاستخذاء للجهل والاستكانة له اما لشرف في طبعه أو لخسة فيه .

ولو أنه كان يكفي للتخلص من المسائل المحيرة أن توصف بانها معضلة لاحل لها لكان النقصي منها في غاية السهولة. كل حي يطلب النمو لجسمه ما عدا الانسان فانه هو الذي يختص من بين سائر الكائنات العضوية بطلب الارتقاء بفكره الى ما وراء حاجاته المادية، فطلبه الارتقاء الفكري موجود فيه سواء سمي خيالاً أو غريزة دينية، ولست أدري مطلقاً ما عسى أن يعود على العاملين على إزالته من العائدة بشكاف احنقاره والزراية عليه : ومن ذا الذي في وسعه منهم أن ينتزعه من النفوس الشعرية ! فان تطالع الانسان الى ما وراء حدود عقله من مقتضيات خلقة، وليس من حقنا أن نعتبر بعض الامور التي يتطلبها الفكر خادعة أو وهمية لمجرد انها تحير عقولنا أو تنبو عن ادراكنا، فاما ان كان قصدهم تجريد ما يصوره العقل من منتهى غايات الكمال، مما يقارن تصوره من مروعات الوسوس والاهام،

والاعمال المنبعثة عن النفاق والرياء. فبها ونعمت، وأما مدركات العقل التي شغلت من التاريخ مكانا كبيرا فلا ينبغي التعرض لها بل لا بد أن يكون لها أيضاً محل في تربية الناشئين .

ومن هذا ترى انه لا يزال من حق الحكمة أن توجد مع العلم، وانه ليبعد عليهما النفاق والثنافي ، لان من شأنهما التضافر والتوافي .

إن كثيراً ممن يميلون الى محور دراسة المذاهب الدينية والحكومية منقادون في هذا الى حاجة طبيعية للانتقام وهم لا يشعرون، فانهم قد رأوا الحكماء ورؤساء الاديان المتررة في أيماننا هذه بلغوا من تعاطيهم للمظالم، ومتاجرتهم بالسرائر، ومقارفتهم للفظائع، مبالغاً لجأ بالعقل في اشمئزازه من سيرتهم الى الجحود المطلق ، فالقسيسون هم دعاة الإلحاد لا الماديون .

ومن اللغو تجسيم أمر الإلحاد فانه ذنب ضعيف في ذاته يتزلزل مذعوراً امام وجدان الانسان، وانما الآثام الميمنة والجرائم القوية الحقيقية بأن تدافع نور الهداية والعرفان هي التي يجراً أصحابها عند اقترافها على التستر برداء الدين . نعم تلك الآثام هي التي تمتاز بذلك الامتياز الهائل وهو قلب شؤون الدنيا وتشويش أحوالها، فمن ذا الذي لا يحار حين ارتكابها من الابهة الباطلة التي تسري من عقائد مرتكبها الى بعض ما يفتصبونه من ضروب السلطة والقوة. ! تسمع بعض النظار اذا راعهم تغلب الشر على الخير يصيحون قائلين: لأن لا يكون لنا إله خير من وجود إله ظالم^(١)

(١) أجدر بمثل هؤلاء النظار أن يسموا عمياً فانهم عموا عن سنن الله تعالى في الكون وجهلوا ان الشر الذي يضحجون منه انما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن فهم الذين جلبوه على أنفسهم « وما ربك بظلام للعبيد » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً . اهـ

ويعيب آخرون على المذاهب الدينية والحكمية أنها لم تبين للناس
بيانات مقنعة شيئا من المسائل المتعلقة بنظام العالم وتنازع الخير والشر والاضطرار
والاختيار ، وأنا أسلم لهم ذلك غير اني أقول : ان كلا منها قد سما بفكر
الانسان الى العلى وغير أحوال الامم وهدى الناس الى طرائف الفنون
وأحيا من الطرف والملاح مالولاه لظل محجوبا في مجاهل العدم ، وكم نرى
ممن يودون محو الدين المسيحي من تعاليم الناشئين من لم يحسن التفكير فيما
كان لهذا الدين من التأثير في آداب لغتنا وأخلاقنا وعواثدنا ! فهم يقولون
إنه رؤيا خبيثة رآها النوع الانساني في منامه وانه بنشأته في طور التدلي
والهمجية حبس روح الشعوب في نظمات الجمل . وكل ذلك محل للنظر
والبحث ، ولكن هيهات أن يقنعوا واحداً من الناس بأن التيار الفكري
الذي جاء به ذلك الدين فقير كل مافي الدنيا لم يكن ثم موجب لوجوده !
أنا أدعوك الى دراسة هذا الدين الذي أنشأ مدينتنا الحاضرة انشاءً
حسناً أو سيئاً خلافاً للقائمين بإبطلها ، وأحثك على أن تأخذ فيها بالجد وترجم
فيها الى أصوله لان ما يخلص اليك من مطالعة الاناجيل لاشبه بينه وبين
ما يؤخذ عن رجال الدين بحال من الاحوال فانت ترى في الاناجيل مثلاً
ان المسيح كان يأبى دائماً امتثال أي عمل من الاعمال الظاهرة ، وكان
يستهدف لزراية اليهود عليه ولو مهم له بمخالفته لهم كل وقت في السبت
والصوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام وغير ذلك من الاعمال المشروعة .
واذا كان القلب يهتز لسماع بعض المواعظ الانجيلية فليس ذلك بيدع فان
المسيح انما جاء ليعان للناس شرف صغارهم وسمو المستضعفين منهم ووجوب
تكريم الطفل والحنو على المرأة الخاطئة ، وانك لا تجد في غير كتابه اكثر

مما تجده فيه من الميل العاطف الى كل مكروب والرحمة لكل مهان ومحتقر ولا أكثر من ضروب الحرمان للمتكبرين المستأثرين الذين يتغنون العلو على غيرهم من المخلوقين . وقد كان لحبه للفقراء ولكونه نفسه فقيراً يتبع الاغنياء على الدوام دون غيرهم بُذُره وأمثاله الرائعة . ولا شك أن تمكن النصرانية مع مثل هذا الادب الذي جاء به المسيح من تقوية امتياز الدرجات في الامم الحالية وتأيد مزايا الانساب وفرط التغاير في الفنى لم يحصل الا ببلوغ رجالها في المكر حد الاعجاز ، فتلك الامم التي تسمي نفسها مسيحية وتعتقد انها على دين المسيح لم يدخل الايمان في قلوبها قط . اعلم أن معرفة الشيء في وقت مامن أوقات وجوده لا تعد معرفة وانما يعرف اذا عرف أصله وتاريخه ومصيره ، وقد نتج من اتباع البحث في الحوادث الكونية على هذا الترتيب علوم كلها جديدة كعلم تكون الارض وعلم الاجنة ، فطرق البحث هذه هي التي ينبغي عليك تطبيقها على دراسة المذاهب الدينية والحكمية ، وليس عليّ ان أتعرض بالتصويب أو التخطئة للنتائج التي يؤدبك اليها بحسبك اذا حسنت فيه نيتك وصحت عزيمتك ، وغاية ما أبتغيه منك ان لا تقبل من الاصول على انه صحيح الا ما تكون قد عرفت الحق فيه بنفسك .

أقول ذلك وأنا أعلم اني أطلب اليك أمراً عظيماً ، ولكن ما حيلتي ولا وسيلة غيره لتنوير عقلك وهدايتك ! نعم ان في الدنيا كثيراً من العلماء الثقات المشهود لهم قد عهد اليهم تحديد العقائد الصحيحة في الدين والحكمة والسياسة والاخلاق فهم يعرفون كل شيء ويعلمون الناس كل شيء وهذا هو السبب في أن نصف المتعلمين من الناشئين يعتادون أن يفكروا بمخاخ

التربية الاستقلالية) الحرية والاستقلال لتعلم في المدارس ولا تنال الا بالتعب ٤٢٩

بعض أفراد من الناس - ان صح لي التعبير على هذا النحو - على أن ثمة أمراً لن نتعلمه قطعاً في مدرستهم ، الا وهو علم الحرية ، فاذا كنت تطلب الحرية فمليك أن تطلب الحق في نفسك مستعيناً في طلبه بجميع مالدك من عدد الاستدلال والنظر ، وانك سيحصل لك غير مرة مع احترامك وتيقظك أن تعتقد ان آراء غيرك هي آراؤك وتخطئ في كثير من المسائل قبل أن تعرف أغاليطك ، ولكن لا تنس ان قوت العقل كقوت الجسم لا يكسب الا بعرق الجبين ، وان من أخلص في البحث عن الهدى فقد أظهر بهذا البحث نفسه انه جدير بالاهتداء .

وفي ختام مكتوبي أقول لك من صميم قلبي : اني وليك التحيم . اهـ

هامش مجلة المنار على هذه الرسالة - لقد نطق هذا الفيلسوف بالحكمة اذا بان ان من غريزة الانسان أن يبحث عما وراء حاجته المادية وان هذا الارتقاء الفكري بما يتأزره وهو مبدأ الدين في نفسه وانه مادفع الناس الى الجحود الاسوء حال رجال الدين في انجارهم بالدين وان وجد ان الدين يزلزل الاتحاد لانه ذنب ضعيف في نفسه وانما الذنوب القوية التي يعز زلزالها هي التي تقترف على انها من الدين وهي ذاهبة بنور هدايته ومنفرة عنه حتى يقول العاقل ان عدم الدين خير من هذا الدين . نعم انه أخطأ في موافقة القائلين بأن الاديان لم تبين شيئاً من نظام العالم وتنازع الخير والشر والاختيار والاضطرار وعذره انه لم يطالع على نهاية ارتقاء الدين لجهله بالاسلام . على انه أحسن في الرد على القائلين بترك دراسة الدين وفي استخراج محاسن الاناجيل وتصريحه بان النصراني غير مسيحيين ومن أراد تفصيل هذه المسائل فليرجع الى مقالة «العقل والقلب والدين» من المنار (ص ١٨٦م) وأحسن في دعوة «اميل» الى الاستقلال وترك التقليد وتقدير الحرية العقلية قدرها .

الرسالة السابعة

من « اميل » الى أمه

عن مدينة بن في ٢٨ سبتمبر سنة - ١٨٦

« في ابتداء العشق وغرور الشاب الغرّ بالمشوقة »

لقد كان قولك حقاً أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسي ولا حق لي في الشكوى على حال ما من كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لي شيئاً ولا وعدتني الصدق في حي بل هي بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اعتباطاً صنوف اجلاي ودلائل اعظامي ، وقد كان هذا منها لي تشريفا كبيرا وأظن ان من كفران نعمتها أن أتهمها بخيانتني فانه لم يكن من ذنبها أن كنت جاداً فيما لم يكن يأتيه غيري الا هازلاً .

على اني ان قلت لك اني كنت أفكر في أمرها دائماً على هذا النحو كنت كاذباً، فان الصدمة التي هدمت صرح غروري بها تلتها ساعة دهش وذهول خيل لي فيها أن السماء خرت على رأسي وصرت كأني في حيز الفناء. قد تقولين لي : انك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الابطال وزوال الاوهام ، وهو قول لا ريب عندي في صحته غير ان ما ينتاب الانسان لأول مرة في حياته يخيل له انه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا ، فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة ؟ أو ليس الحسن الا نقاباً للنفاق ؟ وأقول انها أشد ما سخرت مني

لسلامة نيتي وسرعة تصديقي وأحس بقشعريرة الفيرة تدب في جسми حتى تبلغ نخاع عظامي .

واول يوم قامت بنفسي فيه الريب من صدقها فررت من المدينة هائماً على وجهي كالجنون أخبط خبط عشواء ، وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الخنطة المدركة ، والقنابر المغردة ، وما في الهواء من الروح الخافق وجدا وحبا ، والمزارع والطواحين التي تنكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مرقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتعجة تحت الخضرة ، والديكة المغتبطة المتفطرسة واقفة على الدمن ورافعة عقيرتها بزقائها النفاذ في كبد السماء ، وأسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متناقرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري ، فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي انها تغشني

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فامحت شبها مبهما يسري وجدران البيوت كأنه ظل ، فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني انه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلا على يديها ، ولست أدري تمام الدراية لماذا خطر بفكري لرؤيتها انها خدعت ثم هجرت ! وسألت نفسي سؤال محقق : هل تنقسم النساء في هذه الايام الى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة ؟ تأثرت هذه الفتاة بعضامن الزمن يجذبني اليها نوع من العطف لا أعرف سره حق المعرفة ، فلما كانت تمر على نور مصباح كنت أخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار ، وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت أود لو أجد السبيل الى عمل ميم

أعمال البر. وما عتت الفتاة ان دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه أطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء برست فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء باحدى يديها العاريتين واتكأت برفقيها على فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط ، وفي هذه الساعة انفتحت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الاغثر على بلاط الفناء المتوحل ، وكنت اذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتبع جميع حركات الفتاة المسكينة باهوان لاني لم يكن بقي عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار - وكنت أقول في نفسي: أقل ما في الامر اني هاهنا لأمنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة أن أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الحالة غضاضة وذلة، فبعد ان تروت هنيهة كان جبينها الكئيب في اثناؤها سرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهممت بكلمات مبهمه وهي تهز رأسها ثم هرولت داخله أحد الا كواخ الحقيرة وأغقت بابه عليها .

هذا كل ما علمته ويحتمل أن يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي ، وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض ان من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه ،

كأني بك تسأليني : كيف ظهر لك انك كنت العوبة لهوى امرأة طائشة أجيرة؟ فأستأذنيك في تنزيهك عن سماع تفاصيل هذا الامر لانها لا تليق بك ، ويكفي في ذلك أن أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين أو ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بقطع النظر

عن أمير ورتنبورغي^(١) يقال انها تحبه لئله ، فليت شعري ! هل أبصر أحد في حياته نظيرة لئلك المرأة ؟ .

لم يكن همليت^(٢) مثلي في سوء الحظ لما كان يقول لمعشوقته «أوفيليا»
« أيتها المرأة اسميك الخور » فان اسم صاحبتى هو الكذب والمكر والغش . هذا هو التمثال الذي بخرته ببحور أمانى وجعلت له بين الإلهات العنيفات مكاناً ، وكنت أتمنى لو دنت منى الكواكب فانزعته من نظامها ونظمت له منها إكليلاً . على ان لى أمر آيسليني وهو انى لم أدنس الحب في حال جنونى به .

فاعلمى بأماه أنه لا يزال من حقى ان أنظر اليك غير خجل لآب خطيئتى انما كانت سوء حكم لا ارتكابا لشيء من الخناء ، ولكن هذا لا يقلل من استماحتى لعفوك فاعفري لؤادك هفوته حتى يمكنه ان يغفر هالنفسه . اه

الرسالة الثامنة

من هيلانة الى « اميل »

عن لؤندرة في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٦ -

« غرور الشاب في الحب وبيان حقيقة »

اعلم يا ولدى العزيز ان مانقع فيه من ضروب الغي هو الذى يهديننا

(١) ورتنبورغي نسبة الى ورتنبورغ احدى ولايات المانية (٢) همليت هو أمير جوتلاند الذى تظاهر بالجنون لآ أخذ بنار آبيه الذى قتله أخوه بالسم وهو الذى كتب عنه شكسير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدنيارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفساً وعاصمتها فيبورغ

سبيل الرشده، وان ماقترفه من الذنوب هو الذي يذبنا اذا تأملت منه
ضماثرنا بأن لنا في قوسنا قانونا زاجرا وان الحكمة في رأي هي ان نستفيد
من كليهما لنعلم

لم تدهشني مائة قصتك وسأتحامي كل التحامي أن أعيب سيرتك
فيها لانك قد عبثها بنفسك، ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته اليك من
النصائح قبل خنابها المحزن ليساوي ما وعظتك به تجربتك الذاتية. ان في
أمور الكون عدلا وان الدهر يضطرها الى أن تظهر للناس على حقيقتها،
وان كان يلذ لخيلة الانسان ان تزينها بالالوان المموهة وتغشيها بالاستار
الحاجبة، وبهذا كان الدهر استاذنا جديما.

على أي ان لم أقر لك بأن مكثوبك الاول سبب لي أشد ضروب
القلق والحيرة كنت قد كنتك بعض الحق. نعم قد كان لي من الثقة
بطيب عنصرك وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ما كان يكفي لي للثقة
بأنك لا تتسفل لارتكاب دنئة ما، ولكني كنت أخاف عليك وأنت في
هذه السن خدع القلب وجحات العجب المفتون وأماني بالبسالة الخادعة،
فما يوجب الأسف ان أصدق الناس في الحب وأخلصهم لهم كذا
أشدهم تعرضا لمخاطر دسائسه، وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس قدوة
لهم في سيرتهم فان قلوبهم الجامدة لا تتخدع بكذب الظواهر، وهم الذين
جعلت لهم الحيات المهيجة كما جعلت الخور المتبلة للسكيرين.

تراحم يبذلون من الحمة والنشاط في تحصيل النبطة أكثر مما يلزم وهم
مع هذا في أسوأ عيش وأنكد. هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام المتساطون
لدسائسه قد اعتاضوا عن الحب بظله (أعني الظرف والكياسة في معاشره

النساء) وان خسة عواطفهم لتدل على خلوصهم من الادراك وهم شبیهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التي تصادف على حافة السواقي (الانهار الصغيرة) في أنها لتغفن قلوبها لم يبق لها حياة الا في قشورها .

الامم التي لا تجل زجالها نساءها ولا نساؤها أنفسهن غير جذيرة بالحرية - يدلك على ذلك ان جميع عصور الاستعباد والمخطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك في الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم إحساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا أعوزهم ما يضيعون فيه أوقاتهم يتصيدون الملاذ السهلة فارباً بنفسك عن هذه الرذغة ^(١) فلا مقرر لك فيها .

إني ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه ينفق كثيرا لمن هم في سنك ان يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون أن يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال منهم حاضر بين أيديهم . أرى انك فوق حنقك على من غرتك نادى على ان كنت غير صادق في محبتك فتأمل في باطن ما تحفظه ذا كرتك تجدني قد أصبت المرمى فيما أقول ، فانك تعلم بوجود ذات من أترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتذكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل ما يتعلق بها حتى ثنيات حلتها تمام الذكر ، وان مثالها الطاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحت لتقرأ فيه ما صنفه الشعراء ، وأنت تود لو تشاهد معها كل ما في الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريذ ، وهي التي ينطبق عليها ما تخيله من معنى الفضيلة وتود من أجلها لو تكون أفضل

الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها. فان لم تكن تأنس من نفسك شيئاً من هذا لم تكن حتى الآن الا طفلاً ولم يأن لك أن تعتقد في نفسك أنك محب، فالحب الحقيقي هو الذي يرفع النفس ويبعث على طاب الخير وعلى ان يقنضي المحب من نفسه لمحبو به كل ما يقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب .

فاذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك أن تدنس اسمه باجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوئت شفتيك بالكذب .

وللشبان خطأ آخر في الحب وهو توهمهم أنه اذا حصل بدسائس ووقائع كاتي تروى في القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به ، فليس الامر كما يتوهمون لان في الحب من العظمة الذاتية ما يغنيه عن زخارف الخيال . فالفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد الفراغ من عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أو تحيط بجانب المصطلى ثم يمسح رءوس أولاده غلاظ الوجنات منادياً كلامهم باسمه ويذكر في نفسه زمن ترقبه لزواجه « جنة » يوم الاحد في ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة ، ويراه لا تزال غضة الحسن موفورة الشباب - كان أبهج خيالا أضغافاً كثيرة من حظي - إلهة من إلهات الحب الجديدة الشباب هو سن الاماني والاحلام، وطور الخيالات والاهام، ثم ان كثرة المطالعة لا ثمرة لها في أغلب الاحيان الا افساد حكم القلب. على ان الحب في غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لأصح ما في فطرتنا من ضروب الوجدان وأشدّها استقلالاً، فويل لمن لا يعشق ويتوله الا في

الحلم لانه لا يلبث أن ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه .
يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها أن توجد لنفسك بين
الناس مقاماً ، فان كل عمل تعمله في سبيل تحصيل العلم ورفع شأنك في نظر
نفسك ومغالبة ما للأثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ مال الانسان من
الشرف يفيد المرأة التي ستحبها كما يفيدك ، وكن واثقاً بأن هذا لا يعد منك
في حقها كثيراً اذا كان يهملك أن تكون أهلاً لا لجلالها لك حفظاً لشرفك
وصوناً لرضك .

حاشية : فاتني أن أخبرك بأن «لولا» تتعلم من أجل أن تقبلها جمعية
الطبيبات بلوندره في عدادهن وكلنا نحبك * . اهـ

الرسالة التاسعة

من « اميل » الى أبيه

عن هيدلبرغ في ١٨ يناير سنة ١٨٦٠

« الاستقلال في العلم — فلسفه الخلق والتكوين والاجتماع والمدنيه »

« الاعتماد على العقل دون الخطابه — حب الوطن »

غادرت مدينة « بن » ونقلت كتي - وهي كل ما أملكه - تقريباً الى
مدينة « هيدلبرغ » . ومن نظام المدارس الجامعة في ألمانيا أنه يجوز لطلبتهم مطلقاً
أن ينتقلوا من احداها الى الاخرى من غير أن يكون في ذلك ضياع لحقوقهم

(*) هامش النار : لينأمل اللبيب هذا التذكير اللطيف « لولا » التي تربت مع
« اميل » مثل تربته بدميان من تستحق الحب وبيان حقيقته وغرور الشبان فيه
فيالله ما هذه الحكمة في هذه البلاغة !! اهـ

فما نالوه من الدرجات . على ان هذا التنقل يمكن الطلبة من الاختلاف الى درس أنبغ الاساتذة وأشهرهم في كل فرع من فروع العلوم البشرية . أخاني تعلمت كثيراً من دروس هؤلاء الاساتذة المفيدة ، ولكني كل يوم أثبت ان تعليم المدارس بجملته لا يمكن أن يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي الذي يجري فيه على ما ترشده اليه سريره .

أرى مذهبيين يتنازعان عقول البشر أعثر عليهما أينما وجهت فكري فأجدهما في العلم والحكمة والدين والسياسة . ومقتضى المذهب . الاول ان العالم خلق مقسوراً أي ان كل ما فيه خصص بارادة أزلية ، وان صور الحياة في الكائنات الحية ثابتة لا تتغير ، فتندمج الاصول بعضها في بعض وتنتج الفروع ناقلة مخصصات كل نوع عن مثال أزلي له . ومقتضى المذهب الثاني انه وجد مختاراً بمعنى ان الكائنات لم توجد من العدم بل استحات من طور الى طور وان القوى لم تسبق في الوجود بل نمت وان الانواع النباتية والمعدنية (هكذا في الاصل ولعل صوابه والحيوانية) مستمرة البقاء غير أنها تتغير وترتقي على مقتضى نواميس طبيعية .

واذا انتقلت من العلم الى التاريخ وجدت هذا الاختلاف بعينه في آراء الناس فيرى بعضهم ان التمدن قديم وجد مع الانسان ، يعني ان الاجتماع أوجده قدرة أعلى من قدرة البشر ، وان أية أمة من الامم ليس لها أن تختار قوانينها وأوضاعها ، وان للحكومة مثلاً لا تحيد عنها الامم حتى تسقط في مهاوي الفوضى . ويرى بعض آخر خلافاً للاولين ان الانسان نشأ متوحشاً أي انه كان قرداً متقن الخلقه فقر من بين الحيوانات وأنشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكائنه في البرية بعد ان خلق نفسه — ان صح

التعبير على هذا النحو - وان الامم قد مرت في أطوار نموها بيدايا أوضاع لم تلبث ان ابتعدت منها بتأثر الترقى الذي لارادله فكما ان الارض كانت بنفسها يكون الانسان بنفسه ويؤلف مجتمعه بقواه الذاتية .

واذا رجعت الى الديانات وصدقت أقوال مؤوليهها كانت كلها موحاة من الله فاذا سألت خصومهم عن رأيهم فيها قالوا انها أمور طبيعية تدخل في قوانين ادراك الانسان المألوفة .

وما أشد التباين وأوسع مسافة الخلف اذا سألت أهل وطني عن آرائهم في الامور السياسية ! . وقد استخلصت من اخلاف طرق النظر هذه نتيجة هي اني مع بحثي في أفكار غيري وآرائه لا ينبغي لي ان أعول الا على شهادة عقلي وسريري . هذه هي السبيل التي صممت على سلوكها وهي التي أوضحتها لي أنت أيضاً، ويبعد كل البعد ان تكون هذه الضرورة الملحجة لي الى الحكم بنفسي على الامور مدعاة الى الكبر والصلف، بل هي تبعث في نفسي الذلة والاستكانة لاني أكون مضطراً في كل وقت الى الاعتراف لنفسي بأني لا أعرف شيئاً، وانه يجب علي ان اتدرع بالاقدام وان أوسع نطاق معارفي، واخلس من النظر في الحوادث مقدمات اقتناعي، وأما البراهين الخطابية التي كنت أعتقد في ساعة من الساعات اني أدرك بها مالا حد له من العوالم فقد تبين لي انها شبيهة بتلك الاصداف التي يتناقلها الاطفال في أيديهم ويضعونها على آذانهم متخيلين انهم يسمعون فيها اصطخاب البحر .

على اني لا أدرس وابحث من أجل أن اكون عالماً فكل ما ينتهي اليه طمعي ينحصر في فهم حاجات العصر الذي أعيش فيه والاخذ بناصر

الحق، وهيمات أن أنسى بلادي أو أعيش غير مبال بمجاهداتها ! فاني وان
ولدت في بلاد أجنبية أجد فرنسة حينما نظرت فانها تبدو لي في انتصارها
الكثير الذي انتشر في ارجاء الدنيا، وأراها حتى في مصائبها التي نزلت بها
عقاباً لرجل من رجالها على تغطرسه وتجبره . هذا الوطن الذي مارأيتـه
في حياتي هو في نسبته اليّ أمي الثانية فلا يذكر الا ويقشع رجلي لذكره
ولا ينتقص الا ويتبغ دمي كله انتقاماً له . وليس الذي يثير اعجابي منه هو
غرواته ووقائعه الحربية، وانما هو تاريخ مكافحاته ووثباته الباسلة في طريق
الحرية، واني أحب مفكريه الذين يملون فيه وهم يضحكون، وأعجب بكتابه
الذين يهيجون القلوب وهم لنور العلم يشنون، فأنا من صميم قلبي ملك له وبما في
نفسه من الامل في خدمته يوماً ما يجدني مقتبطاً ومعتزاً بالانتساب اليك . اهـ

الرسالة العاشرة

« من اراسم الى ولده »

عن لوندرة في ١٥ فبراير سنة ١٨٦ -

يان وجوب ان يكون للشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده

لاحق لك يا عزيزي « اميل » في أن تكون بلا رأي سياسي، فأما
رجل يعيش في قوم ويظهر معتزلاً لما يتعارض بينهم من المصالح غافلاً عما
يتقاسم عقولهم من المذاهب فهو في غاية الحقارة والخسة ، وكان حقه أن
ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية .
نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس في الازمان الغابرة انهم

مرسلون من عند الله لسياستهم وتدير شؤونهم ، وكان عمل الرعايا على هذا الفرض قد قصر على الطاعة المطلقة لاوامرهم فكانوا ملوكا لولااتهم وخاصتهم كما تملك الارض ، ولا حق للارض في أن تثور على اليد العاملة فيها . وأما الآن فلم يبق في البلاد المهتدية بهدي العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذي يزعمه الملوك الا النزر اليسير ، وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ، ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ سلاحها لنصرهم ، وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم^(١) هذا السلطان المعصوم الذي لم يكذب يبق للانسان جراءة على ادعائه للأشخاص في وجه عبر التجربة الزاجرة لايزال يدعى للاوضاع البشرية فلا تكاد أية حكومة من الحكومات تستقر حتى تدعي انها حلت محل المحكومين في أفكارهم وعزائمهم .

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد الملوك لرعاياهم انهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ بل قد بلغ الغلو في هذه الدعوى ببعضهم ان ادعى الالهية والصحيح المعروف لذوي العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين انهم عبيد استخلفهم الله في الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان أحسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساءوا شقوا وشقوا بهم « ياداو دا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » وما يزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحاً على إطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هي أسس العدل والحرية . واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لا يدل الا على أنه جهل أن الله لا ينصر الا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة في خلقه وانه ننزه ان يحتاج في النصرة الى الاستعانة بمدة أو سلاح . اهـ

ولا يخفى أن البلاد التي وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حرصهم وبلوغهم فيه حد الجبن أن يعظوا شبانها بأن لا يشتغلوا بالسياسة .

تسمع الاب منهم يقول لابنه « يا بني ان لك أن تغتني وتزوج وتعمل لنفسك في الناس ذكرا وليس من حَقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا في جميع المسائل ويوزعوا الثوبات والعقوبات على الناس ، فهم كما تقول التوراة أنفاس منخريه التي تحرق أموال المعاندين للنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع ، فالاحزم لك ان تخلي بين الحكومة وعملها واذا كان لا بد لك من رأي فلا بأس في أن تختار لنفسك ما يلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها لانه لا فائدة للمرء من الاشتغال بمصالح غيره » والعاقل من يتوقى ادخال أصبعه بين الشجرة ولحاءها «^(١)

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجري على ما يخالف ذلك كل المخالفة فلا يكاد طالب العلم فيها يملك السير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة في المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمي الى حزب من الاحزاب وهم بعيدون كل البعد أن يمتقدوا أن في مجاهدات المعيشة السياسية ضررا بالمعيشة البيتية بل هم يجلون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها في ميدان الفروض العامة ، ولو ان وجدان العدل كان قاصرا على المعاملات الخاصة لعد من الظلم في حق عامة الناس

إذا تقرر هذا قلت إن جميع الأمم خلقت لتكون أحراراً، ومن العيب أن يزعم زاعم أن منها من هي مفرطة في الطيش ومنها من هي غالية في التحمس ومنها من هي غاية في الجهل ومنها من هي متנטعة في التألق، فقد نسي أن الوسيلة إلى ترقية أخلاق الأمم إنما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولا مرأى في أن هذه الأوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء، وأنه من الحق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها لأن جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة أن الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلي عنها؟ وقد يرخون زمامها أحياناً حدقاً منهم في تصريفها وحزماً ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يجمعون تصريف شكيمتها إلى أيديهم. ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطى ويوهب بل هي مما ينعم بالجهاد والمكافحة، فشدة كفاح العقول والعزائم وجملة إخلاص المخلصين الخاملين وتصلب من لا يستخذون للذل من أفراد الأمة، هي التي بضرورة الأحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على إرجاعه إلى نصابه ورده إلى أربابه. وما يحصل من التعذير في أثناء الجهاد لا يلبث أن يزول وما يعقبه من الرقي دائم لا فناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع.

ليس من قصدي مطلقاً أن أبعث في نفسك كراهة الأمة التي خلقت للمعيشة فيها فانت صاحب الحكم على أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لفيرك والاستخفاف به فإن عصرنا سيشتد في التاريخ بخطوبه ومصائبه لا تناقد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد وهي حكومة الإصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابليون.

وليست العصور التي تعني وتؤلمني هي التي تسعى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وإنما هي التي تخلد فيها إلى الدعة من غير أن تنال حريتها .

ان لداتي من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية وأنا أشتهي بمجامع قلبي أن يكون الناشئون أسعد منهم حظاً وأوفر غبطة ولكن ينبغي لهم أن يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا .

نحن غلونا فيما رجونا من تصارييف الزمان وكما سألت نفسي عن سبب مصائبنا خلتي أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعداً عن الايمان يؤمن بالمعجزة، ذلك انه يعتقد إمكان تغيير أحوال الأمة بأمر من أوامر حاكم مطلق مؤقت الحكومة أو على الأقل بأمر مجلس حاكم . شهدت فرنسا غير مرة تلاشي بيوت حاكمة كانت تغتقد متانة دعائمها وحبوط مقاصد لبعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم انها لما انتصرت انتصارها العقيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين ألقى اليهم الاتفاق زمام سياستها . نعم ان شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ظروفها . مضى زمن المسحاء فلن يرى بعد الآن لافي شكل حكومة منتخبة ولا في صورة حكومة تأتي الى الدنيا بالنور والهدى فعلينا ان نخلص أنفسنا من خداع الناس ونظهرها من وثنية الاوهام لان الأمم لا تنال حريتها باتفاق ولا بسلطة غيبية فائقة

للطبيعة^(١) ولا بالبخت فلتنظر فرنسة في نفسها تجرد ان بختها هو عزيمتها
أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هي ان تنفي
عن عقلك الجهل والالوهام والاضاليل التي تبذر في الدنيا بذور الطغاة
الغاشمين. اذا فعلت ذلك كنت قد أدت في سعيك الى الحرية شيئاً من
العمل. التعلم اثمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا برمته من شأنه
تجريد أبناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسا
قد اهدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد. فاما ان يكون هذا هو
ينبوع ما أصابنا من ضروب العجز وإما ان أكون مخطئاً خطأ فاحشاً. لاحق
لنا ان نعيب على الترك^(٢) اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن أثبت منهم فيه ألف
مرة، ذلك اننا تابمون لبخت يومنا، خاضعون لمقدور سياستنا، مؤدون
ميثاق الطاعة لحكومتنا، حتى لو انتقلت الى أيدي الكفار. وقد أصبح خمود
الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة وابعاء. تراهم لما حل بهم من
الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الامور
كما لو كان لاي واحد من الناس ان يقنط من أهل زمانه ومن بلاده.
اذا ظهر الشر والفساد في الامة كان حقاً على الانسان ومن مقتضى عظمته
ان يجاهد في ازالة سببه وليس يكفي الرجل الصالح افتخاره أحياناً بأن
يتخيل في نفسه عالماً آخر يطوي فيه معتقداته ويشرّف من أعاليه على
أمور دهره فيحتقرها بل عليه أيضاً ان لا يدخر سلاحاً في مكانه.

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني الله جل شأنه في حرية الامم أثر
من آثار المذهب المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لونه.

(٢) يعني بالتترك المسلمين

ليست أمة من الأمم من هذا العجز في شيء فانت تعرف كلمة جوفينال ^(١) اذ قال : « لكن لن يعدم المغلوبون سلاحاً » فالذي يبقى من السلاح في أيدي الأمم المغلوبة هو الخطابة وبث الافكار والمقاومة المعنوية، ولن تخضع الحكومة رعيتهما ماداموا لا يستكينون للخذلان، نعم انها تستطيع في ليلة واحدة ان تسلب حقوقهم وأموالهم، وتعدم من يسخطونها منهم وترهب أندالهم وتخضع جهالهم، ولكن هيهات ان يكون هذا هو ظفرها النهائي بهم عنوة . لا تظفر بهم الا متى أزهدت روح الكرامة الانسانية من نفوسهم . الامة الحرة وهي أمة المستقبل تزيد وتنمو في ظل حكومة الاستبداد وستنتصر اذا نقوت بما تكتسبه من المعارف وبما يوجد فيها من عواطف الانصاف التي تخلص اليها من البحث في حقائق الامور وبما تستفيده من القوى التي يخلصها العلم من الطبيعة .

لا ريب في أنه ليس كل واحد من الناس مخلوقا لان يؤدي عملا سياسياً فلا بد فيه من ملكات وميل خاص ولكن لكل انسان بل عليه ان يرتأي لنفسه رأياً في مصالح عصره وبلاده، ولست ملزماً بأن تأخذ بشيء من ماضي ولا من آرائ في كل جيل مستعد لان يعمل عمله بنفسه وملزم بأن يسترشد فيه بما يستجد من حاجات أمته ، وانما عليك أن تعلم أنه لا يكفيك أن تظن في الاوضاع القديمة لهدم بنيانها، بل لا بد أن يثبت لك العلم كذبها أو عدوها، واذا أردت أن تظفر بخصمك فكن خيراً منهم وأتور فكراً .

« ١ » جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الاول من الميلاد ومات في عهد الاتونين وهم بيت من بيوت الملك في رومية .

إن ما يشكو منه جميع الناس في أزمان التدلي من خمود النفوس وأثرة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال منشؤه الناس كلهم أيضاً، فما منهم الا شريك في الهلاك العام إما بسكوته واما بامتناعه اختياراً عن العمل . على أن تلك الازمان هي التي يأتي فيها للنفوس الأيية أن تشتد وتثبت في تيار الدمار . فعلينا ان لم نأنس من نفوسنا كفاية في القوة أن نستعين من سبقت لهم الشهادة في سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويمالجون عمى البصائر قبل أن يجنوا ثمار كدمهم ، ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضيين بدمائهم ، ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكوا خلال القرون الماضية في سلاسل العبودية المعنوية ، ولتأمل في ماضينا فانا نجد فيه من السجون المظلمة والمنافي وأنواع العذاب والنكال ما يشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لا تدافع . ألا ان لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكرويين والمهيضين في سبيل تأدية ما فرض عليهم ، وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلت قبلة الوداع . اهـ

الرسالة الحادية عشرة

(وهي خاتمة الكتاب)

من الدكتور وارنجتون الى زوجته

« بيان ان من الواجب على كل انسان ان يسعى الى انشاء ولده حراً لتجنث »
« بذلك جرائم الشرور الحزنة للامة »

عن لوندرة في ١٥ مايو سنة ١٨٦٠

شهدت بالامس أيها الحبيبة العزيزة عيماً أهلياً أقامه الدكتور

اراسم وزوجته احتفالاً بلوغ ولدهما الواحدة والعشرين من عمره وكان عددنا اثني عشر صديقاً.

كان العيد وليمة رجال زانتها المهابة والوقار ولم يمنع كونها كذلك من انتماش جميع قلوب المدعوين ابتهاجاً وسروراً. وفي ختام المائدة ابناً رفع الاقداح لنعاطي الراح على محبة « اميل » جرياً على العادة الانكليزية القديمة، فقام اراسم واسئاذن في ان يشرب نخب ولده، وما رأيته في حياتي أفصح مقالاً منه حينئذ، فقد أفاض في القول عن الفروض التي تجب على الشاب في معيشته القومية وعن التربية ووجوب ان تكون عمل كل منا في جميع حياته وعن الازمان الحاضرة واقنضائها من المفكر ان يستمسك بالآراء المؤسسة على البحث والاخبار وان يثبت عليها، وبالجملة فليس في وسعي أن أودي اليك أثر هذا الخطاب الابوي الذي كانت مزيته الكبرى أنه لم يكن نخطب الخطباء.

وما فرغ منه حتى اتجهت جميع الابصار نحو « اميل » — وأنت قد استطعت من منذ عوده من انكلترة ان تعرفي ما هو متحل به من ثبات الرأي وعلو الآداب وسعة المعارف — فشكر لاصدقاء أبيه ان تفضلوا باجابة الدعوة الى هذا العيد البيتي الحقيير بعبارات تشف عن لطف ذوقه ومزيد تواضعه، ثم ارتقى الى الكلام عن بعض المسائل العامة فبين الخطة التي يؤمل أن يسير عليها في الناس بالفاظ جلية مؤدية تمام المعنى

وقد أحس كل من سمع قوله بأن جميع ما فاه به صادر عن فكره المستقل ثم تعاقبت الكؤوس وتوالت الانخاب وبينما كنا على أهبة القيام من المائدة التفت الى والديه وآذنهما بأن لديه خبراً يريد أن يعللهما اياه

وقد لونت جبينه حينئذ حمرة الخجل مع أن ملاح وجهه كلها كانت تعرب عما فيه من ثبات الرجولية .

ما كان أشد دهشي ودهش الحاضرين اذ سمعناه يقول بصوت قوي على ما فيه من الاحتشام انه من الامس متفق مع دولوريس على الزواج بها .

ثم أعقب هذا الاخبار ان انحنى امام والديه قائلاً : « هل لي أن أرجو منكما استحسانكما لهذا الاختيار »

هنا لك غشيت وجنتي الفتاة السمر اوين سحابة من حمرة الخجل وأغضت عينها فلا لأت بين اهداهما السوداء الطويلة عبرات الفرح والهناء .

لم تجد السيدة هيلانة جواباً لمسئلة ابنها الا اكباها على عنقه تقبله وقد كادت تحتنق سرورا واغتيباطا . واما اراسم فانه مع تأثره مثلها مما سمع من ولده كان املك منها لعواطفه . اجاب ولده بصوت يذى عن سكينته ووداعته فقال : « اذا كنت تحبها فهي ابنتي » ثم قبل هذه الفتاة الحسنة بصدر منشرح ونفس منبسطة .

في خلال هذا المنظر المؤثر طرق البريد باب الشارع طرقتين فاضطرب كل من في البيت وكان يحمل رسالة كان يرى من غلافها انها آتية من بلاد بعيدة .

كانت هذه الرسالة « لاميل » فاستأذن في فض ختامها لانه مالبث ان عرف في عنوانها خط قويدون وقرأها وكانت بالانكليزية الركيكة —

انكليزية زنجي - فاذا هي تتضمن تهينة من هذا الافريقي البار « لاميل » بعيد ميلاده ورجاءه كما هي العادة عود كثير من امثاله عليه بالغبطة والهناء ، وتشتمل فوق ذلك على خبر سار وهو ان الزروع التي زرعت في ارض « لولا » قد نجحت بفضل حذقه وحذق زوجته وانها ربما كفلت لها صداقها عند الزواج .

اني على جذلي باغتياب اصدقائنا محزون لتفكري في مفارقتهم لنا لان هذه الوليمة العيدية كانت وليمة وداع ايضاً فهم راجعون الى فرنسا يدعوهم اليها ما وقع فيها اخيراً من الحوادث السياسية وحب مسقط رؤوسهم ، واني مشيعهم بأحسن آمالي لهم ، ولست انسى كلمة من كلمات اراسم الاخيرة التي فاهها عند مصافحتنا بصوت مأوّه الوقار والهيبة وهي قوله : على كل منا ان يسعى في جعل ولده رجلاً حراً فاننا بذلك نجتث جرائم الشرور المحزنة للامة . . . اهـ

الترجم : فرغت من ترجمة هذا الكتاب المفيد قبيل ظهر يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ للهجرة النبوية الموافق للثالث والعشرين من شهر يولييه سنة ١٩٠٦ للميلاد المسيحي

الناشر : تم طبع الكتاب (الطبعة الاولى) على حدته بعد استخراجها من المنار واعادة تصحيحه في سلخ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ بمطبعة مجلة المنار بمصر القاهرة

وتم طبعه في مطبعة المنار للمرة الثانية في جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ

فالحمد لله على نعمة التمام

— ❦ — فهرس التربية الاستقلالية ❦ —

صفحة	صفحة
والمنزل الذي يصلح للتربية	مقدمة ناشر الكتاب للطبعة الاولى
(١٤) محافظة الحامل على سلامتها	٣٢ مقدمة مترجم « للطبعة الاولى
(١٥) التربية الاولى من	٣٦ مقدمة الطبعة الثانية
خصائص الام	❦ الكتاب الاول في الام ❦
(١٦) تشابه المسجون في جميع	١ {الرسالة ١} وصف حال المسجون
البلدان وتسرية هم المسجون بالمطاعة	٤ (٢) خبر سار من المسجون لزوجته
(١٧) المسكن الجديد ومحبي	٥ (٣) تسلي المسجون بتعرف
قوييدون وزوجته جورجية من	أما كن السجن
فرنسا والمقارنة بين الفرنسيات	٦ (٤) السجن قيد للاشباح لالارواح
والانكليزيات في تربية الاولاد	٧ (٥) مواساة الاصدقاء الحاملين
(١٨) موافقة الزوج لزوجته في	في حال الشدة
انتقادها التربية عند الفرنسيين	٨ (٦) قول الطبيب في الحمل {باميل}
(١٩) تسمية المولود وانتقاد	٩ (٧) تأثر الزوجة بزيارة سجن
طريقة التربية في فرنسا	زوجها ومشقة الرجوع منه
(٢٠) وصية الدكتور للحامل	وتخوفها من ثقل فروض التربية
بالرياضة والتنزه والبعث عما يثير	١٥ {٨} نقل الزوج من سجن الى آخر
الانفعالات وابتلاء المناظر الرائعة	١٥ {٩} خيبة الزوجة في زيارة السجن
(٢١) وصف تعويد الانكليز	وعزمها على اتباع زوجها
أطفالهم الاستقلال والحرية	١٦ (١٠) نهي الزوج زوجته عن
(٢٢) انتقاد أخلاق الانكليز	السفر رعاية للجنين وما يلزم له
وخضوعهم لتقاليد أسلافهم	١٨ (١١) تفضيل الامومة على
(٢٣) اخبار الزوجة زوجها	الزوجية وأمانى الام في الولد
باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها	١٩ (١٢) وصف الزوجة للوندره
صحف مقتطفة من يومية الدكتور ارارام	وسفرها الى بنزانس
٨١ أقل العقبات المعنوية يعوق العقل	٢٦ (١٣) جبل القديس ميكائيل

صفحة

- عن الانبعاث في سبيل الحرية
 ٨٢ لا بد يوما أن يدال من المستبدين
 وان ترد الحقوق المغصوبة الى أهلها
 ٨٢ من أعجب الظلم أن يداس العدل
 والحرية وتمضم حقوق الامم في سبيل
 تحصيل لذة الملك لرجل هالك
 ٨٣ تمثيل الحكومة المستبدة في الامم
 الراقية بالدجاجة مع أفراخها
 ٨٣ تمثل زوجة المسجون له في اليقظة
 ٨٤ {٢٤} البشارة بوضع «اميل»
 ٨٥ {٢٥} القابلات والعناية بالمولود
 ٨٩ {٢٦} مشابهة «اميل» لاييه
 وحكاية في التماثل بين الاحياء والاموات
 ٩٠ {٢٧} ظن الام ان وليدها أنشأ
 يعرفها ويان فضله عليها في تحسين خلقها
 ٩٢ {٢٨} سؤال الزوج عن حقيقة
 التربية وبناديتها ونهايتها
 ﴿الكتاب الثاني الولد﴾
 ٩٣ {الرسالة - ١} تعريف التربية
 وعسر تحديد زمني بدايتها ونهايتها
 ٩٦ (٢) عمل الام في الشهور الاولى
 من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله
 الامهات بأطفالهن
 ٩٨ (٣) أول علوم الطفل تأتيه من
 طريق الحواس وتربية الحواس وتأثير
 التمدن في قواها وتفضيل التربية في
 الريف وعمل الام في تمرين حواس الطفل

صفحة

- ١٠٦ (٤) شعور الطفل من أول نشأته
 بأنه أرقى من الحيوان واستخفافه بالعالم
 واستعراف طباعه وذكر اهمال المربين
 ١٠٨ (٥) حسن رأي الزوجة في
 ولدها وسياسته ووصف الاقليم والاشجار
 ١١١ (٦) تلقيح الجدري ووهم عوام
 الانكليز فيه وذكر الام لاحوال ولدها
 ١١٤ (٧) بيان ان سبب فتور مشاعر
 الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لا
 ضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه
 اليها وتدريبه الطفل على المحافظة على
 نفسه بنفسه
 ١١٩ {٨} تعرف أذواق «اميل»
 وانتقاد الوالدين الذين ينشئان الطفل
 على مثالها في الطباع والاذواق وبيان
 ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها
 ودوائها ووجوب مقاومة التربية لاهوائه
 الفاسدة من طريق إلهائه عنها وجعله
 بمعزل عن البواعث المثيرة لها
 ١٢٧ {٩} استعمال السلطة في سياسة
 الاطفال بقدر الضرورة وبيان
 ضرر قهر الطفل على الامثال
 ١٣١ {١٠} اجتناب تخويف الطفل
 بالمعقوبات الالهية والخوض معه في
 المسائل الدينية وتركها له لينظر
 فيها متى كبر بفكر خال من
 المؤثرات

صفحة	صفحة
١٦٤	١٣٦ {١١} بيان عدم فائدة أصول علم الاخلاق في التربية
١٦٦ (٢٢) أنس «أميل» بالدواجن وأنسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة	١٤٠ (١٢) بيان قلة نفع القدوة ومطالعة قصص الحيوانات في تربية الاطفال ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلم سير الحيوانات بنفسه
١٧٢ (٢٣) تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم	١٤٣ (١٣) بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة
١٧٢ (٢٤) اخبار الزوج وزوجته بنقله الى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر اليه	١٤٨ ١٤ تربية النفس وبيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال خطا من كرامتهم وان للاطفال حاسة يميزون بها بين الحب الصحيح والمموه
١٧٤ (٢٥) تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزماني بحسن المعاملة	١٥٠ ١٥ تفاهم الام مع ولدها بالاصوات وظنها انها اصل اللغات
١٩٨ (٢٦) وجوب اعتراف المربي للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شيء وانتقاد التعليم الديني والسياسي والطريقة المستحسنة في التربية وبعض شروطها كنسيان المربي ما تعلمه ليتعلم مع الطفل	١٥٢ ١٦ استعداد الام لتعليم ولدها بالبحث في أحوال النباتات
٢٠٣ (٢٧) التدرج في تعليم العلوم للاطفال بافت أذهانهم الى ماحولهم وانتقاد الكتب التعليمية ماحولهم	١٥٤ ١٧ تسنين إميل
٢١٠ (٢٨) فوائد التصوير والمعارض في التربية	١٥٤ ١٨ في تفكير الطفل . وأصل اللغات وفي تعاليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين في ذلك
٢١٥ (٢٩) التربية والتعليم بالفانوس	١٦١ ١٩ التفكير مما يتعلمه الطفل . خطأ المربين بعنايتهم بالالفاظ دون المماني ووجوب تهويد الاطفال النظر والملاحظة تمرنا على التفكير
	١٦٤ ٢٠ محاولة لإراسم الحرب من السجن وخوفه انقطاع المراسلة

صفحة	صفحة
الاسماء	السحري والتمثيل والمعارض
٢٧٨ ش ٣ تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا	٢٢١ ٣٠ السفر بالاطفال ومعرفة الارض بالعمل وتعليمهم الصناعة بمعالجة اللاعب
٢٨٠ ش ٤ الجزيرتان والتعليم بضرب الامثال	٢٣٠ ٣١ تعليم القراءة والخط والرسم
٢٨٧ ش ٥ الخط الديواني	٢٣٨ ٣٢ التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة
٢٩٠ ش ٦ مذهب تشغيل المتعلمين بالاعمال المادية الشاقة	٢٤٧ ٣٣ تربية الخيال والتلطف في محاورة الاطفال
٢٩٣ ش ٧ رؤيا تمثل التربية الكاملة وآثارها في سعادة الامة	٢٤٩ ٣٤ خطاب الاب لابنه وحثه على تعلم الكتابة
٣٠١ ش ٨ تجلي العلم في العمل	٢٤٩ ٣٥ الصحة في تغير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء
٣٠٧ ش ٩ انتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية	٢٥٧ ٣٦ تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري
٣١٤ ش ١٠ التقليد والذاكرة	٢٦٦ ٣٧ بقية اخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال
٣٢٠ ش ١١ المؤلفات المفيدة للناسخين واختيارها	٢٦٧ ٣٨ السباحة وتربية العضلات
٣٢٢ ش ١٢ لا يسلم وجه الشمس من كلف وانتقاد اللغتين اليونانية واللاتينية	٢٧١ ٣٩ اخبار المسجون بالعفو عنه
٣٣٢ ش ١٣ السفر من اركان التربية	٢٧٢ ٤٠ بشرى الحرية (خروج لراسم من السجن)
٣٤٢ ش ١٤ التربية بركوب البحر	(الكتاب الثالث في تربية اليافع)
٣٤٦ ش ١٥ ما يتعلم في السفينة	شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور اراراسم
٣٥٠ ش ١٦ التربية بسفر البحر	٢٧٣ (الشذرة الاولى) حب الزوجة والولد والوطن
٣٥٢ ش ١٧ طريقة صيد خنازير البحر	٢٧٥ « ش ٢ » تعليم المسميات قبل
٣٥٣ ش ١٨ وصف ما يرى في البحر من المشاهد الطبيعية	

صفحة	صفحة
٣٧٣ ش ٣٢ وصف خاليج قسلاو	٣٥٥ ش ١٩ الاسماك الطيارة، وصيد
وذكر نوع من الطير هناك	كلاب البحر ، والضوء الذي يرى
٣٧٤ ش ٣٢ فوائداالعقبان	في المياه ليلا
٣٧٥ ش ٣٤ التربية بالماينة	٣٥٨ ش ٢٠ صيدالسلاحف البحرية
٣٧٩ ش ٣٣ أخلاق أهل إياما وأحوالهم	٣٥٨ ش ٢١ نخامة منظر الشروق
وأهل بيت « لولا »	والغروب قرب خط الاستواء
٣٨٢ ش ٣٦ فوائدا الشدائد وبذل	٣٥٩ ش ٢٢ أفاعيل الملاحين عند
النفس للمحبوب أول الحب	الاقتراب من خط الاستواء
٣٨٥ ش ٣٧ الاثار والمدن المجهولة	٣٦٠ ش ٢٣ سرعة تغير الاقليم بخط
في البيروو الموازنة بين الاعمال والقوى	الاستواء والاعاصير المائية
٣٨٨ ش ٣٨ اثرية بالتأثيرات الطبيعية	٣٦٠ ش ٢٤ تبادل السفن صنائع المعروف
٣٩٠ ش ٣٩ نخامة مشد الجبال	٣٦١ ش ٢٥ موت ملاح والاحتفال
٣٩١ ش ٤٠ انتهاء قضية « لولا »	بجنازته في السفينة وحقيقة سبب
والعودة الى أوربا	تأثر الاطفال بفاجعة الموت
٣٩٢ ش ٤١ بيان ما عاد على « اميل »	٣٦٦ ش ٢٦ أقاليم البلاد فصول ثابتة
من الفوائد في هذا السفر	وفصول السنة أقاليم مرتحلة
﴿ الكتاب الرابع ﴾	٣٦٦ ش ٢٧ وصف بعض طيور
« في تربية الشاب »	بوغاز ماجلان وصيد نوع منها
٣٩٣ (الرسالة - ١) « اميل »	٣٦٧ ش ٢٨ الزواج في رأس القرن
مدارس ألمانيا . معيشته . ووصف	٣٦٧ ش ٢٩ الشجاعة في الملاحين
نادي الطلبة ومحاوراتهم وتهافتهم	والجنود وكونها كسبية وشجاعة
على خدمة الحكومة وتعلمه اللغة	النساء المحموده
الالمانية وذكره « لولا » واستيحاشه	٣٧١ ش ٣٠ مرج « لولا » في
من غربته	السفينة بعد زوال الخطر
٣٩٩ « ٢ » فراق الولد لوالديه سنة	٣٧٢ ش ٣١ وصف جزر فرناند
فطرية . العلم في ألمانيا . نقد الطالب	التي كتبت عن احداها قصة
ما يقرؤه من أفكار غيره - القصد	روبنسن كروزو المشهورة

صفحة	صفحة
٤٣٠ (٧) بدء العشق وغرور العاشق	في علوم المعقولات - نفع الامة
٤٣٣ (٨) حقيقة الحب وعاقبته بعد زواله	بالقيام بالواجب على قدر الطاقة -
٤٣٧ (٩) الاستقلال في العلم وفلسفة	اختيار الشاب العمل الذي يشتغل
الحلق والتكوين والاجتماع والمدنية.	به بعد - لاحرية لامة يتكالب
الاعتماد على العقل دون الخطابة.	شبابها على تولى أعمال الحكومة -
حب الوطن	التحذير من الملاحدين. لاقيمة للرأي
٤٤٠ (١٠) يجب ان يكون للشاب	العام الا اذا كانت الحكومة شورى -
المتعلم رأي في سياسة بلاده	خدمة الامة لذاتها لا للجزاء
٤٤٧ (١١) خاتمة الكتاب يجب انشاء	٤٠٨ « ٣ » عشق « اميل » قيمة ممثلة
الاولاد بالتربية احراراً لتصلح	ومكاشفة أمه بذلك
البلاد، ويستأصل منها الشر والفساد	٤١٥ « ٤ » شأن الوالدين مع الولد
وفيها الاحتفال ببلوغ اميل ٢١	العاشق وتلطف الام في نصحه
سنة والعقد له على لولا وسفر	٤١٨ « ٥ » المدارس الجامعة في ألمانيا
أهله به الى وطنهم فرنسا	٤٢٢ « ٦ » التربية الدينية والفلسفية

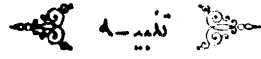
جدول الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
١٨٥	٥٨٥	١٢	٧
وأجدره	واجده	١٣	١٦
منها	منهما	١٤	١٩
ازهارها	أشجارها	١٤	٣١
١٧٩١	١٨٩١	١٩	٣٤
وروحك	ورحك	٦	٣٧
لاهتمامك	لاهتمامه	٩	٣٧
قاعة	قاعدة	١٠	٤٧
الاطفال	أطفال	٦	٤٨
لاولادهما	لاولادهم	١٦	٤٨
وهي	وهو	١٤	٥٢
الاساتذة	الاستاذة	١٤	٥٧
الربيع	الربيع	٤	٦٦
القدوة	القدرة	١٨	٦٦
اندروز	اندوز	٧	٦٩
حقيقية	حقيقة	١٤	٧٢
ماخذ	ماخذه	١٥	٨٩
يكون	ان يكون	٣	٩١
آن	ان	١٥	٩٢
طريقة	طريقة	١٩	٩٩
القياد	الانقياد	١٢	١٠١
الوحشية	الوحشة	١٨	١٠١
إعمال	أعمال	١٣	١١٧
الكبار	كبار	٤	١٢٠

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الخاصة	الخصوصية	٢٠	١٠٣
من أطفال	أطفال	٧	١٤٢
معلولة	معلومة	١٧	١٥٦
العادة	العادة	٣	١٦٣
كلام	الكل	١٦	١٧٥
الولدان	الوالدان	١	١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٥
فأصبت	فأحببت	١٧	١٧٩
وكان وليم	وليم	٦	١٨٦
عنك	عليك	٣	١٩٢
ماله	ماقاله	٢٤	١٩٤
ولا استعدادها	ولا استعدادها	٥	١٩٥
متأثر	متأثرا	٢	١٩٧
من	عن	٤	١٩٧
عسى ان	عساء	٤	٢٠٦
لها	ولها	١٣	٢٠٧
اجتياز	اختياز	٩	٢١٤
بروعه	يربعه	٣	٢٢٠
على	الى	١٠	٢٢١
في الطفل	الطفل	١	٢٢٩
ضحكا	مضحكا	٩	٢٣٢
هم في هذه	في هذه	٢٠	٢٣٤
النائرة	السائرة	١٩	٢٣٥
نسترشد	تسترشد	٤	٢٤٦
يوماما	يوما	١٩	٢٥٦
بعمله	بعلمه	١٣	٢٦١
الروع	لرواع	٢٠	٢٦٩

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
مصطحباً	مصطحباً	٤	٢٧٠
العلمين	العملين	١٤	٢٧٦
البكم	والبكم	١٦ و ٤	٢٨٠
آ تون	آ تين	٨	٢٨٥
بأقسامهم	بأقسام	٢٠	٢٨٥
كانا	كانما	٤	٢٩٤
أهلهما	أهلهما	٦	٢٩٦
تأسر	تأثر	٨	٢٩٦
أنواعاً	أنواع	١٠	٢٩٦
من دلائل	دلائل	٤	٣٠٠
لا أشك	لا شك	٩	٣٠٥
ويبحث	و بحث	٧	٣٠٧
بروتوس	برُتوس	١٢	٣٠٩
يتمتعون	يتمتعون	٤	٣١١
١٧٣٥	١١٣٥	١٧	٣١٥
للسخرية	السخرية	٢	٣١٨
أسراراً	اسرار	١٣	٣٢٣
ذ كرت	إذا ذ كرت	١٣	٣٢٣
يحتاج	تحتاج	١	٣٣٥
التأثر	التأثير	١٢	٣٦٩
استرالية	استرالة	١٤	٣٧٠
اليها	اليهما	٨	٣٧٢
كروزية	كروزو	١٦	٣٧٥
فترفع	فترفع	٤	٣٧٦
استقلالهم	من قلالهم	٥	٣٨٧
من دخول	استدخول	٤	٣٨٧

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤١٤	٥	يغير	يغير
٤١٩	١٨	استتبع	اتتبع
٤١٩	١٧	اذ	اذا
٤٢٩	١٧	مرتكبها	مرتكبيها .
		تم	



يرى القراء ان اكثر هذا الخطأ تصحيف أو تحريف يسهل تصحيحه بالقلم
قبل قراءة الكتاب فمن يصحح نسخته فانما يحسن لنفسه

